مكتبة أصول علم النفس الحديث ٥

الشخصيّة

تأليف

ريتشارد س. لازاروس

ترجمة

الدّكتور سيّد محمّد غنيم

مُراجعة

الدّكتور محمّد عُثمان نجاتي

دار الشروق

الشخصيّة

الطبعة الأولى

١٩٨١م - ١٤٠١هـ

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة أصول علم النفس الحديث
بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي



الشخصية

تأليف
ريتشارد س. لازاروس

ترجمة
الدكتور سيد محمد غنيم
استاذ علم النفس بجامعة عين شمس
وجامعة الامارات العربية

مراجعة
الدكتور محمد عثمان نجاتي
استاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت

دار الشروق

هذا الكتاب ترجمة لكتاب

Richard S. Lazarus: **Personality,** 2nd ed. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall. Inc., 1971

وهو أحد كتب سلسلة Foundations of Modern Psychology التي يشرف على اصدارها ريتشارد س. لازاروس.

مَكتَبَة أصُول عِلم النَفْس الحَديْث

إن النمو الهائل لعلم النفس والتحامه المتزايد مع العلوم الاجتماعية والبيولوجية قد جعل من الضروري البحث عن أساليب جديدة لتعليمه في المستويات الأولى من التعليم الجامعي. ولم نعد بعد نشعر بالرضى عن المقرر الأساسي التقليدي الذي يُكَيّف عادة لكتاب واحد يحاول أن يعرض كل شيء عرضاً خفيفاً يضحي بالعمق في سبيل الشمول. إن علم النفس قد أصبح متعدد النواحي بحيث لم يعد من المتيسر لأي شخص واحد، أو عدد قليل من الأشخاص، أن يكتبوا فيه عن تمكن تام. والبديل الآخر لذلك وهو الكتاب الذي يهمل ميادين كثيرة رئيسية في سبيل عرض ناحية أو وجهة نظر معينة في علم النفس عرضاً أكثر شمولاً وفعالية هو أيضاً غير كاف، لأن في هذا الحل لا يُعرض كثير من الميادين الرئيسية على الطالب إطلاقاً.

إن مكتبة أصول علم النفس الحديث كانت المحاولة الأولى في إصدار مجموعة من الكتب الصغيرة الحجم التي تتناول موضوعات أساسية مختلفة، يكتب كلًّا منها عالم

متخصص كفء. ثم أخذ هذا الاتجاه في التأليف في علم النفس بتزايد بعد ذلك. ولقد كنا متأثرين في إصدار هذه السلسلة من الكتب بفكرة تزويد القائمين بتدريس المقررات العامة في علم النفس بمادة تكون أكثر مرونة من المادة الموجودة في الكتب الحالية الكبيرة ذات الطابع الموسوعي، وعرض موضوع واحد في كل كتاب عرضاً أكثر عمقاً مما لا يتوفر في كتب المداخل التي لا تفرد لهذه الموضوعات عادة حيزاً كبيراً.

إن أول كتاب في هذه المكتبة ظهر عام ١٩٦٣، وآخرها ظهر في عام ١٩٦٧. ولقد بيع من هذه الكتب أكثر من ربع مليون نسخة مما يشهد على استخدام هذه الكتب استخداماً واسع النطاق في تدريس علم النفس. وقد استخدم بعض كتب هذه المكتبة ككتب إضافية، واستخدم بعضها كالكتاب المقرر في كثير من مقررات المرحلة الأولى الجامعية في علم النفس، والتربية، والصحة العامة، وعلم الاجتماع. كما استخدمت مجموعة من كتب هذه المكتبة ككتب مقررة في المقررات التمهيدية في علم النفس العام في المرحلة الأولى الجامعية. وقد ترجم كثير من هذه الكتب إلى ثماني لغات هي الهولندية، والعبرية، والإيطالية، واليابانية، والبولندية، والبرتغالية، والأسبانية، والسويدية.

ولوجود اختلاف كبير في زمن نشر هذه الكتب، ونوع محتوياتها فإن بعضها يحتاج إلى مراجعة، بينما بعضها الآخر لا يحتاج إلى ذلك. ولقد تركنا اتخاذ هذا القرار إلى مؤلف كل كتاب فهو الذي يعرف جيداً كتابه من حيث علاقته بالوضع الحالي للميدان الذي يتناوله الكتاب. وسيظل بعض هذه الكتب بدون تغيير، وبعضها سيعدل تعديلاً طفيفاً، وبعضها سيعاد كتابته كلية. ولقد رأينا أيضاً في الطبعة الجديدة لهذه المكتبة أن يحدث بعض التغيير في حجم بعض الكتب وفي أسلوبها لتعكس بذلك الطرق المختلفة التي استخدمت فيها هذه الكتب كمراجع.

لم يكن هناك من قبل على الإطلاق اهتمام شديد بالتدريس الجيد في كلياتنا وجامعاتنا كما هو موجود الآن. ولذلك فإن توفير الكتب القيمة والمكتوبة جيداً والمثيرة للتفكير والتي تلقي ضوءاً على البحث المتواصل المثير عن المعرفة يصبح متطلباً أساسياً. ويصبح ذلك ضرورياً على وجه خاص في مقررات المرحلة الأولى الجامعية حيث يجب أن تكون في متناول يد عدد كبير من الطلبة كتب تمدهم بقراءات مناسبة. إن مكتبة

أصول علم النفس الحديث تمثل محاولتنا المستمرة لتزويد مدرسي الكليات بالكتب المقررة التي يمكننا تأليفها.

ريتشارد س. لازاروس

(المشرف على إصدار المكتبة باللغة الإنجليزية)

المحتويات

تصدير الطبعة العربية

اهتم كثير من علماء النفس بدراسة الشخصية ومحاولة وضع نظرية لها تقوم بتفسير سلوك الإنسان في إطار منطقي منظم. وقد وضعت عدة نظريات للشخصية من وجهات نظر مختلفة، لكل منها مزايا، كما أن لكل منها أيضاً بعض أوجه القصور التي أثارت بعض الانتقادات حولها.

إن هذا الكتاب الذي نقدمه هو محاولة جيدة وموفقة في عرض نظريات الشخصية المختلفة عرضاً دقيقاً يركز بصفة خاصة على المعالم الرئيسية التي تتميز بها هذه النظريات. كما أنه يقارن بينها مقارنة دقيقة توضح نقاط الاختلاف وأوجه التداخل بينها بحيث يعطي القارىء صورة واضحة دقيقة لنظريات الشخصية المختلفة وإسهاماتها الهامة في دراسة سلوك الإنسان وفهمه. وبالرغم من أن المؤلف قصد أن يكون كتابه مختصراً نسبياً، إلا أنه مع ذلك فقد زودنا بنتائج كثير من الدراسات، وعرض أثناء مناقشته لنظريات الشخصية والمقارنة بينها آراء كثير من الباحثين بحيث أصبح الكتاب مرجعاً قيّماً ومفيداً لكل من يرغب في دراسة الشخصية ونظرياتها المختلفة، والمؤثرات

المختلفة التي تلعب دوراً هاماً في تكوين الشخصية ونموها.

وقد عرض المؤلف نظريات الشخصية المختلفة وقارن بينها من حيث نواح أربع رئيسية تعتبر عادة من الأسئلة الرئيسية التي تثار دائمًا في كل دراسة جادة للشخصية وهي: كيف توصف الشخصية، وكيف تنمو، وما هي ديناميانها، وما هي محدّداتها، وكيف نقوم بتقييمها؟

ففيما يتعلق بوصف الشخصية والأساليب المختلفة التي تستخدمها النظريات المختلفة في الوصف، فقد شرح المؤلف نظرية السمات وخاصة عند جوردون ألبورت رائد هذه النظرية. وشرح أيضاً نظرية الأنماط وخاصة في صورها الحديثة عند كارل يونج في نمطي الانبساط والانطواء، وعند سيجمند فرويد في أنماط الشخصية الفمية والشرجية والتناسلية. وقارن المؤلف بين هذه الأساليب المختلفة في وصف الشخصية، والوحدات التي تستخدمها في التحليل، وذكر كثيراً من البحوث الأخرى التي تناولت هذه النواحي.

وفيما يتعلق بنمو الشخصية فقد شرح المؤلف مراحل النمو النفسي الجنسي عند فرويد، والتعديلات التي أدخلها عليها الفرويديون المحدثون وخاصة أريكسون. وشرح أيضاً نظرية جان بياجيه في مراحل النمو المعرفي، كما قارن بين نظرية فرويد، ونظرية جان بياجيه مبيناً أوجه التداخل والتعارض بينهما، كما ناقش كثيراً من البحوث الأخرى في هذا المجال.

وفيما يتعلق بديناميات الشخصية فقد ذكر المؤلف آراء النظريات المختلفة للشخصية عن طبيعة الدافعية عند الإنسان، وشرح النظريات الثلاث الرئيسية للدافعية وهي «خفض التوتر»، و«التأثيرية»، و«القوة الدافعة من أجل النمو»، وعرض آراء رواد هذه النظريات وأهم القائلين بها. ففيما يتعلق بنظرية خفض التوتر فقد شرح المؤلف آراء فرويد، وبعض الفرويديين المحدثين، وأصحاب نظرية التعلم عن طريق الارتباط والتي يعتبر ميللر ودولارد من أهم المنادين بها والشارحين لها. وقد أوضح المؤلف أهمية خفض التوتر في عملية التعلم سواء في نظرية التحليل النفسي لفرويد أو عند ميللر ودولارد وغيرهما من أصحاب نظرية التعلم عن طريق الإرتباط، وذكر أمثلة كثيرة لتوضيح كيف يحدث التعلم بالترابط من خلال التدعيم. وفيما يتعلق بالتأثيرية فقد شرح المؤلف رأي روبرت هوايت رائد هذه النظرية وأهم من شرحها ونادى بها.

وفيما يتعلق بنظرية القوة الدافعة من أجل النمو فقد شرح المؤلف آراء روجرز وماسلو وهما من أهم رواد هذه النظرية. كما ناقش المؤلف كثيراً من البحوث الأخرى التي تلقى الضوء على موقف النظريات المختلفة من موضوع ديناميات الشخصية.

وفيما يتعلق بمحدّدات الشخصية فقد تناول بالشرح كلًا من تأثير العوامل البيولوجية والبيئية في الشخصية. أما فيما يتعلق بتأثير العوامل البيولوجية فقد شرح المؤلف تأثير العوامل الوراثية في الشخصية وذكر في هذا الصدد دراسات شلدون وكرتشمر، كما شرح الدراسات الحديثة عن تأثير الهرمونات والأبنية الفسيولوجية في السلوك، وذكر أمثلة كثيرة من الدراسات في هذا المجال. وفيما يتعلق بتأثير العوامل البيئية في الشخصية فقد ذكر المؤلف كثيراً من الدراسات التي تبين تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية في الشخصية. وناقش المؤلف أيضاً التفاعل بين المحددات البيولوجية والمحددات الاجتماعية والثقافية وتأثير ذلك على الشخصية.

وفيما يتعلق بتقييم الشخصية شرح المؤلف المبادىء العامة لتقييم الشخصية، وتكلم عن الأساليب المختلفة لتقييم الشخصية وهي: تاريخ الحياة، والمقابلة، ومقاييس التقدير، والاختبارات النفسية، والملاحظة المباشرة. وقد بين مزايا كل أسلوب وعيوبه.

ولا شك أن ما احتواه هذا الكتاب من معلومات كثيرة عن الشخصية في جميع هذه النواحي التي أشرنا إليها سابقاً يجعله مرجعاً مفيداً لكل من يريد دراسة الشخصية دراسة دقيقة وعميقة.

وقد وفق الزميل الأستاذ الدكتور سيد محمد غنيم كل التوفيق في ترجمته لهذا الكتاب ترجمة دقيقة وفي أسلوب بليغ وواضح ودقيق. فله جزيل الشكر على ما بذله من جهد موفق في ترجمة هذا الكتاب الذي يعتبر إضافة قيمة ومفيدة لمكتبتنا العربية في مجال علم النفس.

٢٥ / ٣ / ١٩٨٠

محمد عثمان نجاتي

تصديرُ المؤلِّفين

كان عنوان الطبعة القديمة لهذا الكتاب هو «الشخصية والتوافق»، وقد أعيدت كتابته كله ليناسب تماماً موضوع الشخصية. ورغم تعدد جوانب هذا المجال، فإن كتاباً عن الشخصية يجب أن يزودنا بمدخل دقيق لمعظم الأفكار الهامة وبعينة معقولة من أبحاث الشخصية. ورغم صغر حجم الكتاب، فقد حاولت أن أقدم للطالب المبتدىء نظرة شاملة ومكتملة مضحياً فقط ببعض التفاصيل، والإتصال المباشر بالمصادر الأولية.

وتتميز الشخصية عن غيرها من موضوعات علم النِفس بتوكيدها على التنظيم المعقد داخل الفرد والذي يعالج منه علم النفس العام الوظائف السيكولوجية الفردية كالإدراك والتعلم والتفكير والدافع والانفعال، وموضوع الفروق الفردية في الأداء الوظيفي التكيفي. وبالطبع، يركز مفهوم الشخصية على الإنسان ككل وعلى الفروق بين الناس والتي يقوم البحث الإمبريقي بدراستها بشكل منظم مستخدماً أساليب متنوعة من البحث.

وتشتمل الموضوعات الرئيسية لهذا الكتاب على: ١ـ طبيعة الشخصية كمجال للبحث؛ ٢ ـ نظريات الشخصية والطريقة التي بها تتداخل وتفترق؛ ٣ ـ أمثلة نموذجية من البحث الإمبريقي عن الموضوعات التي تطرحها النظرية؛ ٤ ـ تقييم الشخصية. وهذا الكتاب من النوع الذي يتركز حول الموضوع، وتنتظم هذه الموضوعات حول ما أسميته الـ D's الأربعة للشخصية وهي Description وصف الشخصية، Development، نمو الشخصية، Dynamics ديناميات الشخصية، Determinants محددات الشخصية، وقد أفردنا لكل منها فصلاً مستقلاً قائمًا بذاته.

وقد حاولت في ترتيب الموضوعات خلق بناء منظم للتفكير في الشخصية بحيث يستطيع الطالب بسهولة تمثل القراءات والخبرات الإضافية. ففي مجال حيث التماسك غير واضح، وحيث يميل الطلاب إلى الخلط نتيجة تلاطم الأفكار والملاحظات التي تبدو غير مترابطة، فإنه يكون لمثل هذا البناء قيمة كبيرة في التعلم. وإني آمل أن أكون قد وفقت في ثنايا هذا الكتاب في تزويد الطالب بتخطيط مفيد للتفكير في الشخصية وفهمها.

ريتشارد س. لازاروس

الفصل الأول

طبيعة الشخصية

عندما يفكر الرجل العادي في الشخصية، فمن المحتمل أن يراها باعتبارها التأثير الذي يحدثه الفرد في الآخرين. كما أن من المحتمل أن يكون مهتمًا بأمور من شأنها أن تجعل الفرد شخصية «حسنة» أو «مؤثرة»، شخصية تسمح له بإنجاز ما يريد إنجازه من أشياء في العالم الاجتماعي. . ولذا تجده يشتري الكتب ويطالع المقالات التي تعالج موضوعات مثل كيف يتسنى لشخصيته القيام بعمل شيء ما أو آخر، وكيف ينميها بطريقة تسمح «بكسب الأصدقاء» أو أن «يصبح ناجحاً». ومع ذلك، عندما يفكر عالم النفس في الشخصية، فإنه يراها باعتبارها دراسة التراكيب والعمليات السيكولوجية الثابتة، التي تنظم الخبرة الإنسانية وتشكل أفعال الفرد واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها. وهذه النظرة الأخيرة هي موضوع دراسة هذا الكتاب.

ويختلف المجال الرئيسي لسيكولوجية الشخصية اختلافاً جوهرياً عن مجال علم النفس العام، على الرغم من وجود تداخل كبير بينهما. وهناك اختلافات ثلاثة أساسية هي:

١ ـ في علم النفس العام ينصب الاهتمام عادة على الناس عامة، بدلاً من أن ينصب على الاختلاف بين الأفراد. فعالم النفس الذي يدرس الذاكرة مثلاً، يبحث أساساً عن القوانين التي تتصل بالظروف المؤثرة في الذاكرة. فقد يكتشف أن تذكر المواد ذات المعنى ـ كالقصص أو الأشعار ـ أحسن من تذكر المواد عديمة المعنى أو غير المترابطة، كالرابطة بين الأسماء والتواريخ. وهذا القانون يمكن أن ينطبق بدرجة كبيرة أو صغيرة على جميع الأفراد، وإذا حدث أن انطبق على بعض الأفراد بشكل يختلف عنه عند البعض الآخر، فإن مثل هذه الاختلافات قد ينظر إليها باعتبارها بمثابة إنحرافات أو أخطاء في قابلية هذا القانون السيكولوجي العام للتطبيق. فمن المعروف مثلاً أن الفرق في تذكر المواد ذات المعنى والعديمة المعنى، يكون أقل لدى الفرد الذكي عنه لدى الفرد الغبي.

أما الشخصية فتميل ـ أكثر من أي فرع آخر من فروع علم النفس ـ إلى توكيد الاختلافات بين الأفراد في الوظائف السيكولوجية كالانفعال والدافعية والإدراك والتعلم والتذكر، واللغة والفكر وغيرها. وليس معنى ذلك أن الفروق الفردية هي مجال الاهتمام الوحيد للشخصية، بل تمثل مجال اهتمام رئيسي لها. ذلك أن علماء نفس الشخصية يهتمون أيضاً بمظاهر الشخصية أو قوانينها التي تنطبق على جميع أفراد الجنس البشري، فنحن جميعاً نشارك في كثير من مظاهر الشخصية. مثال ذلك؛ إن القدرة على كف الفعل تزداد إبتـداءً من المراحل الأولى للحياة حتى مراحلها الأخيرة؛ كما أن الناس جميعاً لديهم وظائف دافعية وتنظيمية تعمل وفق قوانين عامة معينة؛ كما يحدث لدينا جميعاً ازدياد في تعقد العمليات السيكولوجية إبتداء من الولادة حتى النضج؛ كما نخضع جميعاً للخبرة وفق بعض القوانين العامة والخصائص البيولوجية التي نشارك فيها الأنواع الحيوانية الأخرى. والبحث عن مثل هذه «القوانين العامة» يعتبر خاصية مميزة لنظرية وبحوث الشخصية، مثلما يميز أي نظام علمي آخر أو أي فرع آخر من فروع علم النفس. ولكن سيكولوجية الشخصية تميل إلى أن تتميز عن هذه الفروع الأخرى باهتمامها البالغ بالاختلافات السيكولوجية مثلما تهتم بالعموميات.

٢ ـ إن علم النفس العام يركز بؤرة اهتمامه على العمليات السيكولوجية الفردية لدى الإنسان والحيوانات دون مستوى البشر، كالدافعية والانفعال والادراك والتعلم والتذكر والتفكير. فكل واحدة من هذه الوظائف تعالج عادة كفصل مستقل أو كجزء من فصل في كتب علم النفس العام. أما في سيكولوجية الشخصية، فنحن أكثر ميلاً

إلى النظر إلى « الفرد ككل متكامل » أي كتركيب من جميع أجزاء العمليات الفردية التي يتكون منها. وبعبارة أخرى، ينظر إلى هذه الوظائف أو العمليات كأجزاء في نظام متكامل، وهذا النظام هو الذي يدرس كموضوع للشخصية. والفرد يشارك في جميع هذه الوظائف الفردية؛ ومع ذلك، فإن ذلك الأسلوب المميز الذي تنتظم فيه هذه الوظائف لدى شخص معين، هو الذي يتضمن ما نسميه شخصية هذا الفرد، فإذا أردنا وصف شخص ما، كشخصية، وجب أن نقرر الطريقة التي تنتظم بها هذه الوظائف في توافقه مع العالم المادي والاجتماعي. فعالم نفس الشخصية يهتم إذن آخر الأمر بالإنسان «ككل» من حيث هو متميز عن الوظائف الجزئية العديدة التي يتكون منها هذا الإنسان.

٣ ـ يتركز معظم الاهتمام في علم النفس العام على المثيرات الخارجية كمحددات للسلوك المباشر. وعلى العكس، توجه سيكولوجية الشخصية معظم اهتماماتها إلى الصفات الثابتة داخل الفرد كالسمات والاستعدادات التي توجه أفعاله واستجاباته.

وليس هناك من يجادل في فكرة أننا نستجيب للمثيرات التي في البيئة. وسواء كانت هذه المثيرات مادية، كما في حالة السيارة المسرعة التي تعبر طريقنا، أو اجتماعية، كما في حالة التوقعات المعروفة لأصدقائنا أو أسرنا، فإنها تعتبر بمثابة المحددات القوية لأفكارنا ومشاعرنا وأفعالنا. ومع ذلك، فإن الإشارة إلى التأثيرات البيئية لا تكفي لتفسير سلوكنا تفسيراً كاملاً. فحتى مع إعترافنا بتوقف سلوكنا ومشاعرنا على المثيرات الخارجية، فإننا ندرك وجود مجموعة أخرى كبيرة من المحددات، مجموعة توجد في داخلنا وتحرز أهمية خاصة في الكائن الإنساني مع نموه إبتداء من الطفولة المبكرة. وحتى الأطفال حديثو الولادة يكشفون عن اختلافات واسعة في الاستجابة، قبل أن تكون لديهم فرص كافية للحصول على أنواع مختلفة من الخبرة. فكل فرد يأتي هذا العالم مزوداً بخصائص مختلفة تؤثر في كيفية سلوكه، ولكنه بعد أن تتقدم به الحياة فترة ما، يُنمّي تراكيب سيكولوجية فريدة تجعله يستجيب بصورة مختلفة إلى حد ما عن أي شخص آخر في نفس الموقف. وعلى ذلك، فإلى جانب المثيرات البيئية التي يتعرض لها الناس، فإن تراكيبهم السيكولوجية المختلفة يجب أن تدرك كمحدد هام لكيفية سلوكهم. ومن هذه الزاوية ندخل مجال سيكولوجية الشخصية التي هي الجهد المنظم لتحديد طبيعة هذه التراكيب واختلافها.

ويمكن أن نشير إلى العديد من الأمثلة المعروفة لدور متغيرات الشخصية كمحددات لاستجابات الفرد، لكن يكفي أن نورد هنا مثالاً واحداً لتوضيح هذه النقطة. فنحن نلاحظ أن نفس المقدار من الكحول الذي يعطى لأفراد مختلفين، قد يسبب فقدان وعي لشخص من الأشخاص، بينما يندر أن يحدث أي أثر ملحوظ لدى فرد آخر. وبعض هذا التباين يمكن أن يعزى بالطبع إلى الاختلاف في الظروف الاجتماعية والمادية الوقتية. فمثلاً عندما تكون الظروف الاجتماعية للشراب طيبة، وتضم جماعة الأصدقاء، يكون الشخص عادة أقل تحرزاً وأكثر ميلاً لتعاطي الشراب مما لو كان الموقف عدائياً أو خطراً. يضاف إلى ذلك، أن مقدار ونوع الطعام في المعدة قبل وأثناء تعاطي الشراب، يحدد أيضاً مفعول الكحول، وذلك بالتأثير في سرعة امتصاصه في مجرى الدم. وليست هذه في الحقيقة محددات للشخصية، طالما أنها تشير إلى الظروف الاجتماعية الخارجية، والظروف الفسيولوجية. ومع ذلك، فبعض الاختلاف في آثار الكحول يصدر عن الخصائص الثابتة للشخصية والتي تكون ذات تأثير في كثير من الأحيان أو في العادة. وهذه الاختلافات الثابتة في الاستجابة بين الناس، يمكن أن توجد، حتى مع تثبيت الموقف الخارجي، فمثلاً يكون بعض الناس باستمرار أكثر عدوانية في نفس المواقف الاجتماعية التي يكون فيها الآخرون غير عدوانيين؛ كما يكون البعض أكثر توتراً، والبعض أكثر انبساطاً، والبعض أكثر حذراً، والبعض أكثر تيقظاً، والبعض أكثر اعتماداً على الآخرين. وينطبق نفس الشيء على أية وحدة داخل قائمة كبرى من السمات السلوكية التي يمكن مقارنة الناس بالنسبة إليها.

أبنية وعمليات الشخصية

يستخدم علماء النفس في وصفهم للشخصية مفهوميّ البناء Structure والعملية Process على نحو ما يفعل العلماء في ميادين أخرى. وتشير الأبنية إلى تنظيم أو صياغة الأجزاء في نظام أكثر أو أقل ثباتاً؛ على حين تتصل العمليات بالوظائف التي تقوم بها هذه الأجزاء، أعني ما تؤديه، وكيف تتفاعل وتتغير (وهو كثيراً ما يسمى أحياناً في علم النفس بالديناميات). فالأنماط الجيولوجية للريف المحيط بنا تعد بمثابة «أبنية أو تراكيب» حيث أن الأجزاء المفردة ـ كالتلال ومجاري الأنهار وحتى أوراق النبات ـ هي عناصر ثابته نسبياً، أو شبه دائمة في المنطقة، ونحن ندركها كأشياء أو أنماط مألوفة.

وبالمثل، نحن نهدف عند وصف الشخصية، إلى التعرف على أبنية النظام السيكولوجي الذي يبقى قابلاً للتعرف عليه مع الزمن، أو ربما لفترة قصيرة جداً. وطبيعي أيضاً أن تختلف المفاهيم المستخدمة في وصف الأبنية السيكولوجية من حيث المحتوى، عن تلك التي تتصل بالمناظر الطبيعية، وأن تعكس أفكاراً تتصل بالسلوك والخبرة الإنسانية.

ومرة أخرى تزودنا الجيولوجيا بوجه شبه مفيد يساعدنا على إدراك ما نعنيه «بالعملية» أو الديناميات. فلقد ظهرت الجبال والوديان في هذا الوجود خلال ثورات هائلة في القشرة الأرضية، نتيجة العديد من العمليات بما في ذلك شدة الحرارة الكامنة في الأعماق تحت السطح، وإلى تشققات القشرة الأرضية وغيرها. وما أن يحدث ذلك، حتى يكون للطوبوغرافيا بدورها تأثير على إتجاه الرياح التي تهب على الأرض، وعلى اتجاه وسرعة الماء المنحدر في مجرى الأنهار من منابعها على الجبال، وعلى حركات العواصف وغيرها. وبالإضافة إلى ذلك، تحدث الأنشطة الطبيعية، كجريان الماء وهبوب الرياح، تغيرات مستمرة في الأبنية ذاتها. مثال ذلك تنحت الرياح صخور الجبل وتصقلها، وترسب الأنشطة النباتية والحيوانية طبقات من المادة العضوية، وتصبح الأمطار الساقطة على منحدرات الجبل أنهاراً تنحت في الأرض وتكوّن أودية أنهار وجداول، أو تحمل التربة وتلقي بها في أي مكان آخر. إن هذه الأنشطة والتغيرات التي تتضمن تفاعل القوى البيئية الطبيعية هي «عمليات». فكما سبق أن رأينا، إن البناء والعملية وثيقا الصلة أحدهما بالآخر.

ومن الواجب ألا نأخذ هذه المشابهة الجيولوجية على حرفيتها، إذ تميل إلى تقديم صورة حسية تبدو فيها الأشياء المرئية الساكنة كأبنية، والأشياء المتحركة المتغيرة كعمليات. والحقيقة أن شيئاً ما يمكن أن يكون بنـاءً وفي نفس الوقت يتضمن وجود ديناميات. فالنهر مثلاً يمثل من ناحية قوة دينامية تنحت في الأرض التي يمر بها، ومن ثم يغير من طوبوغرافيتها، ومع ذلك، فله، من ناحية أخرى، مظاهر البناء. فهو يضطرنا مثلاً إلى أن ندور حوله أو أن نعبر فوقه إذا أردنا الانتقال إلى الجانب الآخر منه، أو أنه يحدد أنماط حياة الأسماك أو الكائنات العضوية الأخرى التي تعيش فيه. فالأبنية هي مجرد أجزاء في نظام ما، أجزاء تتطلب أن يعمل النظام بطرق خاصة، ومن ثم تؤثر في الديناميات. وقد تعمل الأبنية على هذا النحو لفترة زمنية وجيزة أو لفترات طويلة من الزمن. أما العمليات، فإنها على العكس من ذلك تحدد كيف تعمل أجزاء النظام.

وقد يرى القارىء ذو العقلية الميكانيكية في آلة الإحتراق الداخلي مثالاً آخر يوضح بشكل فعال تفاعل الأبنية والديناميات. إن موتور السيارة يتكون من أجزاء عديدة ترتبط جميعاً بطرق خاصة في نظام يحدد كيف تتحول الطاقة من صورتها الكامنة، كبنزين، إلى الدوران المتزامن للعجلات. إن المكابس والصمامات وعمود الإدارة والتروس وآلاف القطع أو الأجزاء الأخرى فتمثل الأبنية، أما شرارة البنزين وخلط الهواء ودخول الغازات وخروجها وحركة المكابس، فتمثل جميعاً العمليات. ولنلاحظ هنا أن حركة المكابس تتوقف على شكل وطول السلندرات، كما أن المكابس وحوائط السلندرات بدورها تغير آخر الأمر في بنائها (تتآكل) كوظيفة لهذه الحركة. فالأبنية والعمليات في تفاعل مستمر، يؤثر كل منها في الآخر، وأحياناً تغير من وظائفها أثناء عمل الجهاز.

ويمكن للعالم أن يصف أي نظام في ضوء الأبنية والعمليات. وعلى ذلك يمكننا أن نتحدث عن أبنية إجتماعية (كمؤسساتنا الثقافية مثلًا) وعن عمليات اجتماعية (كالتفاعل بين الأفراد داخل مجموعة ما أو بين المجموعات، أو تأثير المؤسسات الثقافية على النشاط الإنساني). كما يمكن أن نتحدث أيضاً عن أبنية بيولوجية (كمجموعات الأنسجة أو الأعضاء)، وعمليات بيولوجية (كعمليات البناء والهدم أو موت الخلية وحلول أخرى محلها). ولا تشذ الأنظمة السيكولوجية عن ذلك؛ إذ يمكننا أن نتحدث عن أبنية الشخصية على نحو ما كأن نقول عن شخص ما أنه ذكي أو أن له أنا قوية، كما يمكننا أن نتحدث عن ديناميات الشخصية على نحو ما كأن نقول عن شخص ما إنه يقوم بحل مشكلة أو أنه يخدع نفسه.

الشخصية كاستدلال عن البناء والعملية

وعلى عكس الأبنية والعمليات الجيولوجية الأكثر وضوحاً، كالجبال ومجاري الأنهار (أبنية) وتعرية الأرض أو حركة الرياح (عمليات)، فإن كثيراً من الأبنية والعمليات في العلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، بل يجب أن تبنى منطقياً وبالجهد النظري. مثال ذلك، إن أكسدة الطعام أو المعادن عملية لا يمكن رؤيتها، وإنما نعرفها من ملاحظة التغيرات المنتظمة التي تحدث عندما تتعرض هذه المواد للأكسوجين تحت ظروف معينة من الحرارة. والذرة بناء

نظري من أجزاء أو أبنية فرعية لم تر أبداً بشكل مباشر، ومع ذلك فهي تتفاعل مع بعضها البعض بطرق نعرفها من الملاحظات المضبوطة جيداً للظروف التي تحدث فيها، والآثار التي تنجم عنها.

وبالمثل، فإن الأبنية والعمليات السيكولوجية يمكن أن تدرك نظرياً كذلك، كأحداث لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، رغم إمكان معرفتها عن طريق الاستدلال من ظروفها العلّية ونتائجها. والقدرات العقلية مثال للأبنية السيكولوجية التي لا يمكن ملاحظتها، على الرغم من إمكان ملاحظة آثارها. فمع تساوي بقية الظروف الأخرى، فإن الشخص الذي تكون قدرته عالية، سوف يقدر على حل المشكلات بطريقة أحسن، أو يكشف عن معلومات أكثر من شخص آخر تكون قدرته أقل. ونحن لا نلاحظ هذه القدرة بشكل مباشر، حيث أن القدرة هي خاصية نستدل عليها، وإنما نعرفها من آثارها قدر ما نستطيع عن طريق اختبارات المعلومات وحل المشكلات. وبالمثل، عندما نتحدث عن شخص بأن لديه دافعاً، وليكن الدافع إلى الإنجاز أو الدافع لأن يكون محبوباً من الآخرين، فإننا نعزو إليه صفات معينة لا يمكن ملاحظتها مباشرة، وإنما يمكن التعرف عليها من ملاحظة سلوكه في المواقف الاجتماعية التي تثير هذا السلوك. ويمكن أن نصل إلى نفس الاستنتاج عندما نتحدث عن أناس جوعى أو عطشى. فما هو الجوع والعطش؟ نحن لا يمكننا رؤيتهما. ومع ذلك، فنحن نعرف أنهما موجودان. فهذا استدلال مقبول إذا قلنا إن شخصاً ما سوف يكون جائعاً إذا انقضت عليه عدة ساعات دون تناول طعام، وهو أحد الظروف المحدثة للجوع، كما لا تأخذنا الدهشة حين نلاحظ أن مثل هذا الشخص، عندما نحضر له طبقاً من الطعام الجيد، فإنه يلتهمه بشهية. فمثل هذا السلوك إن هو إلا أحد آثار الجوع التي يمكن ملاحظتها.

ويصدق نفس هذا القول إذا طبقناه على الشخصية. فنحن لا نرى شخصية ما، على نحو ما نرى عملاً أو شيئاً مادياً. كما أن سلوك شخص ما لا يشكل ما نعنيه بالشخصية. إن الشخصية تشير إلى استدلال نظري يتم عن طريق ملاحظة الاستجابات السيكولوجية، والتفكير منطقياً فيما يمكن أن يمثل النظام الكامن (للأبنية والعمليات) الذي قد يفسر السلوك. وفيما عدا ذلك، فطالما أن الشخصية هي نظام معقد يتضمن الكثير من الأبنية والعمليات، فإن الأمر يستلزم القيام بمجموعة واسعة من الاستدلالات، بدلاً من القيام باستدلال واحد عن الجوع أو العطش أو القدرة. وفضلاً عن ذلك، فإنه يجب أن نتعامل مع خصائص الشخص الثابتة أو المستقرة مع

الزمن ومن موقف لآخر، علمًا بأن نسبة كبيرة من أفعالنا ومشاعرنا تتشكل أيضاً بالموقف المثير مثلما تتشكل بالشخصية.

أسس الاستدلال:

سبق القول بأن مفهوميّ البناء والعملية في الشخصية هما استدلالان، لأن الأفعال والاستجابات المرئية للشخص هي وحدها التي يمكن ملاحظتها مباشرة. وهذه الأفعال والاستجابات، التي يمكن ملاحظتها والتي تحدث في بعض الأطر الموقفية، هي إذن المعطيات الأساسية التي يقوم عليها علم الشخصية. وهناك ثلاث قوائم أساسية للأحداث التي تقبل الملاحظة والتي تستدل منها على الشخصية: الحركات أو الأفعال، والتقارير اللفظية، والتغيرات الفسيولوجية المصاحبة للنشاط السيكولوجي كما في الانفعال.

الأفعال: وهذه تشير بالطبع لما يقوم به الإنسان أو الحيوانات دون مستوى البشر من أعمال. ومن الممكن أن نميز صفتين للفعل، تلك التي يمكن أن نسميها موجهة نحو هدف أو وسيلية، وتلك التي يمكن أن نسميها «أسلوباً» Style. وتشير الصفة الأولى إلى نتيجتها المقصودة أو المرتقبة، أي الهدف الذي يهدف إليه الفرد. ويكون الفعل وسيلة للوصول إلى النتيجة. وخاصية «الأسلوب» قد تكون ذات صلة بسيطة أو ربما لا صلة لها بالنتائج المرتقبة للفعل. إنها تعكس أساساً الطريقة المميزة التي بها ينفذ الفعل. ولنتذكر أن نفس الفعل قد يكون له ـ بل وله عادة ـ كل من المظاهر الموجهة نحو الهدف والمظاهر الأسلوبية. ويكون أحدهما أو الآخر أكثر وضوحاً أحياناً، ومن ثم يلقي اهتماماً من الملاحظ الذي يقوم باستدلالات عن معناه بالنسبة للشخص.

وينقل «مظهر الأفعال الموجهة نحو هدف» إلى الملاحظ شيئاً عن دوافع الفرد ومقاصده واهتماماته، حتى من غير أن يسأل الملاحظ الشخص عن هذه الأمور. ولنأخذ على سبيل المثال طالبين، أحدهما يقضي الجزء الأكبر من وقته في المذاكرة، على حين يقضي الآخر وقته في أنشطة إجتماعية. إن اختياراتهما الخاصة بين ألوان السلوك العديدة تؤدي بنا إلى الاستدلال بأن الطالب الأول يتحرك أو يتجه أساساً نحو التحصيل الأكاديمي، على حين أن الثاني لديه حاجات قوية للإنتماء الى الجماعة (الرغبة في أن يبدو محبوباً ومقبولاً من الآخرين).

وقد يجد القارىء المدقق بعض الصعوبات فيما يتعلق بالاستدلال السابق من مظهر الفعل الموجه نحو هدف. فمن المحتمل أن يكون هذا الاستدلال بالغ البساطة. فعلى سبيل المثال، قد يفضل الطالب الأول بالفعل مصاحبة الآخرين ولكنه خجول جداً وتنقصه اللياقة الاجتماعية. فهو يرى إمكانية مشاركة الآخرين أمراً صعباً بالنسبة له ومن ثم يوجه اهتمامه نحو الدراسة. وبالمثل، قد يفضل الطالب الثاني التحصيل، ولكنه يرى نفسه غير قادر، ومن ثم يصرف القليل من وقته في الدراسة. وعلى ذلك نرى أن الدافعية يمكن أن يعبر عنها مباشرة في أفعال الفرد أو أنها تتضح أيضاً ـ سواء بسبب الصراع الداخلي أو الضغوط الخارجية ـ في إعاقة مثل هذا التعبير السلوكي والاختيار الناتج عن ذلك للأنشطة البديلة التي تخفي الدافع أو الهدف الأساسي. ومثل هذه الحالات المعقدة تعد ذات أهمية خاصة لعالم نفس الشخصية، كما تقدم أعظم تحدٍ لفهمه.

وإذا كانت هذه الحجة الأخيرة صحيحة، فإنه لا يمكننا أن نثق حقيقة، في صدق الاستدلالات المستمدة من مصدر واحد للمعلومات، كمظهر الفعل الموجه نحو هدف. فعلى الرغم من أن الفعل قد يمدنا بمعرفة هامة عن الدافعية، فإن الاستدلالات المستمدة منه سوف تكون دائمًا ناقصة، ويجب أن تدعم بدليل سلوكي آخر كالمظهر الأسلوبي للفعل أو التقارير اللفظية التي نحصل عليها من الفرد. إن مثل هذه المعلومات التي نضيفها قد تدفعنا إلى مراجعة استدلالنا الأصلي، والذي يكون أحياناً بالغ البساطة، وأن ندخل مفاهيم معقدة كالكف والدفاع.

وإذا عدنا الآن «للمظهر الأسلوبي للفعل»، نجد أن كل فعل مقصود يمكن إنجازه بطرق عدة، دون تغيير مقدرته على بلوغ الهدف المقصود. ففي إمكاننا أن نسير بخطوة سريعة أو بطيئة، وأن نقوم بإيماءات وإشارات ممتدة أو مكفوفة، وأن نأخذ مساحة كبيرة أو صغيرة من الورقة، وأن نضغط بقوة أو برقة عند الكتابة، وأن نستخدم لغة بسيطة أو جملاً مركبة تمتلىء بكثير من الصفات إلى غير ذلك. ومثل هذا الاختلاف في الأسلوب يمكن أن يتسق إلى درجة كبيرة بالنسبة لفرد معين، على الرغم من أن الأفعال النوعية المتضمنة سوف تختلف باختلاف أهدافها ومطالب المثير. ومن السهل في كثير من الأحيان التعرف على هذه الأساليب باعتبارها مميزة لشخص معين بالذات، كما هو الحال بالنسبة لشخصية عامة يكثر تقليدها بحيث يصبح تعرف المشاهدين عليها مثيراً لسرورهم فالشخص الذي يُقَلَّد يمكن التعرف عليه بسرعة من أسلوب حديثه ومن

محتويات معينة مميزة لهذا الحديث ومن الإيماءات وحركات الجسم وتعبيرات الوجه.

ولا تكمن أهمية هذه الصفات الأسلوبية للشخصية في حقيقة أن تقليدها قد يدخل السرور علينا، أو أن رجال المباحث يلجأون أحياناً في اقتفاء أثر لص إلى تتبع طريقته في العمل (أسلوب العمل) من جريمة لأخرى، وإنما الأهم من ذلك هو أن هذه الأساليب قد تنقل أشياء معينة عن الشخص، علاوة على ما هو معروف ومكتسب من الفعل الموجه نحو الهدف. فمثلاً، يمكن أن تنقل تعبيرات الوجه، تحت ظروف معينة على الأقل، حالة انفعالية لا يرغب الفرد في الكشف عنها للآخرين. وثمة أساليب أخرى للعمل، كالتوسيع أو التضييق في الرسم والكتابة، أو الإيماءة، قد تكشف عن اتجاهات غير معروفة تجاه الذات أو الآخرين. وبمثل هذا الاستخدام، عولجت الأساليب كتعبير عن بعض الحالات الدافعية الداخلية. فقد نظر تشارلس دارون Charles Darwin (١٨٧٣) بمثل هذه النظرة إلى الطريقة التي تعمل بها الحيوانات وهي في حالة انفعال، أعني باعتبارها معبرة عن هذا الانفعال. فالقطة الغاضبة تهسهس وتقوس ظهرها، والكلب الغاضب يزمجر ويكشف عن أنيابه. ومع ذلك، تكشف هذه الحيوانات وهي في حالة خوف، عن صورة جسمية مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك التي تكشف عنها وهي في حالة غضب. فنمط أو أسلوب النشاط الحركي يعبر أحياناً عن الحالة العقلية الداخلية، ويمكن أن تستخدم إذن للقيام باستدلالات عن هذه الحالة.

وثمة موضوعان أساسيان يكمنان وراء استعمال المظاهر الأسلوبية للفعل في القيام باستدلالات عن عمليات الشخصية. الموضوع الأول يختص بمعرفة ما إذا كانت مثل هذه الأساليب تتسق بالنسبة للفرد الواحد في المواقف المختلفة. لقد قام البورت Allport وفرنون Vernon منذ سنوات بعيدة (١٩٣٣) ببحث كلاسيكي عن هذا الموضوع وكشفا عن قدر من الثبات في صفات كالإيقاع والامتداد، وهي صفات أشار إليها باسم «الحركات التعبيرية». وقد كان الثبات أكبر عندما تم إجراء الفعلين في أزمنة متقاربة أو في مواقف متشابهة نسبياً. ولكن على أي حال، أوضحت الدراسة وجود قدر صغير من الثبات في مثل هذه الأساليب. وقد دعمت دراسة البورت وفرنون فكرة أن أساليب الفعل يمكن أن تكون سمات للشخصية.

أما الموضوع الثاني فهو أكثر تعقيداً، إذ أنه يختص بمعرفة ما إذا كانت أساليب الفعل «تعبر» حقيقة عن خصائص الشخصية أو الحالات السيكولوجية الداخلية (وإذا

كان الأمر كذلك، فأي أساليب الفعل)، أو ما إذا كانت تعكس أساساً الأهداف أو النتائج المقصودة من الفعل (أعني أنها «وسيلية » في مقابل تعبيرية). فمثلاً، إذا كانت تعبيرات الوجه تكشف عن انفعالات (اشمئزاز أو غضب) قد لا يرغب الفرد في نقلها للآخرين، فإن هذه تعد وظيفة تعبيرية. لقد أشار إكمان وفريزن Ekman and Friesen (١٩٦٧) إلى هذه الظاهرة باعتبارها «تسرب» معلومات. ومن المرجح أن تقوم حركات الوجه والجسم بالإثنتين معاً، أعني أنها تكشف عن الحالات الانفعالية التي لا يقصد نقلها إلى الآخرين، كما تستخدم أيضاً كأفعال وسيلية تكشف في جزء منها عما يريد الفرد نقله.

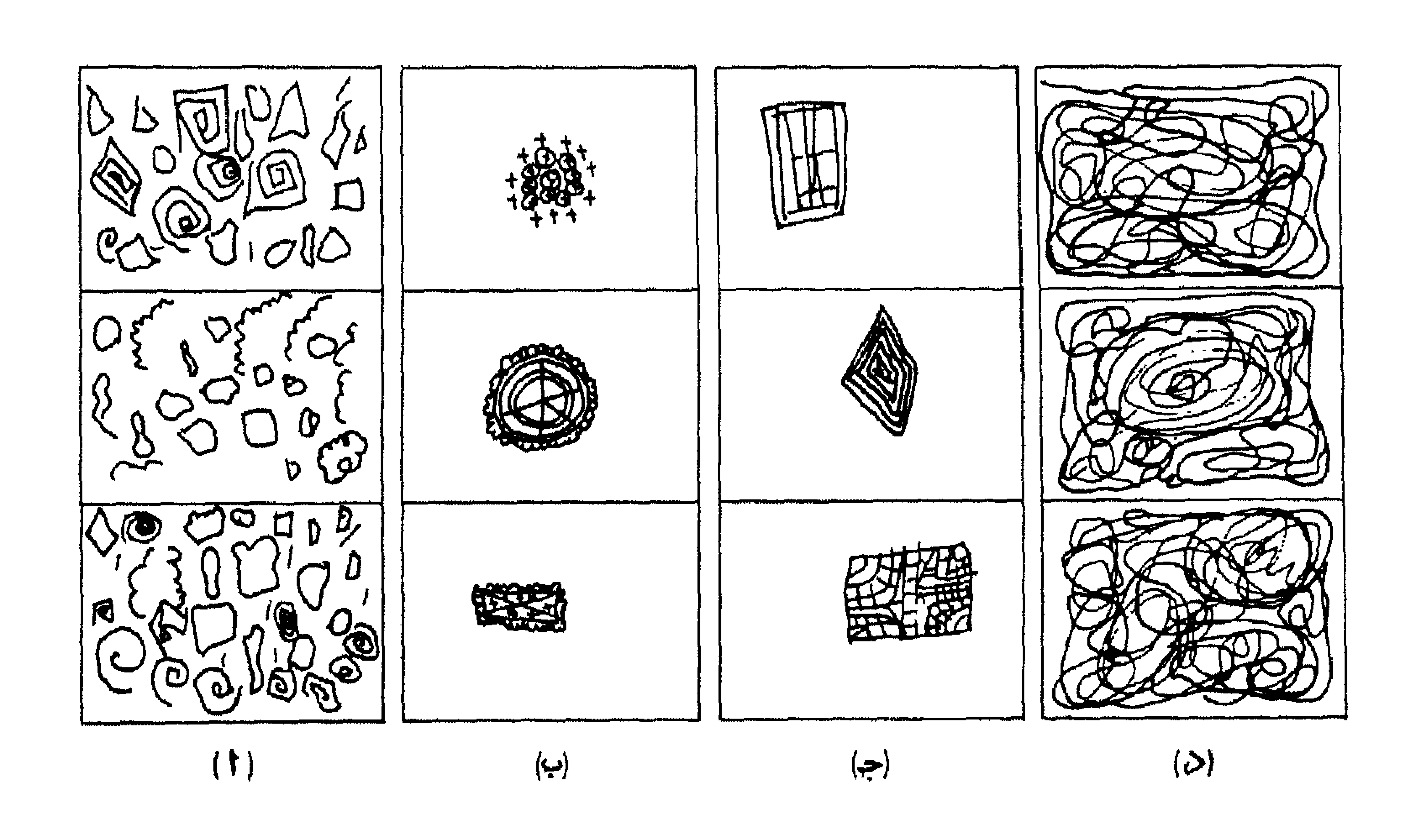
وثمة مثال جيد للبحث الذي يتبنى التفسير التعبيري لأسلوب الفعل، تلك الدراسة الحديثة التي قام بها والاش Wallach وجرين Green وليبست Lipsett ومينشارت Minchart (١٩٦٢). فقد افترض هؤلاء الباحثون أن من بين الأفراد الذين يتجهون اجتماعياً في سلوكهم نحو الخارج، يوجد عدد يفضل في الحقيقة العزلة الاجتماعية، على حين يرغب عدد آخر حقيقة في التفاعل الاجتماعي. ومن ناحية أخرى نجد، من بين من يفضل الانسحاب اجتماعياً، عدداً يرغب بالفعل رغبة قوية في تكوين روابط اجتماعية، على حين يرغب عدد آخر رغبة ملحة في القيام بأكبر قدر من التفاعل الاجتماعي. وفي مثل هذه الحالة من النزعات المتناقضة «الصريحة» Overt و«المقنعة» Covert، لا يمكن بالتأكيد الاستدلال على الدافع الاجتماعي للفرد، بصورة دقيقة من الفعل الاجتماعي الصريح وحده، أي أن الأمر يحتاج إلى الكشف عن نزعة أخرى من أجل القيام باستدلال دقيق عن الدافع.

وقد أضاف والاش وآخرون، من أجل تقدير الدافع الاجتماعي بصورة أكثر دقة، متغيراً أسلوبياً يمكن أن يكون معبراً عن الاستعداد الكامن. وقد أخذ ذلك صورة مقياس «لتصغير الرسم في مقابل تكبير الرسم» الذي يحتمل أن يعني رغبة خفية لدى الفرد في إقامة روابط اجتماعية. فقد طلبوا من المفحوصين رسومات، ثم اهتموا بعد ذلك بمعرفة إلى أي مدى تكون هذه الرسومات ممتدة (أعني تستخدم جزءاً كبيراً من الصفحة) أو ضيقة محدودة (أعني تستخدم جزءاً صغيراً جداً من الصفحة). وقد افترضوا أن الرسومات المحدودة الضيقة يقدمها أشخاص يفضلون العزلة الاجتماعية بصرف النظر عن علاقاتهم الاجتماعية الواسعة في الواقع، وأن الرسومات الممتدة

الموسعة يقدمها أشخاص يرغبون في تكوين علاقات اجتماعية واسعة حتى ولو اختفى الدليل السلوكي العادي لمثل هذه الرغبة.

وبالإضافة إلى ذلك، قام والاش وآخرون، مستخدمين الاستبيان ـ بقياس الأساليب الدفاعية أعني الميل إلى إخفاء رغبات الفرد وبخاصة تلك التي تتسم بالصراع. ويقيس الاستبيان رغبة المفحوصين أو عدم رغبتهم في التصريح بحدوث مشاعر وخبرات غير مقبولة ولكنها شائعة (أو عامة). فالفرد مثلاً يمكن أن يعتبر دفاعياً إذا أنكر شيئاً مثل «أحياناً أشعر بالتعاسة أو الذعر» (١٩٦٢ ص ٥).

وقد وجد والاش وزملاؤه أن الأشخاص الدفاعيين من أصحاب النشاط «الظاهري» اجتماعياً يميلون إلى تقديم رسومات ضيقة أو محدودة إلى درجة كبيرة. وهذه إشارة من المؤلفين إلى أن مثل هؤلاء الأشخاص لديهم رغبة «مستترة» في أن يكونوا إنعزاليين اجتماعياً. وبالمثل، فإن الأشخاص الدفاعيين المنعزلين «ظاهرياً» من



شكل ١ ـ رسومات توضيحية قدمها (أ) شخص غير دفاعي له علاقات اجتماعية موسعة، و(ب) شخص دفاعي له علاقات اجتماعية موسعة، و(ج) شخص غير دفاعي منعزل اجتماعياً، و(و) شخص دفاعي منعزل اجتماعياً (الرسومات من الأول إلى الثالث مرتبة من أعلى إلى أسفل على التوالي).

الناحية الاجتماعية يقدمون رسومات موسعة للغاية. ولا يوجد هذا النوع من النمط المتناقض في حالة الأشخاص غير الدفاعيين. ويقدم الشكل رقم ١، أمثلة توضيحية لكل من الأنماط التي لاحظها والاش وزملاؤه.

وتوضح دراسة والاش وزملائه «المعالجة النظرية» لأساليب الفعل كصور للتعبير، أعني كموصلات للاستعدادات الداخلية الشخصية. وتستند الحالة الإمبريقية لقياس النزعات الاجتماعية الخفية في هذه الدراسة إلى افتراض غير مؤكد هو أن تصغير الرسم يرتبط بالرغبة في الانسحاب، وأن تكبير الرسم يرتبط بالرغبة في إقامة علاقات اجتماعية. ومثل هذه الرغبات يُفترض ـ بقدر ما من الاتساق المنطقي ـ أنها «خفية» إذا حدثت لدى شخص يمكن إثبات أنه من النوع الدفاعي، أعني لا يرحب بالتصريح بالسمات غير المقبولة. إن الدفعة الخفية ذاتها لا تكون واضحة، وإنما الذي يكون واضحاً فقط هو دفاعية الشخص على الرغم من أن ذلك يسمح للباحثين أن يفسروا بمهارة بعض النزعات المتناقضة بطريقة متسقة منطقياً. ويتطلب الأمر مزيداً من البحث قبل أن نثق كثيراً في هذا التفسير. ومع ذلك، فإن الدراسة توضح جيداً الافتراض الواسع الانتشار وهو أن أساليب الفعل تعبر غالباً عن الأبنية والعمليات السيكولوجية الداخلية ذات الدلالة الملحوظة للأداء الوظيفي السيكولوجي للفرد.

وبعض أساليب الفعل تبدو إلى حد بعيد أنها نتيجة جهد مقصود لإحداث بعض التأثير على شخص آخر. ويكون لهذه في الواقع قيمة وسيلية. وهذا ما يتضح جيداً في بحث روزنفلد Rosenfeld (١٩٦٦). فقط طلب إلى مجموعة من الطالبات أن يسعين إلى البحث عن موافقة الشخص الآخر في موقف فيه تبادل اجتماعي، وتقارن إيماءاتهم بإيماءات مجموعة أخرى من الطالبات طلب إليهن تجنب هذه الموافقة. وقد لوحظ أن الباحثات عن الموافقة كن يستخدمن الابتسامة والإشارات (الحركات المشاهدة للذراع واليد أو الإصبع) بدرجة أكثر ممن يتجنبن الموافقة. ومثل هذه النتيجة توحي بأن أساليب الفعل قد يكون لها أحياناً أهمية وسيلية أو موجهة نحو هدف باعتبار أنها تستخدم لإحداث نتيجة معينة. ويعتبر الممثلون بالتأكيد على قدر من المهارة في محاكاة أساليب الفعل هذا، من أجل إقناع المشاهد أن الشخصية التي يصورونها تحس بانفعال معين أو أنها تمثل نمطاً معيناً من الناس. أما أن الممثل يحس بالضرورة بهذا الانفعال نتيجة «قيامه بالدور» فهذا أمر غير واضح على وجه الإطلاق. ويجب أن نخلص إلى القول بأن أساليب الفعل هي بالطبع مصدر معلومات عن الشخصية، ولكن الظروف

التي تعبر فيها عن غير قصد عن الحالة الداخلية أو التي تكون فيها وسيلية أو موجهة نحو هدف، فليست ثابتة تماماً. إن أساليب الفعل والتفكير تقدم إمكانات هائلة لدراسة سمات الشخصية، كما أنها موضوع لكثير من البحوث في هذا المجال. ومع ذلك، وكما هو الحال بالنسبة لمظهر الأفعال الموجهة نحو هدف، فإن استخدامها المبسط دون دليل توكيدي عن مصادر أخرى من شأنه أن يجعل صدق الاستدلالات المستمدة منها وفائدتها موضع شك.

التقارير اللفظية: ومن الممكن أيضاً القيام باستدلالات عن بناء وعمل الشخصية من الاستبطانات التي تصاغ في تقارير لفظية. فالناس يمكنهم وصف خبراتهم الداخلية وتسميتها ونقلها إلى شخص آخر يقوم بالملاحظة. والإنسان، على عكس الحيوانات دون مستوى البشر، يستطيع أن يقدم دليلاً قيمًا عن الأحداث السيكولوجية من خلال التعبير اللفظي.

وهناك في الحقيقة، نوعان أساسيان من الاستبطان. في أحدهما، والذي يمكن تسميته «الاستبطان بالمشاركة الوجدانية» Empathic introspection، يضع الملاحظ نفسه موضع شخص آخر تجرى له حادثة ما، وعن طريق نوع من المشاركة السيكولوجية للخبرة، يحكم وجدانياً بما يجري لدى الشخص الآخر. ويتوقف النجاح في هذا النوع من عملية الاستدلال، على ما هنالك من تشابهات بين الناس. وتكون هذه العملية عرضة للخطأ بقدر ما يكون هنالك من فروق فردية جوهرية في الاستجابة للمثيرات المتماثلة. فقد يحسّ أحد الأشخاص أساساً بمرارة الأسى والحزن في نفس الموقف الذي يشعر فيه الآخر بالرضا والذنب، بينما يشعر شخص ثالث بعدم المبالاة نسبياً. ولهذا السبب، فإن الاستبطان المشارك للغير وجدانياً لا يُقبل بدرجة كبيرة من الثقة كمصدر للاستدلال على الشخصية لدى علماء النفس من أصحاب الاتجاه العلمي. ومع ذلك، فإنه يستخدم بوجه عام في حياتنا الاجتماعية ولدى الكتاب، كما أن له قيمة ملحوظة كمصدر للفروض التي يمكن أن تختبر بطرق أخرى.

أما النوع الثاني من الاستبطان وهو الأكثر شيوعاً، فإنه يستخدم على نطاق واسع في بحوث الشخصية. وهو يعتمد على تحليل الشخص نفسه لاستجاباته، بدلاً من أن يتم هذا التحليل بوساطة شخص آخر يقوم بالملاحظة. فالشخص قد يخبرنا بما يفكر فيه أو يشعر به أو يرغب فيه، وما الذي حدد اتجاهاته في مواقف أخرى في الماضي

والحاضر. والعلاج النفسي مثال ممتاز لهذا النوع من جمع المادة التي عن طريقها يعرف المعالج شيئاً عن الشخص، مما يقرره الشخص نفسه في جلسات العلاج. ولما كان المعالج غير موجود مع المريض خارج مكان العلاج، فإنه لا يوجد مع الأحداث موضوع المناقشة من أجل أن يلاحظها بصورة مباشرة. ولذا، فهو يعتمد إلى حد بعيد على التقارير اللفظية عن هذه الأحداث والتي يستقيها من المريض الذي يحاول فهمه.

وثمة مشكلات خاصة تظهر من استخدام التقارير اللفظية للاستدلال عن بناء وعمل الشخصية. إن المشكلة الأساسية هي أن الكلمات يمكن أن تستخدم للإخفاء والخداع مثلما تستخدم كأداة للنقل. أعني أن الشخص قد يعبر عما يرغب في أن يعتقده شخص آخر، بدلاً من أن يعبر عما هو حقيقة بالفعل. يضاف إلى ذلك، أن ما يقال، قد يصدر إلى حد بعيد عن جهل الفرد بذاته وباستجاباته، دون أي قصد للإخفاء. وعلى ذلك، إذا أخذنا الاستبطان من حيث قيمته الظاهرية، فمن السهل أن نفسر الشخص بطريقة خاطئة تماماً. وكما سبق أن أشرنا آنفاً، فإن نفس المشكلة قد توجد على وجه التحديد، في استعمال أساليب الفعل كأساس للاستدلال عن الشخصية. ذلك أنه على الرغم من أن تعبيرات الوجه والإيماءات وغيرها من الحركات تعد أحياناً معبرة عن الديناميات الداخلية، إلا أنها أيضاً يمكن أن تعالج عمداً من أجل إحداث نتائج مقصودة. ومشكلة دقة المصدر هذه، قد أكد عليها الباحثون بالنسبة للتقرير الذاتي أكثر من توكيدهم على أي مصدر آخر للمعلومات عن الشخصية. وفي نفس الوقت، فإن الاستبطان يعد واحداً من أغنى مصادر المعلومات في بحوث الشخصية.

وقد قُدم اقتراحان أساسيان لمعالجة مشكلة الإخفاء Dissimulation في التقرير اللفظي؛ أحدهما تقدم به باحثون من أمثال كارل روجرز Carl Rogers (١٩٤٢) وروجرز وروثلسبرجر Roethlisberger (١٩٥٢)، ويتضمن خفض الدافع للإخفاء من جانب الشخص، وذلك بخلق جو من التسامح والتقبل. فإذا كان أحد الأسباب الهامة للإخفاء هو رغبة الشخص في أن يقدم نفسه بصورة مقبولة أو بطريقة تتفق وتقدير الشخص لذاته، فإن الاتجاه المتسامح وغير التقييمي من جانب الباحث والذي يتقبل المفحوص بصرف النظر عما يقوله، سوف يسير شوطاً طويلاً نحو تقليل التحريف في التقارير الذاتية. فالتسامح يخفض الدافع لتحريف الحقيقة على نحو ما يفهمها الشخص، ومثل هذا الاتجاه يعد مناسباً على وجه الخصوص في المحيط العلاجي حيث يمكن للباحث ـ المعالج، خلال فترة زمنية مناسبة، أن يؤكد للشخص على نحو ملائم،

أنه آمن تماماً في أن يكشف عما يدور في نفسه. وعملية الكشف عن الذات هي العمل الأساسي للعلاج بالاستبصار Insight therapy. والهدف منه هو الكشف عن الجوانب الخفية للذات والتي يفترض أنها تكمن في جذور مشكلاته السيكولوجية.

غير أن صعوبة مثل هذا الحل صعوبة مزدوجة: الأولى أن مبحث الشخصية لا يمكنه دائمًا أن يتبنى عملية ضياع الوقت الذي يحدث في العلاج النفسي، أو أن يكون مثل هذا البحث قاصراً على موقف يتقبل فيه الشخص بالضرورة - كما هو الحال في العلاج - نظاماً يهدف إلى الكشف عما يجري في نفسه. والثانية أن بعض جوانب عدم الدقة في التقرير اللفظي تصدر على الأرجح عن خداع مقصود أو حتى لا شعوري؛ كما قد يصدر بعضه عن قصور في اللغة التي يسمى بها الفرد حياته الداخلية وينقلها إلى الآخرين، أو إلى نقص في فهم الذات من جانب الفرد الذي يصف ذاته. وعلى ذلك فالحل السابق الخاص بالتقبل والتسامح هو حل جزئي على أحسن الفروض.

والحل الثاني هو أن نعالج ما يقوله الشخص عن نفسه، كسلوك يمكن ملاحظته، بدلاً من أن نعتبره حقيقة واقعة عن حياته الداخلية. فقرب نهاية القرن الماضي، استخدمت المدرسة البنائية في علم النفس بزعامة «تتشنر» Titchener تلميذ «فنت» Wundt (أنظر بورنج Boring، ١٩٥٠) الاستبطان باعتباره المنهج الأساسي لدراسة الخبرة السيكولوجية. وقد استخدم «تتشنر» أشخاصاً مدربين على الاستبطان في محاولة دراسة بناء الخبرة السيكولوجية، وبذلك يعتبر الشخص موضوع الدراسة كمساعد للعالم الذي يقوم بالملاحظة. وفي علم النفس اليوم، ينظر إلى الشخص موضوع الملاحظة نظرة أخرى مختلفة، حتى عندما يقدم تقارير استبطانية عن الذات. فما يقوله أو يدركه الشخص ينظر إليه كسلوك يجب فهمه. وبهذه الطريقة يمكن للباحث أن يغفل بعض الأشياء التي يقررها المفحوص ويقبل بعضها الآخر أثناء قيامه باستدلالات عن الشخصية. وحتى في العلاج، فإن الملاحِظ يقوم باستمرار بمراجعة الاستدلالات التي يستمدها من التقرير الذاتي، بأدلة أخرى سلوكية أو فسيولوجية. فكما يستمع إلى ما يقال، فإنه يلاحظ أيضاً آداءات حركية كالإيماءات وتعبيرات الوجه، وأدلة فسيولوجية عن الحزن كتلك التي يعبر عنها شحوب الوجه أو التورد خجلاً أو الارتعاش إلخ . . . فإذا قال شخص ما إنه لا يشعر بالحزن، ولكنه مع ذلك يقدم دليلاً سلوكياً آخر عن الإضطراب، فإن محتويات التقرير اللفظي يمكن أن توصف في ضوء هذا الدليل. وقواعد القيام بذلك تظل جزئية حتى الآن، كما أن مشكلة ما يجب أن ينظر إليه

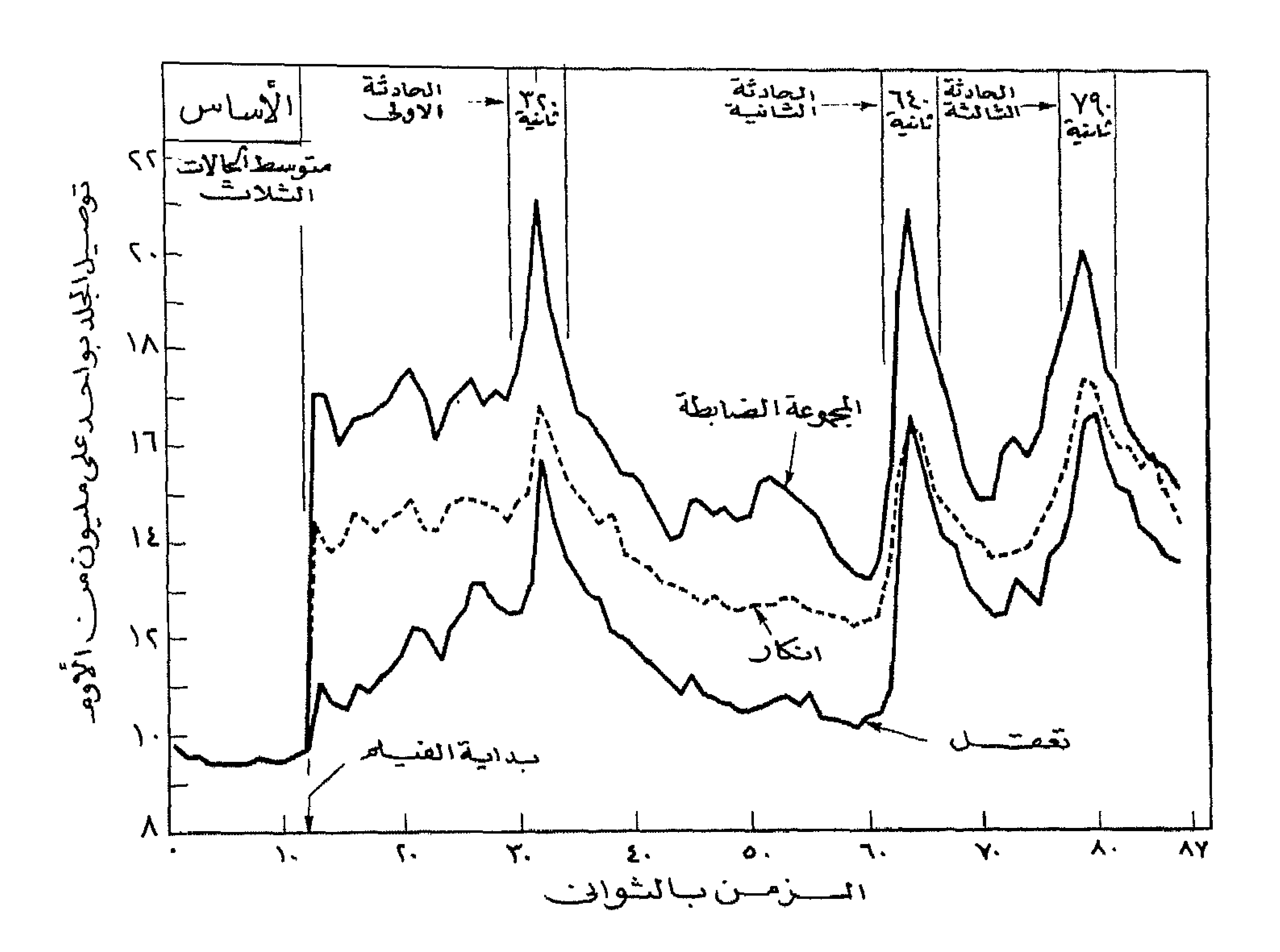
كاستدلال صادق، لا تزال مشكلة أساسية في دراسة الشخصية.

ويتوقف الحل السابق القائم على مراجعة أحد مصادر الاستدلال على مصدر آخر، على معرفة متعلقات عدم الدقة في التقرير اللفظي، وذلك على نحو ما يتبين مثلاً من مفارقات قد تُلاحظ بين التقرير اللفظي والعلامات السلوكية أو الفسيولوجية الأخرى. لقد قام واينشتين وأفريل وأبتون ولازاروس Weinstein, Averill, Opton and Lazarus (١٩٦٨) حديثاً بمراجعة ست تجارب أجريت جميعها في معملهم، حيث أمكنهم الوصول إلى نوعين من مقاييس الاستجابة للتوتر عندما كان المفحوصون يقومون بمشاهدة فيلم مزعج. وفي كل واحدة من هذه التجارب كان أحد مقاييس استجابة التوتر عبارة عن تقرير يقدمه المفحوص عن مدى إحساسه بالحزن. وكان الآخر مقياساً فسيولوجياً من المعروف أنه يتأثر بالحالات الانفعالية. وكثيراً ما كان هناك اختلاف بين هذين المقياسين للاستجابة، أعني أن بعض الأشخاص كان يقرر أنه يشعر بالحزن أكثر بكثير مما تكشف عنه أدلة المقياس الفسيولوجي، بينما يقرر آخرون أن شعورهم بالأسى والحزن أقل بكثير مما تكشف عنه أدلة المقياس الفسيولوجي. ولقد أوضحت البيانات التي تقدمها استبيانات الشخصية، كتلك التي يستخدمها والاش وآخرون (١٩٦٢) والتي سبق وصفها لقياس الدفاعية، أن الأشخاص يختلفون في ميلهم لإنكار الأشياء غير المقبولة وغير السارة عن أنفسهم. فالبعض يكشف عن هذا الميل بدرجة قوية جداً، والبعض يكشف عنه بدرجة قليلة أو لا يكشف عنه إطلاقاً. وقد وجد أن هؤلاء الذين لديهم الميل إلى الإنكار، يكشفون أيضاً عن أدلة فسيولوجية لاستجابات التوتر أعلى نسبياً مما يقررونه في التجارب.

وباختصار، فإنه بالتعرف على أحد المتعلقات Correlates غير الدقيقة للتقارير الذاتية، وهو في هذه الحالة، الميل إلى إنكار الأشياء المحزنة المتعلقة بالذات، تمكن واينشتين وآخرون من تحسين دقة الاستدلال بالنسبة للحالات الداخلية المستمدة من التقارير الذاتية إلى حد ما. وللقيام بذلك، يلزم افتراض أن الاستجابة الفسيولوجية دليل صحيح على الحزن الانفعالي، وهو افتراض يحتاج هو نفسه إلى برهان. وعلى أي حال، إذا أمكن اكتشاف وتقييم معظم أو كل مصادر عدم الدقة في التقارير الذاتية، فإن هذه المعرفة ـ من الناحية النظرية ـ يمكن أن تستخدم بدرجة كبيرة لزيادة صدق مثل هذه التقارير كأساس للاستدلال على بناء وعمل الشخصية.

المقاييس الفسيولوجية؛ إن التغييرات الفسيولوجية، وبخاصة تلك التي

تصاحب الإنفعال، يمكن أن تستخدم إذن على نحو ما سبق توضيحه، كمصدر للمعلومات عن الأحداث الداخلية، ومن ثم عن بناء وعمل الشخصية. ووجود المصاحبات الفسيولوجية للانفعال أمر معروف منذ فترة طويلة. ومن الممكن ملاحظة الكثير من هذه المصاحبات دون استخدام الأجهزة المتقدمة فنياً، كحمرة أو صفرة الوجه، وتصبب العرق والرعشة. ومثل هذه الاستجابات هي نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي، وإفراز الهرمونات التي تؤثر في الأعضاء الحشوية التي يمكن الكشف عن نشاطها بسهولة. ولقد توفرت حديثاً الأجهزة الألكترونية التي تستطيع قياس



شكل ٢ ـ آثار المعالجة التجريبية (إنكار وعبارات تعقل[1]) على توصيل الجلد، ثم قياسها بينما كان المفحوصون يشاهدون فيلماً أحداثه مثيرة للتوتر (عن لازاروس وابتون ونوميكوس ورانكن Lazarus, Opton, Nomikos and Rankin (١٩٦٥).

(١) التعقل: Intellectualization

التغيرات الدقيقة جداً التي من هذا النوع. والشكل رقم ٢ ، يوضح مثالاً لقياس أجري في بحث تجريبي عن التوتر والانفعال.

وفي التجربة التي حصلنا منها على الشكل رقم ٢ ، طلب من كل مفحوص من المفحوصين الذين تطوعوا لإجراء التجربة بطريقة فردية ، أن يشاهد فيلماً يمثل ثلاث حوادث دموية جرت في متجر للتجارة. وبينما كان المفحوصون يشاهدون الفيلم ، كان يتم باستمرار تسجيل المقاومة الكهربية للجلد بواسطة السيكوجلفانومتير Psychogalvanometer . وقد قدمت ثلاث معالجات تجريبية مختلفة. فقد ذكر الباحثون لإحدى المجموعات قبل بداية الفيلم أن الحوادث قد مثلت جميعها تمثيلاً متقناً لتبدو وكأن الجروح والدماء قد حدثت فعلاً ، ولكنها في الحقيقة لم تحدث بالفعل (إنكار) ، على حين ذكر الباحثون أمام المجموعة الثانية عبارة تركز ـ بطريقة ذهنية منفصلة ـ على العلاقات الاجتماعية بين الشخصيات المختلفة في القصة (تعقل)؛ أما المجموعة الضابطة فقد قدمت إليها فقط عبارة تمهيدية مختصرة جداً تتلخص في أن عليهم ملاحظة بعض الحوادث. وثمة أمران يمكن ملاحظتها في الشكل رقم ٢. الأمر الأول أن القمم العالية لتوصيل الجلد (وتمثل في الواقع انخفاض المقاومة الكهربية نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي) قد حدثت بوضوح خلال عرض مناظر الحوادث ، بينما ظهرت النقط الدنيا (التي تشير إلى الاسترخاء) في فترات الهدوء بين الحوادث ذات الصبغة الانفعالية. الأمر الثاني: إن كلا الصورتين للاتجاه الوقائي (الإنكار والتعقل) واللتين قدمتا للمفحوص قبل مشاهدة الفيلم ، قد نجحتا في خفض مستوى توصيل الجلد إلى حد أدنى من ذلك الذي حدث تحت الظروف الضابطة. والحقيقة أن الاضطراب الانفعالي الحادث كأمر طبيعي عن طريق الفيلم، قد خفض عن طريق هذه المعالجات. وعلى أي حال، فنحن نرى أن التوتر والاستجابات الانفعالية، يمكن أن تقاس عن طريق تسجيل تغيرات فسيولوجية معينة، وأن مستوى الاستجابة الانفعالية تحت ظروف مختلفة يمكن مقارنتها.

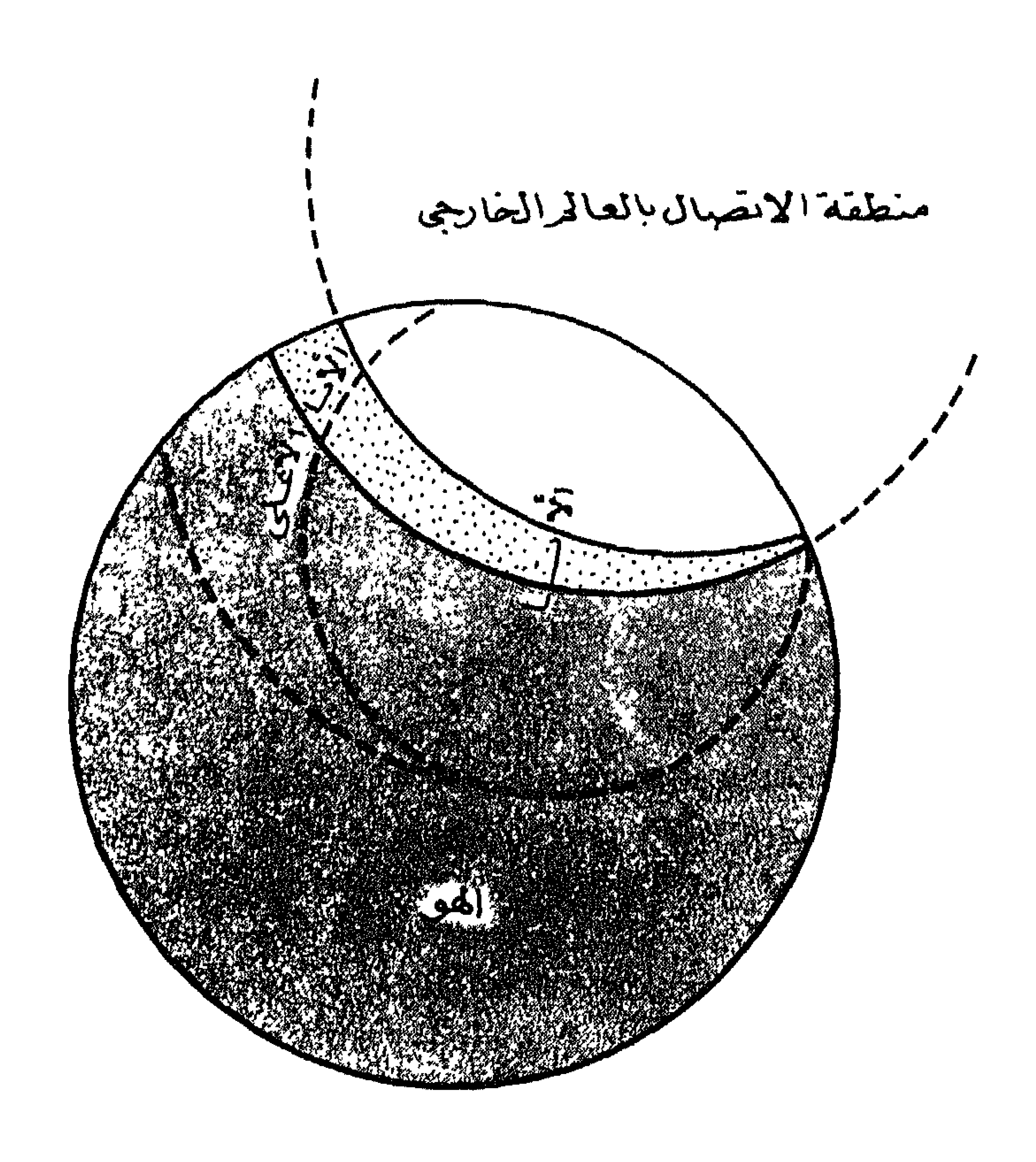
ويوضح البحث السابق الذكر الاستخدام المتزايد للمقاييس الفسيولوجية في دراسة الحالات الانفعالية. وإحدى المزايا الخاصة للمقاييس الفسيولوجية هي أن من الممكن استخدامها أحياناً، وعلى نحو ما استخدمت في دراسة واينشتين وآخرين السابقة الذكر (١٩٦٨) لمراجعة الأدلة الأخرى للاستجابة للعمليات الانفعالية كالتقارير الذاتية مثلاً. ومع ذلك، يجب ألا يستخلص القارئ من ذلك أن المقاييس

الفسيولوجية أو أية استجابات سلوكية أخرى، هي بالضرورة أكثر دقة وأكثر علمية من التقرير الذاتي. فالإستثارة الفسيولوجية يمكن أن تحدث أيضاً في ظروف لا تتناسب والحالات الانفعالية كتغيرات الطقس أو الحركة الجسمية والإجهاد. وكل مقاييس الاستجابة التي تتم منها استدلالات الشخصية، وبخاصة عندما تحدث بمفردها ودون إشارة إلى مصادر أخرى للمعلومات، تكون عرضة لأنواع كثيرة من الخطأ. ومعنى هذا أن الاستدلالات عن بناء وعمل الشخصية تكون أكثر قوة وصلابة عندما تبنى على أدلة متعددة، فكل دليل من أدلة الاستجابة يدعم الآخر في تقديم مادة للتفسير عن الشخصية.

السطح والعمق في الشخصية:

يبدو أن لفكرة العمق معنيين. ففي نظرية فرويد، حيث تلقى هذه الفكرة أهمية كبيرة، يشير العمق إلى القوى أو الميكانزمات mechanisms التي يتعذر على الفرد الوصول إليها؛ ومن ثم فهي لا شعورية unconscious. ففي مفهوم فرويد لميكانزم الدفاع مثلاً، يقال إن الشخص غير قادر على معرفة مظاهر معينة في حياته العقلية الداخلية. وتعد الدوافع والمشاعر غير المقبولة، ومن ثم تلك التي تثير التهديد، أمثلة بارزة على وجه الخصوص، وقد اعتبرها فرويد مكبوتة ولا شعورية، على الرغم من أن من المفروض أنها تعمل بنشاط للتأثير في الشخص وتوجه سلوكه في جميع نواحي حياته الكبرى. فالشخص ليس فقط، يكون غير واع بكثير من جوانب حياته العقلية، بل ويحتفظ بها إلى حد كبير لا شعورية عن طريق عملية رقابة أو كف تسمى باسم «الكبت» repression. وفي الحقبة التي كان فيها الإنسان يقرر آراءه على أسس شعورية وعقلية (والتي تعرف أحياناً بعصر العقل)، كانت فكرة فرويد التي تنادي بأن القوى اللاشعورية اللاعقلية تتحكم في كثير من أفعال الفرد فكرة مثيرة إلى حد كبير.

وفي اقتراحه بأن القوى اللاشعورية تسيطر على توافقات حياة الإنسان، ابتدع فرويد تشبيهاً ينبض بالحياة، عن العقل، فشبهه بجبل من الثلج (أنظر شكل ٣). ويظهر من جبل الثلج فوق سطح الماء قطاع صغير فقط من مجموع كتلته، أما باقي كتلته فتقع تحت سطح الماء وهي تكون في العادة غير مرئية. فأي تشبيه حي هذا الذي يصور أن معظم الحياة العقلية تكمن تحت السطح، أعني يتعذر الوصول إليها. وعلى ذلك فالمعنى الأول للعمق ـ وهو الذي أكده فرويد ـ هو أن **الشخص نفسه يكون غير واع** بالجوانب المسيطرة على حياته العقلية.



شكل ٣ ـ تخطيط يوحي بالعلاقة الطوبوغرافية بين مستويات اللاشعور وعناصر بناء الشخصية على نحو ما أوضحها فرويد (مأخوذ عن هيلي وبرونر وباورز Healy, Bronner and Bowers (١٩٣٠ ص ٦٥٦).

أما المعنى الثاني للعمق فيشير إلى إمكانية وصول الملاحظ إلى تركيب وعمل الشخصية، وذلك عن طريق الاستدلال طالما أنه لا يمكنه ملاحظتها بطريقة مباشرة. وهذا المعنى الأخير للعمق يذهب ببساطة إلى أن الشخصية هي استدلال يقوم على أسس نظرية، وأنه لا يتضمن شيئاً عن معرفة الشخص بحياته العقلية.

إن المعنى الأول للعمق أكثر إثارة للجدل بين علماء النفس من المعنى الثاني، على الرغم من أن تأثيره ظل ملحوظاً على التفكير في علم النفس الإكلينيكي والشخصية، وفي السنوات الأخيرة عند عامة الناس حيث أصبحت الفكرة مقبولة اليوم على نطاق واسع. وأحد أسباب الخلاف بين المشتغلين بعلم النفس هو أن المناهج المضمونة لقياس الوعي awareness لا يمكن وجودها، طالما أنها جميعاً تعتمد على ما يقرره الفرد عن أفكاره. ومثل هذه التقارير تكون، دائمًا موضع شك إلى حد ما. ويذهب بعض الكتاب إلى أن مفهوم الوعي يجب أن يستبعد من علم النفس، كفكرة عديمة القيمة لا يمكن وضعها موضع الاختبار. ولكن مثل هذا المفهوم هام وعام حتى أن القارىء لا يمكنه أن يتقدم بنجاح في دراسة الشخصية كمجال من مجالات الدراسة دون مواجهة هذا المفهوم عدة مرات.

استراتيجيات البحث في الشخصية

وخلال التاريخ الحديث للشخصية، اختلفت الأذواق حول كيفية عرض هذا الموضوع للدراسة. وقد اتخذت صورة أسلوبين أو استراتيجيتين: **المنحى الناموسي** (الذي يهدف إلى الكشف عن القانون العام nomothetic، **والمنحى المتفرد** (الإكلينيكي الفردي) Idiographic ويكمن الفرق الأساسي بينهما في ناحية التركيز. فهل نركز على الدراسة المتعمقة لحالات فردية (المنحى المتفرد) من أجل عمل تعميمات عن هذا الفرد في عديد من مواقف الحياة؟ أم نركز على سمات معينة للشخصية ندرسها لدى العديد من الأفراد (المنحى الناموسي) لوضع تعميمات عن كيف تحدد مثل هذه السمات سلوك الناس بعامة؟ ففي المنحى الناموسي، من المهم أن نقرر أن سمة أو سمات معينة توجه السلوك بطريقة خاصة، وأن هذا التأثير الذي لوحظ لدى عينة معينة من الناس يمكن تكراره لدى عينات أخرى. فالمنحنى الناموسي يتجه إذن بوضوح نحو إقامة قوانين عامة للأداء الوظيفي للشخصية. وعلى العكس، فإن استراتيجية دراسة الحالات المتفردة ووصفها يقوم بدراسة تفصيلية لفرد واحد من جوانب ومواقف أو أزمنة متعددة مختلفة في حياته. وهذا الاتجاه يسمى أحياناً «بالشخصي» ipsative مشيراً إلى الدراسة المتكررة لنفس الشخص في عديد من المواقف والأزمنة.

وثمة تمييز آخر هو أن المنحى الناموسي في الشخصية يميل إلى عزل خاصية أو

عدة خصائص للشخصية ودراستها، بدلاً من محاولة الوصول مباشرة إلى معرفة الشخصية ككل من حيث هي نظام يؤدي وظيفة. وعلى العكس، فإن المنحى المتفـرد في دراسة الشخصية يهدف أساساً إلى الوصول إلى جوهر هذا «الكل» كنظام عضوي. ورغم أن هذا التمييز مستقل تماماً من الناحية المنطقية عن الآخر، أعني أن البحث المتعلق بدراسة الحالات المتفردة يمكن أن يكون دراسة تحليلية لسمة خاصة في الفـرد الذي ندرسه، وأن المنحى الناموسي يمكن أن يدرس أكثر من خاصية أو سمة وكذلك تنظيم هذه السمات، فإن هذين الاتجاهين المختلفين يميلان إلى الارتباط أحدهما بالآخر عند الممارسة الفعلية. فالدراسات الناموسية تختص أساساً بدراسة كل من التعميمات عبر الأشخاص، والتركيز على دراسة سمة واحدة مفردة للشخصية أو على عدد قليل من السمات مع الأكثر. أما الدراسة المتفردة فإنها تختص عادة وبدرجة أكبر بالتعميمات عن شخص واحد يوضع موضع الدراسة، وكذلك بالتصوير اللفظي أو الوصف الدقيق للشخصية «ككل».

ويمثل الاتجاه الناموسي محاولة تكييف الأساليب التحليلية والمنهجية للعلوم التجريبية الكبرى لدراسة الشخصية. ففي هذه العلوم، تدرس الحادثة المركبة عن طريق تجزئتها إلى عناصرها المكونة لها أو متغيراتها، وعزل كل متغير وإخضاعه لدراسة منفصلة مستقلة، وجعل المقاييس المحددة تحت ظروف من الضبط قدر الإمكان، ثم محاولة بيان أن التعميمات الناتجة يمكن التحقق منها بالإعادة. وهؤلاء الذين يصوغون بحوثهم في الشخصية وفق نموذج العلوم الطبيعية والبيولوجية يميلون إلى رؤية هذا الاتجاه كأفضل اتجاه لخلق علم حقيقي للشخصية.

وفي البحث الذي ينحو منحى ناموسياً تتباين بعض السمات ـ ولتكن العدوانية ـ نتيجة اختيار أشخاص تختلف مواضعهم بالنسبة لها (أو باستخدام التحليل الارتباطي لربط التغير في العدوان بمتغيرات أخرى)، وبذلك يمكن أن نحصل على مجموعتين أو أكثر للدراسة، إحداهما مرتفعة في سمة العدوان والأخرى تفتقر أو تنخفض لديها هذه السمة (وقد تستخدم أيضاً مجموعة وسط). وليس من المهم (على الأقل لأهداف هذه الدراسة) أن يختلف الأفراد داخل كل مجموعة، بدرجة كبيرة أحدهم عن الآخر، بالنسبة للجوانب الأخرى، طالما أنهم يشتركون على الأقل في هذه السمة، أعني العدوانية.

أمثلة للبحوث ذات المنحى الناموسي والبحوث ذات المنحى المتفرد:

هناك ما لا حصر له من الأمثلة المحسوسة التي توضح هذين النوعين من الاستراتيجيات. وتمثل دراسة هثرنجتون وراي Hetherington and Wray (١٩٦٤) نموذجاً معقداً نسبياً لنوع الدراسة ذات المنحى الناموسي مستخدماً مغيرين للشخصية وإطارين موقفيين. لقد قدرت سمتان من سمات الشخصية عن طريق استبيانات مختلفة. وكان أحد هذه الاستبيانات يتطلب من المفحوص أن يذكر مشاعره وأفعاله في أنواع معينة من المواقف التي تثير العدوان غالباً. وقد ذكر بعض الأشخاص مشاعر قوية للعدوان، على حين لم يذكر البعض الآخر شيئاً. وفي استبيان آخر، قيست بالمثل الرغبة في الرضا أو التقبل الاجتماعي. وعلى أساس بيانات الاستبيان، قام الباحثون باختيار أنماط أربعة من الأشخاص: النمط الأول مرتفع في العدوان وفي الرغبة في التقبل الاجتماعي؛ النمط الثاني مرتفع في العدوان ومنخفض في الرغبة في التقبل الاجتماعي؛ النمط الثالث منخفض في العدوان ومرتفع في التقبل الاجتماعي؛ النمط الرابع منخفض في العدوان وفي الرغبة في التقبل الاجتماعي.

ثم أعطيت لكل شخص مجموعات من الصور الكاريكاتورية لتقييمها وفق مقياس مدرج ابتداء من مضحكة جداً إلى غير مضحكة إطلاقاً. وكانت هذه الصور الكاريكاتورية تمثل العدوان. وقد افترض أن الشخص إذا نظر إليها على أنها مضحكة، كان معنى ذلك أنه يتقبل المعنى العدواني المتضمن بارتياح، على حين إذا حكم بأنها غير مضحكة، كان معنى ذلك أنه يرفض العدوان أو ربما أنه شخص دقيق. وقد أجريت هذه التقديرات تحت ظرفين، في أحدهما أعطى نصف الأشخاص مشروباً كحولياً، واختبر النصف الآخر دون تناول أي شراب كحولي. وكان الغرض من ذلك هو دراسة الآثار غير الكافة للكحول على تقبل العدوان والتعبير عنه خلال التقدير لهزلية الصور الكاريكاتورية العدوانية.

وكانت نتائج دراسة هثرنجتون وراي معقدة ولكنها ممتعة جداً. فتحت ظروف عدم تعاطي الشراب الكحولي، كان الأشخاص المرتفعون في العدوان وفي الرغبة في التقبل الاجتماعي أكثر أضطراباً بواسطة الصور الكاريكاتورية، ومن ثم قدروها أقل فكاهة بكثير من كل من الأشخاص الذين كانوا أقل درجة في العدوان، وهؤلاء الذين كانوا مرتفعين في العدوان ولكنهم أقل رغبة في التقبل الاجتماعي. ومع ذلك، فقد تسبب الكحول في زيادة تقديرات الإضحاك لدى الأشخاص الذين كانوا مرتفعين في

العدوان ولديهم رغبة قوية في التقبل الاجتماعي. والواقع أن الكحول أزال الكف لدى هؤلاء الذين كانت لديهم الرغبة قوية في التقبل الاجتماعي، ومن ثم سمح لهم بالاستمتاع بالنزوة العدوانية والتي، بدون ذلك، يمكن أن تحدث القلق. أما الأشخاص المرتفعون في العدوان، والمخفضون في الرغبة في التقبل الاجتماعي، فلم يكشفوا عن اختلاف في ظروف تعاطي الشراب وعدم تعاطيه.

وفي محاولة للتفسير، اقترح هثرنجتون وراي أن الأشخاص الذين تكون الحاجات العدوانية عندهم منخفضة، لا يكون لديهم دافع قوي للتعبير عن العدوان سواء تحت تأثير الشراب أو عدمه. ومع ذلك، فإن المرتفعين في العدوان وفي الرغبة في التقبل الاجتماعي، تكون لديهم دوافع عدوانية قوية، ولكنهم يكبتونها بسبب الرغبة القوية في التقبل الاجتماعي. وليس من الواضح ما إذا كان أثر الكحول ينتج عن ميله ألى تقليل الخوف من الرقابة الاجتماعية على الدافع العدواني أو بسبب أن التقبل الاجتماعي لا يكون بنفس القدر من الأهمية تحت تأثير الكحول.

ولسنا في حاجة إلى إمعان النظر في تفاصيل أو نواحي النقص في دراسة هثرنجتون وراي لنوضح طبيعة استراتيجية المنحى الناموسي في بحث الشخصية. إن الخاصية الأكثر تمييزاً للمنحى الناموسي هي عزل ودراسة سمتين أو استعدادين للشخصية وهما في هذه الحالة سمتا العدوانية والرغبة في التقبل الاجتماعي. لقد كان هدف الدراسة هو التعميم عبر الأشخاص فيما يتصل بدور سمتي الشخصية هاتين في تحديد الاستجابات السلوكية. فالتركيز هنا لا ينصب على شخص واحد نقوم بملاحظته في عديد من المجالات، بل على أشخاص بوجه عام (على نحو ما يظهر في عينة ما) يحدث أن توجد لديهم درجات مرتفعة أو منخفضة من هاتين السمتين موضع البحث.

ورغم أن هاتين السمتين قد عزلتا عن بقية السمات الأخرى الممكنة للشخصية، فإن هذه الدراسة تعد تقدماً بالنسبة لأبسط صور البحث ذي المنحى الناموسي، والتي تدرس فيها الآثار السلوكية لسمة واحدة فقط في موقف واحد فحسب. فلقد كان من الممكن في هثرنجتون وراي دراسة تفاعل كلا السمتين ومعرفة كيف أثرت إحداهما على الأخرى في تحديد السلوك العدواني. وبهذه الطريقة، فإن البحث ذا المنحى الناموسي يحاول أن يقترب من مثال دراسة الشخصية ككل، متضمناً العديد من السمات التي تؤثر كل منها في النتاج السلوكي في مجالات موقفية معنية.

ودراسة الحالة case study ربما كانت أحسن مثال لتوضيح الدراسة ذات المنحى المتفرد في الشخصية. ففيها يدرس فرد واحد من ناحية أدائه الوظيفي الماضي والحاضر في عديد من مجالات الحياة. وهناك العديد من الأمثلة لدراسة الحالة في كتابات علم النفس والعلوم الأخرى المرتبطة به كالطب النفسي والخدمة الاجتماعية. وهناك أيضاً كتب عديدة تحاول تعليم علم نفس الشواذ من خلال أمثلة أدبية بارزة مثل مذكرات رجل مجنون لجوجول Gogol وبنن Pnin لنابوكوف Nabokov (أنظر ستون وستون Stone and Stone، ١٩٦٦).

ولقد أثرت دراسة الحالات المتفردة تأثيراً ملحوظاً على التفكير السيكولوجي. ومن كبار المؤيدين لهذا الاتجاه جوردون البورت Gordon Allport (١٩٦٥) الذي نشر مجموعة من ٣٠١ خطاب مكتوب على مدى فترة تزيد على ١١ عاماً كتبتها سيدة تحت اسم «جيني» Jenny عن علاقتها بابنها. وقد جمع البورت هذه الرسائل ووضع في ضوئها صورة عن شخصية «جيني» من وجهة نظر عدد من الأنظمة النظرية المتنوعة. وهناك أمثلة أخرى منها دراسة الحالات الست التي نشرها فرويد والتي ظلت - بالإضافة إلى تحليلاته السيكولوجية - تؤثر بقوة في تفكير علماء النفس الإكلينيكيين وعلماء نفس الشخصية. ففي حالة شربر Schreber case (١٩٣٣) مثلاً درس فرويد تقريراً للسيرة الذاتية لمريض بالبارانويا، ووضع مبدأ أن البارانويا تقوم على دوافع جنسية مثلية تحولت إلى هجوم وأسقطت على شخص آخر. وفي قصة هانز Hans الصغير (١٩٣٣) أوضح فرويد إكلينيكياً - نظريته في الجنسية الطفلية وعقدة أوديب وقلق الخصاء.

مزايا وصعوبات استراتيجيات البحوث ذات المنحى الناموسي والمنحى المتفرد:

في البحث ذي المنحى الناموسي، يكون التركيز على السمات ووظيفتها، وعلى قابلية العلاقات القائمة للتكرار عبر الأشخاص. وهذا يمدنا بميزة القيام بعمل التعميمات الممكنة عبر الأشخاص الذين يشاركون في السمة أو السمات موضع الدراسة. وبسبب مطلب القابلية للتكرار، والضبط والمقاييس الدقيقة، فإن ما يمكن قوله عن عينة معينة من الأشخاص يمكن إذن تعميمه على آخرين، الأمر الذي ييسر وضع مبادىء عامة عن بناء الشخصية ودينامياتها. ومع ذلك، فإن هذه الميزة تجلب معها صعوبة كبرى تتمثل في أننا لا ندرس فرداً واقعياً باعتباره شخصاً «ككل». وعلى ذلك، فنحن لا نجد في البحث ذي المنحى الناموسي توصيفاً لشخصية واقعية. إن

مفاهيم مثل هذه الشخصية يجب أن يعاد بناؤها وتركيبها بدرجة كبيرة أو صغيرة اعتباراً من المعالجة الجزئية للسمات المفردة والتي يكون دورها في التأثير على السلوك هو مركز اهتمام الدراسة ذي المنحى الناموسي. وعندما أصبح البحث ذو المنحى الناموسي أكثر طموحاً نتيجة الاهتمام أكثر وأكثر بالسمات الفردية وتفاعلاتها ودراسة هذه السمات في مواقف عديدة، فإنه صار أيضاً أثقل حملاً وأقل إمكانية للتحقيق.

ويحتفظ البحث ذو المنحى المتفرد الذي يركز اهتمامه على دراسات الحالات الفردية، بمعنى الكلية وتفرد نظام الشخصية وأدائه الوظيفي في عديد من ظروف الحياة. فالشخص، في دراسات الحالة، ليس مجموعة سمات منفصلة مستقلة، وإنما هو وحدة متكاملة تستجيب كوحدة أو نظام كلي لأية مواقف قد يواجهها، وباتصال بين الماضي والحاضر والمستقبل. ومع ذلك، فإن هذه الواجهات تعد بلا شك مزايا كبيرة، رغم الثمن الباهظ الذي تكلفه وهو التعميم على أشخاص آخرين. فالتعميم الخاص بالمنحى المتفرد يتجه نحو شخصية مفردة، أعني نحو قضايا تتصل بكيفية أداء الفرد في مواقف متعددة. ويتجلى ضعف هذا المنحى فيما يتصل بقدرته على صياغة قضايا عن الناس عامة. ومن الممكن بالطبع التغلب على ذلك بدراسة أفراد كثيرين. ولكن مثل هذا التوسع سوف يكون مجهداً ومكلفاً للغاية ولا يمكن تتبعه بطريقة منتظمة.

وعلى الرغم من أن عمل تعميمات على أشخاص من شخص مفرد أو حتى من عدد قليل من الحالات، أمر ينطوي دائما على مخاطرة، فإن هناك ظروفاً يمكن أن تنجح فيها مثل هذه التعميمات. فكما أوضح ديوكس Dukes (١٩٦٥) جيداً، أن تاريخ علم النفس يشتمل على استخدام حالات فردية لإقامة مبادىء عامة. ويحدث هذا عندما يظهر اختلاف قليل الأهمية في بعض العمليات عبر حالات مختلفة، وحيث يكون الباحث قد نجح في تحديد المبدأ المنظم لها. وثمة مثال لذلك تلك الدراسة الكلاسيكية التي قام بها مورتن برنس Morton Prince (١٩٢٠) لحالة من حالات تعدد الشخصية، والذي يعتبر كتاب ثجبن وكلكلي Thigpen and Kleckley (١٩٥٧)، الأوجه الثلاثة لحواء صورة حديثة له. لقد حدد برنس جيداً الخصائص الأساسية لهذا الاضطراب الأخاذ، كما أظهر النمط الذي لوحظ في مثل هذه الحالات في صورة نموذجية لدرجة أنه على الرغم من مرور حقب عديدة من الزمن بين نشر هاتين الدراستين، فإن هناك قدراً كبيراً مشتركاً بينهما. ومع ذلك، فإن حالة واحدة لا يمكن أن تؤخذ كأساس لتعميمات واسعة عن ظاهرة ما، مالم تكن هناك حالات أخرى تقارن بها، ويكون الاستخدام

الناجح لمثل هذه الحالة لإرساء مبدأ صادق هو بالتأكيد بمثابة الإستثناء بدلا من أن يكون هو القاعدة.

أضف إلى ذلك، أن دراسات الحالة تميل، وإن لم تكن بالضرورة كذلك، إلى أن تكون شاملة وانطباعية، أكثر منها محددة وموجهة بعناية نحو القياس. ثم أن من الصعب أن نضع عن طريق الدراسة ذات المنحى المتفرد، المتغيرات الهامة أو غير الهامة في تفسير الأداء الوظيفي للفرد. كما أن أغلب الدراسات ذات المنحى المتفرد تكون من الناحية العملية، حدسية ووصفية إلى حد بعيد، ولا تتفق عادة مع المعايير التي وصفها باحثو الشخصية من أصحاب الاتجاه العلمي.

ضرورة استخدام كلا الاتجاهين:

ولقد ظهر من المناقشات التقليدية لمزايا كل من استراتيجيتي المنحى المتفرد والمنحى الناموسي في دراسة الشخصية، إن الاتجاهين كان ينظر إليهما كاتجاهين متعارضين. وقد اتضح هذا جيداً في حوار منشور بين جوردون البورت (١٩٦٢) وروبرت هولت Robert Holt (١٩٦٢)، اتخذ فيه البورت الموقف المؤيد للمنحى المتفرد، بينما اعتنق فيه هولت الموقف المؤيد للمنحى الناموسي. لقد ذهب هولت مثلاً إلى القول بأن فكرة الدراسة المتعلقة بحالات فردية هي نتاج الإرث الرومانتيكي الذي نعطي فيه أهمية كبرى لفهم الحياة في ذاتها، أكثر من محاولة تفسير هذه الحياة. فعلم دراسة الشخصية ذي المنحى المتفرد يكرس جهده، كما يقول هولت، لخلق صور التفرد التي يكون فيها إثارة التعرف هو المصدر الرئيسي للإشباع. وهذا، كما يقول هولت، ليس علمًا، بل هو فن. يضاف إلى ذلك، أن التفرد يحتمل أن يكون شيئاً تافهاً مثلما هو هام. فقد لاحظ هولت أن كل كوكب في المجموعة الشمسية كوكب فريد. وقد لا يكون هناك زحل آخر في كل الوجود، ومع ذلك لا يستجيب علماء الفلك لهذا الأمر، بإيجاد علم فلك آخر لكل كوكب فرد أو للكواكب من حيث هي مختلفة عن الأجرام السماوية الأخرى. إن هناك علمًا واحداً فقط لعلم الفلك، مثلما هناك علم واحد فقط لعلم النفس.

وقد رد البورت بقوله: لقد استثمر علماء نفس الشخصية القليل من جهدهم

الثمين في وصف اشخاص بالذات، بينما وجهوا معظم جهدهم إلى دراسة الناس بعامة. ومع ذلك، فوصف أشخاص معينيين يعتبر جزءاً أساسياً في العمل الكلي لعلم النفس. وذهب البورت أيضاً إلى أن هولت قد قلل من أهمية هذا القدر من الجهد الذي وجه إلى الدراسات المتعلقة بالحالات الفردية في علوم كعلم الفلك. فعلى الرغم من أن العلماء قد بحثوا عن قوانين عامة يخضع لها الكون بأسره، فإن معظم الجهد قد وجه لوصف موضوعات في النظام الشمسي يحتمل أن تتجه إليها الزيارات يوماً ما. فقد أعطيت مثلاً أسماء لأمكنة عديدة لمعالم على سطح القمر على قدر ما يستطيع القارىء نفسه أن يفكر بالنسبة لوطنه الأصلي. ومثل هذا الجهد، كما يقول البورت، لا يمكن وجوده في علم النفس. فالدراسة ذات المنحى المتفرد للفرد «ككل» تظل بمثابة أرضية غير نامية نسبياً في علم نفس الشخصية، وهو يؤيد الإكثار منها.

والمهم أن إحدى استراتيجيتي البحث ـ سواء ذات الصلة بالمنحى المتفرد أو المنحى الناموسي ـ لا تكفي وحدها تماماً، فأحد المنحيين تعتبر تدعيمًا أساسياً للآخر. وقد يكون من الصعب جداً، أن نتصور مثلاً قيام علم مناسب للشخصية على المنحى المتفرد وحده. فهو ـ على نحو ما يستخدم في صورته النمطية ـ شمولي تماماً، ويعجز أساساً عن تحقيق القيم الجوهرية للعلم، ونعني بها الملاحظة المقيدة، ودقة القياس، والقابلية للتكرار. ومع ذلك، فليس ذلك مظهراً ضرورياً للبحث ذي المنحى المتفرد طالما أنه أيضاً يمكن أن يكون وأن يوجد بالفعل بالقياس الدقيق على الأقل. ومع ذلك، لا تزال ناحيتا الضبط والقابلية للتكرار من الأمور التي يصعب تحقيقها في الدراسة الشخصية ipsative لحالة بعينها، مما يجعل صياغة مبادىء عامة صادقة أمر غير محتمل إلى حد بعيد. وبالمثل، فإن علم الشخصية الذي يختص كلية بالمنحى الناموسي قد يعجز هو الآخر وذلك بسبب تحريفات الطبيعة الناتجة عن التحليل، ودراسته للأجزاء منفصلة، وعجزه عن دراسة المدى الكامل للاستجابات في عديد من مواقف الحياة. فبدون قدرتنا على الاقتراب من المنظور الشامل والطبيعي لاستراتيجية المنحى المتفرد، فقد يتعذر علينا التغلب على أخطاء التحليل بسهولة. ويميل الباحثون المختلفون إلى تتبع استراتيجيات المنحى المتفرد أو المنحى الناموسي، وذلك بسبب الاهتمامات والمهارات المختلفة المتضمنة في كل منها. ومع ذلك، فإن استخدامها المتبادل والمكمل أحدهما للآخر يعد أمراً متطلباً لخلق علم شخصية قابل للحياة.

نظرية الشخصية

كانت مناقشة الشخصية، على هذا النحو، عامة إلى حد ما. ومن المفيد الآن أن نحصل على تحديد أكثر للعناصر المحددة لها. ونحن في حاجة إلى صياغة مجموعة من الأسئلة العريضة والمحددة معاً، عن الشخصية ونعني بها: كيف «توصف» الشخصية، وكيف «تنمو»، وما هي «ديناميتها» (أعني كيف تعمل)، «ومحدداتها» (أعني القوى التي تشكلها). تلك هي الأسئلة الأربعة للشخصية، والتي ينتظم حولها الجزء الأكبر مما يتبقى من هذا الكتاب. وتتوقف الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعة العامة على نظرية الشخصية التي يؤمن بها الباحث. ومعنى هذا أنه ليست هناك إجابة واحدة لكل سؤال؛ بل هناك العديد من الإجابات.

وقد يثير القلق لدى الطالب المبتدىء أن يكتشف أن ثمة طرقاً عديدة للتصور العقلي للشخصية. فتعدد الأنظمة النظرية قد يسبب الخلط، ويحبط الرغبة في الوصول إلى قضايا بسيطة نؤمن بها فيما يتصل بالبناء والعملية. ومع ذلك، فتعدد النظريات يعكس حقيقتين: الأولى، الثراء الواسع والتعقيد الكبير في موضوع الشخصية. والثانية، المرحلة المبكرة التي يوجد عندها علم الشخصية في الوقت الحاضر.

أما بالنسبة للمرحلة المبكرة لمعرفتنا، فإن علم الشخصية، شأنه شأن علم النفس ككل، علم حديث ترجع بداياته الحديثة إلى ما قبل نهاية هذا القرن بقليل. ومن الطبيعي أن يدور تفكير المفكرين حول هذه الموضوعات من الآف السنين، وأن تمثل أفكارهم جزءاً من الأساس الفلسفي للأنظمة النظرية الحديثة. ومن بين هؤلاء المفكرين فلاسفة الإغريق، أرسطو Aristotle وأفلاطون Platon والطبيب اليوناني أبقراط Hippocrates الذي أدخل أنماط الشخصية التي تستند إلى فكرة توقف الأمزجة على توزيع سوائل معينة في الجسم. وعلى الرغم من عدم قبول تفاصيل هذه الفكرة الآن، إلا أن جوهرها يشبه إلى حد بعيد المفهوم السائد حالياً وهو أن الخصائص المزاجية تتأثر بدرجة كبيرة بتوزيع هرمونات الجسم.

وعلى أي حال، فإن الاتجاهات العلمية ذات المنحى التجريبي في دراسة الشخصية تعتبر تقدماً حديثاً نسبياً، كما أن المعرفة لم تتقدم بعد بدرجة كبيرة تكفي لتوحيد الأنظمة النظرية المختلفة في نظام فكري واحد مقبول بوجه عام. فإذا اتسعت معرفتنا وكان لدينا إطار فكري موسع وشامل، فسوف تستبعد النظريات التي تبدو غير

صحيحة، كما يمكن إدماج كل فكر قيم فيها في مذهب فكري موحد مقبول إلى حد بعيد. ولكن وجود العديد من المذاهب التي تطالب بنظرة جادة، يوحى بوجود قصور في صياغة كل منها وفي الدليل المناسب الذي نقيّمها به. وعلى الرغم من التشابهات الكثيرة بين هذه النظريات، فإن كل واحدة منها يكون لها تأثيرها حيث تسهم بعنصر قيم لا تسهم به النظريات الأخرى والذي لا يمكن استبعاده أو إدماجه بدرجة كافية في النظرية الأخرى.

وليس من اليسير على الطالب أو على المتخصص أن «يعرف» مجال الشخصية ما لم يكن على ألفة بأهم المذاهب النظرية التي توضع لتصورها عقلياً. وعرض مثل هذه النظريات يعد في ذاته عملاً كبيراً يستحيل القيام به في مثل هذا الكتاب. . والكتب التي تفعل ذلك، مثل كتاب هول ولندزي Hall and Lindzey (١٩٥٧)، قد تحير الطالب لأنها تقدم ملخصات عن كل مذهب فكري دون تحليل لنواحي التشابه ونقط الاختلاف. وقد حاول مادي Maddi (١٩٦٨) القيام بهذا العمل الأخير، ولكنه كتبه على مستوى أعلى بكثير من مستوى الطالب المبتدىء. ومع ذلك، فلا بد من محاولة تقديم عرض لنظرية الشخصية لأن مادة الشخصية، بما في ذلك تعريفها، تتوقف على المذهب النظري الذي يتخذه الباحث

وتميل كل شخصية إلى الانتماء إلى مجموعة أكبر من النظريات التي يوجد لكل منها أنواع كثيرة لا يمكن عرضها جميعاً هنا. وتختلف الأنواع الرئيسية من النظريات إحداها عن الأخرى في أفكارها أو فروضها الأساسية عن طبيعة الإنسان. وأياً كانت مصطلحاتها الفنية المستخدمة، فإن الشيء المهم هو فهم هذه الفروض التي تمثل في الحقيقة الموضوعات الرئيسية في التصور العقلي للشخصية. وقد فضلنا أخذ مثال مفرد ليمثل كل نوع من الأنواع الرئيسية للنظرية وتوضيح وجهة النظر هذه وذلك بالإشارة إلى الموضوعات الرئيسية التي تختلف فيها هذه الأنواع من النظرية. وتقع هذه الموضوعات تحت عناوين أربعة أساسية هي: الوصف، النمو، الديناميات، المحددات. وقد خصصت الفصول الستة التالية في هذا الكتاب لكل واحد من هذه العناوين، موضحين أوجه الاختلاف بين هذه المذاهب المختارة من التفكير في نظرتها لهذه الموضوعات، مع تقديم أمثلة للبحث عنها. وعلى القارىء أن يكمل هذا التقرير المبسط بمراجع إضافية أولية وثانوية، كتلك التي أوردناها في نهاية كل فصل والتي توضح بشكل أكثر تفصيلاً الأوضاع النظرية الخاصة.

الفصل الثاني

وصف الشخصية

إن الواجب الأساسي لنظرية الشخصية هو وصف أبنية النظام الذي تعالجه. ويتطلب الأمر على أقل تقدير، وجود لغة وصفية، لغة تجعل من الممكن تكوين صورة سيكولوجية للناس بعامة، ولشخص معين بالذات بخاصة. وعلى الرغم من أن نظرية الشخصية يجب أن تقوم بأكثر من ذلك، إلا أن مجال اهتمامنا يتركز في هذا الفصل على الوصف وحده.

أما كيفية بيان الأبنية الأساسية للشخصية، فهذا ما يتضح بالرجوع إلى الأسلوب الذي اتخذه فرويد Freud (١٩٤٩ ، ١٩٦١) في أحد الأنظمة الفكرية الحديثة العميقة التأثير، ألا وهو التحليل النفسي. لقد نظر فرويد إلى الشخصية كتنظيم ثلاثي يتألف من مجموعات ثلاث من الأنظمة الفرعية: «الهو» Id، «والأنا» Ego، «والأنا الأعلى» Super ego، ولكل منها خصائصها الذاتية المميزة. ومن الممكن القول ببساطة إن الهو يتضمن الحافز أو القوى الدافعة داخل الإنسان؛ وإن الأنا يتصل بالخصائص الضابطة

والتوافقية، وإن الأنا الأعلى يختص بالقيم الخلقية والمثل التي تستدمج من الثقافة والأسرة؛ وهو، في الحقيقة، الضمير. ومن الممكن التعبير عن جميع الوظائف السيكولوجية التي تنجزها أجهزة الشخصية، بهذه الأنظمة الثلاثة الفرعية.

وربما أصبحت فكرة فرويد عن أبنية الشخصية هي أوسع أساليب التفكير استخداماً فيما يتصل «بالأجزاء» المتعددة لهذا النظام. وليس مرجع ذلك أن كل من يستخدم هذه المصطلحات يتبنى وجهة نظر فرويد بكل تفاصيلها، وإنما مرجعه أن هذا النظام يتضمن كل المكونات العامة للشخصية والتي يعرف الناس أنها هامة، ونعني بها الحوافز أو الدوافع، والأبنية الضابطة والتوافقية، والقيم الخلقية المستدمجة والتي هي نتاج عملية التطبيع الاجتماعي. وإذا استخدمت مصطلحات الأنا والهو والأنا الأعلى بمثل هذه الطريقة العامة، فإنها تصبح إذن متعادلة ـ إن شئنا القول ـ بالقياس إلى الأساليب الخاصة التي استخدمها فيها فرويد في نظريته عن الديناميات والنمو. وعندما تستخدم على النحو الذي قصده فرويد أصلاً، فإن كل واحد من هذه الأنظمة الفرعية سوف يتضمن الافتراضات النظرية للنظرية الفرويدية بما في ذلك الحوافز الخاصة، والنزعات الضابطة، والمثل الخلقية، ووظائف كل بناء فرعي، وطريقة نموه، وقواعد تفاعل هذه الأبنية الفرعية معاً. ومع ذلك، فلقد أصبح «الهو والأنا والأنا الأعلى» في نظر الكثيرين من علماء النفس وعامة الناس وفي خارج السياق الفرويدي الدقيق، مجرد أسلوب إنتقائي مختصر للإشارة إلى الأبنية والوظائف الأساسية للشخصية. ولما كانت هناك أنظمة نظرية عديدة تستخدم هذه المصطلحات دون أن تضمنها بالضرورة معناها عند فرويد، فقد أصبح لزاماً، عند سماع كلمة «الهو أو الأنا أو الأنا الأعلى» أن نتساءل هل تستخدم الكلمة بمعناها الفرويدي أو بمعنى آخر.

ومن الأمثلة الجيدة للاستعمال الغامض لنفس المصطلح للدلالة على شيء مختلف، ما نجده في نظرية الشخصية «لكارل يونج» Carl Jung والتي تتداخل مع نظرية فرويد، وإن اختلفت عنها اختلافاً كبيراً في نواح هامة. لقد كان يونج أحد أفراد الرعيل الأول من المبتكرين الذين التفوا حول فرويد، ولكنه انفصل عنه بعد ذلك وكوّن نظريته المستقلة. وقد استخدم «يونج» مصطلح «الأنا» للإشارة إلى العمليات التي هي «شعورية» تماماً، على حين أكد فرويد أن أنشطة «الأنا» أنشطة «لا شعورية». إن استخدام أصحاب نظريات الشخصية للمصطلح الواحد بمعان مختلفة أحياناً،

واستخدامهم للمصطلحات المختلفة بمعنى واحد أحياناً أخرى قد أدى إلى وقوع الدارسين للشخصية في مشكلات بالغة، إذ ساهمت مثل هذه الاستخدامات في إحداث خلط واسع بين عامة الناس والمشتغلين في المجال على حد سواء.

ولقد استبعدت نظريات كثيرة في الشخصية المفهوم الثلاثي لبناء الشخصية كلية. ورغم احتفاظ يونج (١٩١٦) به، إلا أنه بدأ في توكيد مفهوم «الذات» Self، باعتباره البناء الذي يحدث الاتساق بين الغرائز الحيوانية في الإنسان وإرثه الروحي والاجتماعي. ويعتبر مفهوم «الذات» اليوم بالنسبة للعديد من النظريات بمثابة الوحدة المركزية للشخصية: مثال ذلك نظريات كارل روجرز Carl Rogers (١٩٥١) وإبراهام ماسلو Abraham Maslow (١٩٥٤) وكيرت جولدشتين Kurt Goldstein (١٩٤٠). فلقد قدم كل منهم نظريات متداخلة ذات تأثير قوي في الشخصية. والشخص، في هذه النظريات، يوصف ويفهم في ضوء كيفية إدراكه لنفسه، أعني في ضوء «مفهومه لذاته» الذي يدفعه إلى العمل والاستجابة على نحو ما. وثمة صورة مختلفة مع ذلك لبناء الشخصية قدمها «أوتو رانك Otto Runk (١٩٥٢) والذي كان ـ كما كان يونج ـ أحد أفراد الرعيل الأول من المفكرين الملتفين حول فرويد في الأيام الأولى لنظرية التحليل النفسي. لقد ترك رانك ـ كما ترك يونج ـ الحركة الفرويدية ليؤ سس لنفسه نظرية خاصة به، وتخلى كلية عن التقسيم الثلاثي للشخصية ووضع مكانه عنصري «الإرادة» Will و «الإرادة المضادة» Counter - Will واللتين هما في صراع دائم مبعثه خوف الإنسان من الانفصال Separation والخوف المضاد من فقد الهوّية Identity. ويتمثل نتاج هذا الصراع في بزوغ الشخصية التي يمكن أن تندرج تحت أحد الأنماط الثلاثة الآتية «الشخص العادي»، و «العصابي» و «الفنان».

ومن الواضح، أن هناك العديد من الطرق التي تستخدم في وصف بناء الشخصية والتي يصدر كل منها عن فكرة خاصة بطبيعة الإنسان. والأمثلة السابقة لا تستنفد بالضرورة كل الإمكانات التي ظهرت؛ كما لا يحتاج الأمر إلى خيال واسع من أجل التنبؤ بأن كل صورة منها سوف تؤدي في الواقع إلى أوصاف محسوسة مختلفة تماماً عن الشخص. أضف إلى ذلك أنه داخل كل بناء كبير ـ الهو والأنا والأنا الأعلى، الذات، مفهوم الذات، الإرادة ـ يوجد العديد من الصفات الأكثر تحديداً والتي يجب النظر إليها من أجل ملء الهيكل العظمي للنظام بمادة مناسبة من الحوافز والنزعات التوافقية والمفاهيم المتصلة بالذات. ومن أجل ذلك، ظهر لدينا نوعان أساسيان من

اللغة يمكن استخدامها وهما لغة السمات traits ولغة الأنماط types.

لغة السمات

من أبسط الطرق وأقدمها في وصف شخص ما بمصطلحات معينة، هي التعرف على أنماط السلوك التي تصفه وتسميتها بأسماء السمات. و «السمات» مفاهيم استعدادية dispositional concepts، أعني مفاهيم تشير إلى نزعات للفعل أو الاستجابة بطرق معينة. ومن المفترض أن الشخص ينقل الاستعدادات السيكولوجية من موقف لآخر، وأنها تتضمن قدراً من احتمال سلوك الشخص بطرق معينة. ويجب أن نميز مفهوم «السمات» عن مفهوم «الحالة» state التي تشير إلى استجابة تحدث الآن، كأن يعاني شخص ما مثلاً حالة قلق في موقف معين. أما أن نصف الشخص بسمة القلق، فهذا يعني أنه سوف يستجيب بحالة القلق في ظروف معينة، رغم أنه قد لا يعاني الآن من أي قلق. فوجود السمة لا يتضمن بالضرورة أن الشخص سوف يكون قلقاً دائماً، ولكن لديه فقط استعداداً للاستجابة بالقلق في مواقف معينة.

وإذا نظرنا إلى السمات من ناحية محتوياتها، فمن الممكن القول بوجود أنواع كثيرة ممكنة من السمات. وتحت هذا المدى من المحتويات تندرج سمات الدافع التي تشير إلى أنواع الأهداف التي يتجه نحوها السلوك، وسمات القدرة التي تشير إلى القدرات والمهارات العامة والخاصة، والسمات المزاجية كالنزعة إلى التفاؤل والاكتئاب والنشاط وغيرها، والسمات الأسلوبية stylistic التي تتضمن الإيماءات وأساليب السلوك والتفكير غير المرتبطة وظيفياً بأهداف هذا السلوك. وقد عالج واضعو نظريات السمات موضوع تحديد قوائم السمات بطرق مختلفة. فعلى سبيل المثال، بينما يضع كاتل Cattell (١٩٥٠) الدوافع ضمن قائمة السمات، نجد موري Murray (١٩٣٨) وماكليلاند McClelland (١٩٥١) يميزان بين السمات والدوافع حيث تتضمن السمات الوسائل المميزة التي تتحقق بها الأهداف.

وتحتوي كل لغة على عدد كبير من الكلمات التي تحدد سمات الشخصية. فقد يوصف الانسان بأنه خجول، عدواني، خانع، كسول، سوداوي، سهل المعاشرة، طموح، إلى غير ذلك. فالسمات قد تشير إلى تعبيرات ظاهرة أو سطحية كالعدوانية، أو إلى صفات أعمق أو أكثر استدلالية كالاعتقادات أو القدرة على التحكم في التعبير

عن الدافع. وعلى أي حال، فإن الجوانب الوصفية لنظرية الشخصية تتوقف على لغة السمات أو الاستعدادات. وكل نظرية منها تصنع مصطلحاتها الخاصة لتصور بها شخصاً بعينه أو الناس عامة.

وتعد بعض الأنظمة النظرية أكثر وضوحاً من بعضها الآخر في بيان السمات العديدة التي تكوّن الشخصية. فمثلاً، يعتقد كيرت ليفين Kurt Lewin (١٩٣٥) أن من غير المثمر أن نحاول وضع ثبت بجميع الدوافع التي تدفع الإنسان إلى العمل، أو بجميع المفاهيم التي يمكن أن توجد لديهم عن المصادر المتعددة للفعل. وكان من نتيجة ذلك، أن لم يكن لنظرية ليفين في الشخصية تطبيقات إكلينيكية واسعة، تهتم بصفة رئيسية بتشخيص ووصف المرضى الذين يعانون من مشكلات انفعالية وتوافقية مختلفة. وعلى العكس من ذلك، ذهب «هنري موري» (١٩٣٨)، وبكثير من الجهد، إلى وضع ثبت للنزعات الإنسانية الأساسية ووصفها. فمن بين الدوافع الاجتماعية، أورد موري الحاجة إلى الإنجاز، وإلى السيطرة، والاستقلال الذاتي، والعدوان، والانتماء، والرعاية، وغيرها. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لدى المهتمين بوصف الشخصية سواء في المجال الإكلينيكي أو مجال البحث، مفردات لغوية مفيدة تساعد على التمييز بين شخص وآخر. ومن ثم فقد أدى تحليل موري إلى جعل قائمة السمات المستخدمة في وصف الشخصية مألوفة لدى المشتغلين في هذا المجال. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لأفكار فرويد عن المراحل النفسية الجنسية (الفمية oral، والشرجية anal، والتناسلية genital) ومفاهيمه عن ميكانزمات دفاع الأنا. ذلك أن وجود القدر الوفير من المفردات اللغوية المتصلة بالسمات من شأنه أن يسير على الباحثين في الشخصية، وعلى علماء النفس الإكلينيكيين التمييز بين شخص وآخر عن طريق الوصف.

وعميد «سيكولوجية سمات الشخصية» هو بلا منازع «جوردون البورت» (١٩٣٧ و١٩٦١). لقد نظر البورت إلى السمات باعتبارها الوحدة الطبيعية لوصف الشخصية. وقد فحص هو وأودبرت Odbert (١٩٣٦) قاموساً مطولاً للغة الإنجليزية، وحددا ١٧,٩٥٣ كلمة تشير إلى صور شخصية للسلوك، وذلك من بين ٤٠٠,٠٠٠ كلمة. وكان هذا العدد أكبر بكثير من أن يستخدم بطريقة فعالة، لذا فقد أسقطا منه كل الكلمات التي تتصل بحالات مزاجية مؤقتة، والكلمات التي تعد في أساسها تقييمية أكثر منها وصفية، وكذلك تلك التي تشير أساساً إلى صفات جسمية أكثر منها نفسية. وبذلك اختصر البورت وأودبرت قائمة أسماء السمات إلى ٤٥٤١ كلمة. وقد

اعتبرا هذه السمات نقطة بداية طيبة لدراسة الشخصية. وقد صاغ البورت بعد ذلك في نظرية، تلك السمات التي تمثل جزءاً من الفطرة السليمة والاتجاه الحدسي في وصف الشخصية واللتي يستخدمها الرجل العادي في محاولته وصف شخص ما وعلى نحو ما نجده في خطابات التوصية.

وقد أكد البورت فكرة أن السمات هي خصائص متكاملة للشخص، وليست مجرد جزء من خيال الملاحظ، أعني أنها تشير إلى خصائص نفسية عصبية واقعية تحدد كيفية سلوك الشخص، ويمكن التعرف عليها فقط من خلال الملاحظة وعن طريق الاستدلال مما هو مركزي وأساسي، ومما هو هامشي وغير هام بالنسبة للشخص. كما أكد أيضاً وحدة كل شخص، ليس فقط في كل سمة فردية، بل وأيضاً في تنظيم هذه السمات في كل متكامل. وقد ميّز البورت بين سمات رئيسية cardinal وسمات مركزية central وسمات ثانوية Secondary. فبعض الناس تسيطر عليهم بؤرة واحدة للسلوك، ويعرفون عادة بهذه السمة البؤرية. وهذه البؤرة عندما توجد تمثل السمة الرئيسية. ومثال ذلك «دون جوان الأسطوري» الذي خضع أسلوبه في الحياة إلى مغامراته في الجنسية الغيرية. وقد اعتقد البورت أيضاً أن هناك عدداً من أسماء السمات يتراوح من خمسة إلى عشرة، يغطي عادة الخصائص الأساسية التي تميز فرداً عن آخر، وقد أطلق عليها اسم السمات «المركزية». أما السمات الثانوية فهي صفات إما هامشية أو ضعيفة، ومن ثم فهي قليلة الأهمية نسبياً في تحديد الشخص وأسلوب حياته.

وثمة مظهران هامان في نظرة البورت للسمات يجب الإشارة إليهما. أحدهما سبق الإشارة إليه في الفصل الأول، ويتصل بميل البورت إلى تغليب المنحى المتفرد لدراسة الشخصية في مقابل المنحى الناموسي، الأمر الذي يتسق مع توكيده على وحدة سمات الشخص، وعلى وحدة شخصيته بوجه عام. أما المظهر الآخر، فهو فكرة البورت التي تذهب إلى أن السمات ليست وحدات مستقلة داخل الفرد ولكنها مجموعة متواقفة Interdependent من الصفات تتجمع لأحداث الآثار السلوكية. وعلى ذلك، ففعل واحد مركب لا يمكن إرجاعه إلى سمة واحدة مفردة، بل هو دائمًا نتاج مجموعة من السمات المتواقفة، تسهم كل سمة منها في بعض مظاهر السلوك. وعلى ذلك، فعندما يقص شخص ما قصة في جمع من الناس فإن عدداً من السمات تسهم في هذه المجموعة من الأفعال. فليست فقط السمات الدافعة ـ كإقناع الآخرين أو التباهي أو تجنب الهجوم ـ هي المتضمنة وحدها، بل هناك بالإضافة إلى ذلك السمات الأسلوبية التي

تتصل بالطريقة التي يحكى بها القصة، أي هل يحكيها بخجل أو بضجر أو بتمثيل ظاهر. وعلى ذلك فسمات الشخص تشترك في تكوين تجمع متسق، وأسلوب مترابط للحياة وكل منظم. وهذا البناء يحتويه المفهوم المفرد للذات أو الذات «الممتدة المتميزة» Proprium على نحو ما أشار البورت.

وتتصل الذات الممتدة المتميزة (١٩٥٥) بجميع الخصائص المميزة المتعلقة بالشخص، بما في ذلك صورته الجسمية، وإحساسه بهوية الذات، وتقدير الذات، وامتداد الذات، والتفكير العقلي، والمعرفة.. إلخ. وهذه الوظائف الفردية تنمو على مدى حياة الفرد. وتستخدم الذات الممتدة المتميزة أو الذات فقط في تحليل البورت للشخصية، في صورة نعتية كمفهوم يسلم بأهمية صفات ما مثل تقدير الذات ومفهوم الذات، دون تجسيم هذه الصفات في «إنسان صغير داخل الإنسان» يقوم بتوجيهه. ومثل هذا «الإنسان داخل الإنسان» نجده أحياناً متضمناً في نظرية الشخصية باعتباره تفسيراً للسلوك، على حين أنه في الحقيقة مثال للحيلة الدائرية في التسمية بدلاً من التفسير. ومثل هذه التفسيرات الدائرية تثير سؤالاً آخر هو «مَنْ أو ما الذي يجبر هذا الإنسان الصغير داخل الإنسان بما يفعل؟. فمفهوم الذات الممتدة المميزة على نحو ما يستخدمه البورت ليس وحدة تحكم السلوك، ومستقلة عن أي شيء آخر، وإنما هو مصطلح يعبر عن مجموعة من الوظائف الهامة الأساسية التي تجعل الشخص متميزاً عن غيره من الأشخاص.

وإذا كان البورت هو عميد واضعي نظريات السمات، فإن رايموند كاتل هو بصورة ما، أحد كبار مخططيها أو مهندسيها، وذلك لأن الجهد الأساسي لكاتل (١٩٥٠) كان موجهاً نحو خفض قائمة سمات الشخصية بطريقة منظمة إلى عدد قليل يمكن معالجته بواسطة الطريقة الإحصائية التي تعرف بإسم «التحليل العاملي». وتعتمد هذه الطريقة على تحليل معاملات «الارتباط» intercorrelations بين ألوان السلوك وثيقة الصلة بالشخصية والتي يكشف عنها العديد من طرق الملاحظة والاختبارات، بحيث يمكن تحديد أي مقاييس الشخصية تتفق معاً، وأيها لا تتفق معاً، كما يمكن استخدام هذه الطريقة كأساس للاستدلال عن العوامل التي تكمن وراء النمط الملاحظ للتباين التلازمي covariance.

لقد أوضح كاتل هذا الأسلوب بمجموعة من المقاييس يمكن فهمها بسهولة.

لنفرض على سبيل المثال أننا نقيس قدرة مجموعة من طلاب الجامعة على عمل أربعة أشياء هي : حساب التفاضل والتكامل، وفهم موضوع في الطبيعيات، ولعب كرة القدم، والتزحلق على الجليد. إن من المتوقع أن نجد عند دراسة الارتباطات بين هذه القدرات الأربع، أن الذين يحصلون على درجات مرتفعة في حساب التفاضل والتكامل، يحصلون على درجات مرتفعة كذلك في الطبيعيات، وأن هؤلاء الذين يحصلون على درجات مرتفعة في كرة القدم، يحصلون كذلك على درجات مرتفعة في التزحلق. ولكن الأداء في المواد الأكاديمية يبدو أنه ضعيف الارتباط أو لا يرتبط بالأداء في الرياضات البدنية. وسيكشف التحليل العاملي عن وجود عاملين أو سمتين مصدريتين source traits (مركزيتين) يكمنان وراء مصفوفة معاملات الارتباط، يمكن تسمية إحداهما «بالقدرة الرياضية والعلمية» وتسمية الأخرى «بالقدرة على الألعاب الرياضية». ومن الطبيعي في المثال السابق، أن وجود العاملين اللذين يضمان معاملات ارتباط المتغيرات الأربعة أو عناصر السمة هو من الوضوح بحيث لا يصبح معه حساب التحليل العاملي أمراً ضرورياً.

ومع ذلك، عندما تحتوي مصفوفة معاملات الارتباط على عدد كبير من المتغيرات، وليكن مثلاً أثني عشر اختباراً من اختبارات الشخصية، فإن الحساب الإحصائي للتحليل العاملي يعتبر في هذه الحالة أمراً ضرورياً من أجل التحليل المثمر لنمط العلاقات والكشف عن العوامل المتعددة التي تفسرها.

وقد أوضح كاتل (١٩٦٥) أنه إذا أخذنا عدة مئات من الرجال أو النساء، وقام عدد من الناس الذين يعرفونهم جيداً بتقديرهم وفق ٦٠ عنصر سمة trait elements مختلفاً، فإن من الممكن التعرف عن طريق التحليل العاملي على عدد يتراوح بين (١٢ ـ ٢٠) من العوامل المستقلة أو السمات المصدرية. ومن الممكن إذن وضع الاختبارات لقياس هذه العوامل وتقديرها.

وقد وضع كاتل استبياناً لهذا الغرض أسماه «استبيان الشخصية للراشدين» (16 P. F) حيث وضع لقياس ١٦ سمة مركزية يعتقد أنها تفسر معظم عناصر سمات الشخصية الظاهرية الهامة. والجدول رقم ١ يوضح عشرة من هذه المتغيرات أو عناصر السمات، مع أوصاف مختصرة للصفات التي يتضمنها كل منها.

جدول ١ ـ عشرة عناصر سمات من كاتل[1]

١ ـ **المتكيف**: مرن؛ يقبل تغيير الخطة بسهولة؛ يرضى بالحلول الوسطى؛ لا يضطرب أو يفاجأ أو يرتبك أو يستثار إذا سارت الأمور على نحو مخالف لما يتوقعه. (مقابل)	**الجامد**: يصر على أن تتم الأمور على النحو الذي تعود أن يتمها عليه دائمًا؛ لا يكيف عاداته أو طرق تفكيره مع عادات الجماعة أو طرق تفكيرها؛ يرتبك إذا تغير أسلوبه الروتيني في الحياة.
٢ ـ **الانفعالي**: سريع القابلية للإستثارة؛ يصرخ كثيراً (كالأطفال)، يضحك بكثرة؛ يبدي الحب والغضب وكل الانفعالات بشكل زائد. (مقابل)	**الهادىء**: متزن، يبدي القليل من العلامات التي تكشف عن الإستثارة الانفعالية من أي نوع؛ يحتفظ بهدوئه، ويستجيب بصورة أوفى من المطلوب في المناقشة أو مواقف الخطر أو الضغوط الاجتماعية وغيرها.
٣ ـ **حي الضمير**: أمين، يعرف الواجب ويفعله عادة حتى ولو لم يلاحظه إنسان آخر؛ لا يقول الكذب أو يحاول أن يخدع الآخرين؛ يحترم ملكية الغير. (مقابل)	**عديم الضمير**: مجرد إلى حد ما من المبادىء الأخلاقية؛ لا يراعي كثيراً مبادىء الصواب والخطأ عندما تتدخل الرغبات الشخصية؛ يقول الكذب ويخدع الآخرين؛ ولا يحترم ملكية الغير.
٤ ـ **متمسك بالعرف**: يتمسك بالقواعد المقبولة وطرق السلوك والتفكير والملبس وغيرها؛ يعمل الشيء المألوف؛ يبدو حزيناً إذا وجد أنه يختلف عن الآخرين. (مقابل)	**لا يبالي بالعرف**: غريب الأطوار؛ يسلك بشكل مختلف عن الآخرين: لا يهتم أن يلبس نفس الزي أو يفعل نفس الأشياء كالآخرين؛ له اهتمامات واتجاهات وطرق للسلوك غريبة إلى حد ما، ويتبع أسلوبه الخاص الغريب إلى حد ما.
٥ ـ **الميل إلى الغيرة**: يحسد الآخرين على إنجازاتهم؛ يضيق إذا ألقى الغير اهتماماً ويتطلب المزيد منه لنفسه؛ سريع الامتعاض إذا وجد أن الاهتمام موجه لغيره. (مقابل)	**غير غيور**: يحب الغير حتى مَنْ هم أحسن منه؛ لا يضيق عندما يلقي الغير اهتماماً بل ويشارك في الثناء.
٦ ـ **حذر مؤدب**: يراعي حاجات الغير ويحترم مشاعرهم؛ يسمح لهم بالتقدم عليه في الصف، ويمنحهم نصيباً أوفى. (مقابل)	**متهور فظ**: متغطرس، متحد، وقح مع الكبار (إذا كان طفلاً)؛ لا يراعي مشاعر الآخرين؛ يعطي انطباعاً بأنه يخرج عن صوابه فيصبح فظاً.

١ ـ عن كاتل: (١٩٦٥ ص: ٦٣ ـ ٦٤)

٧ ـ **مستسلم**: يتوقف قبل أن ينتهي تماماً من العمل؛ مهمل؛ يعمل على نحو متقطع وغير منتظم؛ سهل التشتت؛ يبتعد عن أهدافه الأساسية بواسطة دوافع شاردة أو صعوبات خارجية. (مقابل) **مصمم، مثابر**: يسير نحو هدفه رغم الصعوبات أو الإغراءات؛ قوي الإرادة؛ مجد، مثابر؛ يتمسك بأي شيء حتى يحقق هدفه.

٨ ـ **رقيق**: تسيره المشاعر؛ حدسي، ودي، عطوف؛ حساس لمشاعر الآخرين؛ لا يعمل شيئاً من شأنه أن يكدر عليه مشاعره. (مقابل) **عنيد، جامد**: يسيره الواقع والضرورة أكثر مما تسيره المشاعر؛ غير ودود؛ لا يهمه أن يكدر الآخرين إذا كان هذا هو ما يجب أن يفعله.

٩ ـ **متواضع**: يؤنب نفسه (أو لا يؤنب أحداً) إذا سارت الأمور على نحو خاطىء؛ يكره أن يمتدح على إنجازاته؛ لا يبدو أنه يفكر في نفسه كشيء هام جداً، أو جدير بالإهتمام (مقابل) **مغرور**: يؤنب الآخرين كلما حدث صراع أو سارت الأمور على نحو خاطىء؛ كثير التباهي؛ يسرع إلى الحصول على التقدير عندما تسير الأمور في مجراها الحسن؛ عنده فكرة طيبة جداً عن نفسه.

١٠ ـ **وهن**: يشعر بالإجهاد، بطيء: يفتقر إلى النشاط؛ غامض وبطيء في الكلام؛ متوان، بطيء في القيام بالعمل. (مقابل) **نشط، يقظ فعال**: سريع، قوي، فعال، حاسم، مليء بالحيوية والنشاط والشجاعة.

والجدول رقم ٢ يوضح العوامل الستة عشر أو السمات المصدرية. ونحن نقدمها هنا للإشارة إلى المحتوى الواقعي لأهم السمات المصدرية للشخصية على نحو ما يراها واحد من الباحثين المبرزين في هذا المجال.

وليس يعنينا هنا الدخول في تفاصيل المناهج المتضمنة في هذه العملية الإحصائية والموضوعات التي تدور حول استخدامها، وإنما يكفي القول بأن التحليل العاملي على نحو ما استخدمه كاتل وغيره، يعد أحد العوامل لمحاولة تحديد السمات المصدرية الأساسية في تغير الشخصية. ومثل هذا التحليل يمكن استخدامه إذن في وصف الشخصية وفي تطور نظرية الشخصية. ويختلف أسلوب كاتل في وصف الشخصية وفي الفروض العامة عن الشخصية، إختلافاً تاماً عن ذلك التي نجده عند البورت. ورغم استعمال كل منهما للغة السمات، فإن إدراك كل منهما للشخصية يختلف تماماً عن إدراك الآخر لها.

جدول ٢ ـ «العوامل الستة عشر» أو السمات المصدرية[1].

السمة	المقابل
العامل أ A: السيكلوثيميا.	(مقابل) الشيزوثيميا.
اجتماعي.	(مقابل) عنيد، يرفض الانسحاب بعيداً عن الناس
العامل ب B: الذكاء العام.	(مقابل) الضعف العقلي.
العامل جـ C: الثبات الانفعالي أو قوة الأنا	(مقابل) عدم الاتزان الانفعالي
القدرة على إحداث التكامل المباشر والتحكم في الدفعات الانفعالية والاستجابات البدنية.	(مقابل) عدم القدرة على ذلك.
العامل د E: السيطرة أو السيادة.	(مقابل) الخضوع
العامل هـ F: غير الجاد Surgency	(مقابل) الجاد أو القلق الاكتئابي Desurgency or Depressive Anxiety.
توكلي، مبتهج.	(مقابل) مقيد (متحفظ)، مهموم نتيجة الكف الناتج عن التعرض للعقاب والحرمان
العامل و G: قوة الخلق أو قوة الأنا.	(مقابل) ضعف المعايير الداخلية
أوامر إيجابية ضد الكسل والاهمال أو تحمل المسؤولية.	(مقابل) العبث والتواكل الانفعالي وضعف الشخصية عامة
العامل ز H: مخاطر سهل التكيف تلقائياً وفقاً لتغير طارىء	(مقابل) الإنعزال الشيزوثيمي المتأصل (Parmia vs. Threctia).
مناعة باراسمبثاوية ضد التهديد (ومن ثم العارض)	(مقابل) سرعة القابلية للتهديد (مصحوبة بغتبات منخفضة)
العامل ح I: الحساسية الانفعالية.	(مقابل) النضج الصلب (الحساسية ضد الصلابة) (Premiavs Harria).
العامل ط L: الشيزوثيميا البارانوية.	(مقابل) الغيرية المفعمة بالثقة
توتر مسبق	(مقابل) استرخاء داخلي.
إسقاط وتوتر بارانوي.	(مقابل) عدم وجود النزعات المسقطة والتوتر
العامل ي M: عدم المبالاة الهستيري (أو البوهيمية)	(مقابل) الاهتمام العملي (Autia vs Praxernia)
إسترخاء تلقائي يستغرق الذات (انتباه للمثيرات الفكرية أكثر من الانتباه للمثيرات الحسية).	(مقابل) عدم القدرة على التخلص من مشاعر عدم الكفاية.

---

١ ـ أوصاف العامل من تقارير الحياة أو التقديرات السلوكية. أنظر كاتل (١٩٥٧)

العامل ك N: الحذلقة (مقابل) البساطة (الدهاء مقابل السذاجة).
السرعة والكفاية والواقعية (مقابل) الغموض والعاطفية والعجز عن ضبط النفس.

العامل ل O: عدم الطمأنينة والقلق (مقابل) رباطة الجأش والثقة بالنفس (الميل للشعور بالإثم مقابل الثقة بالنفس).

وكان هذا العامل يسمى من قبل بالقلق العائم؛ والجبن وعدم الكفاية وتحقير الذات عند القطب الموجب.

العامل م Q: التحرر (مقابل) المحافظة.
العامل ن Q_2: الإكتفاء الذاتي الإفتقار إلى الثبات والتصميم على أمر ما.

العامل س Q_3 ضبط الإرادة وثبات الخلق.

العامل ع Q_4: التوتر العصبي

لغة الأنماط

وأسلوب النمط Type يعد امتداداً للتفكير المستخدم في أسلوب السمة. فعلى حين يمكن أن تعزى عدة سمات إلى شخص واحد، ونقول إنه يتصف بهذه السمة أو تلك أو بمجموعة من السمات، فإنه في أسلوب النمط يمكن تبني خطة Scheme إجمالية أوسع، وأكثر توحداً، ألا وهي خطة التصنيف أو الوضع في خانات. فالفرد قد يصنف باعتباره ينتمي إلى نمط ما حسب مجموعة السمات التي يكشف عنها. فإذا شارك في مجموعة «سمات النمط» trait pattern، مع جماعة كبيرة من الأفراد الآخرين، فإنه ينتمي إذن هو وأفراد هذه الجماعة إلى نمط ما، ومن ثم فإننا نبسط الوصف إلى حد بعيد، طالما أننا لسنا في حاجة إلى أن نذكر بطريقة مستقلة كل سمة يشارك فيها كل فرد. مثال ذلك، إذا لاحظنا أن السذاجة naivité تصاحب مجموعة أخرى من الصفات كالميل إلى التقلب الوجداني الشديد، والإعاقة، وفقدان الذاكرة، وغير ذلك، فهذه المجموعة من السمات يمكن أن يشار إليها ببساطة بقائمة واحدة شاملة تسمى «الكبت» repression كأسلوب دفاعي. وثمة نمط آخر مضاد يمكن تحديده أيضاً يسمى «العزْل» isolation أو «التعقل» intellectualisation. فإذا عزلنا هاتين القائمتين المتعارضتين من قوائم الدفاع والتي تتكون كل منهما من مجموعة من السمات المتسقة معاً، فإن من الممكن القول الآن بأنه بسبب امتلاك الشخص لهذه المجموعة من السمات أو تلك، فإنه

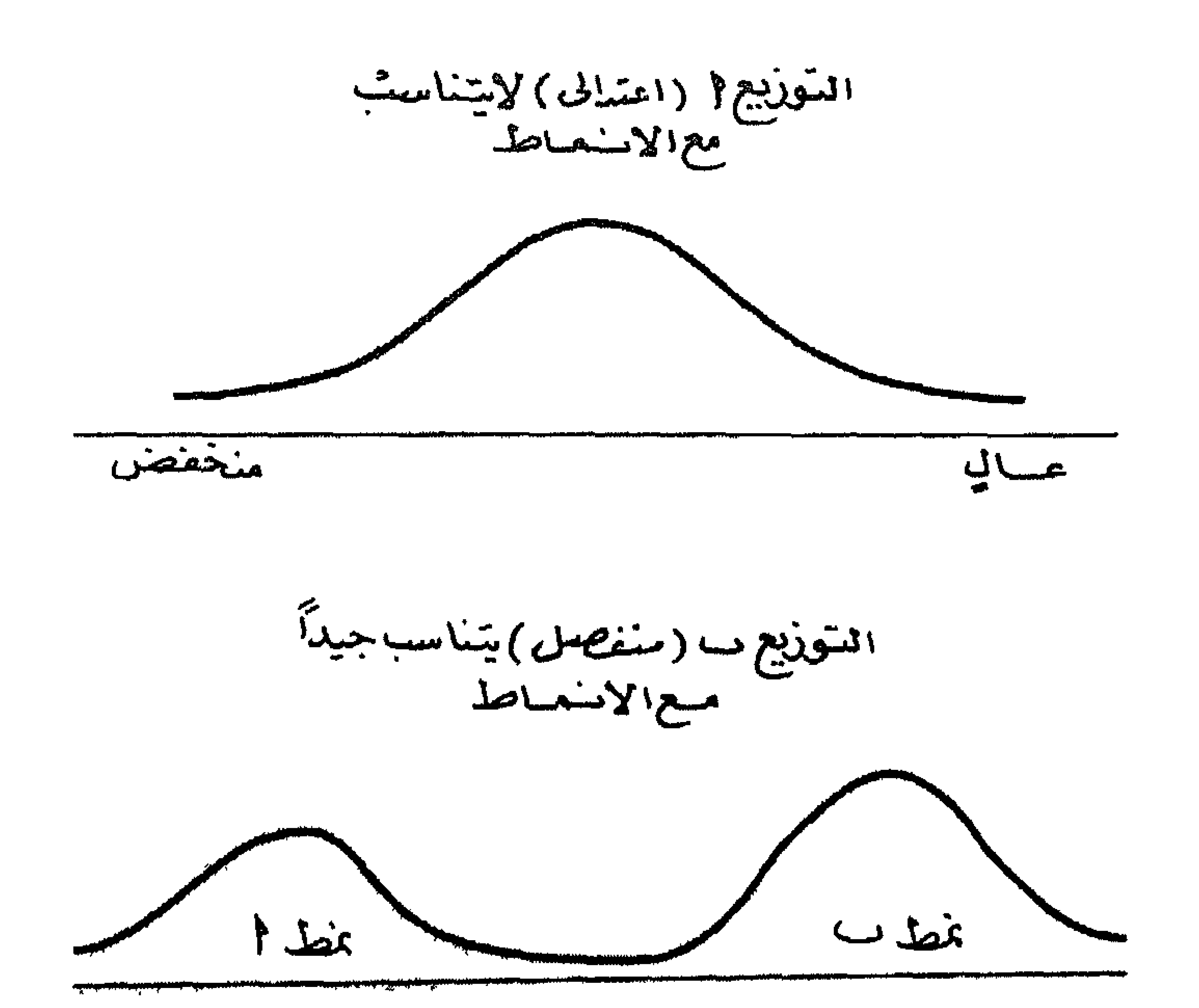
ينتمي إلى هذا النمط أو ذاك. فالأنماط إذن أنظمة معقدة من السمات المتعارضة التي يتم تبسيطها في مجموعة قليلة من القوائم الأساسية.

وكما كان الحال بالنسبة للسمات، فقد ظهرت المصطلحات اللغوية للأنماط منذ الآف السنين. وكما لوحظ في الفصل الأول، فإن أحسن نظرية للأنماط عرفت عند اليونان الأقدمين، كانت تلك التي نادى بها أبقراط في القرن الخامس قبل الميلاد. فبعد أن صاغ نظريته التي تذهب إلى أن الجسم يحتوي على سوائل أو أخلاط أربعة هي الصفراء والسوداء والبلغم والدم، ذهب أبقراط إلى أن الشخصية تتوقف على أي من هذه الأخلاط يكون له السيادة في الشخص، وعلى ذلك فالصفراء صاحبت الشخص ذي المزاج السريع الغضب أو «الغضوب» choleric، والسوداء صاحبت «الميلانخوليا» melancholy، والبلغم صاحب الشخص الكسول «المتبلد» Phlegmatic، بينما صاحب الدم الشخص المرح النشيط أو «الدموي» sanguine.

وتعتبر نظرية كارل يونج (١٩٣٣) من بين النظريات الحديثة الواسعة الانتشار في أنماط الشخصية. وتتضمن طوبولوجية يونج قائمتين عريضتين ـ المنبسط extrovert وهو الذي يتجه أساساً نحو الآخرين والعالم الخارجي، والمنطوي Introvert وهو الذي يكون أكثر اهتماماً بنفسه وبعالمه الذاتي. والانبساط والانطواء يعبر عنهما بعديد من الوظائف هي التفكير والوجدان والحس والحدس؛ ولذا فإن أنماط يونج هي في الواقع أكثر تعقيداً بكثير مما يظن الناس عادة. فالفرد يمكن أن يكون مثلاً منبسطاً مفكراً، ولكنه يكون في نفس الوقت منطوياً في وظيفة الحدس.

وثمة نظرة هامة تذهب إلى أن طوبولجية typology المنبسط ـ المنطوي ليست نموذجاً مثالياً لمفهوم الأنماط لأن المنطويين والمنبسطين ينظر إليهم عادة باعتبارهم موزعين على بعد متصل Continum أكثر من كونهم يمثلون تقسيمًا ثنائياً Dichotomy. ففي الفكر الطوبولوجي الحديث (مثلاً كاتل ١٩٦٥ وايزنك ١٩٥٢) أمكن التمييز بين الأنماط بعضها البعض على أساس اختلافها كيفياً أكثر من مجرد الاختلاف في الدرجة. وهذا ما يتضح في الشكل رقم ٤ حيث يشير التوزيع أ إلى شكل التوزيع الإحصائي الاعتدالي (المنحني الجرسّي الشكل) لمجموعة من الناس ذوي الدرجات المرتفعة أو المنخفضة في سمة معينة كالذكاء أو ضبط الذات مع تكدس الأغلبية في المدى المتوسط. ومن الناحية الأخرى يشير التوزيع ب إلى تجمعين متميزين، أحدهما في الطرف الأدنى والآخر في الطرف الأعلى. والتوزيع ب يمثل ما نعنيه بالأنماط أكثر مما يمثله التوزيع أ. إن ثمة

أهمية قليلة في استخدام تصنيفات النمط في حالة التوزيع أ، فهو أشبه بقولنا إن طوال الناس يختلفون في النمط عن قصار الناس، على حين أنه يوجد في الواقع بعد متصل يتكدس فيه معظم الأفراد عند مكان ما في المدى المتوسط. ويكون استخدام مفهوم الأنماط أكثر ملاءمة عندما تكون الأنماط منفصلة، وتكشف كيفياً عن خصائص مختلفة على نحو ما عليه الحال في سلالات الكلاب، وأنماط فصائل الحيوان، أو الناس الذين يفضلون استخدام صور مختلفة من الميكانزمات الدفاعية كالإنكار في مقابل الإسقاط. وتعد أنماط فرويد الخاصة بالأنماط الفمية والشرجية والتناسلية، على نحو ما سنوضحها فيما بعد، مثالاً لأنماط تعكس بصورة أوضح مثل هذه الاختلافات الكيفية.



شكل ٤: التوزيع الاعتدالي أو المتصل والتوزيع المنفصل الذي يقوم عليه التفكير الطوبولوجي.

وتبزغ فئات الأنماط عند فرويد (١٩٣٣) من نظريته في النمو النفسي الجنسي. وفي هذه النظرية - كما سنرى بالتفصيل فيما بعد - يمر كل فرد بمراحل ثلاث نفسية - جنسية طفلية تتميز تبعاً للوسائل الأولية للإشباع الجنسي المميز لكل مرحلة منها. ففي المرحلة الفمية، يتركز النشاط الشبقي حول الشفاه والفم، بينما يتركز في المرحلة

الشرجية حول استثارة الشرج، على حين يكون التركيز في المرحلة القضيبية Phallic على الأعضاء التناسلية. وفي مجرى هذا النمو النفسي الجنسي يفشل بعض الأفراد في التقدم بصورة سوية نحو المرحلة التالية. ورغم بلوغهم في النهاية سن الرشد، فإن النزعات النفسية الجنسية الأولية الدالة على المرحلة الخاصة غير الناضجة تظل مستمرة، وتسيطر هذه النزعات على الشخصية، وتحدث السمات السيكولوجية المميزة ذات الصلة بهذه المرحلة.

ولقد حدد فرويد ثلاثة أنماط من الشخصية، تقوم على «تثبيت» Fixation الطاقة النفسية الجنسية أو الليبيدية Libidinal عند مرحلة معينة فجة من مراحل النمو. فالنمط الفمي يتميز بالاتجاهات السلبية والاتكالية تجاه الآخرين، والتي يواصل فيها الفرد البحث عن السند لدى الآخرين (كما في حالة التغذية). ونتيجة لحدوث التثبيت خلال المرحلة الفمية، يكون النمط الفمي إما متضائلاً، غير ناضج، يثق بالآخرين؛ أو يكون متشائمًا، شكاكاً، ساخراً من احتمالات الكسب أو الاحتفاظ بالسند المطلوب. والنمط الشرجي له أيضاً مرحلتان فرعيتان يتميز الأول منها بانفجارات العدوان، والقذارة، والمشاكسة، بينما تتميز الثانية بالعناد، والنظام، وشدة البخل. أما النمط القضيبي فيتميز بعدم نضج المراهقة مع صراعات جنسية غيّرية تصدر عن عقدة أوديب التي لم تحل. ومن الناحية السيكولوجية فإن المرحلة القضيبية (والنمط كذلك) يمكن أن تكون مرحلة عاصفة؛ ومصحوبة بذبذبات انفعالية حادة واهتمامات زائدة باختيار موضوع الحب.

وثمة نقاط ثلاث أخرى يجب التوكيد عليها في علاقتها بأنظمة السمة والطوبولوجيات على نحو ما أوضحنا سابقاً. الأولى: لقد سبق أن قلنا إن نظريات الأنماط وتحليلات السمة متوافقة Interdependent إلى حد بعيد. فمن الضروري أن يمتلك الفرد عدداً من السمات إذا أريد له أن يوضع تحت نمط معين وليكن الشخصية الشرجية. فإذا كشف الفرد عن تجمع لسمات العناد والنظام وشدة البخل، فإنه يتفق إلى حد بعيد مع النمط الشرجي. وعلى ذلك فإن تحليلات السمة والنمط تمثل أسلوباً مشتركاً ومتوافقاً من أساليب التفكير والحديث عن بناء الشخصية.

ثانياً: إن تحليلات السمة، وكذلك الأنماط ـ إذا ما توسعنا في تحليلات السمة ـ تقوم عادة على قضايا نظرية معينة عن بناء الشخصية وعملياتها والتي تعتبر فئات الأنماط مثالاً توضيحياً لها. فمن يكتب عن الأنماط يكون في ذهنه عادة مبادىء صريحة أو ضمنية

عن الطريقة التي تعمل بها الشخصية. وعلى ذلك، فقد نظر أبقراط إلى الحياة العقلية على أنها تخضع لسوائل أو أمزجة، ومن ثم أتت أنماطه إنعكاساً لهذا المفهوم. وقد بسط يونج فكرة إن بعض الوظائف السيكولوجية تتضح في أسلوب حياة الشخص (أو ما أسماه الوظائف العليا)، بينما يكون بعضها الآخر ثانوياً ولا شعورياً (الوظائف الدنيا)، على الرغم من أن هذه الأخيرة تشكل مع ذلك قوى هامة في الشخصية. فنظريته في الأنماط والتي تتضمن دائمًا قطبين: كالانبساطية ـ الانطوائية، تعكس وجهة نظره. وبالمثل، حاول فرويد أن يوضح مفاهيم النمو النفسي الجنسي ودينامياته في أنماطه الخاصة بالشخصيات الفمية والشرجية والقضيبية.

ثالثاً: يبدو أن التفكير الطوبولوجي في الشخصية أكثر تلاؤماً مع أسلوب البحث ذي المنحى المتفرد ومع النظرة الأكثر شمولية للشخصية؛ بينما يبدو التفكير بالسمات أكثر تلاؤماً مع أسلوب البحث ذي المنحى الناموسي ومع قياس الصفات الفردية. فإذا أمكن تصنيف الناس تحت عدد محدود من الأنماط أو القوائم، فإن من الممكن إذن أن نتشجع ونختار شخصاً معيناً كنموذج ومثالٍ لكل نمط، وأن ندرس كل شخص دراسة متعمقة. فالفرد يدرس، إذن، كممثل لكل مجموعة الأشخاص الذين يشتركون معاً في بعض الصفات المشتركة. ولما كانت الطوبولوجيات في الشخصية تميل إلى أن تقوم على صفات كبرى «كأسلوب الحياة عامـة» أكثر مما تقوم على اختلافات متفردة وضئيلة، فإن هذا الأسلوب يخضع أساساً للتحليل الشامل (أو الكلي). وعلى العكس، فإن تحليل السمة يتضمن وجود الكثير من الصفات الفردية للشخصية والتي يظهر كل منها بمقادير متفاوتة لدى الأفراد المختلفين. وتصبح هذه السمات، وكذلك عملية تعميم وظائفها في الناس عامة، هي مراكز الاهتمام الكبرى، بدلاً من تركيز الاهتمام على الشخص الفرد باعتباره كلاً منظمًا. وعلى ذلك، فيبدو أن ثمة صلة عقائدية بين الطوبولوجيات وأسلوب البحث الذي يهتم بالمنحى المتفرد، مثلما تقوم الصلة بين تحليل السمة وأسلوب البحث ذي المنحى الناموسي.

وهناك طوبولوجيات أخرى للشخصية؛ مثلما توجد كذلك نماذج نظرية أخرى للشخصية. ويستخدم كل منها طرقاً مختلفة لوصف بناء الشخصية، أعني أن كلاً منها يحدد وحدات مختلفة للوصف تتناسب مع الافتراضات النظرية للنظام. ومعظم النظريات تستخدم لغة السمات والأنماط طالما أن هذه اللغة تجعل من الممكن أن نلمس

بناء الشخصية في ضوء هذه النظرية المعينة. ومثل هذه اللغة تعد أساسية لوصف الشخصية.

وحدة التحليل في وصف الشخصية

من الممكن أن نجد عدداً من الموضوعات التي توضح الاختلافات بين نظريات الشخصية المتعددة في طرف إدراك بناء الشخصية وعملياتها. ومع ذلك، هناك موضوع واحد تبرز أهميته الخاصة ليس فقط في نظرية الشخصية، بل وأيضاً في علم النفس كله، وهو ما سوف نعالجه فيما يتبقى من هذا الفصل. وهذا الموضوع يتصل بوحدة التحليل التي تستخدم في وصف الفرد. وهناك بديلان أساسيان. الأول: «أن الشخص في الموقف» يمكن أن يتخذ أساساً كوحدة للتحليل مع التركيز على الموقف أو المثير كحقيقة طبيعية يجب أن يستجيب لها الفرد وفقاً لصفاته الموضوعية. وهذه النظرة للشخصية تعتبر نظرة تفاعلية Interactive، يكون السلوك فيها نتاج التفاعل بين مجموعتين من المتغيرات: خصائص الشخص (حاجاته ودوافعه وعادات إدراكه وتفكيره إلخ) والموقف الذي يوجد فيه. أما البديل الثاني فهو النظر إلى «الشخص ذاته» باعتباره الوحدة الأساسية للتحليل مع عدم التركيز على الموقف كحقيقة موضوعية وإنما على إدراكات الفرد للموقف، أعني الموقف كما يراه الفرد ذاتياً. ولننظر لكل من وجهتي النظر الفلسفتين هاتين مع التركيز في كل حالة منها على دور المثير أو الموقف.

المثير كحقيقة موضوعية:

إن أحد الأشياء الملفتة للنظر فيما يتصل بسلوك الحيوان والإنسان هو أنه سلوك تكيفي إلى حد بعيد، أعني أن الأفعال وردود الأفعال تتناغم جيداً مع العالم المثير. فنحن نستجيب للأصوات والمرئيات واللمس وغيرها بطرق يمكن التنبؤ بها من معرفتنا بالخصائص الطبيعية لهذه المثيرات. فنحن عندما نريد التقاط شيء ما، فإن أصابعنا لا تتجه عادة إلى مواقع أعلى أو أدنى بكثير، بل تمتد بدقة بمقدار المسافة المضبوطة من أجل التقاط هذا الشيء. ونحن حين نسير في الطريق لا يصطدم أحدنا بالآخر لأن حواسنا يبدو أنها تدرك بدقة حقائق العالم المثير، وتسمح لنا أن نستجيب بطريقة مناسبة. ونحن نحصل أيضاً على تغذية مرتدة Feedback دقيقة من أفعالنا تسمح لنا أن نقوم بتعديلها عند الضرورة.

وتميل نظريات الشخصية التي أكدت هذه الحساسية التكيفية للكائن الحي العضوي مع العالم الطبيعي إلى الارتباط بقوة بميكانزمات «التعلم». ويتجه تركيز اهتمامها إلى كيف نتعلم أن نستجيب استجابة مناسبة، بطريقة أو بأخرى إلى المثيرات التي نتعرض لها. ومثل هذه الاستجابات ينظر إليها إذن باعتبارها صادرة عن مثيرات تمثل عناصرها الأساسية الموجات الضوئية والموجات الصوتية والشكل والوزن والحجم والمسافة والضغوط على الأنسجة أو العناصر الكيميائية التي تحدث أثرها في المستقبلات الحسية. وبعبارة أخرى، نحن نستجيب للمثيرات الطبيعية الموضوعية الصادرة عن البيئة الخارجية، مثلما نستجيب لتلك الصادرة عن البيئات الداخلية لأجسامنا. ومن وجهة النظر هذه تعتبر كل استجاباتنا السلوكية، استجابات للمثيرات الطبيعية الموضوعية، وهي ترسخ بموجب عمليات التعلم، كعادات للتوافق معها.

وعلى الرغم من أن كثيراً من علماء النفس الذين يؤمنون بهذا الاتجاه، كانوا مهتمين، من قبل، بمبادىء التعلم فحسب، إلا أن بعضهم وصل إلى معرفة أن مثل هذه القضايا عن التعلم يمكن أن يكون لها تطبيقات على السلوك عامة وعلى الشخصية. ولذا، اتسعت نظريات التعلم لتصبح نظريات عن الوظائف السيكولوجية للإنسان ككل. وربما كان أحسن مثال معروف لنظرية عامة للسلوك، تلك التي نادى بها كلارك هَلْ Clark Hull (١٩٤٣)، الذي أثرت أفكاره تأثيراً كبيراً في علم النفس عبر الحقب العديدة الماضية. ولكن الامتداد الواضح لهذا النوع من التفكير في الشخصية، هو ما يتمثل جيداً في كتابات جون دولارد John Dollard ونيل ميللر Neal Miller (١٩٥٠). فالشخصية في نظرهما تتكون أساساً من عادات الاستجابة التي يكتسبها الفرد من استجابته للمثيرات الطبيعية عن طريق عملية التعلم. والمبدأ الأساسي هنا هو قيام ارتباط أو صلة بين مثل هذه المثيرات والاستجابات التي تستثار في وجودها. وينصب الاهتمام على المثير الطبيعي الموضوعي باعتباره الحادثة التي تستثير الاستجابة والتي يمكن تحديدها دون الرجوع إلى الكائن الحي المستجيب. أما وصف الشخص فإنه يتم إذن في ضوء الأنظمة المكتسبة أو المتعلمة لعادات الاستجابة. ويكون المقوّم الأساسي للفروق الفردية في الشخصية هو أنماط العادات المتباينة سواء كانت هذه العادات مهارات بسيطة، أو انفعالات ودوافع وعقائد ودفاعات معقدة، أو أعراضاً عصابية. فسلوك الفرد يفهم إذن بالإشارة إلى متغيرين مستقلين ولكنهما متفاعلان: الفرد من ناحية والموقف من ناحية أخرى، أعني «الفرد في الموقف».

المثير كما يدركه الفرد:

وعلى نقيض النظرة السابقة للشخصية، توجد مجموعة من نظريات الشخصية تعرف باسم النظريات «الظاهراتية» Phenomenological. وهذه النظريات الأخيرة تعتمد على التركيز على الإدراك والمعرفة أكثر مما تعتمد على التعلم. إن تعريف المثير، طبيعياً وموضوعياً، يثير في نظر أصحاب هذه النظريات مشكلة لا يمكن حلها، ألا وهي أن إدراكنا للأشياء لا يتماثل بالضرورة مع الأشياء ذاتها. فحواسنا لا تنقل مباشرة الأشياء الطبيعية، وإنما نحن نستجيب لتصورات representations الأشياء، أعني الأشياء على نحو ما تنقلها أجهزة إدراكنا، كوسائط، وكذلك تفسيراتنا الذاتية لها. فالظاهراتي يذهب إلى أن الأشياء الطبيعية ذاتها لا تحدد استجاباتنا، وإنما الذي يحددها هو الأبنية والعمليات الوسيطة داخل الفرد والتي تنقل المثيرات الطبيعية. ومن وجهة النظر هذه، فإن أسباب أفعالنا يجب إعادة تكوينها من خلال استدلالات عن هذه الوسائط أو التطورات السيكولوجية للمثيرات الخارجية.

وعلى ذلك، فبدلاً من التركيز على المثير الطبيعي الموضوعي، فإن النظريات الظاهراتية للشخصية تركز على العمليات المعرفية الوسيطة كالإدراكات والمفاهيم المتعلقة بالأحداث، أعني العالم «الظاهري» Phenomenal للأحداث أكثر من تركيزها على العالم الموضوعي لهذه الأحداث. أضف إلى ذلك، أنهم يذهبون إلى أن سبب الفعل هو العالم على نحو ما يدركه الفرد ذاتياً، وهذا العالم الذاتي يمكن بالطبع أن يكون مختلفاً تماماً عن الواقع الموضوعي. كما أن أوصافهم للشخصية هي أوصاف للعمليات المعرفية الوسيطة التي تميز فرداً عن آخر، والتي يفترض أنها سبب سلوكه. وباختصار، فإن وحدة التحليل هي «الفرد»، طالما أنه تكمن بداخله المكونات الرئيسية التي يبنى عليها سلوكه. فنحن لا يمكننا معرفة الفرد بالرجوع إلى الموقف، طالما أن هذه المعرفة تتم فقط من خلال العمليات المعرفية الذاتية الكامنة داخل الفرد.

وقد أخذت النظريات الظاهراتية في الشخصية شكلين أساسيين: الأول يدور حول مفهوم «الذات»، والثاني يشير عموماً إلى معارف عن العالم. ويشتمل النوع الأول على أنظمة للشخصية لدى علماء لهم تأثيرهم من أمثال كارل روجرز (١٩٤٧ و ١٩٥١) وإبراهام ماسلو (١٩٥٤) وكيرت جولد شتين (١٩٤٠) وبعض ملامح رأي هنري موري (١٩٣٨) في الشخصية. أما المجموعة الثانية فمن أحسن نماذجها نظرية المجال

لكيرت ليفين (١٩٣٥) ونظرية جورج كيللي George Kelley (١٩٥٥) في مكونات الشخصية. ولا يسمح المجال هنا بالتوسع في الحديث عن كل منهج من مناهج وصف الشخصية هذه. ولذا سوف نوجز في مناقشة مختصرة الصور الأساسية فيها، وسوف نعرض أولاً نظرية المجال لليفين، ثم نظرية مفهوم الذات لروجرز.

اتجاه ليفين:

إن التصورات السيكولوجية للعالم عند ليفين، والتي يشار إليها «بحيز الحياة» Life - Space تتألف من حاجات الفرد وإمكاناته المتاحة للفعل على نحو ما يدركها. وكل مظهر في البيئة المادية للفرد لا يكون جزءاً من «حيز الحياة» ولا يستجيب له الفرد بشكل مباشر، فإنه يمثل الغلاف الخارجي Foreign Hull لحيز الحياة. ولفهم سلوك شخص ما في أية لحظة يجب إعادة بناء حيز الحياة ووصفه في تلك اللحظة، أي علينا أن نفهم القوى السيكولوجية التي تعمل حينذاك.

وقد وصف ليفين هذه القوى عن طريق الرسم في أشكال طوبولوجية تتضمن: مناطق الهدف (وتظهر في الرسم كمناطق مغلقة)، والتكافؤات Valences الموجبة أو السالبة (ويشار إليها بعلامات + أو −) التي تحدد الجوانب المرغوبة أو غير المرغوبة في حيز الحياة، ثم الكميات الموجهة Vectors (الأسهم) التي تشير إلى الاتجاهات التي ينجذب إليها الفرد، ثم الحواجز (الخطوط الفاصلة بين الفرد، والأهداف الموجبة) التي تعوق أو تقلل من الاقتراب من أية منطقة تكون بمثابة الهدف. وقد تؤثر قوى كثيرة في حيز الحياة، كما أن سلوك الفرد في أي وقت يكون محصلة لها. والشكل رقم ٥ يصور شكلاً بيانياً قدمه ليفين يمكن تفسيره على النحو التالي:

قد يمر طفل بمحل للحلوى وينظر خلال النافذة ويتمنى لو يحصل على بعض منها. ورؤية الحلوى تستثير الحاجة. . وهذه الحاجة تؤدي إلى حدوث ثلاثة أشياء: أنها تطلق الطاقة ومن ثم تستثير التوتر في منطقة شخصية ـ داخلية (الجهاز الراغب في الحلوى)، وهي تضفي تكافؤاً إيجابياً على المنطقة التي توجد فيها الحلوى. فهي تخلق قوة تدفع الطفل في اتجاه الحلوى.

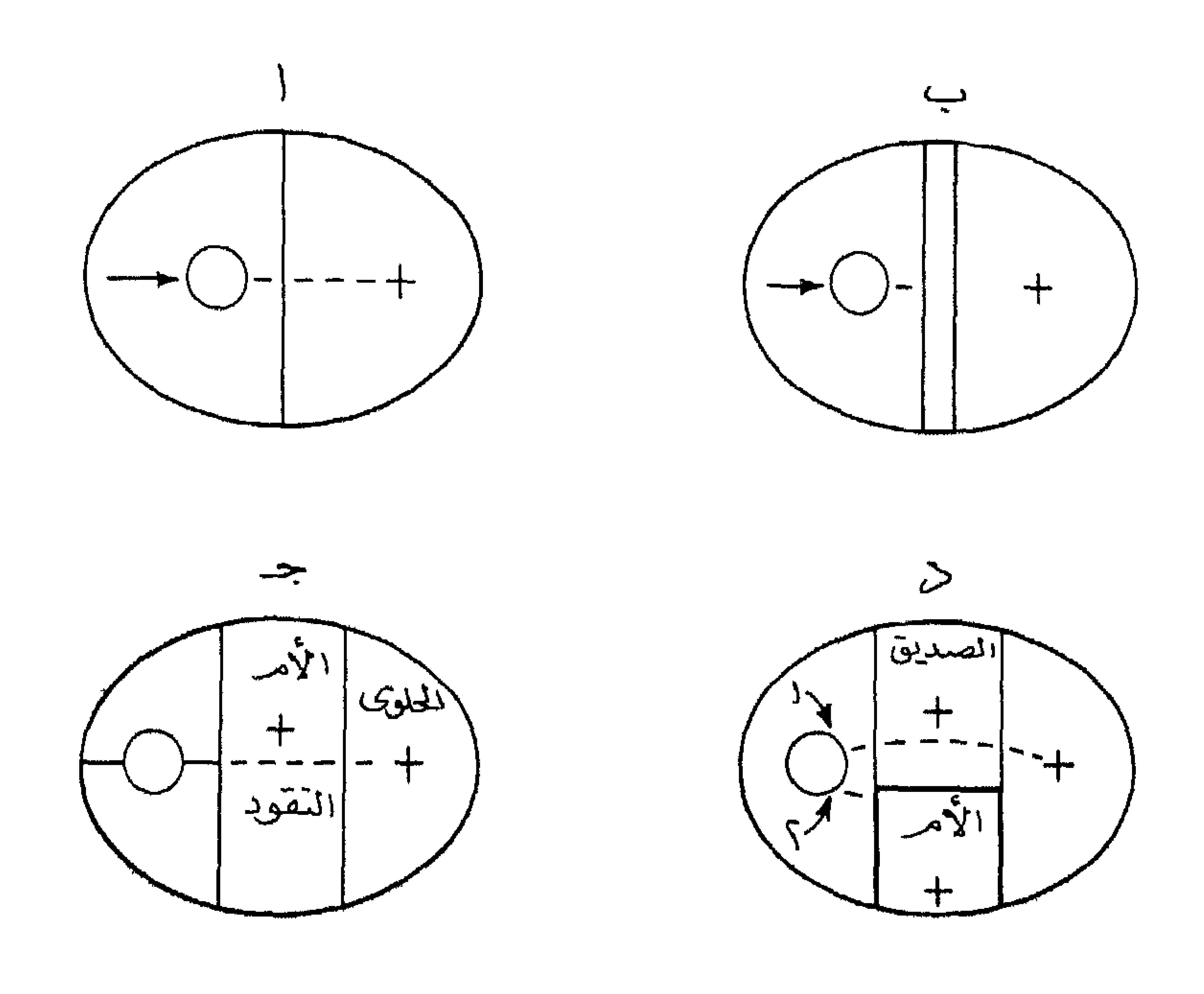
ولنفرض أن على الطفل أن يدخل المحل وأن يشتري الحلوى. هذا الموقف يمكن تمثيله بالشكل (أ). ولكن لنفرض أن الطفل ليس معه نقود. فيصبح بذلك الحاجز الفاصل بينه وبين الحلوى لا يمكن اجتيازه. إنه سوف يتحرك مقترباً جداً من الحلوى وبقدر ما يمكنه، وربما ضغط بأنفه على زجاج المحل دون أن يستطيع الوصول إلى الحلوى (شكل ب).

وقد يقول لنفسه: لو كان معي نقود لأمكنني شراء بعض الحلوى. ربما تعطيني أمي شيئاً من النقود.

وبعبارة أخرى تخلق حاجة جديدة أو شبه ـ حاجة لدى الطفل وهي قصد الحصول على بعض النقود من أمه. ويستثير هذا القصد بدوره توتراً وكمية موجهة وتكافؤاً يتمثل في الشكل (حـ). ولقد رسم حاجز رفيع بين الطفل وأمه على زعم أن عليه أن يذهب إلى المنزل وأن يجد أمه وأن يطلب منها نقوداً. وكذلك رسم حاجز آخر رفيع بين الأم والحلوى لتمثيل المجهود اللازم للعودة إلى المحل والقيام بشراء الحلوى. فالطفل يتحرك في اتجاه الحلوى عن طريق الأم.

ولكن إذا رفضت الأم أن تعطيه نقوداً، فقد يفكر في اقتراضها من صديق. وفي هذه الحالة تحاط المنطقة التي تحتوي الأم بحاجز لا يمكن النفاذ منه، ويرسم ممر جديد يوصل إلى الحلوى خلال المنطقة التي يوجد بها الصديق على نحو ما يتمثل في الشكل د.

وهذا التمثيل الطوبولوجي يمكن تعقيده بلا حدود، وذلك بإدخال مناطق بيئية إضافية وحواجز ذات درجات مختلفة من الصلابة، وحاجات إضافية وما يلازمها من نظم للتوتر وتكافؤات وقوى موجهة. (أنظر هول ولندزي ١٩٥٧ ص: ٢٣٠ ـ ٢٣١).



شكل ٥ ـ تخطيط ليفين الذي يمثل التغير في حيز الحياة لدى طفل في تفاعل سيكولوجي معين مع بيئته.

والعناصر الهامة في نظام ليفين هي : الأحداث السيكولوجية التي ينظر إليها في ضوء مكون «حيز الحياة» الذي يتضمن التعريفات الذاتية للبيئة . أما الاستدلالات عن حيز الحياة فإنها تستمد دائمًا من الملاحظة المنظمة لسلوك الفرد في البيئة . ومع ذلك ، فإن حدود تحليل السلوك ومجاله ليست هي السمات الثابتة والأشياء الساكنة ، وإنما هو إدراك الفرد الذاتي الشخصي لبيئته وعلاقته بها .

إتجاه روجرز :

تعتبر نظرية الذات لروجرز ظاهراتية أيضاً ، كما أن مفاهيمها قد صيغت كذلك في لغة الخبرة الذاتية (مثال ذلك : ماذا نريد وكيف نفكر ونشعر) . ومفهوم روجرز الذي يشابه مفهوم حيز الحياة عند ليفين هو «المجال الظاهري» Phenomenal field . ولب هذا المجال (أو الجانب الأكثر أهمية فيه) هو «مفهوم الذات Self - concept ، أعني فكرة الفرد عن مَنْ هو في علاقته ببيئته . وهذا المفهوم للذات هو الذي يحدد سلوكه . وتعد هذه الذات الظاهرية بالنسبة للفرد نفسه ، حقيقة . فالشخص لا يستجيب للبيئة الموضوعية ، وإنما لكيفية إدراكه لها بصرف النظر عما تكون عليه هذه الإدراكات من تحريفات أو ذاتية . وهذه الحقائق الذاتية هي فروض مؤقتة يضعها الفرد عن المواقف البيئية .

وعلى ذلك ، فقد يدرك شخص ما نفسه « كمصلح» يؤدي رسالة تتمثل في علاج أمراض عالمية معينة ومساعدة الآخرين على «أن يروا النور» . وقد يدرك شخص آخر نفسه «كشخص واقعي» يقدر على تقبل ضعف الطبيعة البشرية والمؤسسات الاجتماعية للإنسان بلباقة والاستفادة منها أيضاً . فمفاهيم الذات معقدة ومتغيرة ، كما أنها تحدد كيف يستجيب الفرد للمواقف المختلفة الكثيرة وكيف يتعامل معها . وهذه التصورات التي يكونها الفرد عن مَنْ هو وما هو ، لا تتضمن فحسب قيمه المركزية وأنظمة معتقداته ، بل وتشتمل أيضاً على صورة الفرد الجسمية من حيث القوة أو الضعف ، والجاذبية أو عدم الجاذبية ، كونه محبوباً أو غير محبوب إلى غير ذلك ، والتي تقوم جزئياً على التقديرات التي يعكسها الآخرون الذين يتصل بهم الفرد . وهذا الجزء المتمايز من المجال الظاهري أو مفهوم الذات هو الذي يحدد ، في نظر أصحاب الذات ، السلوك كله . وبالطبع ، فإن معظم السلوك ينتظم حول الجهود التي تبذل لحفظ الذات الظاهرية وتعزيزها .

وعلى حين يهتم ليفين بعملية إعادة بناء حيز حياة الفرد بقواه السيكولوجية المتعددة عن طريق ملاحظة كيف يسلك هذا الفرد في المواقف المختلفة، فإن روجرز يعين مفهوم الذات إلى درجة كبيرة عن طريق الاستبطان. وبعبارة أخرى، يعرف أصحاب نظرية روجرز نظام الذات لشخص ما بالاستماع إلى تقريره اللفظي الاستبطاني عن نفسه وتصوراته لنفسه والعالم، وهذا ما يحدث عادة في إطار العلاج النفسي. أما ليفين، فإنه على العكس، يلاحظ بطريقة منظمة السلوك في مواقف طبيعية وتجريبية متعددة.

مقارنات أخرى:

إن وجهتي النظر السابقتين عن كيفية النظر إلى المثير، ليستا متباعدتين في الحقيقة على نحو ما يبدو، كما أن تقرير وجهتي النظر هاتين دون تقديم وصف لهما يعد تبسيطاً زائداً عن الحد. ويجب أن نتذكر أن كلا من وجهتي النظر تؤكد نوعين من الأحداث. الأول، تلك التي يكون فيها سلوك الإنسان متكيفاً إلى حد بعيد ويبدو مستجيباً للبيئة. والثاني، تلك التي يكون فيها السلوك سيء التكيف ويبدو أنه يقوم على إدراكات أو أحكام خاطئة عن البيئة. ومن الواضح أن نظريات الشخصية يجب أن تستخدم للتعامل مع هذين النوعين من الأحداث، وبقدر استخدامها بنجاح، فسوف لا تكون وجهات النظر متباعدة على نحو ما تبدو لأول وهلة. أضف إلى ذلك، أنه على حين يمكن تحديد المثير مستقلاً عن الشخص المستجيب في منظور «الشخص في الموقف»، إلا أن أصحاب نظريات هذا الاتجاه لا يزالون يعترفون بأن تأثيره سوف يتوقف على الحالة الراهنة للفرد، وعلى خبرته السابقة، وتكوينه الوراثي. فثمة خطورة إذن في إبراز معالم الفروق بين وجهتي النظر هاتين على نحو مبالغ فيه كثيراً.

ويتصل موضوع طبيعة المثير بالبراهين الفلسفية البالغة القدم. فعلى سبيل المثال، تعكس الأطر المرجعية للمثالية، والمادية، والواقعية، والواقعية الساذجة Naive realism في الفلسفة، هذا الموضوع. فالمذهب المادي ـ أعني وجهة النظر التي تذهب إلى وجود العالم المادي بصرف النظر عن إدراكنا له، وأنه هو الذي يحدد هذا الإدراك ـ يميل إلى أن يصبح بمثابة النظرة الشائعة التي ارتبطت ببرتراند رسل Bertrand Russell وبعلم النفس السوفيتي الحديث. أما المثالية في صورتها المتطرفة ـ وهي وجهة النظر التي تقول بأن العالم المادي لا يوجد إلا من خلال نظرتنا له ـ فلها تأثير ضعيف على الفكر

السيكولوجي المعاصر. وارتبطت وجهة النظر هذه بالفيلسوف الإنجليزي بيشوب بيركلي Bishop Berkeley بخاصة، كما ارتبطت أيضاً بهيجل Hegel. أما المذهب الواقعي الذي يقرر أن الأفكار ذاتها حقيقة؛ فإنها تمثل وجهة النظر التي تبناها أفلاطون Plato. أما الواقعية الساذجة ـ التي تذهب إلى أن الأشياء هي ببساطة على نحو ما ندركها، وأن حواسنا تصور هذه الحقيقة ـ فهي توجد متضمنة في كثير من أعمال علماء نفس الإدراك، في الماضي (مثل قنت) Wundt، وفي الحاضر.

وتمتد الاختلافات الفلسفية بين وجهتي النظر الأساسية السابق الإشارة إليها بالنسبة للمثير، إلى موضوعات أخرى تتصل بالطريقة التي ندرك بها الإنسان وكيفية دراسته. فأصحاب نظريات التعلم مثلاً، وهم سلوكيون إلى حد بعيد، يميلون إلى التشكك في التأمل السهل للخبرة الداخلية الشخصية، وفي المبالغة في الإشارة إلى المكونات الافتراضية التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة. فهم يفضلون ربط أفكارهم عن الإنسان وشخصيته، بصورة وثيقة، بالسلوك الذي يخضع للملاحظة. وهم يفضلون أن يقوم علم الإنسان على أساس توكيد تحليل السلوك إلى عناصره الأساسية. فهم يفترضون أن أنماط السلوك حتى أكثرها تعقيداً، يمكن ردها إلى عناصر أبسط، وأنه بهذه الوسيلة وحدها يمكن في الحقيقة فهم الشخصية. وعلى ذلك، فإنهم يميلون إلى الاتجاه الذي ينحو المنحى الناموسي أكثر مما يميلون إلى الاتجاه إلى المنحنى المتفرد. يضاف إلى ذلك، أنهم يهتمون بالتحليل المختزل للأحداث المعقدة وردها إلى خصائص عامة يقوم عليها سلوك كل الكائنات العضوية، ليس فقط سلوك الحيوانات الأدنى من الإنسان، بل وحتى الفأر والديدان والصراصير، والتي يفترض أنها جميعاً تتعلم بواسطة تكوين الترابطات بين المثيرات والاستجابات. وينظر إلى الإنسان باعتباره مجرد مثال أكثر تعقيداً، لمثل هذه العملية الأساسية.

أما صاحب النظرة الظاهراتية فإنه على العكس من ذلك يفترض أن الجهاز المنظم الذي نسميه بالشخصية لا يمكن تأليفه بداءة من التحليل الجزيئي لعناصره المكونة له. فثمة قيمة إيجابية تفرض على مصطلحات مثل نظام وتكامل وتنظيم؛ وباختصار، فإن نظرة الظاهراتي «كلية» Holistic و «كتلية» Molar أكثر منها «تحليلية» Analytic و «جزيئية» Molecular. ووحدات التحليل عنده تميل إلى أن تكون مركبة وأن تتضمن أهدافاً مثلما تتضمن وسائل لتحقيق هذه الأهداف. وربما كان أهم من هذا كله، أن صاحب مذهب الظواهر يتأمل بحرية في العمليات المعرفية الداخلية والوسيطة

كمفهوم الذات أو حيز الحياة والتي يسلم بها كمحددات واقعية، لأفعال الإنسان ومشاعره.

ومن الممكن أيضاً أن نجد هذا التمييز الفلسفي بين الاتجاه الكتلي والاتجاه الجزيئي (أو الذري) في أبحاث ونظريات الإدراك الحديثة. فعلماء نفس الحواس نظروا إلى الإدراك باعتباره يتكون من الانطباعات الحسية الدقيقة والعديدة التي تطبعها المثيرات الحسية على أعضاء الحس كالأعين والأذن. ومن المعتقد أن الجهاز العصبي يستجيب بطرق موازية للمثيرات الحسية التي تؤثر على أعضاء الحس، فيوازن وينظم هذه الانطباعات في داخل المخ. ومثل هذه النظرة تعتبر جزيئية في توكيدها. وعلى النقيض من ذلك، نظر جيبسون Gibson (١٩٦٦) إلى الإدراك بطريقة كتلية باعتباره العملية النشطة الإيجابية للبحث عن معلومات عن البيئة. وقد عبر عن ذلك قائلاً: «إن الأعين والأذن والأنف والفم والجلد يمكنها أن توجه وتكشف وتفحص». فهي عندما تنشط، لا تكون حواساً سالبة أو مجرد مسالك لصفة حسية، ولكن طرقاً لتوجيه الانتباه لما هو ثابت في المواقف المثيرة المتغيرة. ففي الإستكشاف عن طريق النظر والتذوق واللمس تكون الانطباعات الحسية أعراضاً طارئة للاستكشاف، أما ما يتم عزله فهي المعلومات المتصلة بالشيء الذي ننظر إليه ونتذوقه أو نلمسه...» (ص ٤).

ومن الممكن النظر أيضاً إلى الشخصية كتجميع سلبي للترابطات بين المثيرات والاستجابات، أعني كمجموعة معقدة من الاستجابات الشرطية البسيطة والمستقلة أو كوحدة منظمة (جهاز) تبحث بنشاط في البيئة عن أدلة مناسبة لمتطلبات التكيف. ويعد مثل هذا الاختلاف الفلسفي أمراً هاماً في تحديد أساليب التفكير والافتراضات المتصلة بنظريات الشخصية العديدة حول طبيعة الإنسان وكيف يجب دراسته. وقد يظهر هذا الاختلاف في كل مجال من مجالات الدراسة السيكولوجية، ولكنه يكون أكثر وضوحاً في الشخصية، لأن الشخصية هي مجال يحاول إيجاد التكامل بين الكثير من الوظائف السيكولوجية للفرد داخل إطار من الشمول.

والسؤال الآن أين تقع المناهج الفرويدية والفرويدية المحدثة في الشخصية في هذا التحليل؟ إن الإجابة على هذا السؤال ليست واضحة وتعتمد إلى حد ما على أي وجهات النظر التحليلية العديدة يدور الحديث، أعني هل نتحدث عن وجهة نظر فرويد أو يونج أو رانك أو أدلر Adler إلخ. وأي جوانب من النظرية يكون موضع الاهتمام. ويبدو لي أن نظرية فرويد تعتبر حد ما وسطاً في معالجاتها للمثير، رغم

احتمال توكيدها للمثير باعتباره حقيقة موضوعية أكثر منه مدركاً ذاتياً. ولذا فقد حاول فرويد مثلاً أن يفهم الفرد على أساس خبرات حياته الواقعية (الموضوعية)، وأنماط الاستجابة السوّية أو العصابية (وبخاصة الأخيرة) التي تصدر عن مثل هذه الخبرات. فمصادر الصدمة في حياة الفرد ينظر إليها كأحداث حقيقية. أما سوء الإدراكات والصور الفطرية للتوافق، فإنها تفهم في ضوء اكتساب ميكانزمات الدفاع العصابية. ومثل هذا الموقف يمكن أن يتلاءم بسهولة داخل إطار التعلم بالترابط عند دولارد وميللر (١٩٥٠). والحقيقة أن عملهما الرئيسي المتصل بالشخصية وهو «الشخصية والعلاج النفسي» يعتبر أساساً ترجمة لأجزاء كبيرة من نظرية التحليل النفسي في قالب التعلم بالترابط وهي ترجمة لم يكن من العسير القيام بها. وهذا يوحي أن نظرية فرويد ونظرية التعلم بالترابط، بينهما قدر كبير مشترك، بما في ذلك نظرتهما الأساسية للمثير كحادثة موضوعية.

ولكن هناك أيضاً نزعات ظاهراتية لدى فرويد. فعلى سبيل المثال لم يكن فرويد اختزالياً Reductionistic إلى حد بعيد، فقد كان هناك الكثير من التأمل حول العمليات الوسيطة الداخلية التي كان من المفترض أن تخفى عن الرؤية. كما أنه ركز كثيراً على تحريفات الواقع (كما في حالات ميكانزمات الدفاع) التي يتوسطها الأنا غير السويّ لدى العصابي، أكثر مما ركز على التكيف الحقيقي. ولقد أدخل الفرويديون الجدد من أمثال يونج مفاهيم منظمة وسيطية كالذات. أضف إلى ذلك أن كل كتاب التحليل النفسي القوا بكل ثقلهم على الاستبطان كمصدر للمعلومات عن بناء الشخصية وعملها أكثر من اهتمامهم بملاحظة السلوك، رغم استخدامهم لكليهما. ومعنى هذا، أن المعالج التحليلي النفسي كان دائماً على حذر بالنسبة للأدلة السلوكية التي تتناقض مع الاستبطان اللفظي للشخص، كما كانت الاستدلالات عن الشخصية التي يستمدها من مثل هذا الاستبطان تتحدد دائماً بالرجوع إلى علامات الصراع والدفاع السلوكية.

وتلخيصاً لما سبق، يجب أن يكون واضحاً من الآن أن الوحدات الوصفية المتغيرة التي تستخدمها النظريات المختلفة، إنما تُستمد من افتراضات متباينة عن طبيعة الإنسان وكيف يجب أن يدرس. وسواء تبنى الفرد الإطار الفرويدي للأنا والهو والأنا الأعلى، أو إطار التعلم بالترابط للعادات المكتسبة للاستجابة بالنسبة للمثيرات الموضوعية الطبيعية، أو الإطار الظاهراتي لحيز الحياة أو مفهوم الذات، فسوف تتكشف نزعات فلسفية معينة للتفكير عن الإنسان عن طريق هذا الاختيار. وليست

الاختلافات في الوحدات الوصفية مجرد اختلافات في المصطلحات، بل إنها تمتد إلى صميم الطبيعة المدركة للإنسان. ومع ذلك ، فإن حقائق سلوك الإنسان والفروق الفردية في هذا السلوك هي التي تمدنا في التحليل النهائي، وأياً كانت اللغة الوصفية المستخدمة فيه، بالحقيقة الثابتة التي نُقيّم في ضوئها كفاية وخصوبة هذه اللغة ودعاماتها الفكرية . فالإنسان هو الإنسان. أما الذي يختلف فهو فقط الأجهزة التي ندرك بها هذا الإنسان ونصفه.

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أن الموضوعات المتصلة بالوحدات المستخدمة لوصف الشخصية هي موضوعات أكثر بساطة من الأسئلة الجوهرية التي تتعلق بكيف تنمو الشخصية، وكيف تعمل (الديناميات)، وماذا يؤثر فيها (المحددات). وسوف نعود إلى هذه الموضوعات فيما بعد على أن نجعل موضوع الفصل الثالث هو نمو الشخصية.

الفصل الثالث

نمو الشخصية

يقدم الاتجاه النمائي لنظرية الشخصية منظوراً زمنياً، طالما أنه يهتم بالنتائج العامة أو المراحل التي تتطور الشخصية خلالها، منذ بداياتها المبكرة في الطفولة.

ومن الواجب أولاً أن نمايز بين النظريات الشكلية للنمو ومحاولة تعيين الظروف البيولوجية والاجتماعية التي تؤثر في النمو عن طريق تيسير مجراه «الطبيعي أو إعاقته أو تشكيله أو تحريفه». وسوف نعالج فيما بعد، في هذا الكتاب، وجهة النظر الأخيرة تحت عنوان «محددات الشخصية» وذلك في الفصلين الخامس والسادس. أما في الفصل الحالي فسوف نركز اهتمامنا حول دراسة النمو الشكلي، أعني القيام بوصف وتصنيف نتائج التغيرات السيكولوجية التي يمر بها جميع الناس أثناء تقدمهم من الطفولة حتى الرشد.

ومنظور النظرية النمائية الشكلية في علم النفس شبيه بذلك الذي نراه في علم الأجنة، من ناحية تتبع المراحل التي يمر بها الإنسان وأجنة الحيوانات دون مستوى

البشر، ابتداء من الإخصاب حتى الميلاد. لقد أوضح علماء الأجنة في دراستهم للأطفال الذين يولدون غير مكتملي النمو، وفي فترات مختلفة من الحياة داخل الرحم، أن الحميل Fetus[1] الإنساني يمر بمراحل محدودة في استجابته للإستثارة الموضعية للوجه، بواسطة شعرة صلبة أو أي شيء آخر (هوكر Hooker، ١٩٤٣). فالجنين Embryo يستجيب للإستثارة في مرحلة مبكرة جداً من مراحل نموه، استجابة غير محددة تعم الجسم كله. وتصبح هذه الإستجابة بعد ذلك، عندما ينمو من جنين إلى حميل، أكثر فأكثر تمايزاً لدرجة أنه حين يقترب الحميل من اكتمال النمو ليصبح وليداً، تكون الاستجابة أكثر تمركزاً وتخصصاً؛ بمعنى أن الذي يستجيب للإستثارة هو هذا الجزء من الجسم الملموس مباشرة. وعلى ذلك فنمو الحميل يتضمن بشكل واضح تقدماً خلال مراحل عصبية عضلية معينة. وهذا التقدم يمثل قانوناً بيولوجياً عاماً وينطبق بالفعل على جميع الحالات، وعلى الأنواع الأخرى كذلك. وتعتبر عملية تصنيف وفهم مراحل النمو النفسي أكثر تعقيداً بكثير مما أوضحناه في المثال السابق الذي يتصل بصورة نيرولوجية محددة نسبياً من صور التنظيم. ومع ذلك، يصور هذا المثال، في تحليله «الشكلي» للنمو، كيف يتجه الانتباه إلى المراحل العامة التي تمر خلالها أبنية وعمليات معينة، أكثر مما يتجه إلى العوامل التي تفسر هذا النمو.

ولما كانت أبنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، وإنما تتطلب القيام بعمليات استدلال من النمط الملاحظ للاستجابة داخل إطار موقفي معين، فليس مما يثير الدهشة إذن أن يدرك الكتاب المختلفون مراحل نمو الشخصية بصور مختلفة كذلك. فمثلاً، يؤكد فرويد في تحليله للنمو النفسي تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة، بينما نجد كتاباً آخرين من أصحاب الاتجاه النمائي من أمثال بياجيه Piaget وفرنر Werner لا يلقون اهتماماً كلية إلى تطور الدوافع أو الأنماط الانفعالية، بل يوجهون اهتمامهم بأكمله إلى المعرفة والتفكير التكيفي. وهناك آخرون من أمثال إيركسون Erikson يُبقون على النظرة الأساسية المستمرة من التحليل النفسي لفرويد، ولكنهم يدخلون تعديلات وإضافات على الصورة الإجمالية العامة للفترات الأخيرة من الحياة. وعلى ذلك، ترجع بعض الاختلافات بين نظريات النمو، إلى الظواهر النمائية المختلفة وإلى غيرها من الفروق التي تتصل بفترات الحياة التي تهتم بدراستها.

---

١ ـ الجنين في الدور الأخير من الحمل (المترجم).

وكما كان الحال بالنسبة لوصف الشخصية، فإن المعالجة المختصرة التي نقدمها هنا، لا يمكن أن تغطي كل الاختلافات النظرية الهامة. ولذا سوف نقصر مقارنة الاتجاهات المختلفة أساساً على نظامين من نظم التفكير لهما تأثيرهما الكبير، ونعني بهما ذلك الذي قال به فرويد (متضمناً بعض الإضافات والتعديلات التي قام بها إيركسـون)، ثم النظام الفكري عند بياجيه.

النظرية النفسية الجنسية عند فرويد

سبق أن لمسنا هذا الجانب من نظرية فرويد (١٩٣٣ و ١٩٤٩) في الفصل الثاني حيث أشرنا إلى أنماط الشخصية الفمية والشرجية والقضيبية. ولسنا في حاجة إلى إعادة تلك المناقشة هنا، ولكن مع ذلك فإنه من المفيد إضافة بعض التفاصيل فيما يتصل بالمرحلتين «القضيبية» و «التناسلية». يقال إن الشخص يمر خلال مراحل ثلاث أساسية ـ الفمية والشرجية والقضيبية ـ ويصل أخيراً إلى مرحلة الراشد الناضج أو المرحلة التناسلية. ولقد عالج فرويد المرحلة القضيبية كمرحلة تمهيدية لمرحلة اكتمال النمو عند الراشد إبتداء من البلوغ حين يبدأ الفرد في الوصول إلى النضج الجسمي. ولكي يمر الشخص بنجاح خلال الفترة القضيبية حتى يصل إلى النضج التناسلي، يجب عليه أن يحل عقدة أوديب Oedipus complex أو عقدة ألكترا Electra complex عند الفتيات، التي هي مفتاح المشكلة النفسية الجنسية في المرحلة القضيبية. ومن الأسهل أن نناقش هذه المشكلة بالنسبة لحالة طفل ذكر.

إن موضوع الحب الأول للولد هو أمه، أو أي شخص آخر يقوم بهذا الدور، كما أنه يبحث على الإستحواذ الكامل لحب الأم. ومع ذلك، فإن مثل هذا التملك يحبطه الوجود المنافس للأب. ويمثل التصاق الولد بالأم والدخول في منافسة مع الأب «مثلث الحب الأسري» أو «رومانسية الأسرة » على حد التعبير الغريب لروبرت هوايت Robert White (١٩٥٦). وتكون الاستجابة الطبيعية للولد في مثل هذا الموقف هو تنمية مشاعر العدوان تجاه الأب. ولكن الولد يدرك من واقع الأمر أن الأب أكثر منه قوة، وأنه يمكنه بالمثل أن يقابل رغبات الطفل العدوانية بعدوان آخر من جانبه. وليس من غير المألوف أن يستجيب الأب للرابطة بين الولد والأم بشيء من الضيق، وبخاصة إذا كان الأب نفسه يشعر بعدم الأمن حيال علاقته بزوجته. وقد يضيف هذا أساساً واقعياً إلى انطباع الطفل بالخطر من جانب الأب. وقد عبّر فرويد عن هذا الانتقام الذي يخشاه

الطفل الأوديبي من جانب الأب باسم «الخصاء» Castration أعني إيقاع الأذى، واقعياً أو رمزياً، بالعضو الآثم - القضيب - الذي يعبر عن ذكورته. أما البنت فإنها تفتقر بالفعل إلى القضيب، وهي حقيقة تجعل الولد يعتقد أن ذلك هو نتيجة عقاب لها عن عدوان لآثام مماثلة. وعلى أية حال، فإن الولد يمر بخبرة «قلق الخصاء» بما يتناسب وقوة دافعه الجنسي نحو الأم ودرجة العدوان المصاحبة له ناحية الأب.

ومشكلة البنت، التي كثيراً ما يشار إليها بإسم «عقدة ألكترا» إنما تشبه مشكلة الولد. فهي تبدأ - كما هو الحال عند الولد - بالارتباط بالأم في الطفولة المبكرة؛ ولكن هذا الارتباط يجب أن ينتقل بعد إلى الأب. أما كيف ولماذا يحدث هذا الانتقال، فالأمر ليس واضحاً تماماً من الناحية النظرية (أنظر مثلاً هيلين دويتش Helene Deutsch، ١٩٤٤، وتقريرها بهذا الصدد). ومع ذلك، عندما يصبح الأب موضوع حب البنت، فإنها تواجه الآن بمنافسة من الأم على نحو مماثل لحالة الولد وأبيه. ثم هي تدرك أيضاً عدم وجود القضيب لديها، وتحسد الولد على امتلاكه له، وتلوم أمها على فقدانها له.

وخلال الفترة من حوالي سن السادسة حتى المراهقة، فإن رومانسية الأسرة تميل إلى أن تجري في الخفاء. فالذي يحدث هو أنه - كحل للتوتر غير المحتمل الناتج عن خطر الإخصاء عند الولد (أو نتيجة لسابق حدوثة عند الفتاة) - يجب الدفاع ضد الحوافز الشبقية والعدوانية لمثلث الأسرة. فالطفل يدخل فيها نسميه بإسم «فترة الكمون» Latency period والتي فيها يكبت الولد أو تكبت البنت المشاعر الشبقية تجاه الوالد من الجنس الآخر. وبواسطة ميكانزم «التوحد مع المعتدي» يمتص الطفل القيم الخلقية والسلوكية للوالد من نفس الجنس. ويعتقد فرويد أنه خلال هذه الفترة بالذات يتكون الأنا الأعلى خلال عملية التوحّد الدفاعية. وهنا نقول مرة أخرى إن استخدام حالة الولد كمثال، تكون أسهل وأيسر. فقلق الخصاء لدى الطفل يقل عن طريق دفاع الكبت، طالما أنه يستبعد وعيه بالمشاعر الشبقية والعدوانية؛ وعن طريق تشبهه بالأب خلال عملية التوحّد يكتسب الولد رضا الأب وموافقته وبذلك لا يصبح مصدر خوف بالنسبة له.

وتختفي الصراعات الانفعالية التي تمثل جزءاً من الرومانسية الأسرية خلال فترة الكمون وحتى المراهقة عندما يخترق الارتفاع المفاجىء في الحوافز الشبقية الأسلحة الدفاعية، وتعود عقدتا أوديب وألكترا إلى الظهور في كامل قوتها. ويقوم الولد السوّي والبنت السّوية في النهاية بحل هاتين العقدتين عن طريق التخلي عن الوالد من الجنس

الآخر كموضوع حب شبقي، واختيار شريك للجنس من خارج الأسرة المباشرة. فالولد والبنت أحرار الآن، في إقامة صداقات غير شبقية مع الوالد من الجنس الآخر. وبهذه الطريقة ينتقلان إلى المرحلة التناسلية الناضجة من مراحل النمو النفسي الجنسي. أما العصابي وحده فهو الذي يظل ملتصقاً ـ إذا جاز التعبير ـ بمستوى قبل تناسلي، فمياً كان أم شرجياً أم قضيبياً.

إسهامات ايركسون في نظرية النمو النفسي الجنسي لفرويد:

لقد أدخل إيريك ايركسون (١٩٥٩ و١٩٦٣) تعديلاً على نظرية فرويد في النمو النفسي الجنسي في ناحيتين أساسيتين: الأولى: بالتوكيد على التفاعل المتبادل، وربما بصورة أكثر من فرويد، بين المحتوى الاجتماعي والمراحل البيولوجية المعينة. والثانية: بالتوسع في المراحل من أربع (فمية، وشرجية، وقضيبية، وتناسلية) إلى ثمان. ولنبحث الآن باختصار هذين الإسهامين.

١ ـ لقد أكد إيركسون ناحية أن كل مرحلة نفسية جنسية لها أسلوبها المميز في التفاعل الاجتماعي. فمثلاً، الدفعات البيولوجية المرتبطة بالمرحلة الفمية المبكرة تتضمن استثارة الغشاء المخاطي للفم بواسطة الطعام والأشياء الأخرى التي تدخل التجويف الفمي. ففي هذه المرحلة يكون الإدخال Taking in، هو الشكل الرئيسي للعلاقات الشخصية المتبادلة. فالأم تطعم الطفل، والطفل يعتمد على هذه الرعاية وينمي توقعات معينة عن بيئته الاجتماعية، كالثقة في البيئة مثلاً من ناحية تزويده بالسند الضروري، أو أن البيئة غير مستجيبة لحاجاته. وبالمثل، تبذل الجهود في المرحلة الشرجية لضبط وتنظيم إخراج الطفل والأنشطة الأخرى. وهنا ينشأ صراع بين الأشخاص يتصل «بإخراج» (البراز) في مقابل «الاحتفاظ به»، وهو صراع يتصل بالنمو النفسي لسمة شخصية هي الإستقلال الذاتي مقابل سمات الخجل والشدة. ولقد كتب إيركسون عن هذا التفسير البيولوجي والاجتماعي ما يلي:

> إن النضج العضلي يهيىء المسرح للتجريب بالنسبة لمجموعتين من الوسائل الاجتماعية تعملان معاً وهما الاحتفاظ والإخراج. وكما هو الحال بالنسبة لجميع هذه الوسائل، فإن هذه الصراعات يمكن أن تؤدي في النهاية إلى توقعات واتجاهات إما عدوانية أو عطوفة. وعلى ذلك، فالاحتفاظ يمكن أن يصبح احتجازاً أو قمعاً مدمراً وقاسياً، كما يمكن أن يصبح نمطاً للرعاية: إن تمتلك وتحتفظ. وبالمثل فإن الإخراج يمكن أن يتحول إلى الإطلاق غير الودي لسراح قوى هدامة أو أن يصبح حالة من الإسترخاء تترك فيها الأمور تجري على عنانها.

وباختصار، يرى إيركسون أن ثمة توازناً بين الاتجاهات الاجتماعية أو الشخصية المتبادلة والعمليات البيولوجية المتطلبة في المراحل النفسية الجنسية المختلفة، ويشير إلى توقف كل منهما على الآخر. والأسلوب الأساسي للاستجابة تحدده العمليات البيولوجية المميزة للمرحلة المعينة، كما أن التعبير الجسمي والاجتماعي يتأثر أيضاً بالظروف الشخصية المتبادلة التي يجد الطفل فيها نفسه. ولقد اهتم إيركسون في تحليله - وبصورة أكثر وأكثر مما لدى فرويد - بالمظاهر الشخصية المتبادلة لكل مرحلة نفسية جنسية.

٢ - أما بالنسبة لتوسع إيركسون في النظرية النفسية الجنسية، وإضافة مراحل أخرى، فإن أحسن إضافة معروفة هي ما يعبر عنه المصطلح «هوية الأنا» Ego-Identity الذي هو نتاج الصراع الذي يحدث أثناء البلوغ للوصول إلى حل عقدتي أوديب والكترا في المرحلة القضيبية. ولقد أعطى أريكسون، عند توكيده للجهد الذي يبذله الفرد من أجل اكتشاف مكانة في العالم والوصول بنجاح إلى طبيعته الموحدة، أعني بلوغ هويّة الأنا، أهمية لمرحلة المراهقة المتأخرة والرشد المبكر، أكبر مما وجد في كتابات فرويد. وقد أشار كينيث كينستون Kenneth Kenniston (١٩٦٥ و ١٩٦٨) - وهو أحد الكتاب المحدثين الذين تأثروا كثيراً بإيركسون والذين كتبوا عن جيل الشباب الرافض اجتماعياً - إلى مرحلة جديدة «للشباب» Youth تكون فيها العلاقات بين ذات الفرد والعالم هي مركز الاهتمام الأول للشاب الصغير في صراعه مع الأنظمة السياسية والاجتماعية التي غالباً ما يجدها مغتربة عن وجهة نظره.

البحث في المراحل النفسية الجنسية:

أثرت النظرية النفسية الجنسية تأثيراً هائلاً على الفكر السيكولوجي، وبخاصة علم النفس الإكلينيكي حيث نظر إلى العديد من صور الأمراض النفسية على أنها اضطرابات في النمو النفسي الجنسي. كما تأثرت التحليلات الأنثروبولوجية والاجتماعية إلى درجة كبيرة بهذه النظرية. فمثلاً صدرت بحوث الفطام وتدريبات ضبط الإخراج في الثقافات المختلفة والثقافات الفرعية عن الاهتمام بالمقدمات الأساسية في النظرية النفسية الجنسية لفرويد. كما خضعت الاختلافات في مثل هذه التدريبات للدراسة من أجل تحديد تأثيرها على الشخصية النمطية في تلك الثقافة.

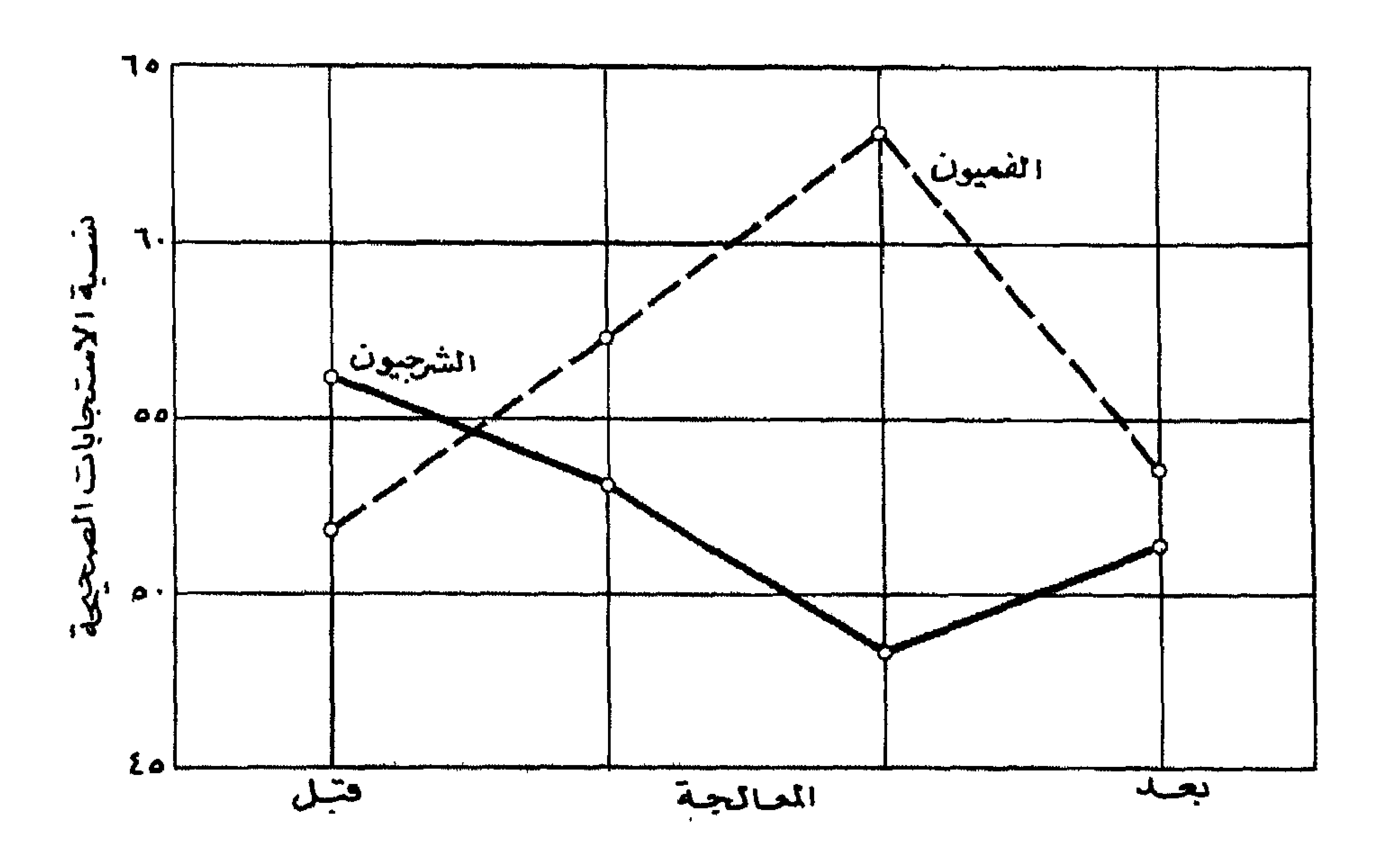
وليس ثمة جزء في نظرية فرويد يُعد أكثر مثاراً للجدل من مفهوم النمو النفسي

الجنسي . فعلى الرغم من أن كل فرد منا يتفق على أن خبرات الطفولة المبكرة تعتبر ذات أهمية حيوية في نمو الشخصية ، فإن كثيراً من الكتاب (هورني Horney مثلاً، ١٩٣٧) قد أثاروا اعتراضات حول التوكيد القاطع الذي أعطاه فرويد للدوافع الجنسية . لقد نظر فرويد إلى مراحل النمو النفسي الجنسي باعتبارها انعكاسات لقانون بيولوجي عام . ولكنه أعطى قليلاً من الاهتمام للطريقة التي قد تسهم بها الثقافة في كل مرحلة . فثمة احتمال، مثلاً ، أن عقدة أوديب يمكن فهمها بصورة أحسن إذا نظر إليها في ضوء العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة بدلاً من النظر إليها في ضوء مصطلحات جنسية . فالطفل قد يخاف من الأب، ليس بسبب أنه يتوقع منه الخصاء أو بسبب الحوافز الجنسية نحو الأم، ولكن بسبب أن الأب يمثل قوى الضبط والتحكم داخل الأسرة، وبخاصة في مجتمع فينا في أواخر القرن الثامن عشر. وبالمثل، قد تحسد الفتاة الولد، لا بسبب امتلاكه قضيباً، ولكن بسبب أن الفتيات في معظم المجتمعات يخضعن عادة للولد. فالقضيب قد يرمز فقط للقوة الاجتماعية الذكرية للطفل، وليس لكونه عضو الحب. ومع ذلك فهذه الأسئلة تقع في إطار محددات الشخصية ، ولذا سوف نرجىء الحديث عنها إلى فصول لاحقة.

ولقد أجريت بحوث تجريبية قيمة هدفها اختبار ما إذا كانت العلاقات المفترضة في النظرية النفسية الجنسية توجد بالفعل. ومن الأمثلة الممتازة في هذا الصدد تلك التجربة الحديثة التي قام بها تيمونز Timmons ونوبلين Noblin (١٩٦٣). لقد استخدم تيمونز ونوبلين أداة تقدير بارعة سميت باسم The Blacky Test والتي وضعها جيرالد بلم Gerald Blum (١٩٥٠) وهو أحد علماء النفس من أصحاب الاتجاه التحليلي النفسي . ويتكون الاختبار من مجموعة من الصور لإثني عشر موقفاً تمثل من الناحية النظرية الصراع النمطي لكل مرحلة نفسية جنسية سابقة على المرحلة التناسلية. والشخصية الرئيسية في الرسوم هو الكلب بلاكي. أما بقية مجموعة الشخصيات فتمثل أم بلاكي وأباه وأخاه «تبي» Tippy . ومن المفروض أن الشخص الذي يطبق عليه الاختبار قد يتوحد مع بلاكي . وتشير إحدى الصور إلى بلاكي يرضع من الكلبة الأم، وهو موضوع يوحي بالشبقية الفمية، على حين تشير صور أخرى إلى تنافس الأخوة والحوافز الأوديبية والدفعات الشرجية وغيرها. وواجب المفحوص هو أن يكتب قصة حية عن كل صورة وأن يوضح أيها يحبها أكثر، وأن يقدم أسباباً لهذا الاختيار. وتعالج هذه المادة بعد ذلك إكلينيكياً لتقدير الخصائص النفسية الجنسية

للمفحوص (مثال ذلك التثبيت، والصراعات النفسية الجنسية، والقلق، والنمط النفسي الجنسي، أعني الفمي والشرجي والقضيبي والتناسلي).

ولقد طبق تيمونز ونوبلين اختبار بلاكي على ٩٠ طالباً، تم اختيار ١٥ منهم على أساس أن تقاريرهم في الاختبار تمثل الأنماط الفمية، كما تم اختيار ١٥ آخرين باعتبارهم يمثلون النمط الشرجي. ثم عرضت على كل شخص منهم وبطريقة فردية مجموعات من البطاقات عددها ١٢٠ بطاقة. وفي أعلى كل بطاقة منها يوجد نوعان من الضمائر أحدهما ضمير المتكلم «أنا أو نحن» والآخر ضمير الغائب «هو، هي، أو هم». وفي أسفل البطاقة يوجد جزء من جملة. وواجب المفحوص هو تكملة الجملة بأحد هذه الضمائر. وبعد ٣٠ محاولة دون بذل أي جهد للتأثير على المفحوص، يبدأ المجرب «يعزز» استجابة المفحوص بإصدار همهمة تتم عن الموافقة مثل «هيه» Um - hum «جميل»، «أوكي» «حسن» كلما استخدم المفحوص ضميراً من ضمائر المتكلم.



شكل ٦ ـ تأثير المجرب على الفميين والشرجيين. في خلال فترة المعالجة بالتعزيز أثبت الفميون القابلية للإيحاء، بينما كان الشرجيون سلبيين، وبعد فترة المعالجة اقتربت المجموعتان مرة أخرى. أنظر تيمونز ونوبلين (١٩٦٣).

ولقد كان الموضوع السيكولوجي الذي عولج بهذه الطريقة هو «هل يتأثر الفميون والشرجيون تأثيراً مختلفاً بالتشجيع الرقيق للمجرب لاستخدام ضمائر المتكلم». ولنتذكر أنه وفق النظرية النفسية الجنسية، يفترض أن الشخصيات الفمية تكون ذات طابع إتكالي ومتجهة نحو الرعاية، بينما تكون الشخصيات الشرجية عنيدة وتقاوم السلطة. وعلى ذلك، ففي الموقف التجريبي الراهن، يُتوقع أن يتأثر الفميون إيجابياً بإيحاءات المجرب، على حين يقاومها الشرجيون. وهذا بالتحديد ما أسفرت عنه هذه الدراسة. وباختصار، وبعد أن بدأ المجرب عملية التعزيز، بدأ الفميون الكشف عن نزعة قوية لاختيار ضمير المتكلم، على حين كشف الشرجيون عن نقص في استخدامه. ثم بعد أن توقف المجرب عن التعليق بالإيحاء، عادت المجموعتان مرة أخرى إلى نفس الخط القاعدي (في استخدامهم لضمير المتكلم المفرد) الذي بدأتا منه. والحقيقة أن المجموعتين توقفتا عن الاختلاف مما يشير إلى أن الفرق كان استجابة لإيحاءات المجرب. ويوضح الشكل رقم ٦ هذه النتائج بيانياً.

وتمدنا مثل هذه التجارب السابقة بتأييد تجرُبي (إمبريقي) Empirical للفكرة التي تذهب إلى أن الناس يمكن أن يتمايزوا على أساس الخصائص النفسية الجنسية التي تعزى لكل مرحلة من مراحل النمو النفسي الجنسي التي تسبق المرحلة التناسلية. ومع ذلك، فليس هذا دليلاً على أن مثل هذه الخصائص مكتسبة بالطريقة التي تفترضها النظرية. وعلى أي حال، لقد كانت النظرية مثمرة للغاية من ناحية إثارة الكثير من البحوث في الشخصية، كما كان لها تأثيرها العظيم على التشخيص الإكلينيكي وعلم الأمراض النفسية. وهي نظرية نمائية شكلية لأن اهتماماتها الرئيسية تنصب على التتابعات السيكولوجية العامة التي يمر خلالها الفرد في نموه من الطفولة حتى الرشد.

نظرية بياجيه في النمو المعرفي

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد، فإن جان بياجيه Jean Piaget (١٩٥٢؛ انظر أيضاً فلافيل Flavell ١٩٦٣؛ لانجر Langer ١٩٦٩؛ أنهلدير Inhelder وبياجيه ١٩٥٨) اهتم أيضاً بالمراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في السنوات الأولى من حياته. وعلى ذلك، فنظريته أيضاً نظرية شكلية نمائية. ومع ذلك، وعلى عكس فرويد الذي أكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية (كالدوافع الجنسية والمشاعر المتصلة بها)، ركز بياجيه تماماً على النمو المعرفي، أعني العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة

حتى الرشد. وعلاوة على ذلك، فإن أسلوب الملاحظة الذي استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفاً، كما اختلفت مفاهيمهما في البحث. فمثلاً، لقد درس فرويد النمو في الطفولة، وذلك أساساً من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية في فترة الطفولة أثناء جلسة العلاج النفسي. وعلى العكس من ذلك، درس بياجيه النمو المعرفي بإعطاء الأطفال مشكلات لحلها ثم فحص الطرق التي اتبعوها في حل هذه المشكلات في أعمار زمنية مختلفة. وكانت وجهة نظر بياجيه ـ كما هو الحال بالنسبة لفرويد ـ متسقة مع اتجاه داروين في التكيف. فهو ينظر إلى السلوك كعملية تكيف مع الحياة يحافظ الفرد عن طريقها على حالة التوازن بين نفسه والبيئة. وتؤدي التغيرات التي تحدث في البيئة باستمرار إلى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد إلى حالة التكيف، فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه (أي الملاءمة مع البيئة)، أو معالجة البيئة (التمثيل). والتفكير العقلي ينمو من خلال عملية التغير التكيفي المستمر بين الفرد والبيئة.

وكما هو ضروري بالنسبة لأية نظرية نمائية شكلية، قام بياجيه بتحديد ووصف المراحل التي يتطور خلالها التفكير العقلي. وقد افترض وجود مرحلتين أساسيتين: «المرحلة الحسية ـ الحركية» Sensori - motor و «المرحلة التصورية» conceptual والتي يوجد بداخلهما عدد من الفترات الفرعية المحددة. وقد استخدم مهارة فائقة في إعداد واجبات عقلية للأطفال تكشف للملاحظ عمليات الحل التي يقدر الطفل على القيام بها في أعمار زمنية مختلفة. وقد استمد بياجيه معظم الملاحظات التي قدمها في أبحاثه من أبنائه. ورغم أن العينة كانت صغيرة وغير ممثلة إلا أن التحليل الشامل قد أثبت بشكل ملحوظ خصوبة في وصف تطور التفكير عند الطفل النامي.

وتمتد المرحلة الحسية ـ الحركية تقريباً من الميلاد حتى سن الثانية. وفي خلال هذه الفترة يكتسب الطفل أول معرفة بالأشياء التي في بيئته. وهناك ستة مراحل فرعية داخل المرحلة الحسية ـ الحركية تغطي الثمانية عشر شهراً الأولى في الحياة. والطفل في المرحلة الفرعية الأولى التي تمتد من الميلاد حتى نهاية الشهر الأول، ينهمك أساساً في «أفعال منعكسة» مثل المص. يلي ذلك المرحلة الفرعية الثانية وهي مرحلة «الاستجابات الدائرية الأولية» وتمتد من شهر إلى أربعة أشهر فيها يكرر الطفل، من أجل التكرار وحده، القيام بأعمال بسيطة؛ كبسط راحة اليد وقبضها والعبث بأصابعه في الغطاء. أما في المراحل الفرعية الأخرى فإن أنشطة الطفل تكون أكثر قصداً. ففي المرحلة الفرعية الثالثة، مثلاً، والتي تمتد من الشهر الرابع إلى السادس والتي تسمى

«الاستجابات الدائرية الثانوية» يكرر الطفل القيام بأفعال تحدث تغييرات سارة في البيئة. أما المرحلة الفرعية الرابعة، والتي تمتد من الشهر السابع إلى الشهر العاشر فتتضمن «التآزر بين الاستجابات الثانوية»، فيبدأ الطفل في حل مشكلات بسيطة من خلال استعمال استجابات سبق السيطرة عليها. وفي المرحلة الفرعية الخامسة، والتي تتألف مما يسميه بياجيه بإسم «الاستجابات الدائرية الثلاثية» والتي تمتد من الشهر الحادي عشر حتى الشهر الثامن عشر، فإن الطفل ينهمك في تجريب أسلوب المحاولة والخطأ على البيئة، كما يجرب استخدام أساليب بديلة متعددة لبلوغ هدفه. فالطفل يدرك أن في إمكانه التأثير على عالم الأشياء، كما يدرك الآن أن هذه الأشياء مستقلة عن ذاته. وأخيراً وفي المرحلة الفرعية الحسية ـ الحركية السادسة والتي تمتد من الشهر الثامن عشر حتى نهاية المرحلة، يستفيد الطفل من «التجميعات العقلية»، كما يبدو أنه يفكر استبصارياً في الآثار التي يحدثها. وعند هذه النقطة يبدأ التفكير في الانتقال من المستوى الحسي الحركي الخالص إلى المستوى التصوري.

وتبدأ المرحلة الكبرى الثانية من مراحل النمو المعرفي ـ وهي المرحلة التصورية ـ بظهور التفكير المستقل نوعاً ما عن الوجود الظاهر للأشياء. أما قبل ذلك، فلم تكن الرموز واللغة تستعمل على نطاق واسع. وتنقسم المرحلة التصورية إلى أربعة مراحل فرعية. المرحلة الفرعية «قبل التصورية» Preconceptual وتبدأ من حوالي سن الثانية حتى حوالي سن الرابعة. وفيها تبدأ الأشياء تأخذ معنى رمزياً، بمعنى أنها يمكن أن تستخدم لتحل محل أو لتمثل أشياء أو أحداثاً أخرى. فدمية ما أو لعبة من البلاستيك يمكن الاستجابة إليها كما لو كانت تمثل أحد الآباء أو الأخوة. فمفهوم الفئة أو القائمة يأخذ سبيله إلى الظهور. أما المرحلة الفرعية التي تعرف «بالتفكير الحدسي» Intuitive thought والتي تمتد من حوالي الرابعة إلى سن السابعة، فتتضمن تكوين صور أكثر تعقيداً. ومع ذلك لا يزال التفكير حدسياً، بمعنى أنه يستند أساساً إلى خصائص حسية بسيطة، ولم ينفصل بعد مفهوم الشيء عن الخبرة الإدراكية العينية. مثال ذلك، عندما نقدم وعاءين قصيرين من نفس الشكل والحجم إلى الطفل ونملأهما بالخرز، فإن الطفل يدرك أنهما يحويان نفس العدد من الحبـات. فإذا أفرغت محتويات أحدهما في وعاء طويل رفيع، فإن طفل الرابعة يكون أميل إلى الاعتقاد بأن الوعاء الطويل الرفيع يحوي حبات أكثر، طالما أنه يلاحظ أن الحبات تبدو أكثر ارتفاعاً من تلك التي توجد في الوعاء القصير. فمفهوم الكمية يرتبط بشكل جامد بالصفة الإدراكية للارتفاع. وعلى ذلك،

فارتفاع الوعاء يتعادل حدسياً مع الكمية التي يحتويها. وفي سن ما بين الخامسة والسابعة يدخل الطفل المرحلة الفرعية المسماة «بالعمليات المحسوسة أو العيانية» Concrete operations ويدرك أن كمية الخرز هي هي متساوية في الوعاءين، رغم اختلاف شكل الوعاءين. فهو يكتشف خلال هذه المرحلة الفرعية أن الاتساع يعوض الارتفاع، وينمي عنده الإحساس بالثبات فيما يتصل بمفاهيم الكم والحجم والوزن والإرتفاع بصرف النظر عن المحتوى الإدراكي. وأخيراً، وابتداء من سن الحادية عشرة تقريباً، نصل إلى المرحلة الفرعية الأخيرة من المرحلة التصورية ونعني بها مرحلة «العمليات الشكلية» Formal operations والتي يتحرر خلالها التفكير كلية وبالفعل من معالجة الموضوعات العينية. فالأحداث يمكن الآن تصورها ومعالجتها رمزياً، والتفكير فيها وتقييمها والتخطيط لها دون الاتصال المباشر بالمظاهر المادية لهذه الأحداث. وبعبارة أخرى، يمكن إدراك الشيء دون أن نراه أو نلمسه ومن ثم يفضي إلى تفكير مجرد وتكيفي إلى حد بعيد.

أوجه التعارض والتداخل بين فرويد وبياجيه

قد يعجب القارىء عن الصلة المباشرة بين تحليل بياجيه لنمو التفكير التكيفي وموضوع الشخصية. لقد كان فرويد صريحاً جداً حول صلات مراحله النفسية الجنسية بالشخصية. مثلاً، نظر فرويد إلى شخصية الراشد باعتبارها تتميز بآثار «متخلفة» من صراعات ما قبل المرحلة التناسلية على نحو ما هو الحال في أنماط الشخصية الفمية أو الشرجية أو القضيبية. وحتى الشخص «العادي» يمكن أن يقال عنه أن لديه بعض البواقي السيكولوجية للمراحل قبل التناسلية، كما في حالة المداعبة الجنسية السابقة على الجماع. ويصور التقبيل مثل هذه البواقي (للجنسية الفمية)، وكذلك ظاهرة الكتابة على حوائط دورات المياه والتي يغلب فيها النكت الجنسية الفمية والشرجية. أضف إلى ذلك أن فرويد في توكيده على المراحل النفسية الجنسية قدم أيضاً نوعاً من التخطيط الضمني لتنشئة الطفل والذي يدرك فيه التدليل الزائد أو القسوة الزائدة في أية مرحلة معينة بمثابة صدمة، من المحتمل أن تحدث تثبيتاً يعوق تقدم النمو إلى المرحلة التالية عليها.

أما بياجيه فهو، من ناحية أخرى، لم يعبر صراحة ولم يبد حتى أي اهتمام بالعلاقات بين المراحل النمائية وشخصية الراشد رغم وجود الروابط بينها ضمنياً. ومع

ذلك، فهناك خطان من خطوط التفكير يربطان بين نظرية النمو المعرفي والشخصية. الأول أن من الممكن القول بأن الملامح الأساسية الحقيقية للسلوك التكيفي، ومن ثم الشخصية، تتمثل في القدرات العقلية للفرد وأساليب تفكيره. ولذا فمن المعقول القول بأن حياة الفرد الدافعية والانفعالية والاجتماعية تتحدد بماذا وكيف يفكر الفرد في نفسه وفي العالم الذي يعيش فيه. وباختصار، تعتبر العمليات المعرفية التي ينميها الفرد أساس كل شيء آخر في حياته، بما في ذلك الخبرات الانفعالية والدافعية والاجتماعية للأسوياء والمضطربين من الناس. ومع ذلك، فلم يوضح بياجيه العلاقات، ولم يعبر عن أي اهتمام حقيقي بها. وسوف يبقى هذا، أساساً، عملاً يقوم به من يأتي بعده.

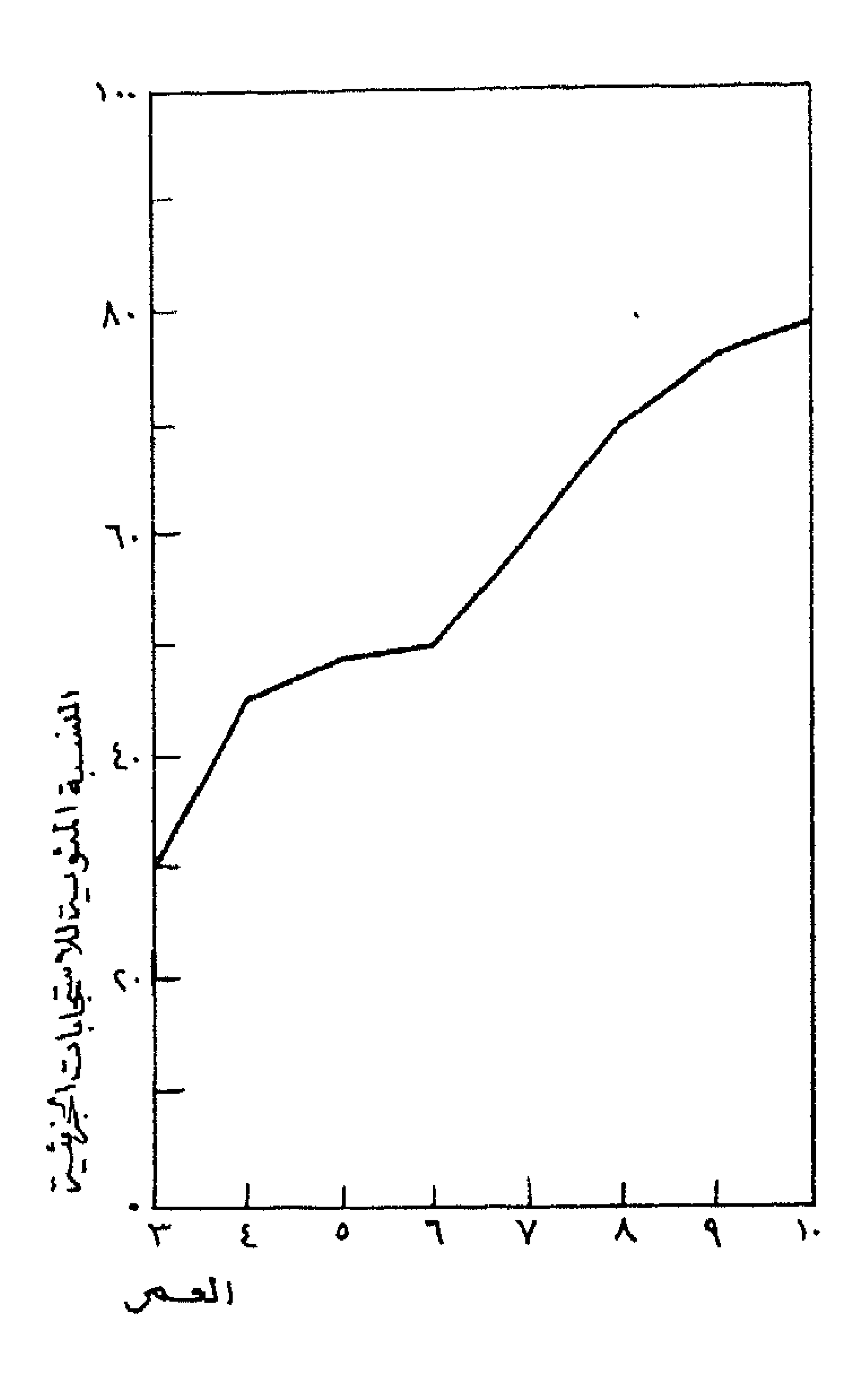
أما الخط الثاني في التفكير فيستند إلى فكرة الفروق الفردية في مرحلة النمو المعرفي التي يحققها الفرد في حياته، ومن ثم الطريقة التي تتحدد نمائياً والتي تمارس بها متطلبات الحياة وواجباتها. ويمكن أن يتضح هذا في مفهوم فرويد عن التثبيت والنكوص وفي معالجته للأنماط الفمية والشرجية والقضيبية. والحقيقة، إن بعض الأفراد يبقون عند مستويات قبل تناسلية، أو أنهم، تحت ظروف قاهرة تظهر متأخرة في الحياة، ينكصون إلى مستوى غير ناضج من العمل. فالفصام مثلاً، هو في نظر فرويد نكوص إلى مستوى فمي مبكراً جداً، والبارانونا نكوص إلى مستوى شرجي مبكر، والعصاب نكوص إلى مستويات نفسية جنسية متأخرة شرجية أو قضيبية. فأعلى مستوى نمائي يصل إليه الفرد إذن هو الذي يحدد الحياة الدافعية والوجدانية، ومن المحتمل أن يحدد أيضاً نمط العلاقات الاجتماعية لهذا الشخص.

وقد ظهر هذا التفكير في صورة بديعة في أعمال بعض تلاميذ هاينز فرنر Heinz werner (١٩٥٤) الذين قدموا نظرية للنمو المعرفي تماثل نظرية «بياجيه وتتداخل معها في نواحٍ كثيرة، رغم أنها لم تحظ بنفس التأثير الذي حظيت به نظرية بياجيه. لقد ذهب فرنر إلى أن النمو المعرفي يسير دوماً من مرحلة مبدئية «عامة وغير متميزة» إلى تمايز متزايد أو تخصص في الوظائف، ربما ليصل في النهاية إلى أعلى مستوى، أعني «التكامل الهَرمي» Hierarchical integration. وكثير من أنواع السلوك يصدق عليها هذا القانون البيولوجي العام. فمثلاً، لاحظ فرنر ـ كما لاحظ بياجيه ـ أن الطفل الصغير جداً يكون غير قادر على تمييز الأشياء في بيئته: كالتمييز بين الأثاث، والتمييز بين الناس بعضهم بعضاً، أو بينهم وبين نفسه. وبالتدريج فقط يحدث أن يدرك الأشخاص باعتبارهم متميزين عن الأشياء. كما يمكنه أخيراً بالطبع أن يميز الأفراد ويتعرف عليهم ويميز

حالاتهم المزاجية المختلفة، كما يصل في النهاية إلى إدراك نفسه كشخص متميز جسمياً ونفسياً عن الآخرين من حوله. وهذا التصور للنمو السيكولوجي قد أثر في نوعين من البحث: الأسلوب المعقد في دراسة الفروق الفردية في «التكامل النفسي» والذي نجده عند وتكن Witkin ومساعديه (١٩٦٢)، ثم بعض الدراسات التي قام بها تلاميذ فرنر عن المرض النفسي والنمو. وسوف نشير باختصار إلى هذا الأخير.

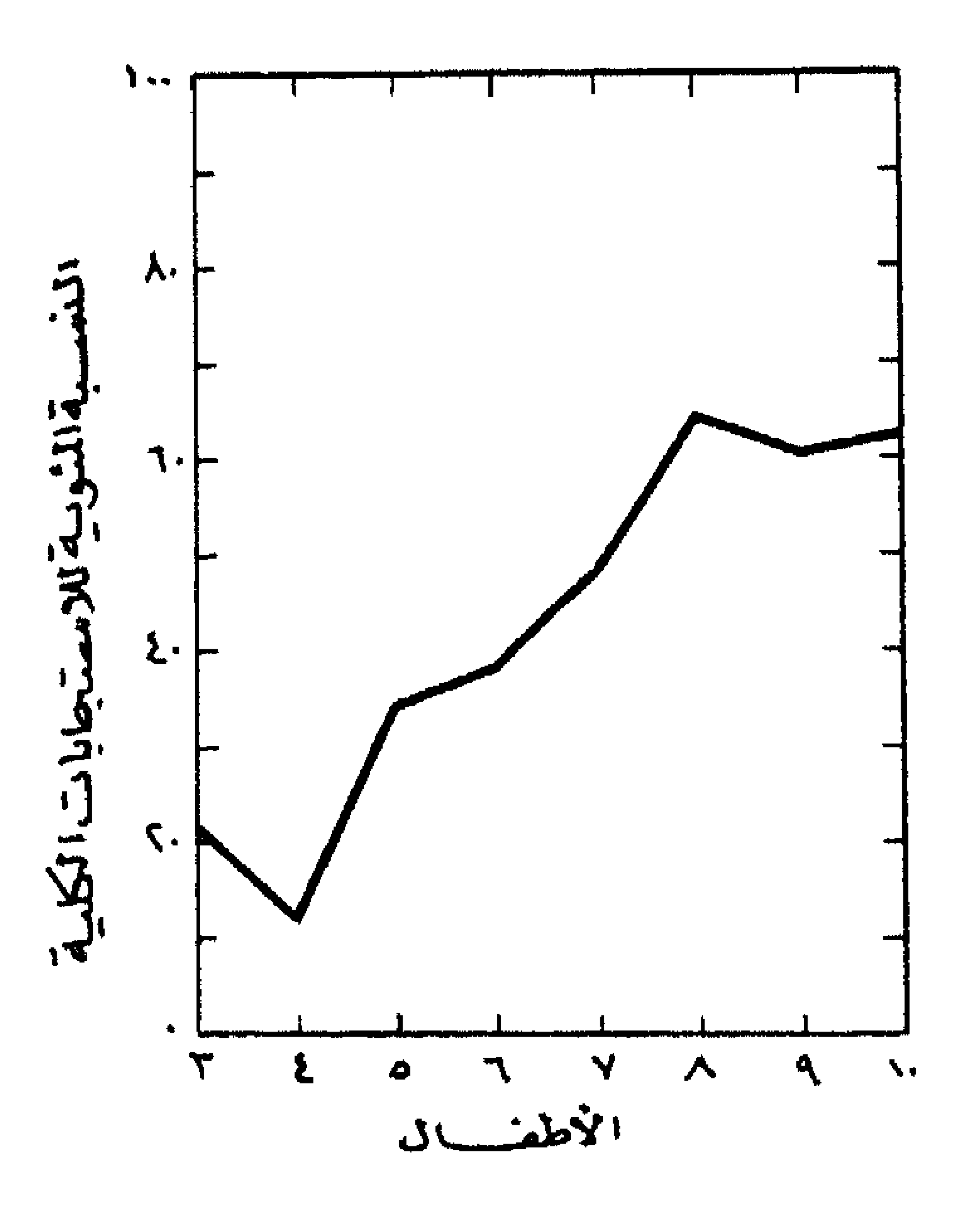
كانت إحدى الوسائل التي قام بها تلامذة فرنر لاختبار بعض هذه الأفكار هي استخدام اختبار بقع الحبر لرورشاخ Rorschach - وهو اختبار إسقاطي لتقييم الشخصية سوف نلقي الضوء عليه بصورة أوسع في الفصل السابع. وبقعة الحبر هي مثير غامض إلى حد ما، وعندما يطلب إلى الشخص أن يستجيب لها، فإن عليه أن ينظم المثير إدراكياً بطريقة ما، وقد يعطي استجابة كلية أي انطباعاً سريعاً عن البطاقة ككل (مثل سحاب أو بقعة)، وقد يختار جزءاً صغيراً من البطاقة ويفسر هذا الجزء (هذا الجزء هو رأس إنسان). وهذه العملية الأخيرة توضح تمايز المدركات. وعند أعلى المستويات تقدماً للتنظيم الإدراكي، ونعني به «التكامل الهرمي» قد يميز الفرد تفاصيل معينة، أعني يحدد مواضع من بقعة الحبر تبدو كأجزاء من الجسم مثل رأس، ذراعين رجلين، ثم ينظمها في مدرك متكامل معقد يتكون من هذه الأجزاء؛ فيقول مثلاً هذا إنسان أو حيوان. ويسير النمو الإدراكي، من وجهة نظر فرنر، دائماً من العمليات غير المتميزة إلى الأكثر تمايزاً، وأخيراً إلى العمليات المتكاملة عند أعلى المراحل النمائية تقدماً. وهذه النتائج تدعمها بالطبع بحوث مستعرضة (كتلك التي استعرضها همندنجر Hemmendinger، ١٩٦٠)، على أطفال من أعمار مختلفة. وهذا ما يتضح في الشكل رقم ٧ الذي يشير إلى أن النسبة المئوية للاستجابات الجزئية (المدركات المتمايزة) على اختبار رورشاخ تزداد مع تقدم السن.

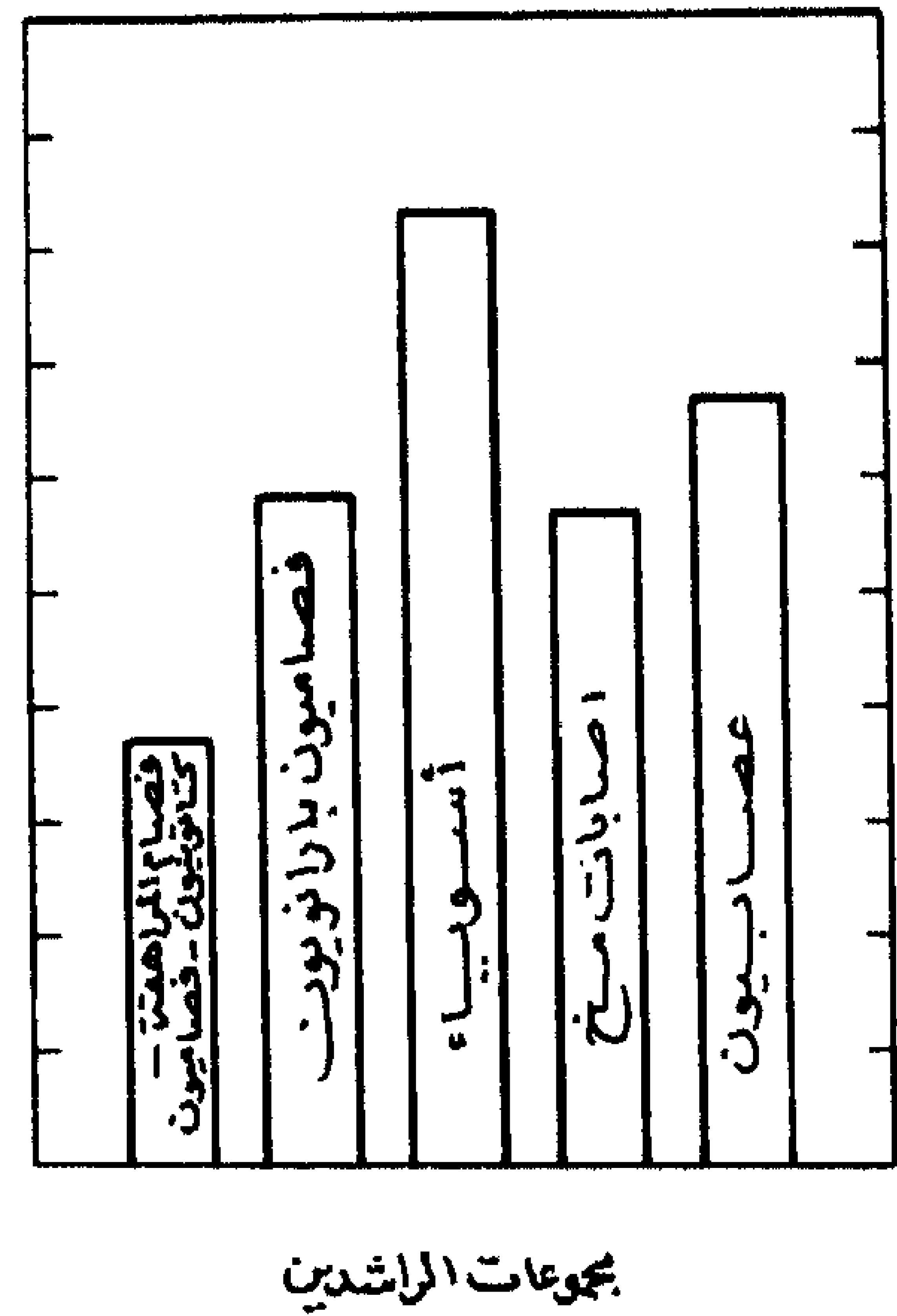
ولقد تمكن تلامذة فرنر أيضاً من بيان أن المرضى العقليين قد نكصوا في المستوى النمائي الذي نظموا عنده إدراكاتهم لبقع الحبر، نتيجة اضطراباتهم. فقد كشف المرضى الذهانيون الأشد اضطراباً عن أنماط إدراكية شبيهة في الشكل (وليس في المحتوى) بتلك التي يعطيها الأطفال الصغار غير الناضجين، بينما كشف المرضى العصابيون الأقل درجة في سوء التوافق عن وظائف إدراكية أكثر شبهاً بتلك التي نجدها عند العاديين من الكبار. وهذا ما يتضح في الشكل رقم ٨ حيث رسمت النسبة المئوية للاستجابات الكلية المتقدمة نمائياً لبقع الحبر كدالة للسن ودرجة المرض النفسي (أي



شكل ٧ ـ يمثل الزيادة في النسب المئوية للاستجابات الجزئية الإدراكية على اختبار رورشاخ مع تقدم السن (عن همندنجر)، ١٩٦٠ ص : ٦٥.

شكل ٨ ـ (أسفل) النسب المئوية للوسيط «نمائياً» ـ الاستجابات الكلية المرتفعة «لجميع الاستجابات الكلية لدى مجموعات الأطفال والراشدين (عن همندنجر)، ١٩٦٠ ص : ٦٧.





مقارنة الفصاميين والبارانويين والعصابيين والعاديين من أكثرهم إلى أقلهم اضطراباً).

وإلى هذا الحد، فإن خصائص قليلة جداً للشخصية هي التي ارتبطت على هذا النحو بالاختلافات في المستوى النمائي المعرفي. ومع ذلك، ليس من العسير أن نتصور كيف أن العديد من سمات الشخصية، بما في ذلك السمات الدافعية والوجدانية والاجتماعية، يمكن أن يرتبط في نهاية الأمر بمستوى النمو المعرفي الذي بلغه الفرد.

ويمكن أن نجد مثلاً توضيحياً للعلاقات بين النمو المعرفي والأداء الوظيفي الاجتماعي في دراسة حديثة قام بها أدلسون Adelson وأونيل O'Neil (١٩٦٦). لقد كان هذان العالمان الاجتماعيان مهتمّين بمعرفة الطريقة التي بها تبزغ الأفكار الاجتماعية السياسية وتعبر عن نفسها في المراهقة. وقد أجريا مقابلات متعمقة مع ١٢٠ شاباً، بمعدل ٣٠ في كل مجموعة عمرية قاما بدراستها (من سن الحادية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة والثامنة عشرة) لمعرفة كيف يكون شعور المراهقين بقضايا المجتمع دالة (أو وظيفة) للسن. وقد اتضح أنه قبل الثالثة عشرة، لا يمكن للصغار أن يتصوروا بسهولة النتائج الاجتماعية للأحداث السياسية، إذ يقتصر تحليلهم لهذه الأحداث على الأطراف المتضادة المحسوسة والنمطية التي وجدت في المجتمع. وقبل سن الخامسة عشرة كانت لديهم صعوبة في إدراك المجتمع ككل، كما أن نظرتهم إلى الحكومة كانت تتم أساساً في ضوء الخدمات المعينة المحسوسة التي تنجزها. أضف إلى ذلك أن صغار المراهقين كانوا على وجه الخصوص غير مدركين لمفاهيم الحريات الفردية، فهم يؤثرون عادة الحلول التسلطية بالنسبة للمشكلات السياسية دون أن يدركوا الحقوق المشروعة للمجتمع على المواطن. ولم يظهر الإحساس الواضح بالمستقبل إلا عند كبار المفحوصين وحدهم، إذ كانوا يدخلون في اعتبارهم الآثار الطويلة المدى للفعل السياسي. ومع تقدم السن بالفرد، كانت هناك زيادة في الإشارة إلى المبادىء الفلسفية التي تحدد اتجاهاتهم السياسية. وتوحي نتائج أدلسون وأونيل بأن محتويات الاتجاهات، وبالتأكيد أيضاً السلوك الدافعي والوجداني، والاجتماعي، كان يحكمها نفس مبادىء النمو المعرفي التي صاغها بياجيه، والخاصة بنمو الطفل من الحس الحركي العيني إلى المجرد والتصوري.

وعلى الرغم من أن فرويد لم يؤكد العمليات المعرفية في نظريته للنمو النفسي الجنسي، إلا أنه لم يغفل الإشارة إليها كلية. فقد وجه بعض الاهتمام إلى نمو

الأنا ودفاعات الأنا في المراحل النفسية الجنسية المختلفة. فميكانزم الإسقاط مثلاً، والذي بواسطته يعزو الفرد حوافزه غير المقبولة إلى شخص آخر، يرتبط نظرياً بالمرحلة الشرجية المبكرة، كما أنه يعتبر أسلوب التعامل الأولي الذي يستخدمه البارانوي. وبالمثل، فإن العزل والإغفال، وهما من خصائص العصاب الوسواسي القهري، قد ردّا إلى المرحلة الشرجية المتأخرة، على حين ردّت مصادر الكبت إلى المرحلة القضيبية باعتباره دفاعاً ضد تهديد الحوافز الأوديبية. وعلى ذلك، ففي نظرية فرويد يفترض قيام علاقة بين مرحلة النمو النفسي الجنسي، أو نمط الحافز أو الدافع (أعني الفمي في مقابل الشرجي)، وأسلوب التفكير التكيفي أو الدفاعي الذي يستخدم به الحافز. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الطاقة اللازمة لبزوغ التفكير التكيفي عند فرويد تصدر أساساً من الحوافز الجنسية أو الغرائز. أما بالنسبة لبياجيه، فإن التراكيب المعرفية ذاتها تحتوي على كل الطاقة اللازمة لبزوغها ونموها. ولقد عادت بعض الأفكار الحديثة في التحليل النفسي - كحركة «سيكولوجية الأنا» مثلاً (أنظر ربابورت Rapaport، ١٩٦٧؛ وهارتمان Hartmann، ١٩٦٤) - توجه انتباهها إلى العمليات المعرفية التكيفية للأنا. وهذا يوحي بإمكانية التقارب بين هذين الاتجاهين من اتجاهات النمو الشكلي وهما اتجاه بياجيه واتجاه فرويد. وقد قام ب. هـ. وولف P. H. Wolff حديثاً (١٩٦٠) بمحاولات لوضع أسس مثل هذا التقارب.

ومن الواضح أن التركيز المطلق على النمو المعرفي من شأنه أن يغفل عناصر أساسية في الشخصية تكون متضمنة في موضوعات الدافعية والانفعال أو في السلوك الاجتماعي. وبالمثل، فإن الاهتمام المطلق بنمو العمليات الدافعية والوجدانية والاجتماعية من شأنه أن يغفل ما يمكن أن يعتبر موضوعاً أساسياً له أهميته الكبرى في هذه العمليات، ونعني به النشاط المعرفي. إن كل ما نتطلبه إذن، هو قيام نظام من التفكير يحتفظ بالعناصر الأكثر نفعاً من الموضوعات المتوافقة ويجمعها معاً في نظام واحد يحدث التكامل بين جميع المظاهر الأساسية للشخصية داخل إطار نمائي.

الفصل الرابع

ديناميات الشخصية

إن أهم واجبات نظرية الشخصية هو وصف وظيفة الشخصية من حيث هي نظام، أعني ميكانزمات أو عمليات فعاليتها، وكيف تنعكس في أحداث سلوكية تقبل الملاحظة. وقد يتذكر القارىء قولنا في الفصل الأول إن الديناميات في علم الجيولوجيا تتضمن، كأوضح أمثلتها، تأثير الرياح والماء على الصخر والأرض. وأن ديناميات محرك السيارة تتضمن إدخال الوقود واحتراقه في الأسطوانات، وخروج العادم، وتحول الطاقة الناتجة إلى إدارة عمود الإدارة والعجل. أما في دراستنا لديناميات الشخصية، فيجب أن تتجه الدراسة إلى عمليات سيكولوجية بدلاً من عمليات مادية.

وكما كان الحال بالنسبة لوصف الشخصية ونموها، يمكن النظر إلى ديناميات الشخصية من نواح متعددة، وعلى الرغم من اختلاف النظريات في كثير من الموضوعات المتصلة بالديناميات، إلا أن الموضوع الذي نركز عليه في هذا الفصل، يتصل بطبيعة الدافعية عند الإنسان. وتتصل هذه بالقوى التي يفترض أنها تحرك سلوك

الإنسان وتوجهه، وبتنظيم هذه القوى داخل الفرد، وبالطريقة التي تنطلق بها وتنضبط. وتتبنى كل نظرية من النظريات الكبرى في الشخصية مواقف معينة عن طبيعة دافعية الإنسان. وسوف ينصب اهتمامنا هنا بدرجة أقل على تفاصيل الدافعية، وبدرجة أكبر على الخطوط العريضة للتفكير، أعني على الافتراضات الأساسية. وقد يفيد القارىء الاطلاع على كتب أخرى تعالج موضوع الدافعية، مثل دراسة أنماط الدوافع، واستثارة الدوافع، والعلاقات بين الدوافع والمعرفة، وصراع الدوافع.

وتنحصر افتراضات الدافعية لدى معظم نظريات الشخصية السائدة في أنماط ثلاثة رئيسية هي خفض التوتر Tension - reduction، وتلك التي تضيف إلى خفض التوتر مبادىء إضافية كالتأثيرية effectance، ثم القوة الدافعة من أجل النمو force for growth. أما وجهة نظر «خفض التوتر» فقد عرضها أحسن عرض فرويد وبعض الفرويديين المحدثين، وكذلك اتجاه التعلم بالترابط عند دولارد وميللر. أما نموذج التأثيرية فقد أرسى معالمه بصورة كاملة روبرت هوايت Robert White. وعلى الرغم من أن هوايت ـ إذا توخينا الدقة ـ لم يضع نظرية كاملة للشخصية إلا أنه يتحدث ببلاغة عن أية نظرية يمكن أن ترسي مفهومها الدينامي على مبدأ التأثيرية. أما وجهة نظر «القوة من أجل النمو»، فتتضمن نظريات الشخصية لروجرز Rogers وماسلو Maslow، هذا إذا اقتصرنا على ذكر أسماء أشهر مؤيديها.

نموذج خفض التوتر

إن المبدأ الأساسي لهذا الموقف مبدأ بسيط وممتاز، ويتلخص في أن كل سلوك (سواء في الإنسان أو الحيوانات دون البشرية) يمكن أن يفهم باعتباره جهداً يهدف إلى خفض التوتر. وهذا المبدأ له صلة وثيقة بموضوعين آخرين حديثين. الموضوع الأول هو نظرية التطور لداروين Darwin (١٨٥٩) التي تؤكد «الإنتقاء الطبيعي» باعتباره العملية التي بواسطتها تنقرض الأنواع أو الصفات البيولوجية الأقل تكيفاً مع بيئتها على حين تبقى تلك التي تكون حسنة التكيف مع البيئة. وهذه الفكرة الدارونية شجعت علم النفس على أن يتبنى بوجه عام إتجاهاً بيولوجياً بالنسبة للإنسان وأن يركز اهتمامه بخاصة على السلوك التكيفي. فليس البقاء وحده هو الأمر الهام، بل وأيضاً تحقيق حالة مثلى من التوازن في البيئة الداخلية للإنسان. ويمكن أن يتحقق هذا بواسطة الأنشطة التكيفية التي تمنع الجوع والعطش والانخفاض المتزايد لدرجة حرارة الجسم، إلخ. وقد

شجعت مثل هذه النظرة العالم الفسيولوجي الشهير كلود برنارد Claude Bernard الذي كان معاصراً لداروين والذي قام بالعمل الرائد عن مفهوم «الاتزان الحيوي» homeostasis أعني حفظ التوازن في البيئة الداخلية. فالأنشطة التكيفية للإنسان قد تسهم في الاتزان الحيوي لأن سلوكه يحكمه مبدأ خفض التوتر. أما غياب حالة التوازن المثلى الثانية فيؤدي إلى توتر مؤلم (على نحو ما يحدث في حالة الجوع أو العطش) ويؤدي بالتالي إلى القيام بسلوك ـ كالأكل مثلاً ـ من شأنه أن يؤدي إلى خفض حدة التوتر.

أما الموضوع الثاني فقد صدر عن الحاجة الواضحة لإيجاد مبدأ يمكن بواسطته تحقيق خفض التوتر، أعني أن يتعلم الحيوان والإنسان القيام بالسلوك الذي يحفظ توازنه الحيوي. وهذا هو مبدأ الارتباط Association الذي تمتد أصوله إلى كتابات بعض الفلاسفة في القرن الثامن عشر من أمثال دافيد هارتلي David Hartley (١٧٠٥ ـ ١٩٣٧)، وجيمس مِلْ James Mill (١٧٧٣ ـ ١٨٣٦). ويذهب هذا المبدأ إلى أن فكرة ما ترتبط بفكرة أخرى نتيجة الاقتران في الزمان أو المكان. ويمكن النظر إلى الحياة العقلية المركبة والسلوك التكيفي على أنهما مكوّنين من مثل هذه الارتباطات. وعلى ذلك، يمكن تعلم خفض التوتر بنجاح في الكائنات العضوية العليا عن طريق ربط السلوك التكيفي بالأدلة المناسبة؛ فنحن نأكل في وجود أدلة الجوع، ونشرب عندما نكون عطشانين. ويجب ألا يذهب القارىء إلى أن جميع نظريات التعلم تتبنى نظرية خفض التوتر أو الارتباطية، فهناك نظريات أخرى. ومع ذلك فإن مبادىء خفض التوتر والارتباطية هي أهم هذه المبادىء في تاريخ علم النفس.

وتفترض كل النظريات التي تعتنق مبدأ خفض التوتر وجود نوعين من القوى الدافعة، تلك التي تعتبر معطيات أولية وإلى حد كبير فطرية، وتلك التي تعتبر ثانوية أو اجتماعية ونتيجة التعلم. وسوف نعرض بالدراسة صورتين بارزتين من هذا النوع من التحليل في نظرية الشخصية ونعني بهما: «التعلم بالترابط من خلال التدعيم»، «ونظرية التحليل النفسي الفرويدي».

التعلم بالترابط من خلال التدعيم:

يذهب مبدأ التدعيم إلى أن ارتباطاً ما سوف يحدث بين المثير والاستجابة عندما يكون هناك إشباع لدافع ما، أعني عندما تنجح الاستجابة لمثير ما في خفض حدة التوتر

الناجم عن حافز غير مشبع. وليست كل نظريات التعلم بالارتباط قائمة على مبدأ التدعيم هذا. ومع ذلك، فمفهوم التدعيم يحتمل أن يكون أكثرها تأثيراً في نظرية التعلم بالترابط، وبالتأكيد أكثرها استخداماً في تطبيق نظرية التعلم على الشخصية. وليس هنا مجال مناقشة المبادىء البديلة أو تاريخها. ويكفي القول بأن جون دولارد ونيل ميللر (١٩٥٠) قد أصبحا أهم المتحدثين باسم التعلم بالترابط من خلال التدعيم في مجال الشخصية.

لقد حدد دولارد وميللر مفاهيم أربعة لها أهمية بالغة في عمليات التعلم هي: الحافز Drive والاستجابة Response والدليل Cue والتدعيم Reinforcement. فالحافز هو ما يحفز على الاستجابة. ويصدر هذا الأساس الأولي للدافعية عند الإنسان عن حاجات الأنسجة غير المشبعة. ولنأخذ على سبيل المثال الحاجة إلى التغذية وشرب الماء، والنوم والوقاية من التغير الزائد في درجة حرارة الجسم للإشارة إلى بعض الأمثلة الهامة لما يسمى باحتياجات الأنسجة Tissue deficits. فوجود هذا النقص أو الاحتياج من شأنه أن يخلق حالة توتر أو عدم ارتياح. ويصبح هذا التوتر بمثابة حافز مثير للسلوك إلى أن تحدث الاستجابات التي تنجح في سد هذا النقص (التدعيم) والذي بعده يخمد الحافز. والحقيقة، أننا نتعلم السلوك (الاستجابات) الذي يمكننا من إشباع حاجات الأنسجة وخفض توترات الحافز المرتبطة بها. ولما كانت نشأة مثل هذه الحوافز ترجع إلى الطريقة التي تكونت منها الحيوانات بيولوجياً، كما أن البقاء يتوقف على إشباعها، فإنه يشار إليها عادة بأنها حوافز «أولية».

أما الحوافز الثانوية أو الاجتماعية، فلا تصدر مباشرة عن الحاجات الموروثة للأنسجة، ولكنها تكتسب من خلال الخبرات الاجتماعية وذلك لارتباط استجابات معينة بخفض توترات الحافز الأولى. فمثلاً عند الطفل الصغير ترتبط استجابات «محبة الأم» باستبعاد توتر الجوع أو تدعيمه عندما تطعمه الأم. ولذلك يصبح الطفل يريد مثل استجابات المحبة هذه من الأم ومن الآخرين، مثلما يريد الإشباع المعطى فطرياً لملء معدته. فمن خلال عملية الإطعام يتعلم الطفل إيجاد علاقة بين المحبة والتخلص من الجوع، ومن ثم يظهر حافز جديد أو ثانوي للمحبة. ومثل هذه الارتباطات أو العلاقات توجد بين استجابات وأدلة أو مثيرات معينة في البيئة. وعلى ذلك، فإذا كانت الاستجابة المدّعِمة هي الأكل، وجب أن يتعرف الشخص على تلك المثيرات التي تكون مناسبة للاستجابة. وقد تتضمن مثل هذه المواقف وجود الطعام أو الظروف البيئية التي

يوجد فيها الطعام، فالثلاجة، مثلاً، قد تكون دليلاً ملائمًا للحصول على الطعام. وباختصار، فإن الشخص ـ تحت ظروف الحافز وفي وجود أدلة أو مثيرات، يقوم باستجابات تؤدي إلى خفص الحافز. وتلك الاستجابات التي تقوم بالتدعيم يتم تعلمها بحيث تثيرها بعد ذلك الأدلة المناسبة.

وبالإضافة إلى هذه العناصر الأساسية للتعلم بالترابط من خلال التدعيم، حدد دولارد وميللر خصائص معينة أخرى للتعلم. فمثلاً، إن تقوية الروابط بين أدلة معينة والاستجابات المدّعِمة للحافز، قد تتضمن أيضاً عملية عكسية، أعني إضعاف روابط أخرى واستبعاد الاستجابات غير المناسبة التي سبق محاولة القيام بها. وهذا الاستبعاد للاستجابات السابق تعلمها هو ما يسمى «بالإنطفاء» Extinction. وهذه العملية أساسية للتعلم، لأن التعلم لا يمكنه أن يتم ما لم تنطفىء الاستجابات غير المرغوب فيها، مع إقامة وتقوية الأفعال المرغوبة.

وطبقاً لمبدأ آخر وهو مبدأ «تعميم المثير» Stimulus Generalization، فإن الاستجابات التي تم تعلمها نتيجة الارتباط بدليل واحد معين، قد تتحول إلى أدلة أو مواقف أخرى مشابهة. فإذا تعلمنا الخوف من التحدث في موقف اجتماعي خاص، فإن استجابة الخوف يمكن إذن أن تستثار في مواقف اجتماعية أخرى. . وكلما عظم التشابه بين المواقف، كبر احتمال أن الاستجابة المتعلمة في إحداها أن تعمم في الأخرى، وعلى العكس، فإنه كلما قل التشابه، قل احتمال هذا التعميم. ولما كان من المتعذر وجود دليلين أو موقفين متشابهين تماماً، فإن اتساق السلوك قد لا يحدث أبداً دون «تعميم المثير». وطالما كان من الممكن الاستجابة إلى المثيرات باعتبارها متشابهة على أساس أبعاد مادية وذاتية كثيرة، فإن تعيين الصفات التي تحدد التشابه السيكولوجي بين المواقف يظل واحداً من أعقد المشكلات في نظرية التعلم. إن الأساس الذي عليه يستجيب الفرد أو يفشل في الاستجابة للمثيرات من حيث هي متشابهة أمر يصعب، إن لم يكن يستحيل، التنبؤ به دون معرفة بالأحداث السيكولوجية الداخلية.

وتعميم المثير أمر بالغ الأهمية، ولكن إذا كانت الاستجابات المتعلمة بالنسبة لمثير ما تميل إلى التعميم بلا تمييز على مثيرات أخرى، فإن التعلم لا يمكن أن يحدث طالما أن نفس الاستجابة يمكن إذن أن تتم بالنسبة لجميع المثيرات. فلكي ينمو السلوك التكيفي، يلزم أن يتعلم الفرد التمييز بين المثيرات، وبذلك يمكنه القيام باستجابات مدعِّمة للحافز بالنسبة للمثير الصحيح. ولنأخذ مثلاً محسوساً، يجب أن نتعلم

التمييز بين الثلاجة التي تحوي الطعام، والخزانة التي تحوي أشياء لا تقدر على خفض حافز الجوع عندنا. وتسمى العملية التي بواسطتها نميز بين الأدلة المناسبة وغير المناسبة «بالتمييز» Discrimination. وكما يكون التعميم مطلوباً من أجل أن تمتد استجابة ما إلى كل أفراد نوع الأدلة المناسبة، فكذلك يكون التمييز مطلوباً ليسمح لنا باختيار النوع الصحيح من الأدلة الذي يؤدي إلى خفض حدة الحافز.

وأخيراً ومن خلال «التوقع» Anticipation نتعرف على النتائج المحتملة لمثير ما أو استجابة ما قبل حدوثها، ومن ثم يمكن أن نتعلم القيام بأفعال من شأنها أن تخفض حدة الحافز في المستقبل، وأن نتجنب أفعالاً لها نتائج مؤلمة أو ضارة. فالتوقع يساعد الفرد على الاستجابة لخطر وشيك الحدوث أو كسب يتنبه لحدوثه.

ومن المفروض أننا نتعلم الدوافع الاجتماعية المعقدة كالرغبة في التحصيل أو في أن نحب، بنفس الطريقة التي نتعلم بها الاستجابات الأكثر بساطة كربط الحذاء أو الضغط على مفاتيح الآلة الكاتبة. وكذلك يمكن تعلم الجزاء. فنحن نتعلم تقبل تعبيرات الموافقة كجزاء، لأن الموافقة قد اقترنت في الطفولة بالتدعيم (عن طريق الآباء وغيرهم من الكبار) للحوافز الأولية كالجوع والعطش. وبعبارة أخرى، نحن نتعلم ارتباط الموافقة بالنتائج المرغوبة حتى ولو لم يكن لمثل هذه الموافقة ذاتها أية قيمة بيولوجية داخلية.

وبهذه الطريقة ووفق مبادىء التعلم التي أوجزناها، يمكن تعلم أي نمط معقد من الاستجابة، بما في ذلك الأعراض العصابية كالمخاوف المرضية والشلل الهستيري وميكانزمات الدفاع المرتبطة بهذه الاضطرابات.

فمصدر مثل هذه الاستجابات سيئة التكيف هو الحافز الانفعالي للخوف، والذي يقال إنه ينخفض عن طريق العرض العصابي أو النشاط الدفاعي. فمن الواضح إذن، من وجهة النظر هذه، أن أية خاصية من خصائص الشخصية ـ كالدوافع والكتب والميكانزمات الدفاعية وغيرها ـ يمكن أن تتعلم وفق نفس مجموعة قوانين التعلم الارتباطي عن طريق التدعيم.

قد قدم دولارد وميللر أمثلة توضيحية لتطبيق المبادىء التي اعتنقاها على تعلم الأعراض المرضية كالخُواف Phobia والقهار Compulsion والإدمان الكحولي، وتعلم

الميكانزمات الدفاعية كالنكوص والنقل والتبرير والإسقاط. ويمكن أن تعد حالة الخواف التالية مثالاً ممتازاً لذلك:

تتمثل النقط الأساسية في حالة طيار قام أحد المؤلفين بمقابلته. ولم يكن هذا الضابط قد كشف عن أي خوف شاذ من الطائرات قبل أن يرسل في مهمة خاصة صعبة تتلخص في أن يقصف بالقنابل معامل تكرير بترول بعيدة ومحمية جيداً. وقد تعرض السرب الذي كان يشترك فيه لهجوم عنيف أثناء اتجاهه إلى الهدف. وفي أثناء الارتباك الذي حدث عند الطيران المنخفض جداً فوق الهدف والتعرض لنيران دفاعية قوية، قامت بعض الطائرات المتقدمة علية بدورة خاطئة وأسقطت قنابلها على جزء كان محدداً لتشكيل هذا الطيار. ولما لم تسقط قنابل كافية فوق الهدف لتدميره، كان على تشكيل هذا الطيار أن يتبعها لتتمة العمل المطلوب. ولما وصلوا إلى النقطة المحدودة، انفجرت القنابل وخزانات البترول واهتزت طائرة هذا الطيار بعنف وأصيبت، بينما اختفت الطائرات القريبة في أعمدة من النيران. ولما كانت طائرته المصابة لم تعد تقوى على الطيران المرتفع، كان عليه أن يعود وحده مقللاً من سرعته، كما كان عرضة لهجوم عنيف ـ الطائرات المقاتلة التي قتلت عدداً من الملاحين وهددتهم جميعاً بالفناء عدة مرات. وأخيراً عندما وصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط كان مستوى الوقود منخفضاً وكان عليهم أن يهبطوا بالطائرة فوق سطح البحر. وقد تعلق الناجون بأطواق النجاة، وتم إنقاذهم آخر الأمر.

لقد تعرض هذا الطيار مرات عديدة خلال هذه الرحلة إلى مثيرات عنيفة مسببة للخوف كالانفجارات الشديدة ورؤية الطائرات الأخرى تهوي والزملاء يقتلون. ومن المعروف أن المثيرات العنيفة المسببة للخوف من مثل هذا النوع تعمل على تدعيم الخوف كاستجابة لأدلة أخرى موجودة في ذلك الحين. وفي هذه الحالة، فإن الأدلة الأخرى هي تلك التي تأتي من الطائرة، منظرها وصوتها والأفكار التي تدور حول الطيران. ومن الممكن أن تتوقع إذن تعلم الحافز القوي للخوف الشديد، كاستجابة لجميع هذه الأدلة.

وعندما يكتسب الخوف الشديد كاستجابـة لمجموعة معينة من الأدلة، فإنه يميل إلى التعميم لأدلة أخرى مشابهة. وعلى ذلك، يمكن أن نتوقع أن يعمم الخوف من هذه الطائرة ومن الأفكار المتصلة بالطيران إلى رؤية وسماع أصوات الطائرات الأخرى والأفكار المتصلة بالطيران فيها. وهذا هو ما حدث بالفعل. فالطيار كان يشعر بالخوف الشديد عندما يقترب من أو ينظر إلى أو حتى يفكر في الطيران في أية طائرة.

ولما كان قد تعلم من قبل تجنب الأشياء التي تخيفه، أصبحت لديه نزعة قوية لينظر بعيداً ويمشي بعيداً عن كل الطائرات. وهو حين يفعل ذلك، إنما يبعد الأدلة المثيرة للخوف ومن ثم يشعر بأنه أقل خوفاً بكثير. ولكن. . . خفض أي حافز قوي كالخوف، يؤدي إلى تدعيم الاستجابات السابقة مباشرة. وعلى ذلك، يمكن أن نتوقع تعلم أية استجابة أحدثت تجنباً ناجحاً باعتبارها عادة قوية. وهذا هو ما حدث؛ فإن هذا الطيار نمّى حالة خُوَاف قوية من الطائرات ومن كل ما له علاقة بها.

وبالمثل فإنه كان يشعر بالقلق عندما كان يفكر في أو يتحدث عن الطائرات، بينما يصبح أقل قلقاً عندما يتوقف عن التفكير فيها أو التحدث عنها. ولما كان خفض حدة القلق قد دعم التوقف عن التفكير أو التحدث عن الطائرات، لذا أصبح يكره التفكير في الخبرة التي مر بها أو مناقشتها.

وتلخيصاً لما سبق نقول إنه تحت الظروف الصادمة للقتال، تم تعلم الحافز القوي للخوف كاستجابة للطائرة وكل ما له علاقة بها. وقد انتقل الخوف من أدلة هذه الطائرة، إلى الأدلة المشابهة لغيرها من الطائرات.

وقد حرّك هذا الخوف الشديد استجابات تجنب الطائرات. وعندما كانت تنجح إحدى هذه الاستجابات، كانت تُدعم عن طريق خفض حدة الخوف. وعندما يتم فهم جميع هذه الظروف ـ على نحو ما حدث في هذه الحالة ـ لم يعد ثمة سر يحيط بالخُوّاف. والواقع أن أشياء مثل تجنب لمس المواقد الساخنة أو التقدم خطوة أمام السيارات المسرعة لا تسمى عادة «خوافاً» لأن الظروف المدعِّمة للتجنب مفهومة. إن رأينا هو أن قوانين التعلم واحدة تماماً، رغم أن الظروف كثيراً ما تكون مختلفة وأكثر غموضاً وبخاصة عندما يستثار الخوف بواسطة الأدلة الداخلية للأفكار أو الحوافز (١٩٥٠، ص: ١٥٧ ـ ١٥٩).

مثل هذا الرأي الذي يفسر اكتساب الأعراض على أساس التعلم إنما يكمن وراء الاتجاه الحديث للعلاج النفسي «للمعالجين السلوكيين» الذين يبحثون عن إطفاء الأعراض وأنواع السلوك غير المرغوب فيها عن طريق خلق ظروف لمحو التعلم Unlearning أو الإنطفاء. إن مقدمتهم المنطقية ـ كتلك التي عند دولارد وميللر ـ هي أن «قوانين التعلم واحدة تماماً بالنسبة لاكتساب أية عادة، سواء مرضية (عرض) أو مقبولة. وكما سوف نرى، فإن المفهوم الفرويدي لاكتساب عرض ما مختلف تماماً. وقد نتساءل مثلاً لماذا كشف هذا الطيار بالذات عن «خواف» الطائرات، على حين أن الطيارين الآخرين الذين خضعوا لنفس الضغوط لم يظهر لديهم الخواف. أضف إلى ذلك، أن استجابات الخوف الشديدة التي من هذا النوع، لا تدوم عادة مدة طويلة بعد انتهاء الخبرة. وأنه في حالة حدوث ذلك فقط، فإن العرض يوحي بخواف حقيقي. إن الفرويدي يفترض في مثل هذه الحالات، وربما حتى بالنسبة لحالة الطيار التي أوردها دولارد وميللر، أن ثمة علاقة ما بين هذه الحادثة التي جرت في الكبر، وحادثة منسية مرت به في الطفولة. ومثل هذه العلاقة وحدها هي التي تجعل لدى هذا الطيار بالذات استعداداً لظهور هذه الأعراض. فربما تكون أحداث مهمة القذف بالقنابل قد أثارت دوافع ممنوعة أو غير متقبلة أحيت مرة ثانية إحساساً قديماً بالذنب أو الخوف. ورغم أن هذا لم يرد عند دولارد وميللر، فإن من الشائع لدى الطيارين شعورهم في مثل هذه المواقف بذنب عظيم عن بقائهم هم أنفسهم على قيد الحياة بينما يموت زملاؤهم. وعلى ذلك، ورغم أن الخطر الشخصي الشديد المحيط بالطيار يبدو هو المظهر البارز في المشكلة، فإن الحادث بأكمله مشبع في الحقيقة بجميع أنواع التعقيدات الدينامية الصادرة عن علاقات الطيار بالرجال الآخرين الذين شاركهم الخطر. وبالتحديد، فإن هذا النوع من الموضوعات يقسم المعالجين النفسيين في الوقت الحالي إلى هؤلاء الذين يتبنون وجهات نظر مشابهة لتلك التي نادى بها دولارد وميللر أو غيرهم من أصحاب نظريات التعلم، وهؤلاء الذين يرون الأعراض المرضية في ضوء الإطار الفرويدي

كتعبير عن قوى أكثر عمقاً ـ خفية أو لا شعورية عادة ـ تمتد جذورها إلى أيام الطفولة، وربما تثيرها من جديد بعض الأحداث الراهنة.

التحليل النفسي الفرويدي:

لقد اعترف فرويد أيضاً (١٩٢٥) بنوعين من الحوافز: تلك التي تكون فطرية بيولوجياً في الإنسان، وتلك التي تتطور وتنمو من خبرات الحياة. ومع ذلك، فإن فرويد ـ على عكس دولارد وميللر ـ لم يركز كثيراً على الطريقة التي تكتسب بها هذه الأخيرة. وتنقسم الحوافز الأولية أو الغرائز في نظر فرويد إلى مجموعتين: «غرائز الحياة» Life Instincts التي تسهم في بقاء الفرد والأنواع، «وغرائز الموت» Death Instincts التي تتضمن قوى تدمير الذات التي قد تتحول خارجياً نحو الآخرين والتي تحدث العدوان والحرب. وقد أقيمت نظرية فرويد في الشخصية بأكملها على التحولات التي تحدث في الحوافز الجنسية، والعدوانية، والتي هي ثمار الحياة في عالم اجتماعي.

وينتظم سلوك الطفل الإنساني، على نحو ما يراه فرويد، حول «مبدأ اللذة» Pleasure Principle، الذي يتميز «بأقل توتر» أو بمفهوم «خفض التوتر». فكل ما يفعله الطفل يعكس النزعة المباشرة للبحث عن اللذة عن طريق التفريغ المباشر للطاقة الغريزية. فمثلاً، الحوافز اللبيدية (الغريزية) يجب تفريغها فوراً من أجل تجنب التوتر المؤلم، وهذا التفريغ يمكن أن يحدث أحياناً خلال العديد من الأفعال المنعكسة الحركية الآلية. وتختلف متطلبات التفريغ أيضاً وفق مرحلة النمو النفسي الجنسي للطفل، بمعنى أن الأشكال الفمية للتفريغ تكون مناسبة في البداية، ولكن فيما بعد تتغير المنطقة الشبقية للجسم والتي يتركز عليها الحافز الجنسي، إلى الشرج أولاً ثم بعد ذلك إلى المنطقة القضيبية (أنظر مناقشة مراحل النمو النفسي الجنسي لفرويد في الفصل ٣).

وفي مجالات معينة، لا تكون الأفعال المنعكسة دائماً ملائمة، فأحياناً تمنعها الثقافة أو تقيدها، على نحو ما هو الحال في الذروة الجنسية التي تتضمن الإستمناء أو كما هو الحال في التبرز. وفي حالات أخرى، لا بد من وجود موضوع لإحداث التفريغ؛ فمثلاً لا يمكن لشخص أن يأكل ما لم يكن هناك طعام. وفي مثل هذه الحالات يجب أن يختار الشخص موضوعاً مناسباً للإشباع عن طريق البحث الواقعي في البيئة. ومثل هذا البحث ييسره ميكانزم آخر يكون التفريغ من خلاله ممكناً، وأعني به «العملية الأولية»

التي بواسطتها كوّن الشخص صورة أو هلوسة للموضوع المناسب. ومثل هذه الصورة غالباً ما يشار إليها «بتحقيق الرغبة» Wish - Fulfillment. ورغم أنه من المفروض أنها تسمح بشيء من التفريغ للتوتر، إلا أن مثل هذا التفريغ غير كاف، وأن الوظيفة الأساسية للعملية الأولية هي أنها تسهل في النهاية البحث عن الموضوع المناسب.

وليس من الواضح تماماً ما إذا كان فرويد يفترض أن الشخص يتعلم من خلال الخبرة بالموضوعات المناسبة، أو أن لديه صور معطاة وراثياً تعد جزءاً من النوع، أو من الإثنين معاً. ويوحي البحث الذي قام به تنبرجن Tinbergen (١٩٥١) على الحيوانات الدنيا كالأسماك والدجاج أنها مزودة بميكانزمات «مُطلِقة» أو (محررة) Releaser داخلية تؤدي بطريقة آلية إلى استجابات كيفية معينة عندما تستثار بالمثير المناسب. فمثلاً يقوم ذكر السمك الشائك الظهر بنشاط جنسي - حتى ولو لم يكن له سابق خبرة - بمجرد رؤيته البطن الأحمر للأنثى التي تكون في حالة تهيؤ، وعندئذ يحدث لدى الذكر وبطريقة آلية استجابة جنسية من النمط المعقد لمجرد وجود المثير. وفي الحقيقة، إن الذكر يستجيب أساساً وبنفس الطريقة حتى لرسم بسيط لسمكة على لوحة ما طالما أن الجزء الأسفل من الرسم كان له اللون الأحمر المناسب. ومن الواضح أنه حتى بالنسبة للكائنات العضوية العليا فإن مثل هذه الُمطلِقات المناسبة للفعل يمكن أن تصدر في جزء منها عن ميكانزمات عصبية موروثة، على الرغم من أن هذه الميكانزمات الُمطْلِقة لا تعمل بنفس الجمود أو الآلية مثلما يوجد عند الحيوانات الدنيا. وهذا الاحتمال الأخير لم يتضح أبداً بشكل مناسب بالنسبة للإنسان، ولذا فنحن نميل إلى توكيد ناحية التعلم، أكثر من الوراثة البيولوجية، عند النظر إلى مفهوم فرويد عن العملية الأولية لتحقيق الرغبة.

وثمة مثال لبحث فيما يمكن تسميته «بتحقيق الرغبة» عند الراشدين من الناس، وربما كان سبب التركيز عليه هو ذلك الحرمان الشديد الذي تعرض له الأشخاص. قام البحث على أساس ملاحظة سلوك التخيل لرجال شاركوا في الحرب العالمية الثانية وخضعوا لتجارب عسكرية أعدت لمعرفة آثار ما يشبه المجاعة. (كيز Keys وآخرون، ١٩٥٠). ولقد اشترك المتطوعون لمدة أسابيع في أعمال بدنية طول الوقت، بينما كان إطعامهم يخضع لوجبات تفتقر كثيراً إلى القيمة الحرارية. وقد لوحظت بعض الآثار الهامة على الشخصية نتيجة هذا التجويع الشديد كالاهتمام الزائد بالطعام، وتعليق صور أطعمة على حوائط الثكنات تبين أسماء شرائح ممتعة من اللحم وأطباق فاتحة

للشهية، كما أنهم غالباً ما كانوا يعبرون عن تصميم نحو تغيير مهنهم لصالح مهن تتجه نحو الطعام كالطباخ وعامل المطعم. ومن الممكن جداً أن ننظر إلى هذه الأنشطة باعتبارها أمثلة للعملية الأولية لتحقيق الرغبة: فالإشتهاء القوي المستمر للطعام أدى بالرجال إلى البحث عن صور موضوعات الطعام، التي تقدر عادة على خفض التوتر الناشىء عن الجوع. وبالمثل يمكن النظر إلى الهلوسة لدى المضطربين عقلياً وإلى تشويهات الإدراك لدى العاديين من الناس، كحالات لهذه العملية الأولية يستحضرها الفرد في صور للموضوعات التي تحدث الإشباع.

وتكمن مشكلة العملية الأولية غالباً في عدم تمكننا من تفريغ اللبيدو مباشرة وفي الحال، وذلك إما بسبب الكف الاجتماعي (على نحو ما نجده في حالة التدريب على الإخراج بالنسبة للطفل الصغير)، أو عدم وجود الموضوع الواقعي المطلوب لإحداث التفريغ (كما في الطعام أو الشريك الجنسي). وعلى ذلك، يحدث تأجيل أو إعاقة للإشباع. ومن هذه الإعاقة تظهر «العملية الثانوية» التي تعمل وفق «مبدأ الواقع» Reality Principle. وهذا المبدأ يجب أن يحدث أمرين. الأول: يجب أن يحمي الشخص ضد الأخطار الخارجية؛ والثاني: يجب أن يجعل في الإمكان وفي نفس الوقت تفريغ التوتر عن طريق إشباع الغرائز. ومن الواجب أن يقيّم الموقف البيئي لتحديد ما إذا كان تفريغ الغريزة ممكناً وآمناً، وأن تحدد الموضوعات اللازمة التي تسمح بمثل هذا التفريغ. إن «العملية الثانوية» هي الطريق الذي يصور به الفرويديون نمو السلوك التكيفي لدى الطفل. إنها أسلوب آخر للتحدث عن ظهور «الأنا» ونموه. فنمو الأنا يتضمن نفس الشيء الذي يتضمنه نمو «العملية الثانوية»، فعندما نشير إلى الأول، فإنما نتحدث في حدود إحدى الأبنية أو التقسيمات الفرعية الكبرى للشخصية، أعني «الأنا» التي تعمل وفق قوانين العملية الثانوية.

والأنا يجب أن تكون قادرة على كف التعبير الغريزي إلى أن يوجد الموضوع المشبع والمسبب للأمن. وعلى ذلك «فمبدأ الواقع» يتطلب تأجيل الإشباع المباشر، وقد يؤدي هذا إلى تحمل بعض الألم من أجل إشباع لاحق أكثر أمناً. وقد نظر فرويد إلى جميع ألوان النشاط العقلي المعقد كالتعلم والإدراك والتذكر والتفكير كوظائف للأنا. والحقيقة، أنه نظر إلى كل العمليات الثانوية للنشاط العقلي باعتبارها تقوم على متطلبات تكيفية يفرضها تأجيل أو إحباط التفريغ المباشر للحافز. ومثل هذا التأجيل والإحباط ـ بالنسبة لكل المقاصد والأهداف ـ أمر ضروري لنمو الطفل. وباتباع مبدأ الواقع

واستخدام العملية الثانوية، تقوم الأنا بكف التفريغ الغريزي المباشر وتبحث عن طرق بديلة أو محوّلة للإشباع.

ويمكن ذكر أمثلة عديدة لفعالية العملية الثانوية وكفها التفريغ المباشر والعاجل للتوتر. إن السلوك المتطبع اجتماعياً للتبرز والذي يتطور من المهد حتى الطفولة المتأخرة ويستمر مدى الحياة هو أحد هذه الأمثلة. فمن الواجب حجز التبرز إلى أن يحين الوقت والمكان المناسبين حتى ولو كان الدافع الجسمي يستدعي التفريغ المباشر. ومثل هذا الحجز يتطلب مقدرة على ضبط العضلات القابضة للشرج والعمليات المعرفية الضرورية لمعرفة الضغوط الاجتماعية عن الشيء «المناسب» عمله. وبالمثل يجب كف الغضب ودوافع الهجوم وتحريفه إلى موضوعات ومواقف آمنة، أو تحويله إلى دوافع أكثر تقبلاً من الناحية الاجتماعية. فالآباء الذين لا يمكنهم التحكم في غضبهم الشديد نحو الطفل عندما يؤدي سلوكه إلى الإحباط، قد ينتهي بهم الأمر إلى ضرب الطفل بقسوة قد تحدث إصابة بالغة أو حتى الوفاة. ومثل هذه الحالات تحدث باستمرار في مجتمعنا، وتوضح فشل نشاط العملية الثانوية لدى شخص راشد مضطرب غير قادر على ضبط دوافعه، وربما حتى على التنبؤ بعواقب أفعاله (مبدأ الواقع). وبدون هذه الضوابط تجاه الإشباع المباشر، يكون من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يوجد أي مجتمع، لأنه بدون هذه الضوابط قد يتعذر على الناس الحياة معاً في اتساق وسلام معقولين.

وعلى ذلك، يؤيد فرويد تقسيم الدوافع إلى دوافع موروثة وفسيولوجية (دوافع أولية) ودوافع مكتسبة (دوافع ثانوية). والجنس يعد مثلاً للقوة الفسيولوجية الموروثة (الهو) بينما يمثّل التعلم والإدراك والمساهمة في مجال واسع من السلوك الاجتماعي الصورة التي اتخذتها الدوافع الثانوية أو الاجتماعية عند فرويد. ودوافع الأنا الأخيرة هذه تظهر فحسب لأن مبدأ اللذة لا يمكنه أن يعمل دائماً. فالفرد يولد في مجتمع يتدخل في الإشباع المباشر للغرائز من خلال التنظيمات الاجتماعية التي تتجه إلى وضع الغرائز الإنسانية في مسالك مقبولة اجتماعياً. وهذا يؤدي إلى خلق صور جديدة من تفريغ الحافز، والتي تشبه إلى حد ما الدوافع الثانوية التي يؤكدها التعلم بالترابط من خلال نظرية التدعيم.

نظرة شاملة لوجهتي نظر فرويد ونظرية التعلم بالترابط عن خفض التوتر:

ويجب أن يكون واضحاً أن فرويد ودولارد وميللر قد اشتركوا في وجهة نظر

خفض التوتر لدى الإنسان. ففي كلتي النظريتين، تحرك توترات الحافز السلوك الذي تظهر من خلاله الحلول السلوكية التكيفية للتوتر. وقد تأثرت وجهتا النظر هاتان كثيراً بافتراضات الفلاسفة الترابطيين الإنجليز عن الحياة العقلية، وبتفكير دارون (١٨٥٩) عن التطور والإنتقاء الطبيعي. أضف إلى ذلك، أن تحليل فرويد قد ظهر أولاً، ثم شرع دولارد وميللر بعد ذلك وبوضوح في ترجمته إلى لغة وشكل نظرية التعلم بالترابط، وهي النظرية التي اعتقدا أنها أكثر قابلية للتحقيق العلمي. ورغم أنهما لم يدخلا كل ما هو أساسي عند فرويد في هذه الترجمة، فإن تضمن كل من النظريتين كثيراً من الفروض الأساسية عن الإنسان، إنما يتضح من السهولة التي أمكن بها تحقيق مثل هذه الترجمة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من التشابهات الأساسية بين نظرية فرويد ونظرية التعلم الترابطي بالتدعيم، فإن ثمة اختلافات أربعة أساسية جداً في الطريقة التي تنظر بها كل نظرية منهما للدافعية. وأحد هذه الاختلافات هو في استخدام مصطلح «تفريغ» Discharge في النظرية الفرويدية في مقابل مصطلح «الاحتياج» Deficit في نظرية دولارد وميللر. ففي هذه النظرية الأخيرة، يكون إزالة احتياج الأنسجة هو بمثابة تدعيم أو جزاء يؤدي إلى اكتساب السلوك التكيفي. وهذا النموذج يعتمد على مفهوم الحاجة التي يجب أن تشبع. ومع ذلك، فإن النموذج عند فرويد هو من نوع تزايد الطاقة التي لم تفرغ. وما أشبه الموضوع بمرجل بخاري يعلو فيه الضغط إلى أن يتحرر إما بالتفريغ عن طريق صمامات أمن، أو عن طريق الانفجار. وباختصار، ففي نظرية الاحتياج يتطلب الأمر ملء الثغرات أو النقص، بينما في نظرية التفريغ لفرويد يتطلب الأمر التخلص من الضغوط.

وثمة اختلاف ثان يصدر عن طبيعة العلاقة بين الحافز الأصلي للأنسجة والدافع الثانوي أو الاجتماعي الذي يحدثه. ففي نظرية التعلم بالترابط، فإن العلاقة بين الحافز الأولى ـ وليكن الجوع أو العطش ـ والدافع الثانوي أو الاجتماعي عرضية تماماً. فمثلاً، عندما تكشف الأم تجاه طفلها عن سلوك الانتماء، فإن هذا السلوك يميل بالصدفة فقط إلى أن يرتبط بخفض توتر دافع أولي كالجوع، أعني أن هاتين الحادثتين قد ارتبطتا معاً بسبب حدوثهما معاً بشكل عرضي في الزمان والمكان، وليس بسبب وجود أية رابطة بيولوجية بينهما. وعلى العكس، تفترض نظرية فرويد وجود علاقة ذات معنى بيولوجي أكثر، بين غرائز الحياة والدوافع الاجتماعية. فهذه الأخيرة يُنظر إليها كمشتقات للأولى، أعني كشكل بديل (أو (متسامي) Sublimated للأولى. على ذلك،

فعاطفة الإيثار ينظر إليها كشكل من الطاقة اللبيدية، جردت من صفتها الجنسية أو حيّدت Neutralized. ومن الممكن تعديل الحافز الجنسي ليسمح بتفريغ شحنته في صورة أخرى ربما تكون أكثر تقبلاً. والصور الجديدة أو المعدلة للتفريغ ليست مناسبة تماماً كالتفريغ الأصلي، ولكنها مع ذلك تسمح بتصريف الطاقة الجنسية إذا صح هذا التعبير. وكلما كان المخرج المتسامي أقرب إلى الحافز الأصلي، يعتبر تفريغ التوتر أكثر كفاية.

ويواجه كل من نظامي التفكير هذين، بعض الصعوبات في التعامل مع الدرجة العليا من الاستقلال التي يبدو أن الدوافع الاجتماعية تتسم بها في حياة الرشد. فهذه الدوافع يبدو أنها لاتعتمد في آخر الأمر على ارتباطاتها الأصلية، بالحوافز الأولية. وعلى ذلك، فرغم أن العمل من أجل الدخل قد يستمد جذوره من الحاجة إلى الطعام أو من الصور الأخرى للبقاء، إلا أنه بعد أن يحصل الفرد على أكثر مما يكفيه من الدخل، يصبح للعمل في ذاته قوة دافعة كبيرة. وكما عبر جودون البورت (١٩٣٧ ب) عن ذلك إنه يصبح «مستقلاً وظيفياً» Functionally Autonomous عن أصوله الدافعة الأولية. وقد عالج علماء نفس الأنا المحدثون، الذين ظلوا على صلة وثيقة بالإطار الفرويدي من أمثال هارتمان (١٩٦٤) وربابورت ١٩٦٧)، هذه المشكلة بإدخال مفهومي «تحييد Neutralization» الحوافز الجنسية و «استقـلال الأنـا» Ego Autonomy. وهذان المفهومان قريبا الشبه جداً في مجالها وخطتهما من مبدأ البورت في الاستقلال الوظيفي Functional Autonomy.

ورغم أن مبدأ الاستقلال الوظيفي له معنى حدسي ـ على الأقل من الناحية الوصفية ـ فإن ميكانزماته أو قوانين عمله ليست واضحة. وعلى ذلك، فلم تتحدد الظروف التي سوف يصبح فيها الدافع الاجتماعي ـ أو لا يصبح ـ قوة دافعة مستقلة في ذاتها. وقد بقيت هذه المشكلة دون حل في التحليل النظري للعلاقات بين الحوافز البيولوجية والدوافع الثانوية أو الاجتماعية.

وثمة اختلاف ثالث يكمن في طبيعة الحوافز الأولية التي أكدها كل من هذين النظامين من أنظمة التفكير. فلم يوجه دولارد وميللر اهتماماً خاصاً إلى محتويات الحافز الخاص التي قد تكون مركزية أو هامشية في نمو الشخصية. وقد ألمحا إلى جميع حوافز الحياة والتي يتوقف على إشباعها حياة الفرد، واتخذا الجوع والعطش كمثال لجميع الحوافز الأولية. ورغم أن فرويد لم يرفض فكرة أن مثل هذه الحوافز تلعب دوراً هاماً في

التكيف إلا أنه نظر إليها باعتبارها قليلة الأهمية بالنسبة للشخصية. فالحوافز البيولوجية الهامة كالجوع والعطش ليست محاطة، كما يرى فرويد، بصراعات اجتماعية أو «تابو» Taboos، مثلما هو الحال، بالنسبة للجنس والعدوان. وطالما أن إدارة النوع الأول ليست مصدراً كبيراً للذنب والقلق، فإن هـذه الحوافز لا يحتمل أن تؤدي إلى نتائج مَرَضية من الناحية النفسية، إلا في ظروف شاذة نوعاً ما. وعلى العكس، يحتل الجنس والعدوان أهمية كبرى في التفكير الفرويدي، لأنهما يمثلان مصادر كبرى للصراع في الحياة الإنسانية، وطالما أنهما يرتبطان غالباً بالذنب والقلق، فإنهما يلعبان دوراً رئيسياً في نمو الشخصية. أضف إلى ذلك، أن الجوع والعطش أمور حاسمة من ناحية أنه لا يمكن تأجيلهما أو كبتهما دون تعريض حياة الفرد للخطر، بينما الجنس والعدوان كحافزين يمكن كبتهما دون التعرض لمثل هذا الخطر، ومن ثم يحتمل ارتباطهما بالمشكلات العصابية. ولنلاحظ أيضاً أن الجنس والعدوان كحافزين لا يتسقان تماماً مع نموذج الاحتياج عند دولارد وميللر ـ والذي يحدث فيه افتقار لبعض المواد، كمواد التغذية مثلاً، ويجب استكمالها ـ ولكنهما يتسقان تماماً مع نموذج التفريغ عند فرويد. وعلى ذلك، فعند مراجعة الفروق بين نظريتي خفض التوتر، نجد أن ثمة علاقة هامة بين النقطتين الأولى والثالثة.

ويتصل الاختلاف الرابع والأخير بالطريقة التي يُنظر بها إلى العمليات اللاشعورية. لقد قبل دولارد وميللر فكرة اللاشعور ولكنهما أعطياه معنى خاصاً نوعاً ما. فاللاشعور في نظرهما ينشأ عن فشل الفرد في أن يعبر لفظياً وبشكل مناسب عن مكونات خبرته أو عن العملية النشطة لإنطفاء (كبت) التعبير اللفظي (أو التسمية). فلغتنا تفشل في التعبير الدقيق عن كل دوافعنا واستجاباتنا، والفروق الدقيقة الخاصة بها ومظاهر البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نعيش فيها. فمثلاً، في بعض المجتمعات يوجد العديد من المصطلحات التي تعبر عن الألوان ذات الأهمية البالغة في هذه البيئة، على حين في مجتمعات أخرى لا نكاد نجد لمثل هذه التمييزات اللفظية أي وجود. ولهذه الثغرات في اللغة أهمية خاصة في الطفولة المبكرة، قبل أن يكتسب الفرد وسائل تسمية الأحداث السيكولوجية والتعبير اللفظي عنها. فالدفعات (حوافز ودوافع) والخبرات التي تحدث في مثل هذه الفترات من الحياة قد لا يمكن التعبير عنها كلية. وعلى ذلك، فتبعاً لدولارد وميللر، فإننا نخبرها دون وعي، وذلك بسبب هذا الفشل أو هذه الإعاقة في التعبير اللفظي. ومع ذلك فإن إعاقة الدفعات عن الوعي بها من خلال الميكانزمات الدفاعية للأنا هو الذي يفسر إلى حد بعيد في نظر فرويد النشاط العقلي اللاشعوري.

ورغم هذه الاختلافات، فإن كلا من نظرية فرويد ونظرية التعلم بالترابط (على الأقل في صورة التدعيم التي أصبحت شائعة لدى دولارد وميللر) تشارك في المبدأ الرئيسي لخفض التوتر وذلك في نظرتها للسلوك الإنساني ودوافعه. فالسلوك كله وبلا استثناء ـ سواء عبرنا عنه بمصطلح «مبدأ اللذة» أو «مبدأ التدعيم» ـ ينظر إليه عند كل منها باعتباره وسيلة لخفض التوتر، حتى السلوك الذي يبدو في الظاهر أنه يحدث توتراً أكثر مما يحدث خفضاً للتوتر. ففي النظرة الفرويدية لمثل هذه الحالات التي تبدو متناقضة، كتلك التي يبدو فيها أن الناس أو الحيوانات الدنيا تختار السلوك المؤلم بدلاً من البدائل السلوكية المعتدلة مما ينجم عنه خلق متاعب عديدة لها، فإنه لا ينظر إلى مبدأ خفض التوتر على أنه قد اختفى، بل إنه قد أصبح معلقاً من أجل تعلم وسائل أكثر فاعلية للتغلب على عوائق خفض التوتر عن طريق مبدأ الواقع. وعلى ذلك، فنحن نختار ما يبدو لنا أنها طرق غير مباشرة من أجل تحقيق أفضل لخفض التوتر في المستقبل في وجه العوائق التي تواجهنا في الحاضر. ويكمل فرويد مبدأ اللذة بفكرة غريزة الموت التي تفسر أيضاً ألوان السلوك غير السارة، ولكن هذه الفكرة قد رفضت على نطاق واسع باعتبارها دائرية وغير ضرورية بين معظم الفرويديين في الوقت الحاضر، وسوف نغفلها نحن هنا بالمثل. وعلى أي حال، فإن تناقضات الكثير من ألوان السلوك لمبدأ خفض التوتر، إنما هي فحسب تناقضات ظاهرية، وتفسر باعتبارها التفافات ضرورية أكثر منها تعليقاً للمبدأ.

تحديات لمبدأ خفض التوتر:

والميزة الكبرى لخفض التوتر كمبدأ تفسيري هي بساطته الأساسية. أما عيوبه فتكمن في الحالات التي سبق أن ألمحنا إليها حيث يفشل في التطابق مع خبرتنا الشخصية ومع واقعة تجرُبية (إمبريقية) معينة. أما بالنسبة لعدم تطابقه مع الخبرة الشخصية فإن مبدأ اللذة لا يبدو دائمًا وكأنه مجرد خفض للألم. فالرغبة في الذهاب إلى السينما أو تناول وجبة طعام، يبدو أن لها جاذبية موجبة، وذلك فقط في أوقات يقوم فيها هذا النوع من الرغبة ذاتياً على الحاجة لخفض إحساس غير سار نتج عن نقص (أو احتياج) في الأنسجة. وبالطبع، فإن مثل هذه الصعوبة ليست قاطعة بالضرورة، طالما أن أفكاراً كثيرة صحيحة قد تتعارض مع الفهم العام، على نحو ما حدث مثلاً بالنسبة للقول بدوران الأرض حول الشمس لا العكس.

أما بالنسبة للواقعة التجرُبية التي لا تتسق بسهولة مع مبدأ خفض التوتر، فهناك عدد كبير من الحالات يظهر فيها أن الإنسان ـ وحتى الحيوانات الدنيا ـ تبحث عن الإستثارة بدلاً من خفضها. وهذه الحالات كثيراً ما يصعب تفسيرها بسهولة باعتبارها التفافات حول طريق خفض التوتر. فمثلاً كيف نفسر سلوك الباحثين عن الإثارة أو المغامرة (كجنود المظلات، ومتسابقي السيارات، والمتهورين)، أو الذين يموتون ولا يخونون الأمانة، أو الذين يضحون بحياتهم في سبيل المبدأ؟ إن خفض التوتر في مثل هذه الحالات يبدو أنه قد ألغي لمصلحة مبدأ آخر للدافعية.

ولقد وضح أيضاً أن الحيوانات التي لا يحركها بوضوح أي من الحوافز الأولية العادية، إنما تكشف عن سلوك حب الاستطلاع أو الاستكشاف والمعالجة اليدوية. فقد أشار هارلوHarlow (١٩٥٣) مثلاً إلى أنه عندما لا تكون القردة جائعة أو عطشى، فإنها تقوم بألوان من السلوك أكثر صعوبة مما لو حركتها توترات الحافز الأولى، وذلك من أجل الحصول على جزاء كالسماح لها بأن تطل خلال نافذة على الناس والأشياء من حول القفص. وبالمثل، يبدي الأطفال نشاطاً كشفياً ويدوياً عندما يكونون في حالة إشباع جسمي أكثر مما لو كانوا يعانون من توترات الحافز الأولي.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإشارة المحددة إلى حاجات الأنسجة أو نقص هذه الحاجات كأساس للسلوك المرتبط بالحافز تبدو قاصرة على وجه الخصوص كتفسير لكثير من الحالات الملاحظة التي لا تحدث فيها مثل هذه الحاجات سلوكاً يحركه دافع. ولقد نظم ماكليلاند وآخرون (١٩٥٣ ص ٧ ـ ٢٢) بوضوح الأدلة التي هدمت فكرة حاجات الأنسجة كمصدر أساسي للدافعية. فقدأشاروا ـ من بين أشياء أخرى ـ إلى تجارب استخدم فيها مادة غير غذائية، كالسكاري، كمحرك فعّال، وذلك بموجب الطعم الحلو السار الذي تحدثه. كما أشاروا أيضاً إلى حالات أخرى حيث لا يؤدي الاحتياج في النسيج العضوي إلى سلوك مدفوع، عندما يكون هذا النقص غير معروف للشخص. وهذه الفترة المستمدة من ماكليلاند وآخرين توضح هذه النقطة.

«يمكن أن نلخص باختصار صعوبات معينة لهذا النموذج (البقاء ، وخفض التوتر). أولاً: إن بعض حاجات البقاء تحدث دافعاً، وبعضها الآخر لا يحدث. فمثلاً، من المعروف الآن أن فيتامين ب ١٢ ضروري لإنتاج الكرات الحمراء وبدون فيتامين ب ١٢ سوف يعاني الكائن الحي العضوي عن فقر دم خبيث ويموت. إلا أن الفرد الذي يعاني من الأنيميا أو من نقص ب ١٢ لا يسلك بأي حال كسلوك شخص يحركه دافع، على الأقل على نحو ما تحدده أية مقاييس عادية للدافعية. مثل آخر هو تنفس أول أكسيد الكربون الذي يسبب الوفاة الفجائية وبالتأكيد إلى حاجة في الأنسجة، إلا أنه في الظاهر، لا يحدث أي نشاط أو سلوك يوحي بحالة دافعية.

وإذا ذهب أي فرد إلى أن هذه مجرد حالات فردية شاذة لنظرية الحاجة البيولوجية للدافعية، فإن قراءة بسيطة موجزة في كتب الطب سوف تجعله يقتنع بالعدد الكبير من الظروف العضوية المرضية التي تمثل بالتحديد حاجات الأنسجة، ولكنها لا تكون بمثابة أي نوع من المثير «الحافز» أو الدافع. فإذا سلمنا بهذه الحقيقة، فإنه يترتب على ذلك أن وجود الحاجة البيولوجية ليس دليلاً ثابتاً على وجود الدافع (١٩٥٣ ص ١٥).

والتفسيرات التقليدية لخفض الدافع بالنسبة لهذه الحالات الشاذة قد تبدو متكلفة، وأن حلولاً أخرى ربما تكون أكثر كفاية، قد أصبحت معروفة وبشكل متزايد في علم النفس. ويذهب أحد هذه الحلول الشائعة إلى أن مبدأ خفض التوتر مبدأ صادق في كثير من الحالات، ولكنه غير كاف، ويحاول تدعيمه بمبادىء إضافية. والحل العادي هو أن نضيف إلى قائمة الحوافز الأولية الأصلية قائمة أخرى لا تستند كثيراً إلى ما يحدث في الأنسجة المحيطية، بل في أبنية المخ.

وعندما اقترح هذا الحل أصلاً، كان من المفترض أن تنشأ مثل هذه الأبنية المخية مع الزيادة الدماغية أي مع النمو التطوري للمخ. فالحوافز الجديدة كالاستطلاع والاستكشاف والمعالجة اليدوية وغيرها تستثار على افتراض أن هذه خاصة بالكائنات العضوية العليا كالإنسان. فهي لا تعمل بسبب احتياجات الأنسجة (كما في حالة الجوع) التي تنقل بالعمل الكيميائي إلى الجهاز العصبي المركزي، وإنما تعمل كلية من خلال العمليات العصبية التي لا تعتمد على الأنسجة المحيطية. ومع ذلك، فقد ظهرت في السنوات الأخيرة أدلة تذهب إلى أن مثل هذه الحوافز تعمل أيضاً في الحيوانات الدنيا كالفيران والقطط مثلما تعمل عند القردة والإنسان. وقد وصل عدد كبير من علماء النفس ومن السلوكيين الذين يعملون على الحيوانات إلى الاعتراف بهذه الحوافز كخاصية مميزة لحياة الحيوان (أنظر على سبيل المثال دمبر Dember، ١٩٦٠). وعلى أي حال، فهذا الحل الذي يذهب إلى توسيع قائمة الحوافز لتشمل أنماط الاحتياج غير النسيجي Non - tissue - deficit تفيد كنمط ثان للنموذج الدافعي، بالإضافة إلى خفض التوتر.

الأساليب الإضافية لنموذج خفض التوتر: التأثيرية

ربما كان أوضح وأهم تقرير كتب عن هذا الخط الجديد من التفكير الذي طبق على الشخصية هو ما نجده في كتابات روبرت هوايت Robert White (١٩٦٠). لقد بدأ تحليله بنقد حاد لنظرية فرويد النفسية الجنسية إذ أوضح بمهارة أننا في حاجة إلى

شيء أكثر لفهم سلوك الطفل. ويريد هوايت أن يضيف مبدأ «التأثيرية Effectance (أي الرغبة في التأثير على البيئة) الذي يرى أنه يشمل بصورة أفضل الأحداث السيكولوجية الهامة في الطفولة، كما يفسر بصورة أفضل كذلك الاستكشاف والمعالجة اليدوية التي يقوم بها الفرد طوال حياته. فالفرد ينمي مقدرته لا لمجرد تفريغ حوافزه الغريزية بصورة أفضل كما ذهب فرويد، ولكن بسبب أن دافع «التأثير» خاصية كامنة في الطفل عند الولادة. وباختصار، فالتأثير حافز أولي كحافز الجوع أو العطش أو الجنس، وأنه أكثر أهمية بكثير من مثل هذه الحوافز من حيث أنه يساعدنا على فهم المهارات الملحوظة التي يكشف عنها الإنسان في تعامله مع بيئته.

ويذهب هوايت إلى أن حوافز ـ مثل الجوع والعطش والجنس ـ قد أعطيت أهمية كبيرة جداً في تحليل شخصية الإنسان المتحضر. وهو يسلم بأن النظرية النفسية الجنسية لفرويد قد فسرت الكثير، وبخاصة أنواع الأمراض التي يمكن أن تظهر نتيجة للصراعات الداخلية على الدوافع الجنسية والعدوانية. ولكن مظاهر السلوك التي يهتم بها هوايت، والتي يشعر أنها غير متضمنة في نظرة فرويد، إنما يدعمها حافز التأثير، أكثر مما تعتبر مشتقات من الحوافز الجنسية. وقد أشار هوايت بقوة إلى هذه النقطة في قوله:

إن النظرية التي تذهب إلى أننا نتعلم ما يساعدنا على خفض حوافزنا الحشوية لا تقوى على البقاء إذا ما حاولنا النظر إلى المجال الكلي لما يجب أن يتعلمه الطفل من أجل أن يتعامل بكفاية مع بيئته. فعليه أن يتعلم الكثير عن الأشكال البصرية، والقبض على الأشياء وتركها، والاتساق بين اليد والعين. إن عليه أن يحل المشكلة الصعبة الخاصة بثبات الأشياء... يجب عليه أن يتعلم الكثير من الحقائق عن عالمه، وأن يكوّن خريطة معرفية تكون بمثابة موجه ومكوّن لسلوكه. وليس من الصعب أن نرى الميزة البيولوجية لتنظيم تتسم بواسطته هذه الأنواع الكثيرة من التعلم قبل أن نتطلبها كأدوات لخفض التوتر أو للأمن. فالحيوان الذي اكتشف جيداً بيئته يكون لديه فرصة للهرب من عدو مفاجيء أو لإشباع جوع شديد، أفضل من ذلك الذي يستلقي نائماً في الشمس بعد أن تخلص من أزمات توازنه الداخلي. وفي ضوء هذه النظرة، فإن الساعات الكثيرة التي يصرفها الطفل في اللعب ليست ساعات ضائعة أو مجرد ساعات يستعيد فيها حيويته في الطبيعة. فاللعب قد يكون مرحاً، ولكنه أيضاً عمل جاد في الطفولة. ففي خلال هذه الساعات يبني الطفل بانتظام مقدرته في التفاعل مع البيئة (١٩٦٠ ص ١٠٢).

وفي عبارات تالية، شرع هوايت في اختيار كل مرحلة من مرا حل النمو النفسي عند فرويد، مضاهياً وصف النشاط الشبقي للطفل في كل مرحلة بملاحظات الأشياء الأخرى التي يقوم بها الطفل أيضاً في كل منها. فمثلاً، في المرحلة الفمية التي يفترض فيها فرويد أن الطفل يكون مشغولاً أساساً بمثيرات التجويف الفمي

ـ كالمص والتغذية وتناول الأشياء عن طريق الفم والمحافظة على راحته وأمنه ـ يذهب هوايت إلى أن الطفل يقوم بأشياء أخرى كثيرة أغفلتها النظرية النفسية الجنسية، أشياء تتضمن معالجة البيئة، ومن ثم تنمى المقدرة والكفاية. ويقول هوايت إن مثل هذه المعالجة هي مثال لعملية حافز التأثير. وكانت مناقشة لهذه النقطة بناءة حيث يقول:

فمن ناحية، هناك علامات واضحة على وجود الرغبة في تسلية إضافية أثناء وجبة الطعام. فالطفل يتفحص أدوات المائدة، ويتكشف سلوك الطعام المتناثر، ويلهو باللعب أثناء تناول الغذاء. ويقترح جيزل Gesell أنه في سن سنة يكون وجود لعبة في كل يد هو الضمان الوحيد لكي يكمل الطفل وجبة الطعام دون حدوث مشكلة كبيرة للمربية. ويحدث موقف مشابه أثناء الاستحمام عندما يحتاج الطفل إلى اللُعَب المائية وعندما تعبّر بذور الاهتمام العلمي عن نفسها «برش الماء على أرضية الحمام من القماشة التي يغسل بها بدنه ووجهه». ومع ذلك فإن الأمر الأكثر أهمية هو حماس الطفل النامي لمذهب «إفعل ذلك بنفسك» . . . وفي حوالي سن سنة، من المحتمل أن تحدث ما أسماه ليفي Levy (١٩٥٥) «بمعركة الملعقة»، وذلك «لحظة أن يمسك الطفل بالملعقة من يد الأم ليحاول أن يطعم نفسه». ومن الوصف الجاد لجيزل عن «الرحلة الخطرة» للملعقة من الطبق إلى الفم، يمكن أن نتأكد أن الطفل عند هذه النقطة لا يحركه الإشباع الفمي المتزايد. فهو بالتأكيد يحصل على الكثير من الطعام إن هو ترك الأم تقوم بذلك، ولكنه بإطعام نفسه، يحصل على مزيد من الإشباع من نوع آخر، إذ يحصل على الشعور بالفعالية وربما على زيادة الإحساس بالمقدرة (١٩٦٠، ص ١١٠).

ويوضح هوايت أيضاً التعارض بين ما يراه في سلوك الطفل وما تتطلبه النظرية الكلاسيكية التحليلية للنمو النفسي الجنسي: «إن الفرض التحليلي لليبدو الفمي يتطلب منا أولاً أن ندمج الإشباع الغذائي بالإشباع الشبقي؛ ثانياً أن نجد الدافع لكل تتابعات المقدرة في الشبقية الفمية (١٩٦٠ ص ١١٣). إن مثل هذا الدمج يمكن أن يحدث بارتباط الشبقية الفمية بالتغذية على نحو ما افترض فرويد، أعني أنه خلال التغذية تستثار الأغشية المخاطية للفم. وقد يحدث ذلك أيضاً من خلال التدعيم الثانوي على نحو ما تذهب نظرية التعلم بالترابط، أعني ارتباط الإستثارة الفمية بخفض حافز الجوع. وقد يحدث أخيراً من خلال عملية الرمزية، فنشاط واحد، وليكن الإستثارة الفمية، قد يصبح رمزاً لنشاط آخر هو زوال الجوع والشعور بالطمأنينة. وحول ذلك يقول هوايت:

والروابط التي من هذا النوع توجد بالتأكيد. وليس لديّ أي قصد لمناقشة ما قاله أريكسون ـ من بين آخرين ـ عن الرمزية في لعب الأطفال وعن الاهتمامات الشبقية والعدوانية التي تؤدي إلى لعب التمزيق. ولكن في نظري، نحن نخسر أكثر مما نكسب، إذا نظرنا إلى لعب الطفل المتصل وغير المتقطع ـ ست ساعات يومياً ـ كتعبير متصل عن الطاقة اللبيدية، أي اهتمام متصل بالدراما الأسرية، كما لو لم يكن لديه أي اهتمام ذاتي بخصائص العالم الخارجي ووسائل للوصول إلى تفاهم معه. إننا نخسر أكثر مما نكسب إذا بحثنا فقط عن عنصر

إدماج في السلوك المعرفي والحركي للطفل، كأن نتذكر مثلاً أنه يضع مشبك الغسيل في فمه، ولكن ننسى أنه يستخدمه في الضرب بعنف على الكرسي (١٩٦٠ ص ١١٣).

وقد أجرى هوايت تحليلات مماثلة لكل من المرحلتين الأخريين من النمو النفسي الجنسي ووصل إلى نتيجة مشابهة لتلك السابقة من حيث أن الصراعات النفسية الحاسمة للطفل لا تحدث فحسب في موقف التغذية أو في الحمام مع تدريبات الإخراج، ولكن أيضاً في جميع المواقف التي يعبر فيها الطفل عن حافزه الفطري للتأثير، أعني في أحواض الرمل، وعلى الدراجة ذات الثلاث عجلات، وفي تعلم كيف يتعامل مع العالم وكيف يفهمه. ولا ينكر هوايت أن الحاجات الأولية للانسجة والتي منها يظهر الجوع والعطش والجنس وغيرها من الحوافز، تلعب دوراً في النمو الدافعي، ولكن الحوافز الإنسانية الهامة حقيقة هي فقط «أن يكون نشطاً»، «وأن يستطلع»، «وأن يعالج يدوياً وأن يضبط»، «وأن ينتج وينجز»، وهذه كلها تندرج تحت العنوان العام لحافز التأثير، أعني الرغبة في أن يؤثر. ومن المقبول بيولوجياً أن التأثيرية أو حسبما نريد تسمية هذا الدافع، يمكن التعبير عنها خلال الأنسجة العصبية التي ظهرت مع النمو النشوئي النوعي للأنواع العليا كالإنسان، والتي هي جزء موروث من ماضي كل إنسان.

وللموقف الذي اتخذه هوايت أهميته بسبب أنه يذهب، على عكس موقف خفض التوتر، إلى أن معظم سلوكنا المعرفي والاجتماعي يجب ألا ينظر إليه باعتباره مشتقاً مما نسميه الحوافز الأولية ـ كالجوع أو الجنس ـ وإنما هو نتاج حافز أولي أو فطري بذاته. فالإنسان يستطلع ويعالج الأشياء يدوياً ويفكر لا لمجرد أن مثل هذا النشاط وسيلة لإشباع بعض الحوافز الأولية، ولكن لأن القيام بذلك يسبب له الإشباع ذاتياً نتيجة للطريقة التي تكوّن بها الإنسان. وهذا إضافة لصيغة خفض التوتر. فمن بعض النواحي يمكن القول الآن أن الإنسان قد أصبح «محدثاً للتوتر» مثلما هو مخفض له. فهو في بعض الأحيان يبحث عن خفض توترات الحافز، وفي أحيان أخرى يبحث عن زيادة هذه التوترات. ويذهب بعض الكتاب المحدثين إلى أن المستوى الأمثل للتوتر هو المعيار أو الخط الأساسي الذي يهدف إليه الإنسان، أعني مستوى ليس عالياً جداً وليس منخفضاً جداً. ومن الصعب تحديد مثل هذا المستوى الافتراضي بالضبط لعدم وجود عمليات كافية لتقديره، ولكن قد يكون لمثل هذا المفهوم في نهاية الأمر قيمة تنبؤية أكبر.

ولم يؤد المبدأ السابق ـ والذي يعتبر تقرير هوايت عنه أكثرها وضوحاً وإقناعاً ـ إلى أية أنظمة جديدة في نظرية الشخصية. ومع ذلك، فقد اتخذ صوراً عديدة، تغلغلت بشكل واسع في الكتابات السيكولوجية، وأصبح أسلوباً محترماً من أساليب التفكير في علم النفس العام. ويمكن أن نرى التبشير به لدى بعض الكتاب الفرويديين المحدثين الذين تخلوا عن مبدأ خفض التوتر أو قيدوه، على نحو ما نجد عند يونغ ورانك وأدلر وفروم Fromm مثلاً. وهناك أيضاً العديد من الأمثلة القائمة في نظرية الشخصية والتي تتعارض وجهات نظرها مع وجهة نظر خفض التوتر والتي تتمثل عند موري (١٩٣٨) وماكليلاند (١٩٥١) وكيللي Kelley (١٩٥٥) (ومادي Maddi (١٩٦٨). ورغم أن هؤلاء يختلفون في نواح هامة، إلا أن المجال هنا لا يسمح بمناقشة كل اختلاف بينهم. ولقد كان رفض الاعتماد الكلي على مفهوم خفض التوتر هو أحد الأركان الأساسية لظهور نمط جديد من التفكير التحليلي، يشار إليه غالباً «بسيكولوجية الأنا» (مثل هارتمان، ١٩٦٤؛ وربابورت، ١٩٦٧). وهناك سمتان بارزتان تميزان الحركة التحليلية لسيكولوجية الأنا: (١) إفتراض أن الأنا ينمو جزئياً نتيجة وجود أبنية عصبية فطرية بدلاً من أن ينمو كلياً بسبب الفشل في تفريغ غرائز الحياة. وعلى ذلك، فالأنا له طاقته الخاصة للنمو والتمايز، بدلاً من الاعتماد في ذلك على الهو على نحو ما يذهب فرويد. فالتفكير التكيفي، كما جاء في تحليل هوايت، هو خاصية غريزية أو فطرية في الشخص النامي. وهذا الجانب من الأنا، أعني هذا الذي لا ينمو من الصراع والكفاح من أجل التفريغ اللبيدي أو الذي لا يستمر متورطاً فيهما، هو الذي يشار إليه «بمجال الأنا المتحرر من الصراع». (٢) أن سيكولوجية الأنا التحليلية قد وجهت انتباهها، أكثر مما فعل فرويد، إلى الوظائف التكيفية للأنا، وذلك في مقابل التركيز الفرويدي على الدور الدفاعي للأنا في الصراعات داخل النفس. وبذلك يمكن إلى حد ما، عبور الهوة الكبيرة بين التحليل النفسي والاهتمامات الأكثر تقليدية لعلم النفس العام، وذلك بالتخلي عن وجهة نظر خفض التوتر الجامدة في دافعية الإنسان.

نموذج القوة من أجل النمو

«والقوة من أجل النمو» Force - for - growth تعبير يحدد مجموعة من النظريات عن دافعية الإنسان تشترك في فكرة واحدة أساسية. وهذه الفكرة هي أن الإنسان يكمن بداخله دافع للنمو، وأنه عندما يعطي الفرصة للتعبير عن أسمى صفات التفكير

والإبداع والغيرية والإنسانية التي يقدر على القيام بها، فإنه سوف يحقق ذلك. وقد عبر عن هذه الفكرة أصدق تعبير إثنان هما كارل روجرز (١٩٥١) وإبراهام ماسلو (١٩٥٤)، رغم أن عناصر فكرة الإمكانيات الكامنة للنمو يمكن أن توجد لدى الكثيرين من الفرويديين المحدثين من أمثال يونج وأدلر وفروم وبخاصة رانك. إن الدافع الرئيسي للإنسان عند كارل روجرز هو الحاجة إلى تحقيق الذات Self - actualization. فالإنسان، في نظر كارل روجرز، يعبر تحت ظروف مناسبة عن قيم أعلى لما هو متضمن في الغرائز الأولية لحفظ الذات، أي تجنب الألم والبحث عن اللذة الحسية. ومن أمثلة هذه «القوة من أجل النمو» حالة ذلك المراهق الذي يبحث عادة عن الاستقلال والاعتماد على النفس، حتى ولو كان أكثر أمناً وأكثر راحة في ظل الاعتماد على الوالدين. وثمة مثال آخر هو ترحيب الشخص بأن يخاطر براحته وأمنه من أجل تأييد مبدأ غير مألوف يؤمن به. فرغم المتاعب، فإن عملية النمو الكامنة تدفع الشخص نحو الفردية ونحو درجة أعلى من النمو.

أما مفهوم «تحقيق الذات» كما حدده ماسلو فهو أن الشخص يهدف دائماً نحو تحقيق إمكانياته الداخلية. وقد حدد ماسلو سلسلة من الحاجات والقيم مرتبة من أكثرها بدائية، حيث يشارك الإنسان فيها الصور الدنيا للحياة، إلى تلك التي تميز فحسب الأنماط الأكثر تطوراً من الكائنات العضوية. وتترتب سلسلة الحاجات عند الإنسان من أدنى حاجات البقاء كالجوع والعطش إلى أعلى مراتب الحاجات كالانتماء والحب والتقدير والمعرفة والحاجات الجمالية كالتعطش إلى المعرفة والرغبة في الجمال. وتبعاً لماسلو، فإن الحاجات الأعلى لا تشبع أو لا يسمح لها بالتعبير عن نفسها ما لم تشبع الحاجات البدائية الأكثر إلحاحاً.

وتتضمن فلسفة القوة من أجل النمو أن الإنسان إذا أعطى الفرصة، فسوف يعبر عن طبيعته المتقدمة. أما إذا لم يفعل ذلك، فيكون مرجعه إلى أن ظروف الحياة الاجتماعية تلح في طلب الكفاح من أجل الحياة لدرجة تحول دون تحقيق إمكانياته الأعلى. فعلى حين ينظر فرويد إلى الحاجات المعرفية والجمالية كتعبيرات إعلائية للغرائز الجنسية والعدوانية البدائية، وأنها تظهر في الواقع نتيجة كبت هذه الغرائز خلال الحياة الاجتماعية، فإن روجرز وماسلو ينظران إلى هذه الحاجات باعتبارها صفات موروثة يتوقف تعبيرها لا على الإعاقة بل على ظروف الحياة المناسبة.

لقد قلت سابقاً إن مصادر فلسفة «القوة من أجل النمو» في نظرية الشخصية،

يمكن أن توجد لدى الفرويديين المحدثين الذين يؤكدون بشكل متزايد الأساس الاجتماعي لشخصية الإنسان، والذين ناقشوا أولوية غرائز الحياة والموت على نحو ما قدمها فرويد. وعلى ذلك، اقترح يونج (١٩٥٣) مثلاً أن الإنسان في منتصف الحياة يصبح أقل خضوعاً للدوافع اللبيدية وأنه يتجه نحو اهتمامات أكثر فلسفية وروحية تتعلق بمعنى الحياة وبمكانه في العالم. كما أكد الفرد أدلر أيضاً (أنظر أنسباشر وانسباشر Ansbacher and Ansbacher (١٩٥٦) أن للإنسان نزعة طبيعية (موروثة) للاهتمام «بالمصلحة الاجتماعية» Social Interest والاتصال بالناس الآخرين. أما أوتو رانك (١٩٥٢) الذي يعتبر الرائد المباشر لمدرسة التفكير التي تقول بالقوة من أجل النمو، فإنه يذهب إلى أن الصراع الأساسي في الإنسان هو بين الرغبة في الوحدة الاجتماعية والحاجة لأن يصبح مستقلاً أو منفرداً. فالشخص الأكثر نجاحاً في تجميع هاتين النزعتين المتعارضتين معاً هو الذي يسميه رانك «الفنان»، لأن من المفروض أنه يشارك في العمل المبدع الذي يكون فيه واحداً مع الناس الآخرين، ويظل في نفس الوقت فرداً مستقلاً متميزاً. بل لقد ذهب المحلل النفسي إريك فروم (١٩٤١، ١٩٥٥) إلى أبعد من ذلك، محاولاً تحديد نوع المجتمع الذي يسمح بفردية الإنسان، بينما يدعم حاجاته إلى الأمن والانتماء. وبمراجعة التاريخ منذ عهود الإقطاع، أكد فروم أن الإنسان لم يطور حتى الآن مجتمعاً يسمح بإشباع هذه الحاجات المتصارعة والفطرية.

وقد نلاحظ وجود نوع من الافتراض التطوري الضمني في وجهة نظر القوة من أجل النمو (وأيضاً عند هوايت)، وبخاصة أنه عندما ننتقل من الحيوانات الدنيا إلى العليا تنشأ أبنية جديدة في المخ تسمح بظهور حاجات وقدرات جديدة. وهذا الافتراض أكثر وضوحاً عند ماسلو. فالإنسان يوجد في أعلى قمة سلم النشوء الارتقائي النوعي. ولذا فهو يحمل معه العديد من الحاجات والقدرات التي لا توجد عند الحيوانات الأدنى. وعلى ذلك، فتحقيق الذات في الإنسان يتطلب إشباع هذه الحاجات المتطورة أخيراً. ولقد انتقد مفهوم القوة من أجل النمو كمفهوم غيبي مشبع بالقيم، طالما أنه يعبث باستمرار بتقييم الإنسان في ضوء الأحكام المعيارية الأعلى والأدنى، المتقدمة والبدائية، الحسنة والرديئة.

تضمنات النماذج الدافعية الثلاثة

من بين وجهات النظر الثلاث السابقة، تعد نظرة هوايت أقلها تحملاً للقيم

الضمنية عن الإنسان، كيف يعيش، وما هو نوع مجتمعه. فالتركيز ينصب على حافز التأثير، كما تتضح نتيجته في نمو المقدرة على السيطرة على البيئة. فالرغبة في المقدرة هي القيمة المركزية لهذا النموذج، أما، مِمَ تتكون بالتحديد هذه المقدرة، وماذا يمكن أن يفعل الإنسان بها فهذا ليس موضوع اهتمام مباشر لهذا النموذج.

إن حافز التأثير قد يُحدث نتائج متعددة. فهو قد يؤدي على سبيل المثال إلى رغبة طفلية مدمرة، بغية القوة، مثلما هو الحال بالنسبة لهتلر وستالين، أو قد يعبر عن نفسه في تحقيق الذات بالمعنى المقصود عند ماسلو وروجرز حيث تبجل أعلى الفضائل وأكثرها إنسانية. وقد يؤدي إلى إبداع فني أو إلى إنتاج تافه عقيم. وقد يحدث توقفاً عن العمل نتيجة للإحباط، أو مرارة تجاه هذه القوى أو هؤلاء الأشخاص الذين يحولون دون تحقيق الفرد لحاجاته. وهناك أشكال لا حصر لها من المقدرة، تتوقف على ظروف الحياة. فالتأثير ليس له اتجاه محدّد، طالما أنه عبارة عن مجرد الرغبة الفطرية في أن يكون له تأثير.

وهذا الحياد النسبي للقيمة في نموذج التأثير يتعارض بشكل صارخ مع وجهات نظر خفض التوتر والقوة من أجل النمو. فالقيم المتباينة عن الإنسان والمجتمع والمتضمنة في وجهتي النظر هاتين الأخيرتين تكشف عن نفسها بوضوح جداً في مجالين عقليين. أحدهما يتصل بمفاهيم طبيعة الإنسان نفسه، أعني خصائص الحافز الفطرية التي جاء بها إلى هذا العالم. والثاني يتصل بمفاهيم مجتمع الإنسان ودوره في تشكيل الظروف الإنسانية. ورغم خطورة المبالغة في النظر إلى هذا التعارض في القيم وتقرير تضمناته، إلا أن هذه المخاطرة تعتبر ذات قيمة لأن هذا الجهد المبذول يسمح لنا برؤية العلاقة بين افتراضات نظرية الشخصية وبعض المشكلات الاجتماعية الضاغطة في أيامنا هذه. ولنبدأ بالمفاهيم الأساسية عن الإنسان في ضوء وجهتي نظر كل من خفض التوتر والقوة من أجل النمو على التوالي.

مفاهيم طبيعة الإنسان:

من الممكن أن ندرك في فلسفة خفض التوتر عند الإنسان وجود نظرة تنافسية محملة بالصراع، متجهة نحو البقاء وربما تكون نظرة تشاؤمية نوعاً ما. فالإنسان ينظر إليه باعتباره الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من النمو التطوري تقوم على مبدأ «البقاء

للأصلح» Survival for the fittest. وعن طريق عملية الانتقاء الطبيعي خلال تربية السلالات، تتطور الأنواع والخصائص البيولوجية الأحسن تكيفاً مع البيئة. وحيثما يفشل الإنسان في تكيفه، يكون مرجع ذلك إلى التغيرات التي تحدث في البيئة والتي عند الاستجابة إليها، لم تزودنا التربية الانتقائية بعد بالتعديلات المناسبة لظروف الحياة الجديدة. فمثلاً، قد يصبح للعدوان الطبيعي عند الإنسان قيمة في تيسير سيطرته على أخطار البيئة، ولكن نفس هذه النزعات والمظاهر الانفعالية المصاحبة لها لا تتناسب والبيئة الاجتماعية الصناعية في الوقت الحاضر حيث أصبح للعدوان مخارج مفيدة قليلة. فهو الآن يؤدي إلى اضطرابات داخلية تتضح نتائجها في صورة أمراض سيكوسوماتية. وعلى أي حال، فمبدأ الانتخاب الطبيعي لا يزال قوياً، كما أن حوافز الإنسان الأولية المعطاة بيولوجياً لا تزال تحدد كيف يسير في العالم الحديث. وإلى الحد الذي لا تصبح فيه هذه الحوافز ميسرة للبقاء البيولوجي أو الاجتماعي، فإنها تصبح بقايا غير مرغوبة من ماضي الأسلاف الحيوانية، وربما سينتهي الأمر بها إلى أن تزول نهائياً.

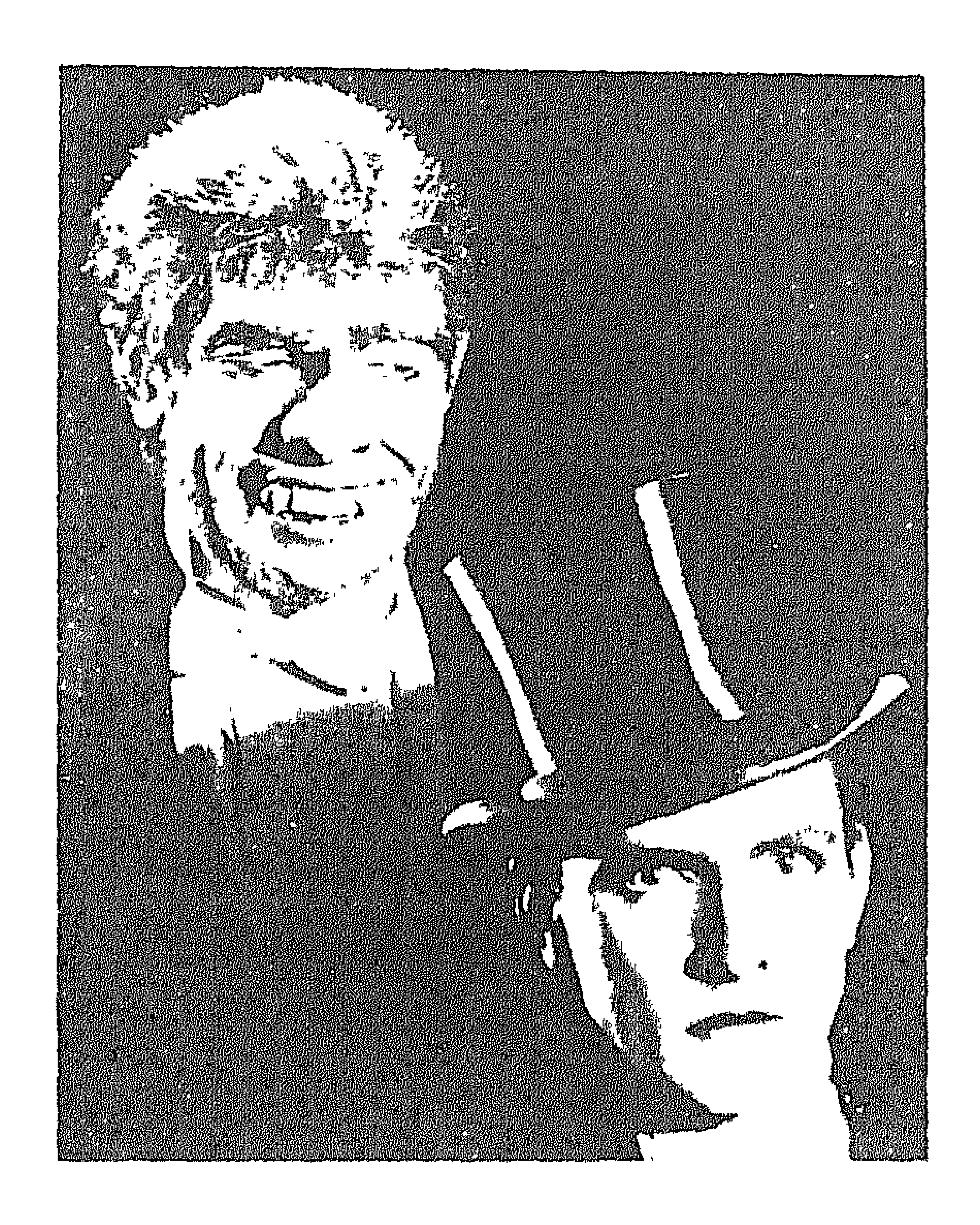
في التحليل السابق، كان «الاهتمام بالذات» Self interest هو القوة الأساسية المحركة والموجهة للسلوك الإنساني، رغم أن هذه القوة يمكن أن تعدل ويعاد توجيهها إلى حد ما بواسطة النظام الاجتماعي. فالإنسان يكافح فردياً من أجل الحياة والترقي عن طريق سد نقص احتياجات الأنسجة وتفريغ الحوافز كالجنس والعدوان. ومع ذلك، فإن هذا «الاهتمام بالذات» يثير مشكلة هامة. فمن ناحية، إن عدو المجتمع هو الذي ينمو بقوة ويعلو على النظام والاتساق. فنجاح إنسان ما قد يعني فشل إنسان آخر. وهذا يعني أنه إذا كان على الإنسان أن يحيا في اتساق نسبي مع أخيه الإنسان، وجب عليه أن يضبط الحوافز التي تعبر عن «الاهتمام بالذات» أو يحولها بطريقة تقلل من خطورتها على الآخرين وعلى النظام الاجتماعي الذي يعتمد عليه الإنسان اليوم.

لقد نظر فرويد للمشكلة الرئيسية للإنسانية باعتبارها ضبط وتحويل الغرائز الحيوانية إلى طرق تفريغ «صحية» بناءة ومقبولة اجتماعياً. فهذه الغرائز مسيئة، من ناحية ما، لأنها يمكن أن تحطم الإنسان ومجتمعه. وفي كلتا النظريتين لخفض التوتر عند كل من فرويد والتعلم بالترابط، لا تكون الأنماط الإنسانية المرتفعة القيمة والتي تتصل بالأخلاق وحب الآخرين والتقدير الجمالي موروثة بيولوجياً، ولكنها تكون نتائج إحباطات الحوافز الغريزية. فالتوترات الدافعية الناتجة عن ذلك تحدث إعلاءات لهذه

الحوافز في صورة دوافع مقبولة اجتماعياً (فرويد)، أو تؤدي إلى دوافع اجتماعية جديدة عندما ترتبط الصور الأخيرة للسلوك بخفض مثل هذه التوترات (دولارد وميللر). وعلى ذلك، فالسمات الإيجابية للإنسانية سمات مكتسبة أو ثانوية، أما سمات الأنانية في الإنسان فهي نتاج الوراثة البيولوجية.

وفكرة التعارض الضروري بين المجتمع والجانب الحيواني من الطبيعة الإنسانية، لم تتأكد بقوة في أية نظرية مثلما تأكدت في نظرية فرويد وتركيزها على الدوافع الأولية للجنس والعدوان. وثمة مثال إكلينيكي يتمثل في تلك الصورة المثيرة للمرض النفسي والتي تعرف بتعدد الشخصية، وهي حالة الآنسة «سالي بوشامب» التي قام مورتن برنس Morton Prince (١٩٢٠) لأول مرة بوصفها وصفاً كاملاً، ثم حالة أخرى وردت بعد ذلك عند ثجبن وكلكلي Thigpen and Kleckley (١٩٥٧)، والتي ظهرت في السينما تحت إسم «ثلاث وجوه لحواء». إن جوانب شخصية سالي بوشامب أصبحت «منفصلة» إحداها عن الأخرى، كما لو كانت الدفعات المتصارعة المتعددة بداخلها لم تعد بعد قادرة على التكامل في كل متسق. وفي أثناء فترة المرض، ظهرت ثلاث شخصيات متميزة، كانت إثنتان منها متعارضتين بوجه خاص. وكانت إحدى هذه الشخصيات لأمرأة متحررة جنسياً تتكلم بصراحة وبذاءة، وتسخر من جانبها الآخر المكفوف الأخلاقي والمفرط في الاحتشام. وكانت المريضة تبدو وكأنهـــا تنتقـــل من حالة إلى أخرى، بدون وجود إنذار يشير إلى أي شخصية من هذه الشخصيات ستكون لها السيطرة. وقد بدت الشخصية المكفوفة كأنها غير واعية تماماً بأنشطة الشخصية الأخرى غير المكفوفة. ويبدو أن معظم حالات تعدد الشخصية إنما تكشف على الأقل عن صورتين متطرفتين للشخصية، إحداهما مكفوفة وأشد ضبطاً (أو بمعنى آخر أكثر اجتماعية)، والأخرى غير مكفوفة وقليلة الضبط (أو بمعنى آخر أشبه بالحيوان). ماذا يمكن أن يكون أكثر من ذلك قرباً من الصورة الفرويدية للإنسان كمزيج من الغرائز الحيوانية البدائية والضغوط المتعلمة المستدمجة اجتماعياً!

وثمة مثال طريف من الناحية الأدبية عن هذه الصورة المزدوجة للإنسان يتمثل في تلك القصة المشهورة التي كتبها لويس ستفنس وهي «الحالة الغريبة» لدكتور جيكل ومستر هايد». ولقد نشرت لأول مرة ١٨٨٦، ولقي موضوعها إنتشاراً واسعاً على نحو ما تمثل في الروايات السينمائية العديدة في الولايات المتحدة (أنظر شكل ٩).



شكل ٩: صورة دكتور جيكل ومستر هايد على نحو ما صورت في الفيلم الذي قام بتمثيله فردريك مارش.

فمستر هايد يمثل «الشر» أي الجانب الحيواني في الإنسان والذي يتألف أساساً من مزيج من الدوافع الجنسية والعدوانية (السادية). أما دكتور هايد، الطبيب، فيمثل الجانب الطيب الذي يُسحق بصورة مفجعة عندما يقوم في تهور بتجربة يتناول فيها جرعة كيميائية أطلقت الجزء الحيواني من عقالة. وقد عبر دكتور جيكل للأطباء الآخرين في عصره عن الفكرة الصادمة، وهي أن هذه الصفات الطيبة والشريرة توجد معاً عند جميع الرجال.

ويمكن أن نرى بوضوح في وجهة النظر الفرويدية افتراضاً بوجود استمرار في النشوء النوعي بين الإنسان والحيوانات الدنيا. وكانت هذه هي أحد الأفكار التي صدمت العالم الفيكتوري الذي عاش فيه فرويد، مثلما صدمت الأطباء المعنيين بدكتور جيكل في قصة ستيفنسن. لقد عاش هؤلاء الناس في عصر كان الاعتقاد السائد فيه أن الإنسان يتميز عن كل الحيوانات دون البشرية، وأنه فوقها جميعاً. وفي الدوائر الدينية،

كان المعتقد أن الإنسان وحده هو الذي له روح خالصة. وقد عزت المعتقدات الكنسية الشر إلى الشيطان وإلى الخطيئة الأولى التي هبطت بالإنسان من الجنة. فافتراض وجود استمرار واتصال مع عالم الحيوان على نحو ما ذهب دارون كان يعد بمثابة تحد لوحدة الإنسان، ويجعله أفضل قليلاً من الناحية الخلقية من الأشكال الدنيا للحياة. ولقد قال فرويد أيضاً أن الإنسان لديه جميع الغرائز الأساسية التي لدى الحيوانات الدنيا الأخرى. وقد هددت هذه الآراء بعمق كلاً من الكنيسة والشعب وأغضبتهما وأدت إلى الإدانة المستمرة والواسعة لمفاهيم دارون وفرويد. ورغم أن المواقف ليست متناقضة حقيقة، إلا أنها تبدو كذلك، وقد أدت إلى حدوث صراع فكري، أساسي طويل لم ينته بعد حتى اليوم (أنظر بيتش Beach، ١٩٥٥، لمزيد من المناقشة حول هذا الموضوع).

ومن المهم أن نعترف بأن آراء فرويد عن سلوك الحيوان وغرائزه ليست دقيقة تماماً وأنها بالغة البساطة. وهذه حقيقة أصبحت واضحة جداً خلال الملاحظات الدقيقة التي قام بها علماء الأخلاق الاجتماعية (الإثولوجيا Ethology) المحدثون وعلماء البيئة الحيوانية لأنماط العدوان عند الحيوان. فهناك صور عديدة للعدوان، وهذه يمكن أن تقوم على ميكانزمات فسيولوجية مختلفة تماماً (موير Moyer، ١٩٦٧؛ وروثبالر Rothballer، ١٩٦٧). فهناك مثلاً عدوان «داخل النوع» intraspecies وعدوان «بين الأنواع» Interspecies، بحيث أن مثيراتهما وطوبوغرافية استجابتهما ووظائفهما يحتمل أن تكون مختلفة اختلافاً كثيراً الواحدة عن الأخرى. «فالعدوان بين الأنواع» يتضمن الهجوم على الحيوانات من الأنواع الأخرى على نحو ما يحدث في البحث عن الطعام بواسطة الحيوانات آكلة اللحوم، أو في الحماية الأموية للصغار ضد الحيوانات المفترسة. أما «العدوان داخل النوع» فيتجلى في الهجوم على أفراد من نفس النوع على نحو ما يحدث بين ذكرين يتنافسان على قطعة أرض أو على التزواج. فإذا كانت هذه الأشكال من العدوان لها في الحقيقة جذور بيولوجية مختلفة، وإذا سلمنا جدلاً أن العدوان في الإنسان قد انتقل إليه عن طريق النشوء النوعي من أسلافه الحيوانية، فإن السؤال الذي يظهر أمامنا هو أي شكل من هذه الأشكال هو الذي يمدنا بالأساس التطوري للعدوان عند الإنسان.

والإنسان بلا شك هو أول الحيوانات الرئيسية من آكلة اللحوم المفترسة (عدوان بين الأنواع)، أما القردة العليا فهي أساساً من آكلة الخضراوات. وقد ظن البعض أن هذا الاختلاف يمثل بدايات عدوان الإنسان. وربما كانت مثل هذه النزعات العدوانية

بين الأنواع ذات فائدة للإنسان في عصور الحياة الأولى، طالما أنها قد ساعدته على الاحتفاظ ببقائه أمام غيره من الضواري. ومع ذلك، فقد اقترح الأنثروبولوجي ليكي Leakey (١٩٦٧) أن حاسة الشم والذوق الهجومية للإنسان هي التي حفظته أكثر من أي شيء آخر. وعلى أي حال، فإن معظم العدوان لدى الإنسان يبدو أنه من نمط «داخل النوع»، إذ أن وحشيته تجاه الأشخاص الآخرين من الأمور الأكثر لفتاً للنظر، كما أنها تمثل أساس عدد كبير من مشكلاته الاجتماعية. ومثل هذا العدوان يمكن ربطه بالعدوانات المحلية التي توجد على نطاق واسع في الحيوانات الدنيا، أعني النزعة للعراك مع أفراد من نفس النوع حول قطعة من الأرض أو على التزاوج.

ومع ذلك، فثمة فروق واضحة بين الإنسان والحيوانات دون البشر في هذه الناحية. فمثلاً عندما تتعارك الحيوانات الدنيا داخل أنواعها، فنادراً ما يصل الأمر إلى حد القتل. فهي تدخل فيما يسمى «عدوان طقسي» Ritual (أنظر مثلاً ماتيوز Matthews، ١٩٦٤؛ وهول Hall، ١٩٦٤). أعني أنه عندما يتحدى ذكر ذكراً آخر حول قطعة أرض أو من أجل التزاوج، يحدث بينهما أصوات كثيرة وغضب، ولكن نادراً ما يحدث قتل، لأن الخاسر يذعن عادة للمنتصر قبل أن تصبح الجراح خطيرة، وهو عندما يبدو أصغر أو أضعف من الآخر، فإنه لا يثير التحدي أصلاً. وعندما يكتشف أنه سوف يخسر أو يصاب بجراح، فإنه يهز ذيله ببساطة، ويكشف عن أوضاع سلبية وينسحب، على حين يشعر المنتصر بالرضا تماماً عندما يدعه ينسحب إذ يكون قد حقق هدفه واستولى على قطعة الأرض. أما إذا دار العراك بينهما على قطعة صغيرة، وكان انسحاب أحدهما مستحيلاً، فهنا فقط سوف يقتل أحدهما الآخر على نحو ما يفعل الإنسان. ولقد قيل أيضاً أن الإنسان يقتل بسبب أن أسلحته قد جعلت انسحابه قبل الخسارة القاطعة أمراً صعباً، وأن ذاكرته البعيدة المدى وذاته الأكثر تطوراً هي إضافات حاسمة للنزعات العدوانية العادية داخل النوع لدى الحيوان.

والأسس البيولوجية للعدوان ليست واضحة تماماً، فهناك مَنْ يذهب إلى أن القول بوجود مثل هذا الأساس للعدوان قول لا يؤيده دليل. فهم يؤكدون العوامل الاجتماعية في العدوان أكثر من توكيدهم العوامل البيولوجية، إستناداً إلى أن الاستجابات المتعلمة للإحباط تمدنا بالأساس الرئيسي للعدوان عند الإنسان. وأياً ما كانت الإجابات النهائية التي نصل إليها، فإن الأسئلة التي تدور حول أصول العدوان تهم كثيراً علماء البيولوجيا والاجتماع على حد سواء، وذلك بسبب الأخطار الكبيرة التي

تحيق بالإنسان من إبادة الذات عن طريق الأسلحة والحروب الحديثة.

ورغم أن هذه المناقشة المختصرة للعدوان قد تبدو استطراداً، إلا أن الهدف منها كان هو الحيلولة دون هذا النوع من التحليل العادي البالغ البساطة والذي ينشأ عن الفهم المحدود للمشكلات المعقدة للأصول البيولوجية للحوافز الإنسانية. ولقد كان تفكير فرويد حول موضوع العدوان متسقاً مع المعرفة في عصره، وقد أصبحت هذه المعرفة قديمة. ومع ذلك، فإن حجته العامة بأن الإنسان لديه الكثير من الدوافع التي يجب ضبطها يعد موقفاً قوياً جداً وجديراً بالاحترام، كما أن تضميناتها لحل مشكلات الإنسان الاجتماعية تختلف اختلافاً ملحوظاً عن صورة الإنسان على نحو ما يعرضها أصحاب نظرية «القوة من أجل النمو».

ويعترف أصحاب نظرية القوة من أجل النمو بأن الإنسان لديه حوافز تتركز حول الذات، وتتجه نحو البقاء، وهذا ما أكده أصحاب نظرية خفض التوتر. ومع ذلك وتسليمًا بهذه الحقائق، فإنهم يذهبون إلى أنه لا يزال هناك خصائص في الإنسان فطرية وأكثر أهمية، ومعطاة بيولوجياً. وإذا أمكن تنميتها، فإنه يمكن أن تصبح سائدة في سلوك الإنسان. والأشكال المتباينة لهذه الحجج عديدة، وتحاول كل منها أن تحدد بتفصيل، أكثر أو أقل، صفات الحافز الأساسي أو الحاجات التي تبلغ أقصى إزدهارها عند الإنسان. وعموماً، فإنهم يؤكدون علاقات الإنسان بغيره من الناس، أعني أنهم يسلمون بوجود حاجات تعبر عن طبيعة الإنسان الاجتماعية أكثر من تلك التي تتركز حول طبيعة أنسجة الإنسان. فالحاجات الأساسية في الإنسان لا ينظر إليها باعتبارها مستمدة من حاجات الأنسجة الأكثر بدائية، بل تميل، بدلاً من ذلك إلى أن تتحدد في مصطلحات اجتماعية أو خاصة بالعلاقات بين الأشخاص، رغم نظرتهم إلى هذه أيضاً باعتبارها استعدادات موروثة بيولوجياً تحرك الإنسان طوال حياته.

ولننظر لحظة في فكرة إبراهام ماسلو (١٩٥٤). إنه يتصور الدوافع كما لو كانت في متسلسلة تتدرج من حاجات البقاء كالجوع والعطش، وترتقي في سلم التطور نحو حاجات أعلى كالأمن، ثم الانتماء والحب، والتقدير، وتحقيق الذات، ثم إلى حاجات معرفية كالتعطش إلى المعرفة، وحاجات جمالية كالرغبة في الجمال، وفي هذا الترتيب المذكور. ولا يمكن إشباع الحاجات «العليا» أو السماح لها بالتعبير عن نفسها، ما لم تشبع أولاً الحاجات المسيطرة والأكثر بدائية. وبعبارة أخرى، فإن حاجات الأنسجة وتلك المرتبطة بالأمن والطمأنينة تكون ملحة ومستبدة عندما تتعرض للتهديد، بينما

تظل الحاجات «الأعلى» التي تتضمن تحقيق الذات كامنة في ظل الظروف غير المناسبة لظهورها. فهذه الأخيرة تعبر عن نفسها فقط عندما يتحرر الإنسان من سيطرة الحاجات الأدنى في هذا النظام.

وثمة مثال آخر هو التحليل الذي قدمه إريك فروم (١٩٤٧ و ١٩٥٥). أن قائمته الخاصة بالحاجات الإنسانية الأساسية تتضمن «الارتباط» أو الانتماء، أعني الشعور بأن الفرد جزء من الجماعة؛ «والسمو»، أي يصبح إنساناً مبدعاً يسمو فوق طبيعته الحيوانية، «والهوّية»، أي يكون شخصاً فريداً وأن يكون له «إطار مرجعي ثابت أعني يكون له أسلوب ثابت يدرك به العالم ويفهمه.

وفيما عدا وضع قوائم بالحاجات الإنسانية الأساسية، فليس هناك شيء كثير يمكن قوله حول الديناميات الدافعية من منظور نظريات القوة من أجل النمو، لأن هذه النظريات تعد إلى حد ما أكثر غموضاً في نظرتها لكيفية عمل الدوافع والظروف التي سوف تظهر فيها إذا ما قورنت بنظريات خفض التوتر. وفي السنوات الأخيرة، كان لدى أصحاب نظرية «القوة من أجل النمو» الكثير ليقولون عن عيوب المجتمع الإنساني، مشاركين بذلك في وجهة نظر عامة تذهب إلى أن فشل الإنسان في النمو بطريقة سليمة وفي التعبير عن أقصى إمكانياته، إنما يرجع إلى الآثار المدمرة للظروف الاجتماعية التي يعيش فيها. وعلى ذلك اتجه الاهتمام نحو مشكلة كيف يجب أن يسير النظام الاجتماعي من أجل أن يحصل الإنسان على أقصى إمكانيات نموه، إذا ما أعطي مجموعة الحاجات الموجهة اجتماعياً والتي تشكل نظامه الدافعي.

مفاهيم المجتمع الإنساني:

سبق أن أوضحنا أن نموذج خفض التوتر ينظر إلى النظام الاجتماعي باعتباره يمارس ضغوطاً ضرورية على الغرائز الحيوانية. وهي ضغوط ضرورية لسببين: الأول من أجل تنمية الوسائل للتغلب على العوائق الحتمية للبقاء والراحة. والثاني لإيجاد أسلوب حياة آمن، منظم، ثابت قدر الإمكان للبشرية. ولقد كان فرويد مرة أخرى صريحاً للغاية في نظرته لكيفية نمو المجتمع وسبل تحويل الغرائز الحيوانية.

لقد ذهب فرويد (١٩٥٧) إلى أن غرائز الجنس والعدوان يجب أن تخضع للقواعد الاجتماعية، وأن ثقافة الإنسان هي نتاج هذه الغرائز والطرق المنظمة

لضبطها. فبواسطة القواعد الاجتماعية المناسبة، تنمو أنا قوية تستطيع البحث عن الأمن وعن المسالك الناجحة للتفريغ الغريزي. وبدون القيود والتهذيب المناسبين اللذين يسمحان بنمو أنا قوية، فإن شخصية الإنسان سوف تحرّفها الحلول العصابية والاضطرابات الخلقية التي تتسم بنمو خلقي ناقص وأساليب حياة غير ملائمة، أو يحرّفها الذهان الذي ينجم عنه تكوص إلى الطفولة والأشكال قبل التناسلية للتعبير اللبيدي والتي لا تتناسب مع حياة الراشد. وقد لاحظ فرويد مشابهة بين النمو النفسي للإنسان الفرد والانتقال التطوري للإنسان ابتداء من التعبير الطليق للغرائز الجنسية والعدوانية ماراً بتقبل واستدماج القواعد الاجتماعية. ويمكن توضيح هذه المشابهة إذا نظرنا إلى سلوك التزاوج عند قطيع الحيوان.

ففي حالة هجرة عجل البحر مثلاً، تبدأ الذكور الناضجة مع الربيع، في الوصول ـ قبل الإناث ـ إلى أماكن التزاوج. وعند الوصول يحتل الذكر جزءاً من الأرض، يتوقف حجمه ورغبته فيه، على قدرته على الدفاع عنه أمام المنافسين الآخرين. وعندما تصل الإناث، يتخذ الذكر لنفسه حريماً، ويستمر في مقاومة تحديات الذكور الآخرين. وتكون الذكور الأكبر والأقوى، أي «سادة الشاطىء»، هم الأكثر نجاحاً، فتتزوج إناثاً كثيرة. وخلال فترة التزاوج يكون هناك تنافس مستمر على الأرض وعلى الإناث. كما يحدث كل عام تنافس جديد يتجلى بين الذكور الشابة التي نضجت وأصبحت قوية تقدر على تحدي الذكور المتقدمة في السن، حول الأرض والحريم، وتنسحب الذكور المتقدمة في السن والتي لم تعد تقوى على التحدي، من حلبة التزاوج على الشواطىء، فتبعد عن الإناث وتصبح غير قادرة على التزاوج. وبالمثل يبقى الفتيان الصغار من الذكور بعيداً وعلى الهامش. فصراع التزاوج يمكن النظر إليه كصورة نشوئية نوعية بدائية للموقف الأوديبي.

وليس هناك تحريم نكاح المحارم بين قطيع الحيوان ليهدىء من هذا الصراع المستمر. ومع ذلك، فقد وضع الإنسان بشكل جماعي «العقد الاجتماعي» الذي يتضمن حظراً عاماً تجاه نكاح المحارم. فالولد الذكر (فيما عدا الطفل غير الناضج) محرم عليه أن يقبل أمه كموضوع حب شبقي وهو في سن الرشد. وعقدة أوديب في الطفولة المبكرة والمتأخرة هي تكرار في تاريخ نشوء الفرد لعملية بدائية في تاريخ نشوء النوع وهي التزاوج بين قطيع الحيوان، وهي تستمد قوتها الدافعة أساساً من نفس مصادر الحافز. وعلى ذلك، «فدور المجتمع، كما نراه في النظرية الفرويدية، هو بوضوح كفّ الدوافع

الأولية الطليقة والمدمرة للإنسان بحيث يمكن إقامة نظام أسري ثابت، يسمح بظهور عمليات عقلية أعلى». فالإنسان إذن حر في أن يحب بدون أنانية، وأن يقبل القيود على دوافعه، وأن يفرغ طاقته اللبيدية في صور بديلة مناسبة تفيد بقية الجنس البشري.

ويوحي ما سبق قوله عن النظرية الفرويدية وعن نموذج خفض التوتر، بأن مثل هذه النظريات يمكن أن يكون لها تضمنات بالنسبة لاتجاهاتنا وسلوكنا نحو انتهاك النظام الاجتماعي، مثلاً نحو الجماعات الاجتماعية الهامشية كسكان الأزقة والمتشردين وتجمعات الهيبيز ومدمني الكحول. كما أن وجهات نظر خفض التوتر سوف توضح لنا أيضاً شيئاً عن تنشئة الطفل. ومع ذلك، فقد اتضح أن استجابة الفرد للجماعات المثيرة للمشكلات وللأطفال المثيرين للمشكلات تتوقف على أي مظاهر خفض التوتر يكون تركيز الفرد. لقد ذهب فرويد بالفعل إلى أنه خلال السنوات الأولى الحاسمة في النمو النفسي الجنسي قبل التناسلي (الفمي والشرجي، تسبب الضغوط القاسية أو التسامح الزائد عن الحد صدمات، فتكف التقدم العادي من مرحلة ما إلى التالية. فمثلاً، قد يؤدي الإشباع الفمي الزائد عن الحد (التغذية والإطعام) بالطفل النامي إلى توقع ذلك إلى الأبد، فيجعله غير قابل ليتحرك نحو المرحلة التالية (الشرجية). وبالمثل، قد يؤدي الحرمان إلى عدم الثقة في البيئة والدأب المستمر في البحث من أجل سد احتياجات هذا النقص.

وتتضمن بعض الافتراضات الرئيسية لوجهة نظر خفض التوتر أن الإنسان يحيا من أجل تنمية الكفاية للسيطرة على البيئة أو التكيف معها، وطالما أن الصفات المناسبة لمثل هذه الكفاية تنتقل ـ في جزء منها ـ وراثياً خلال عملية الانتقاء الطبيعي، فإن الجماعات المنحرفة يمكن النظر إليها كنوع من الفشل الإنساني. ويعزى مثل هذا الفشل في بعض الحالات إلى قصور بيولوجي، وفي بعضها الآخر، يمكن النظر إليه كنتاج أنا ملتوية أو معاقة نتجت عن ظروف قاسية في الحياة. وليس ثمة شك في تدخل كل من العمليات البيولوجية والاجتماعية. وعلى أي حال، عندما يتجه الاهتمام نحو المنافسة والصراع من أجل السيطرة، على نحو ما سبق وصفه، فإن الحل يجب أن يكمن في التهذيب المناسب وفي القيود البيئية؛ أما في حالة عدم وجود هذه، فإن الحل يكمن في إعادة التدريب. ولمثل هذا الموقف العقلي صفة دارونية مميزة تكمن خلف موقف خفض التوتر؛ فالافتراض هنا هو أن القوى البيولوجية الأولية في الإنسان هي «الاهتمام بالذات وحب البقاء»، أما الإيثار وغيره من المثل الإنسانية فإنها مجرد اشتقاقات من مثل

هذا الاهتمام بالذات.

ومع ذلك، فقد يكون تبسيطاً زائداً عن الحد أن ننظر إلى نموذج خفض التوتر كما لو كان استسلاماً كاملاً للاتجاه المركز حول التهذيب. فلا يذهب مؤيدو هذا النموذج بالتأكيد إلى أن أي نظام اجتماعي يكون مناسباً، لمجرد أنه يفرض القيود على الغرائز الحيوانية لدى الإنسان. فعلى الرغم من أن الأنا القوية (أو نظام العادة المناسب، إذا استخدمنا مصطلحات التعلم بالترابط) تعتبر أساسية للأداء السوّي، وعلى الرغم من أن مثل هذه الأنا لا يمكن أن تأتي إلى الوجود بدون قيود شديدة يفرضها النظام الاجتماعي، فإن المجتمع الكابت، شأنه شأن المجتمع البالغ التسامح، مجتمع معيب. إن المجتمع الأول يخلق عصاباً، على نحو ما كان شائعاً في أيام فرويد، والثاني يخلق اضطرابات في الشخصية أو التطبيع الاجتماعي، ربما على نحو ما هو شائع اليوم. فبدون الأشكال البديلة المناسبة للتفريغ، لا بد أن يفشل خفض التوتر. وأن القيود المتزايدة تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إيجاد حلول مبدعة لمشكلات الحياة.

ويجب أن نتذكر أن فرويد قد صاغ نظريته في الشخصية، أثناء محاولته علاج مرضاه العصابيين الذين كان يفترض أنهم ضحايا الكبت الشديد للمجتمع الفيكتوري، وكان من المستحيل أن يصف فرويد مثل هذه التربية الكابتة بأنها أمر مرغوب فيه. ومن ناحية أخرى، عندما كانت آنا Anna - إبنة فرويد - تحاضر في الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية، قيل أنها أبدت ملاحظة ممتازة عن أن أغلب حالات سوء التوافق التي ترى في العيادات قد تغيرت من كونها في الأغلب حالات عصابيين إلى اضطرابات في الشخصية، أعني إلى أشخاص يتميزون بتنشئة اجتماعية غير مناسبة وبعدم القدرة على الانسجام مع المجتمع. وقد عزت ذلك إلى الانتقال من التهذيب الفيكتوري القاسي أيام أبيها إلى التسامح الزائد عن الحد في تنشئة الطفل بعد الحرب العالمية الثانية، مع ما يؤدي إليه من ضعف تهذيب الذات. وفي هذا الصدد، فإن من السخرية أن يعتبر فرويد، ولمدة طويلة، مسؤولاً عن الدفاع لصالح التسامح غير المحدود، وأن يلام على انهيار نظام تربية الطفل وذلك لمجرد انتقاده الآثار المدمرة للتربية الكابتة في أيامه. ومع ذلك، ورغم أنه يجب ألا نبالغ في النظر إلى الموضوع، فإن مبدأ خفض التوتر يحتاج إلى حد ما، إلى توكيد أهمية وجود اليد الضابطة الشديدة والنظام الاجتماعي الثابت كوسيلة لتحويل الرجل البدائي إلى رجل متمدن.

فبضبط الجانب الحيواني في الإنسان، أصبح في إمكان المجتمع تنمية المشتقات الاجتماعية ذات القيمة الدافعية للحوافز الأولية، إذ أن هذه المشتقات لا تكون فطرية في الإنسان بدون الخبرات الاجتماعية الصحيحة. فلكل من التهذيب الضعيف جداً والقيود التي تؤدي إلى الاستسلام التام تأثير سيء على نمو الصحة النفسية، ويؤدي كل منهما، مع ذلك، إلى صور مختلفة من صور الانحراف. إن الحدود الدقيقة لهذا التعميم لم تتضح أبداً في الحقيقة، ومن ثم، فإنه بدون كثير من البحث والأدلة، فإن المبدأ العام لا يسلم نفسه تماماً لبرنامج في تنشئة الطفل توضع فيه توصيات محسوسة.

كيف عالج نموذج القوة من أجل النمو نفس هذا الموضوع؟ وهنا أيضاً، تكمن خطورة كبيرة من المبالغة في التبسيط، ومع ذلك، يبدو أن مؤيدي القوة من أجل النمو، أكثر ميلاً لأخذ موقف مناضل من القائلين بخفض التوتر، على الأقل بتوكيدهم أن المجتمع هو المتهم الرئيسي فيما ينتاب الإنسان من فشل نفسي، بدلاً من النظر إليه كشيء مفيد وضروري لضبط بواعث الاهتمام بالذات. إن أصحاب نظرية القوة من أجل النمو يقولون إن المجتمع أصبح يميل إلى أن يشبه الأدغال، إن جاز القول، حيث يكون البقاء فيه مهدداً باستمرار. وعلى ذلك فالأنظمة الاجتماعية القائمة والماضية، قد استمرت في الإبقاء على الإنسان في حالة عدم أمن وخوف ويأس. وهذا يعزز أساساً التعبير عن الحاجات المهيمنة الخاصة بالبقاء، ولكنه يكبت التعبير عن الحاجات الأكثر ضعفاً، وهي الحاجات الاجتماعية الأكثر رقياً التي تخص الإنسان كنوع، والتي هي أيضاً حاجات أساسية مثل الحاجات الخاصة بالبقاء. فواجب المجتمع في نظر أصحاب نظرية القوة من أجل النمو، ليس هو تقييد الحوافز الأولية للإنسان، بل هو تنمية تلك الحوافز التي تسهم في تحقيق الذات. وفي المواقف الآمنة المدعِّمة وحدها، يمكن لهذه الأخيرة أن تظهر. إن طبيعة الإنسان الداخلية حسنة في جوهرها، ولكن المجتمع هو الذي يحبط تعبيراتها.

وإذا درسنا من وجهة النظر هذه، القطاعات الهامشية أو المنحرفة في المجتمع، وجدنا أن المسؤولية تقع بوضوح على المجتمع، لعدم تزويده مثل هؤلاء الأفراد أو الجماعات بالأمن الكافي لتغذية نزعة النمو التي توجد لدى كل فرد. ومثل هذا الفشل الاجتماعي يثبت فحسب عدم كفاية النظام الاجتماعي، بدلاً من أن يتضمن بالضرورة قصور الفرد في التكيف.

وعلى ذلك، يبدو أن أصحاب نظرية القوة من أجل النمو، يعتنقون نموذجاً متسامحاً، بالنسبة للنظام الاجتماعي، وبالنسبة للسلوك العائلي، على الرغم من أن تميز هذا الموقف إلى جانب واحد قد يكون نتيجة الرغبة في توكيد الشرور القائمة في المجتمع، وإلى حقيقة أن أمثال هؤلاء الكتاب كانوا يهاجمون وجهة نظر أكثر ثباتاً واستقراراً. وفي جميع الاحتمالات، فإن هذه النظرة المتحمسة لقدرة الإنسان على التعبير عن طبيعته العليا دون ضغوط بيئية، يمكن أن يصفها باحثو «القوة من أجل النمو» إذا عكفوا على دراسة تفاصيل الظروف المثلى لنمو الطفل بشكل محسوس. فمعظم العقلاء من الناس يدركون أن التهذيب من نوع ما يعتبر عنصراً أساسياً في النمو السّوي، وأن الجدل يميل إلى أن يدور حول أي نوع من التهذيب، وما هي أشكاله الصحية في مقابل أشكاله غير الصحية والمفيدة. ويدور معظم الاختلاف بين وجهات النظر حول نواحي التركيز. وقد بالغ على وجه خاص في تبسيط وجهات النظر هذه كل من العامة وهؤلاء الذين يريدون لأسباب شخصية أو أيديولوجية خاصة، أن يدافعوا عن موقف أو آخر من المواقف المتطرفة.

فالمشكلة هي مشكلة انفعالية إلى حد بعيد. وكلما كانت المناقشة أكثر عمومية وتجريداً، أعني كلما قلت إشارتها إلى محتوى خاص أو إلى أشخاص معينين وأنواع معينة من السلوك، كان الجدال أقل ثمرة، وأكثر مقاومة للحل نتيجة التقبل العلمي للحجة. وكما هو واضح الآن، فإنه بدون التحديد والبحث الضروريين، فإن الموضوع يمكن معالجته فقط بالتحليل التأملي الذي يجب أن يمهد الطريق، على المدى البعيد، أمام المعرفة الجديرة بالثقة.

ولقد ذهب ما سلو إلى أبعد مما ذهب إليه أصحاب نظرية القوة من أجل النمو (ربما باستثناء فروم) في محاولة تصور الصفة الأساسية للمجتمع الذي ينمي تحقيق الذات. وحديثاً وجد ماسلو (١٩٦٤) الإجابة العامة في مفهوم «التآزر» Synergy، وهو مصطلح استخدمته لأول مرة عالمة الأنثروبولوجيا الثقافية «روث بندكت» Ruth Benedict. فتحقيق الذات يتطلب أن يعبر الفرد عن هويته الشخصية دون أن يغترب بذلك عن مجتمعه. ومعظم الثقافات تجعل هذا الأمر - إلى مدى كبير أو صغير - صعباً أو مستحيلاً، لأن تحقيق ذات الفرد تضر عادة الجماعة، أو على الأقل نادراً ما تفيدها. ويعبر «التآزر» عن المدى الذي تجعل به مؤسسات ثقافة ما إنتاج الفرد ممكناً، في الوقت

الذي تقدم فيه المنفعة المتبادلة لكل من الفرد والجماعة. وقد صاغ ماسلو عبارته على النحو التالي:

«والنتيجة التي نصل إليها هي أن المجتمعات التي تتسم بعدم العدوان تكون لها نظم اجتماعية يخدم فيها الفرد مصلحته الخاصة ومصلحة الجماعة نتيجة القيام بنفس العمل وفي نفس الوقت. . . ويرجع عدم العدوان (في هذه المجتمعات) لا إلى أن الناس غير أنانيين أو أنهم يضعون الالتزامات الاجتماعية فوق الرغبات الشخصية، بل ألى أن الأنظمة الاجتماعية تجعل هذين الأمرين شيئاً واحداً» (١٩٦٤ ص: ١٥٥).

فمن وجهة نظر القوة من أجل النمو، لا يكون حل الانحراف أو الهامشية بزيادة التهذيب أو محاولة تشكيل الشخص في اتجاهات مقبولة اجتماعياً عن طريق الثواب والعقاب، وإنما بجعل الفرد يشعر بالأمن والبعد عن التهديد، بحيث يمكنه أن يكون ما هو قادر على أن يكونه: أي إنساناً، واعياً اجتماعياً، فناناً، مبدعاً، محباً للغير. أما العقاب، وبخاصة عندما يكون زائداً عن الحد، فإنه يخلق أناساً ملتويين بدلاً من خلق أشخاص يحققون ذواتهم. إن أية كفاية توافقية يمكن أن تبزغ من خلال صراع البقاء، تميل إلى أن تكرس لخدمة غايات أنانية بدلاً من أن تكرّس لسعادة الآخرين من الناس.

وليس من قبيل الصدفة، أن نجد فلسفة «القوة من أجل النمو» صدى قوياً لدى الشباب المثقف اليوم والذين ثاروا على عيوب المجتمع الحديث الصناعي التنافسي. ومن الطريف أيضاً أن تكون الإجابة العامة على انتقادات مثل هؤلاء الشباب هي إجابة خفض التوتر، وأنه بدون الضغط أو الصراع من أجل البقاء، لما وصلت المجتمعات الغنية إلى ثرواتها المذهلة والسيطرة على البيئة. والجدير بالملاحظة أيضاً أن قطاعاً كبيراً من الشباب الثائر اليوم متهم بأنه ينظر إلى الأمور ببساطة جداً من الناحية الاقتصادية، إذا ما قورنوا بحقبة الآباء التي سادها الكساد وعدم الاطمئنان.

ورغم أن التضمنات السابقة مبالغ فيها إلى حد ما، فإن من المهم بوجه خاص أن نعترف أن الأيديولوجية السياسية والاجتماعية يمكن أن ترتبط بموضوع نظرية الشخصية. فالافتراضات النظرية المختلفة عن طبيعة الدافعية الإنسانية هي، بمعنى ما، أيديولوجيات، أو مبادىء، أو فلسفات أكثر منها قضايا خضعت للاختبار العلمي. وفي الحقيقة أن ما نعرفه في الوقت الحاضر عن الظروف التي توجد فيها المقدرة والإيثار والحب والعدوان وغيرها قليل جداً، بحيث أن الفرد يجب أن يكون حذراً جداً نحو تقبل هذه الفلسفات باعتبارها مقبولة علمياً. ومع ذلك، فإن هذه الفلسفات تفيد كالافتراضات تعمل بصورة بديلة، ويقوم تقبلها أو رفضها على أساس معقوليتها

وقيمتها الجمالية. وفي المقترحات التي نادى بها علماء اجتماعيون وأيديولوجيون سياسيون من أجل إحداث تغيير اجتماعي، تظل هذه الفلسفات غالباً افتراضات غير معلنة. وربما يصبح لدينا يوماً ما أساس تجرُبي أوسع وأكثركفاية للاختيار بينها أو تبني فلسفات أخرى مختلفة.

موضوعات أخرى لديناميات الشخصية

في هذا الفصل، عقدت المقارنة بين النظريات الدينامية من جانب واحد فقط، أعني المبادىء الدافعية التي تدفع الإنسان إلى السلوك. ولم نقل شيئاً مثلاً، عن أنواع الحيل التي يستخدمها الناس في التوافق مع التهديد أو في التعامل مع الصراعات بين الدوافع. كما لم نوجه الاهتمام إلى العمليات والروابط الانفعالية بين الانفعال والتفكير. وتميل معظم أنظمة الشخصية إلى اعتبار الانفعالات، كالقلق، قوى دافعة مركزية في إحداث الدفاعات وفي ظهور أنماط السلوك المرضي النفسي، على الرغم من أن الأسلوب المحدد الذي يحدث به ذلك يختلف من نظام إلى آخر. فمثلاً، إن النظريات الشخصية المختلفة تنظر نظرات مختلفة تماماً إلى الدوافع التي تكمن وراء الصراعات التي تولّد القلق والطرق التي يتعلمها الفرد للتعامل معها. إن المعالجة الكاملة لديناميات الشخصية تتطلب توجيه الاهتمام إلى مثل هذه الموضوعات، مثلما تتطلب الاهتمام بالموضوعات التي أكدناها هنا. ويجب أن يدرك القارىء أننا قد اخترنا موضوعات معينة من أجل أن نقارن بها النظريات، إلا أن المعالجة ليست شاملة. ولننتقل الآن إلى دراسة محددات الشخصية في الفصلين الخامس والسادس.

الفصل الخامس

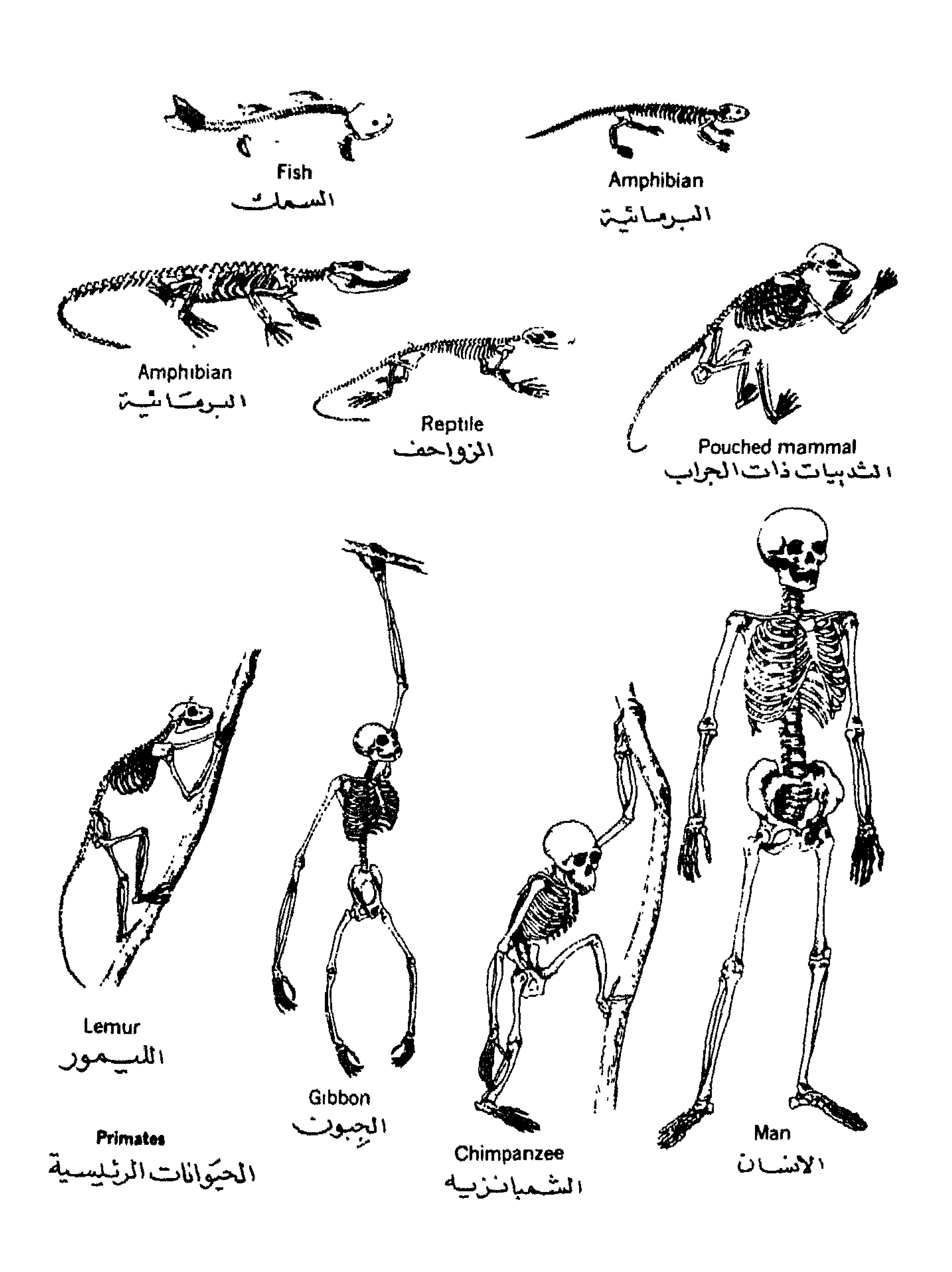
محددات الشخصية
العوامل البيولوجية

إن علم النفس علم اجتماعي وعلم بيولوجي. وسوف نركز في هذا الفصل على الناحية الثانية. فالإنسان كائن حي مكون من العديد من المواد البيوكيميائية، ومن الخلايا والأجهزة الخلوية المكونة من الأعصاب والعظم والعضلات والغدد وأعضاء الهضم والجهاز الدموي والجلد. ولذلك فالإنسان يخضع لنفس القوانين البيولوجية التي تخضع لها الكائنات الحية الأخرى. غير أن هناك أيضاً مظاهر بنائية تجعله يختلف عن كل الحيوانات الأخرى. وعلى أية حال، فشخصية الإنسان بعامة والأفراد بخاصة لا يمكن فهمها فهمًا صحيحاً دون إدارك التفاصيل البيولوجية المناسبة. وهذه التفاصيل تتضمن موضوعات ثلاثة أساسية هي مادة هذا الفصل ونعني بها التطور البيولوجي والثقافي للإنسان، والتأثيرات التكوينية عليه والطريقة التي بها يؤثر البناء الفسيولوجي للإنسان على سلوكه وشخصيته.

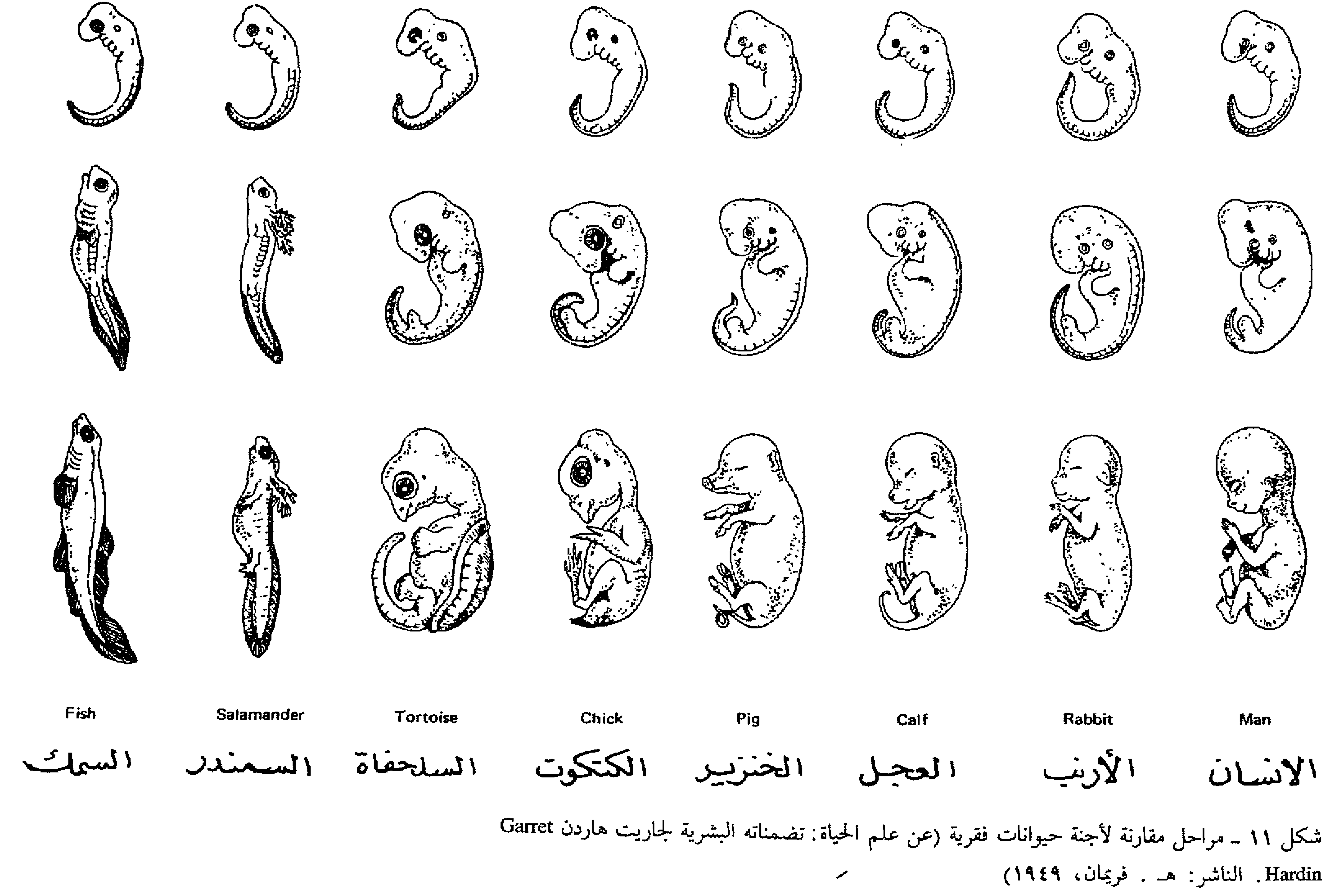
وفهم الشخصية من الزاوية البيولوجية يتطلب أولاً أن يوضع الإنسان في سياق نشوء النوع Phylogenetic، طالما أن تشريحه وفسيولوجيته هما نتاج التطور من الكائنات العضوية الأكثر قدماً والأكثر بساطة. وقد كتب ليرنر Lerner حديثاً عن تطور الإنسان قائلاً:

« يتفق كل علماء البيولوجيا على أن التطور العضوي يعتبر حقيقة، وأن الأجناس السائدة حالياً على هذا الكوكب (الإنسان) وكل أنواع الحياة الأخرى الموجودة لم تكن دائمًا على النحو الذي هو عليه الآن، ولكنها تنحدر مع تعديلات من أشكال وجدت من قبل. ويؤكد مفهوم التطور فكرة أن العالم نفسه لم يكن دائمًا على النحو الذي هو عليه، وإنما كان له ماض تاريخي وتطور من مصادر أبسط. وتتضمن أحد مظاهر عملية التطور وجود متصل تاريخي ليست فيه فواصل قاطعة. وعلى ذلك، يمكن تمييز المادة غير الحية عن الكائنات الحية العضوية بصورة عامة، على الرغم من أن النقطة المحددة التي عندها يتحول الواحد منهما إلى الآخر، تعتبر مسألة افتراضية إلى حد ما. وبالمثل، فإن النقطة المحددة في التاريخ والتي بدأت تظهر عندها لأول مرة على سطح الأرض المخلوقات التي يمكن تسميتها بالكائنات الإنسانية، لا تزال تحتاج الى مزيد من التحديد (١٩٦٨ ص٢) ».

وكانت إسهامات دارون (١٨٥٩) في الفكرة القديمة عن التطور البيولوجي هي أنه اقترح ميكانزماً عملياً بالنسبة لها، وأنه بينّ بالملاحظات الجادة على مورفولوجيا الحيوان والنبات، أن هناك، في الواقع، استمراراً بنائياً بين الأنواع المختلفة. والميكانزم الذي اقترحه دارون هو أن الخصائص البيولوجية للإنسان قد تطورت بسبب تكيفها للبيئة خلال عملية « الانتقاء الطبيعي ». وبواسطة هذه العملية، فإن الخصائص التي كانت تتعارض مع بقاء الأنواع تركت أو قمعت، بينما احتفظ بتلك الخصائص التي تحسّن الأنواع، ونقلت الى الأجيال التالية خلال الميكانزمات الوراثية. ونتيجة للانتقاء الطبيعي المستمر وبواسطة التغذية الرجعية من البيئة التي تحدد ما إذا كانت سمة ما متكيفة أو سيئة التكيف، ظهر الإنسان في النهاية على مسرح الحياة. وقد كانت لديه بعض الخصائص التي يشارك فيها الأشكال الدنيا من الحياة، وخصائص أخرى فريدة كان يتميز بها. ومن الواضح أن الإنسان الأول ظهر في العصر الجيولوجي البليستوسيني منذ حوالي ٥٠٠,٠٠٠ سنة مضت، وأنه تطور أخيراً الى الإنسان الحديث ربما منذ حوالي ١٠,٠٠٠ سنة مضت. أما بالنسبة للصفات السيكولوجية للإنسان الحديث والتي تميزه عن غيره من الأشكال الأخرى من الثدييات، فإن ليرنر (١٩٦٨) يقترح وجود خمس صفات هي: القابلية للتعلم الى درجة عالية، والقدرة على الإتصال مع



شكل رقم ١٠ ـ ملامح مقارنة للهياكل العظمية لدرجات مختلفة في سلم التطور. وهي مستمدة من كل من الحفريات والأشكال الحية (عن الوراثة والتطور والمجتمع لميشيل ليرنر Michael Lerner. الناشر: هـ. فريمان، ١٩٦٨)



شكل ١١ ـ مراحل مقارنة لأجنة حيوانات فقرية (عن علم الحياة: تضمناته البشرية لجاريت هاردن Garret Hardin. الناشر: هـ . فريمان، ١٩٤٩)

المعاصرين له ومع سلالته، وإحساس ممتد بالزمن، والشعور بالذات، والقدرة على تخطيط تطوره وتوجيهه.

ولقد قدم دارون بالفعل الأسانيد التي تثبت الاستمرار الفسيولوجي الذي يصل الإنسان بالأشكال الأدنى من الحياة. وتتضمن أسانيده النتيجة التي وصل إليها وهي أن الكائنات المتشابهة بنائياً يمكن أن توجد موزعة على نطاق واسع في جميع أنحاء الأرض. ومن ثم، فمن الضروري أن تكون قد صدرت عن نفس الأجداد. وثمة نوع ثان من الأسانيد صدر عن علم التشريح المقارن وعن علم الأجنة يوضح أن الأنواع الواسعة الأختلاف تكشف عن تشابه تشريحي ملفت للنظر في كل من التنظيم الهيكلي العظمى والنمو الجنيني. والشكل رقم ١٠ يوضح الأستمرار الهيكلي التشريحي، كما يوضح الشكل رقم ١١ التشابه الكبير بين مراحل الأجنة للأشكال المختلفة من الفقريات.

إن التطور البيولوجي عملية مستمرة، ومن المفروض أنه لا يزال مستمراً حتى اليوم. ومثل هذا التطور المستمر يتوقف على عاملين: الأول أن هناك اختلافات تكوينية بين الكائنات الحية العضوية المختلفة داخل النوع، وبذلك فإن بعض السمات يمكن أن تختار وتنتقل إلى أجيال تالية، على حين يقمع بعضها الآخر. والعامل الثاني هو أن هذه السمات التكوينية تكون ملائمة لصلاحية النوع للتكيف للتغيرات التي تحدث في البيئة التي يعيش فيها. ويذهب عالم الوراثة دوبزدهانسكي Dobzhansky (١٩٦٧) إلى أن كلا الشرطين ربما يوجدان اليوم، مما يجعل الاستدلال بأن التطور يجب أن يكون مستمراً، أمراً معقولاً. وكثير من السمات الإنسانية التي تتأثر بالوراثة، كالقدرة العقلية مثلاً، تختلف من شخص لآخر، ومن المحتمل أنها تؤثر في فرص البقاء، وبالتالي تؤثر في فرص التوالد قبل الموت السابق لأوانه. فالعناصر الأساسية للتطور توجد اليوم على نحوما كانت عليه في الماضي.

وثمة متطلب آخر لحدوث تغير تطوري بيولوجي. ذلك أن بيئات الإنسان يجب أن تكون هي أيضاً متغيرة بحيث تفرض عليه إحداث متطلبات تكيفية جديدة. فإن الانتقاء الطبيعي كنتيجة للنجاح والفشل التكيفين في مثل هذه الظروف سوف يحدث فقط اذا حدث تغير في البيئة، مما يسمح بأن تظهر بانتظام سمات جديدة تكون أكثر ملاءمة للظروف الجديدة، وبأن تختفي السمات القديمة التي لم تعد صالحة بعد لمثل هذه البيئة.

والأمر البالغ الوضوح هو أن التطور البيولوجي عملية بطيئة جداً، ومن الصعب تقديم وثائق عن أية تغيرات بيولوجية هامة منذ تطور الإنسان الحديث من ١٠,٠٠٠ سنة مضت على وجه التقريب. ومع ذلك، كان التطور الثقافي للإنسان مذهلاً الى حد بعيد، كما كان معدل سرعة التغير في أنماط المجتمع خلال الـ ٥٠٠٠ سنة الماضية سريعاً بكل تأكيد. ولنأخذ على سبيل المثال التغيرات في الـ ٢٠٠ سنة الماضية. فمما لا شك فيه أن البيئة الحالية للإنسان تختلف اختلافاً ملحوظاً عن تلك التي كانت موجودة من مئات السنين، وربما حتى من ٥٠ سنة، وبخاصة في حالة المجتمعات الصناعية في العالم. فليست هناك فقط تغيرات اجتماعية ملحوظة، بل وأيضاً تغيرات طبيعية يثير الكثير منها مشكلات تكيفية خطيرة كالزيادة في السكان، وتلوث الهواء، ووجود بعض العوامل الكيميائية الضارة في الماء والطعام... إلخ. أما بالنسبة للسكان، فقد لاحظ بيترسون وماتزا Peterson and Matza (١٩٦٣ ص١٤) أن عدد سكان العالم كان على وجه التقريب حوالي ٥٠٠ مليون نسمة سنة ١٦٥٠. وفي ثلاثة قرون فقط أصبح خمسة أضعاف هذا العدد، فبلغ ٢,٥ بليون نسمة سنة ١٩٥٠. ومن المتوقع أن يصل الى ما يقرب من ستة الى سبعة بلايين نسمة مع نهاية هذا القرن.

ولقد عبّر الدوس هكسلي Aldous Huxley عن تضمنات هذا التغير الثقافي السريع في الفقرة المثيرة التالية:

«كان تغير الإنسان تشريحياً وفسيولوجياً قليلاً جداً خلال العشرين أو الثلاثين ألف سنة الماضية. فطبيعة الطاقات التكوينية للطفل الذكي اليوم هي أساساً نفس طبيعة الطاقات التكوينية التي ولد بها طفل في أسرة كانت تسكن الكهوف في العصر الحجري القديم. ولكن بينما ينمو الطفل الذكي في العصر الحاضر ليصبح أي شخص ما ـ كأن يصبح مهندساً رائداً، أو عازف بيانو ماركسياً، أو استاذاً في الكيمياء الحيوية يعتقد باللاأدرية المبهمة ويحب الرسم بالألوان المائية ـ فإن طفل العصر الحجري كان لا يمكنه أن ينمو إلا الى أن يصبح صياداً أو جامع غذاء مستخدماً أبسط الأدوات الحجرية، ويدور تفكيره حول عالمه المحدود من الأشجار والمستنقعات في ضوء بعض الأنظمة السحرية الغامضة. ومع ذلك، فهذان الطفلان ـ القديم والحديث ـ لا يمكن التميز بينهما. فلدى كل منهما جميع امكانيات السلالة الخاصة للكائن البشري الذي يحدث أن ينتمي هو أو هي إليه. أما الراشدان اللذان سوف ينمو اليهما هذان الطفلان فهما يختلفان اختلافاً عميقاً. فهما مختلفان لأن إمكانيات الطفل الموروثة قد تحققت في إحدهما بدرجة قليلة، بينما تحققت في الأخر بقدر كبير»(١٩٦٥ ص ٣٢)

التأثيرات الوراثية

لقد اعتقد تشارلس دارون أن الخصائص العقلية والجسمية على حد سواء موروثة، وأنها تطورت من الصراع من أجل البقاء. ولا يمكن أن يحدث تطور بدون

ميكانزم وراثي تنتقل بواسطته السمات البيولوجية من جيل إلى الجيل التالي. وقد كان فرانسيس جالتون Francis Galton ـ وهو أحد أقارب دارون ـ من الرواد الأول المتخصصين في دراسة وراثة السلوك. وقد أسهم جالتون بإسهامات عديدة في علم النفس تتضمن ابتكار بعض الوسائل الإحصائية وتنمية الاختبارات العقلية. وأحد إسهاماته البالغة الأهمية هي دراسته لوراثة الذكاء (١٨٦٩). فلقد أوضح أنه يوجد بين أقارب الشخصيات اللامعة ذهنياً عدد من الأشخاص الأذكياء أكبر كثيراً جداً مما يمكن أن يعزي الى الصدفة وحدها. وحاول دحض النقد الذي يذهب الى أن ذلك قد يرجع الى مزايا اقتصادية واجتماعية وتربوية، بأن أوضح أن معامل الارتباط يكون أعلى في حالةما اذا كانت العلاقات الأسرية أقرب من الناحية الوراثية. وبذلك أدخل جالتون استخدام التوائم والأشكال الأخرى من القرابة في تقدير التأثيرات الوراثية.

لقد خلقت أعمال دارون عن التطور مناخاً مناسباً بشكل واضح لوجهة النظر الوراثية، كما كانت كتابات جالتون ذات تأثير بعيد في تطور وتقدم الدعوى القائلة بوراثة السلوك. ومع ذلك، فقد كانت هناك حاجة ملحة لظهور نظرية عن الميكانزمات الواقعية للوراثة. وقد ساهم جوهان جيرجور مندل J.G.Mendel في تقديم مثل هذه النظرية بأبحاثه على نبات البازلا، رغم أن العلماء لم يكتشفوا هذه النظرية الا بعد ٣٤ سنة من نشرها في عام ١٨٦٥. في هذه الفترة أيضاً قدم علماء آخرون اسهاماتهم الكبيرة، نذكر منهم على سبيل المثال البيولوجي الهولندي « هوجودي فريس » Hugo devries، وعالم النبات الألماني « كارل كورنس » Carl Correns، والنمساوي « إريك تشرماك » Erich Tschermak والذين قام كل منهم بتجارب منفصلة أدت الى الاعتراف بأن مندل قد توصل بالفعل إلى اكتشاف الأساس الشكلي للانتقال الوراثي. ولقد أوضح العديد من الباحثين بعد ذلك بقليل أن الحيوانات ـ كالنباتات ـ تخضع لقوانين مندل الوراثية. وقد ابتكر البيولوجي الإنجليزي « وليم باتسون » William Bateson مصطلح « علم الوراثة » Genetics للإشارة الى هذا المجال الجديد في علم البيولوجيا. وبعد نهاية هذا القرن بقليل، كان الكثير من الأفكار الوراثية الهامة، مثل الجينات والسيادة والتنحي والتهجين والنمط الوراثي والنمط الظاهري قد أصبحت كلها معروفة جيداً. وفي الحقب العديدة التالية حدث تقدم في المعرفة حول تشريح الجينات والكروموزومات وعملية الطفرة وتفاعل الأبنية الوراثية.

ولقد عنيت معظم المعارف السابقة عن ميكانزمات الوراثة بالوحدات الكلية

للتحليل (أي تلك التي تتصل بالأبنية الكبرى كالجينات). أما في السنوات الأخيرة، فقد امتد التقدم في فهم ميكانزمات الوراثة ليشمل المستوى الجزيئي، أعني ذلك الذي يختص بدراسة الجزيئات البيوكيميائية التي تتكون منها الجينات، والطريقة التي تؤثر بها في سيتوبلازم الخلية ونشاطه الأيضي. أما المواد البيوكيميائية التي استرعت انتباها كبيراً في السنوات الأخيرة والتي أصبحت معروفة حتى لرجل الشارع عن طريق وسائل الإعلام هي «الأحماض النووية». وقد أصبح أحد هذه الأحماض وهو المعروف بإسم حمض الريبونيوكليك Ribonucleic Acid (RNA) موضع اهتمام علماء النفس بسبب الافتراضات التي قيلت عن دوره في التوصيل الكيميائي للذاكرة. ومع ذلك فإن حمض الديوكسريبونيوكليك deoxyribonucleic acid (DNA) هو الذي يبدو أن له أهمية حاسمة بالنسبة للوراثة لأنه يحتوي على المعلومات الوراثية التي تُنقل الى الخلايا النامية للجنين، وهي توجه نمو الجنين الى طفل مكتمل النمو عن طريق عملها الكيميائي. وأياً كانت المظاهر الموروثة للبناء الفسيولوجي للفرد، فمن الواضح أنها تنقل بواسطة جزيء DNA الذي يمثل الجين جزءاً أو قسماً منه.

ويستقر جزيء DNA في نواة كل خلية ويقوم بدور القالب لبناء RNA الذي ينتقل من النواة إلى سيتوبلازم الخلية حيث يقوم بدور أساسي في تركيب البروتينات الخلوية. وهذه البروتينات - والتي يكون بعضها أنزيمات تعمل كعوامل وسيطة للأنشطة البيوكيميائية - تحدد وظائف الخلايا. وفي الحقيقة فإن DNA «يخبر» خلايا الجسم كيف تقوم بعمل البروتينات التي تشكل مادة الخلية، والتي تتحكم بدورها في كيفية عمل الخلية. فهي تحتوي على «القانون الوراثي» لتركيب البروتين، والذي تنقله الى كل خلية من خلايا الجسم بواسطة رسولها، ونعني به جزيء RNA.

وعلى ذلك، فإن الإجابة عن السؤال الخاص بكيفية تأثير الأحماض النووية على نمو الخلية، تظهر في عملية تركيب البروتين. والبروتينات مواد بيوكيميائية كبيرة تتكون من مواد أصغر تسمى «الأحماض الأمينية» Amino acid. وهناك عدة مئات من الأحماض الأمينية (تنتمي الى ٢٠ نمطاً مختلفاً) متصلة معاً في سلسلة. وهذه السلسلة تشكل تكوين البروتين. وتنتظم وحدات السلسلة في نظام معين، وهذا النظام أو النمط هو الذي يحدد البروتين الخاص. فمن الممكن إذن وجود العديد من التجمعات والتبديلات في جزيء البروتين، وهذه التجمعات هي التي تحدد كيف تنمو وتعمل الخلايا والأنسجة (العضلات والغدد والعظام والأعصاب). وكما سبق القول، فإن

DNA يؤثر في هذا النمو ويؤدي وظيفته عن طريق إعطاء التعليمات للخلايا بكيفية عمل البروتين، أعني كيفية تنظيم سلسلة الارتباطات بين الـ ٢٠ نمط من الأحماض الأمينية التي تشمل البروتينات الخلوية. وبهذه الطريقة، فإن DNA ينقل المعلومات الوراثية عن نوع المخلوق الذي سيتكوّن. وعن طريق RNA تصل هذه المعلومات الى كل خلية في جسم الكائن الحي العضوي النامي.

القابلية للتغير والقابلية للتوريث:

ولفهم دور الوراثة في إنتاج أية سمة؛ يلزم توضيح مفهومين أساسيين هما « القابلية للتغير » Variability و« القابليـة للتوريث » heritability. لقـد ساهم الغموض، وخاصة بالنسبة للمفهوم الأخير، في إحداث سوء فهم بدرجة كبيرة لدى كل من رجل الشارع والعالم على حد سواء، حول تطبيق الوراثة على المشكلات الاجتماعية وحول العلاقات بين الوراثة والبيئة في النمو الإنساني.

وقد كان منشأ الاهتمام بموضوع الوراثة هو وجود تنوع كبير في السمات الجسمية والنفسية داخل أي نوع من الأنواع، كالإنسان مثلاً. ولما كان هناك تشابه بين كثير من سمات الأبناء وسمات الآباء والأجداد، فمن المعقول افتراض أن مثل هذه السمات قد انتقلت من جيل لآخر. ويرجع أحد أسباب الاختلاف في السمات بين الناس الى أن الخصائص المتباينة التي توجد لدى الأفراد المختلفين تنقل الى ابنائهم، ولكنها لاتوجد لديهم جميعاً.

ومن الواضح أيضاً أن كل فرد منا يعيش حياة مختلفة، كما يتعرض لخبرات بيئية مختلفة. ويلعب هذا أيضاً دوراً هاماً في إحداث التنوع والاختلاف فيما بيننا. غير أن كل سمة هي نتيجة « تفاعل كلا العاملين » الوراثي والبيئي معاً. والمشكلة التي تثار إذن هي مقدار ما يعزى من الاختلاف في سمة معينة، ولتكن طول الجسم أو الذكاء، الى التأثيرات الوراثية، ومقدار ما يعزى من الاختلاف فيها الى تأثير البيئة.

إن مفهوم « القابلية للتوريث » هو تقدير كمى لمقدار هذا التباين الذي يمكن أن يعزى الى العوامل الوراثية. إنه مفهوم محدد وفني، يتطلب أولاً أن تقدر درجة التباين في سمة ما لدى جنس معين وفي سياق بيئي معين. « فالقابلية للتوريث » هي نسبة أو معدل، وهي بصورة فنية « مربع مقدار التباين الناتج عن العوامل الوراثية مقسوماً على

مربع مقدار التباين الكلي الملاحظ بالنسبة لهذه السمة. وبعبارة أخرى، إنها أساساً نسبة التباين الكلي للسمة الذي يمكن عزوه الى الوراثة.

ومن الممكن فهم مفهوم القابلية للتوريث بصورة أكثر وضوحاً اذا تصورنا بعض المواقف الافتراضية البعيدة الحدوث في عالم الواقع بالطبع. لنفرض على سبيل المثال أن لدينا مجموعة كبيرة من الأفراد متحدي الجينات، الأمر الذي يحدث على نطاق ضيق عندما يكون لدينا توائم متماثلة. ولنفرض أن هذه العينة ذات الخصائص الوراثية المتحدة قد وضعت في بيئات مختلفة تمام الاختلاف، بحيث يوضع كل فرد في وضع بيئي مختلف يعيش فيه. في هذه الحالة، فإن أي اختلافات نجدها في السمات الظاهرة لدى هؤلاء الأفراد يمكن أن تعزى إذن إلى العوامل البيئية. فالقابلية للتوريث يمكن أن تكون صفراً ـ أي أنه لا يوجد أي تباينات يمكن إرجاعها الى العوامل الوراثية إذ أنها متماثلة في كل حالة. ولنفرض من الناحية الأخرى أن لدينا مجموعة كبيرة أيضاً من الأفراد المتباينين في أساسهم الوراثي على نحو ما هو الحال بالنسبة للأفراد الذين لا تربطهم رابطة قرابة أو بقدر ما يتعلق الأمر بأي شخصين ليسا توأمين متماثلين. ولنضع الآن هذه المجموعة في بيئة متجانسة، مدركين، في هذا المثال الافتراضي، أن هذا مستحيل فنياً بالطبع طالما أن من المحتمل الا نجد في الحقيقة بيئتين متماثلتين تماماً. وفي هذه الحالة، فإن أية اختلافات يمكن ملاحظتها في السمات لا يمكن ردها الى الاختلاف في البيئة طالما أنه ليس ثمة اختلاف فيها، وتعتبر القابلية للوراثة في هذه الحالة واحد صحيح، ومن ثم يمكن تفسير كل هذه الاختلافات بإرجاعها إلى العوامل الوراثية. وبين هذين الطرفين المتباعدين تقع الغالبية العظمى من الحالات التي تختلف فيها القابلية للتوريث في درجة تباين السمة التي يمكن ان تفسرها، والتي تقع في مكان ما بين الصفر والواحد الصحيح.

وتتوقف إسهامات الوراثة والبيئة في تباين السمة على عدد من العوامل الخاصة، كالسمة التي نقوم بدراستها مثلاً، والسياق البيئي الخاص لهذه السمة، والجنس المتضمن، وسياق السمات الوراثية الأخرى. وكل عامل من هذه العوامل السابقة يحدد القابلية للتوريث. فمثلاً، اذا أخذنا بيئة متشابهة، فإن بعض السمات تكون أكثر تأثراً بالعوامل الوراثية من بعضها الآخر، ويكون دور الوراثة في السمات الجسمية الخالصة كالقوام، أكبر منه في السمات النفسية. وتتأثر بعض السمات بجين مفرد موروث بشكل مباشر من الآباء، على نحو ما هو الحال بالنسبة للشعر ولون العينين، على حين

أن بعضها الآخر كالطول يكون نتاج عدد كبير من العوامل التي تجتمع معاً لإحداثها. فليس هناك جين واحد مفرد يعد مسؤولاً عن شكل الأنف، إذ أن هذا الشكل يتأثر دون أدنى شك بالكثير من الجينات. ولهذا أهميته، لأن أي عامل وراثي معين قد يكون له نتائج وآثار مختلفة (وأحياناً متعارضة) تبعاً للمكونات الوراثية الأخرى التي يتفاعل معها. وكما سبق القول، فإن السياق البيئي الذي تقيّم فيه القابلية للتوريث يعتبر أمراً هاماً كذلك. فمثلاً، في ثقافة ما يتوفر فيها الغذاء المناسب لكل فرد، سوف تكون قابلية توريث الوزن مرتفعة لأن التباين الكلي سوف لا يتأثر كثيراً بالاختلافات في التغذية. ومن ناحية أخرى، يكون معدل القابلية للتوريث في البيئات التي تتباين فيها التغذية بشكل ملحوظ، منخفضة تبعاً لذلك، طالما أن الاختلاف في التغذية يرتبط ارتباطاً كبيراً باختلافات الوزن الموجودة في هذا المجتمع.

ومعنى هذا، أن القابلية للتوريث لا يمكن الحكم عليها مجردة وإنما داخل سياق معين فقط، أعني في بيئة معينة، وفي جنس معين، وبالنسبة لسمة معينة، وفي مصفوفة وراثية معينة. وسوف يتغير دليل القابلية للتوريث بتغير أي من هذه العوامل. وعلى ذلك فمن الخطأ أن نتحدث بوجه عام عن دور الوراثة في الذكاء، طالما أن مثل هذا الدور من الناحية الفنية سوف يتغير تغيراً كبيراً في أي مكان أو زمان يجري فيه هذا القياس، تبعاً لجميع هذه الاعتبارات السابقة. وهذه النقطة غالباً ما تنسى وتختلط لدى عامة الناس والعلماء على حد سواء، الذين كثيراً ما يستخدمون عن قصد شريف أحياناً - المبادىء الوراثية في تفسير المشكلات الاجتماعية، والذين يكشفون عن «عُقَدْ» انفعالية شديدة فيما يتصل بموضوع الوراثة والبيئة.

وثمة مثال طيب يبين خطورة التحدث عن محددات الوراثة بشكل مجرد، ذلك الجدال الذي أثاره آرثر جنسن Arthur Jensen (١٩٦٩) بين العلماء الاجتماعيين، إذ ذهب إلى أنه قد توجد أسس وراثية للفروق العقلية الملحوظة بين الزنوج والبيض. ولقد قدم جنسن أيضاً في مقالته ملخصاً شاملاً لقابلية الذكاء للتوريث. ومن المستحيل كلية حل هذا الجدال في صورة مجردة، دون تخصيص لمجموعة الناس موضوع البحث، والسمة المحددة التي ندرسها، ومعرفة السياق البيئي الذي تعمل فيه. وسوف نقول فيما بعد، الشيء الكثير عن مشكلة الفروق بين السلالات. ومن الممكن الرجوع إلى تقرير اشمل كتبه لازاروس Lazarus (١٩٦٩) عن «العُقَد» الانفعالية المرتبطة بهذه المشكلة. وعندما يصبح مفهوماً «القابلية للتوريث» و«القابلية للتغير» مفهومين

بوضوح، فسوف يتجنب القارىء الوقوع في نفس الأخطاء التي قد يقع فيها مَنْ لديه ومنْ ليست لديه بهما معرفة.

دراسة التأثيرات الوراثية ـ مناهجها ونتائجها وقضاياها:

ورغم أن من الأهمية بمكان أن نتحرز ضد المحاولة المهملة والمبالغة في التعميم لتحديد المكون الوراثي في السمات السيكولوجية، إلا أن هذا المكون يمكن دراسته، بل وتمت دراسته بشكل منظم وبطرق متعددة. ونادراً ما خضع المتغير الكمي للقابلية للتوريث إلى التقييم في مثل هذه الدراسات، وإنما قدمت بعض الاستبصارات حول دور الوراثة في كثير من السمات الإنسانية. وكان الذكاء هو أكثر هذه السمات السيكولوجية خضوعاً للدراسة، وربما كان السبب هو أهميته الكبيرة في التكيف البشري، كما أن من الممكن قياسه بدرجة معقولة من الثبات.

وأقدم الأعمال التي حاولت الكشف عن وجود خصائص معينة يكثر ظهورها في بعض الأسر ومن ثم فقد استـدل على أنها موروثة، تلك التي استخدمت طريقة تاريخ حياة الأسرة family biography ، أو شجرة العائلة. وتنتمي بحوث جالتون التي مسحت عدداً من الأسر المختلفة بهدف دراسة الأساس الوراثي للعبقرية إلى هذا النوع. وهناك بحوث أخرى سارت في هذا الاتجاه ولقيت اهتماماً ملحوظاً (مثل دجديل Dugdale ١٨٧٧، وجودارد Goddard (١٩١٢). غير أنه مشكلة أسلوب تاريخ حياة الأسرة تتلخص في عدم قدرته على فصل التأثيرات الوراثية عن البيئة. ويرجع السبب في فشل هذا الأسلوب إلى أن الآباء الذين كانوا غير مرغوب فيهم تكوينياً، غالباً ما ينشئون أبناءهم تحت ظروف غير مُرضية. وعلى ذلك، فحتى لو كان إرثهم التكويني فاسداً، فإن البيئة التي يتربى فيها الأبناء تكون غير ملائمة أيضاً إلى حد بعيد. ومن المستحيل حقاً تحديد الدور الذي يقوم به كل من الوراثة والبيئة عن طريق هذا الأسلوب ذاته.

ومع ذلك، يمكن استكمال تاريخ حياة الأسرة بنجاح بواسطة التحليلات والضوابط الإحصائية الأكثر تقدماً، على نحو ما حدث في البحث الممتاز عن العيوب البيوكيميائية المعروفة باسم حالة البول الفينيلكيتوني[1] Phenylketonuria (PKU) والذي يعرف أحياناً بأسم «مرض فولنج Folling's disease نسبة إلى مكتشف هذا المرض.

---

١ ـ أحد الأنماط الأكلينيكية للضعف العقلي (المترجم)

فقد أوضح فولنج ١٩٣٤ أن بعض حالات التأخر العقلي تكون مصحوبة بافراز غير عادي لكميات كبيرة من حمض الفينيليبريفي phenylpyruvic في البول. وقد أوضح جيرفس jervis (١٩٣٧) بعد ذلك أن هذا العيب موروث. وبدراسة أنماط الحياة الأسرية للضحايا، توصل جيرفس إلى نتيجة هي أن هذا المرض يخضع إلى النمط الكلاسيكي لمندل والخاص بالجينات المتنحية، وأن من المحتمل أن يرجع إلى زوج واحد من الجينات. وكنتيجة لهذا العمل الكشفي الدقيق الذي أوضح أن هذا المرض يخضع لنسب مندل، وكنتيجة أيضاً للتشخيص الدقيق والمباشر للمرض عن طريق تحليل البول، أمكن تجنب معظم نواحي النقص في طريقة تاريخ حياة الأسرة، في دراسة هذه الحالة، وعلى نحوٍ لم تكن عليه في أعمال دجديل وجودارد. وقد زالت كل الشكوك التي ارتبطت بالطبيعة الوراثية لحالة البول الفينيلكيتوني عندما أرجع الباحثون فيما بعد الضعف العقلي إلى ضعف قدرة الجسم على تحويل الفينيلالانين phenylalanine، وهو حمض أميني أساسي، إلى تيروسين tyrosine (جيرفس ١٩٤٧ و١٩٥٣). ولذا، فأنه يُنظر الآن إلى التخلف العقلي الناتج عن ذلك باعتباره نتيجة للآثار العصبية السامة للفينيلالانين المتراكم. وإذا تناول الطفل وجبته الغذائية خالية من هذه المادة في طفولته المبكرة، أمكن لهذا الأضطراب أن يتحسن بشكل محسوس.

لقد جذبت حالة البول الفينيلكيتوني انتباه الدوائر السيكولوجية بدرجة كبيرة على الرغم من أنها تفسر نسبة ضئيلة جداً من حالات التأخر العقلي، وذلك لأنها تكشف عن الطريقة التي يمكن أن تورث بواسطتها وبشكل مباشر بعض نواحي الضعف، ولذا فهي تعتبر أحياناً مثالاً أولياً للمحدد الوراثي ـ التكويني للوظيفة العقلية الناقصة. ويكون البرهان على هذا النحو التالي: حيث أن حالة البول الفينيلكيتوني، شأنها شأن بقية الصور الأخرى من الضعف العقلي، لم تكن معروفة يوماً ما، وكذلك أسبابها، فإنه من الممكن أن يتبين في المستقبل أن هذه الصور الأخرى من الضعف العقلي والتي لا تعرف أسبابها الآن هي في نهاية الأمر نتيجة عيوب موروثة. ومع ذلك، يمكن الرد على هذا البرهان. فمن الممكن القول مثلاً أن حالات التأخر العقلي الشديدة نادرة جداً، على حين أن معظم حالات التأخر هي من النوع الخفيف. وعلى ذلك، فحالات التأخر العقلي الشديدة يمكن أن تكون مجموعة بذاتها وأنها لا تمثل الحالات الخفيفة الأكثر شيوعاً. أضف إلى ذلك ـ على نحو ما لاحظ زيجلر Zigler (١٩٦٧)، أن معظم حالات التأخر العقلي يجب ألاّ ينظر إليها في ضوء وراثة جين واحد يحمل

القصور (كما في حالة البول الفينيلكيتوني)، ولكنه نتيجة تجمع جينات كثيرة. فالمستويات المختلفة من القدرة العقلية تتوزع اعتدالياً بين المجموع العام من الناس، بحيث يقع بعض الأفراد ـ لسوء الحظ ـ في الطرف الأدنى للتوزيع. ولقد جعل برهان زيجلر، من توزيع القدرة العقلية، شيئاً مماثلاً للعبة الحظ ـ كالبوكر مثلاً ـ التي يكون فيها وجود أربعة ورقات من نوع واحد أو «فلوش»[1] أمراً شاذاً إحصائياً، ومع ذلك فمثل هذه الأوراق قد تظهر من حين لآخر بصورة استثنائية، شأنها في ذلك شأن الأوراق الخاسرة أيضاً. وهناك حالات كثيرة تحدث يكون فيها المستوى العقلي ضعيفاً، ولكنها لا ترجع حقاً إلى وراثة اضطراب ما. إذن، فمن الواضح أن البول الفينيلكيتوني هي حالة «قصور» خاصة، بينما الذكاء المنخفض ـ رغم أنه شيء غير مرغوب ـ ليس من الضروري أن يكون كذلك على وجه الاطلاق.

وقد اتجه أيضاً الباحثون الذين يحاولون عزل الوراثة عن البيئة إلى دراسة التوائم، وبخاصة إلى الطريقة المثلى نظرياً، وهي طريقة «ضبط التوائم المتماثلة» co - twin control method لجالتون. وتتطلب هذه الطريقة دراسة التوائم المتماثلة التي تربت بعيدة عن بعضها وتحت ظروف بيئية مختلفة. ومن الناحية المثالية، فإن طريقة «ضبط التوائم المتماثلة»، إذا طبقت تطبيقاً سليمًا، تقوم بتثبيت العوامل الوراثية (حيث أن التوائم المتماثلة تكون وراثتها متماثلة)، وتسمح بعزل آثار الاختلاف الراجع إلى البيئة. وهناك صعوبة، بالطبع، وهي ندرة حالات التوائم المتماثلة التي تربت بعيدة عن بعضها البعض. وهناك صعوبة ثانية وهي أن من الصعب تحديد ما إذا كانت التوائم متماثلة حقيقة وبشكل أكثر مما يؤكد معظم الناس. وهناك صعوبة ثالثة وأكثر أهمية، وهي أن معظم هذه التوائم إنما تفصل في سن متأخرة جداً في الطفولة أو توضع في بيئات متماثلة تقريباً. أما عكس هذا الاتجاه، ونعني به تثبيت العوامل البيئية وتغيير الوراثة، فهو أمر يستحيل القيام به من الناحية العملية.

ولقد أمكن لبعض الباحثين، رغم ندرة الفرص نسبياً، القيام بدراسات على التوائم المتماثلة حيث درسوا الخصائص السلوكية كالذكاء، كما درسوا عوامل جسمية كالطول والوزن وحدوث بعض الأمراض ـ وذلك بعد فصل التوائم ووضعها في بيوت للرعاية تخضع لإشراف مكاتب الخدمة الاجتماعية. وقد اتجهت جميع هذه الدراسات

---

١ ـ أوراق من نقش واحد في يد لاعب البوكر (المترجم).

إلى اكتشاف أوجه الشبه الكبيرة بين التوائم المتماثلة التي فصلت عن بعض في نواحٍ كالإصابة بالمرض ونوعه، وحتى في نتائج اختبارات الذكاء. أما بالنسبة للأطفال الذي قيس ذكاؤهم قبل التبني ثم قيس بعد ذلك بفترة ما، فإن وظائفهم العقلية ظلت متماثلة بين التوائم رغم اختلاف البيئة. ومع ذلك فقد حدثت أيضاً تغيرات، وبخاصة عندما كانت الاختلافات البيئية كبيرة للغاية. وكانت هذه التغيرات أقل وضوحاً في الخصائص الجسمية، وأشد وضوحاً في الخصائص السلوكية على نحو ما يتضح في أداء اختبارات الذكاء.

وفي الحالات المتطرفة لاختلاف البيئات، فإن التوأم الذي حصل على الدرجة الأعلى هو في الأغلب الذي حصل على مزايا تربوية وثقافية ملحوظة نتيجة لوضعه في بيوت الرعاية. ولقد أشارت إحدى الدراسات إلى حالة إمرأة كانت نسبة ذكائها ١١٦، وتخرجت من الجامعة، على حين كانت نسبة ذكاء شقيقتها التوأم ٩٢ ولم يتعد تعليمها السنة الثانية الابتدائية. ونحن هنا إزاء حالة - رغم تماثل الوراثة فيها - إلاَّ أن التوأمين اختلفتا اختلافاً ملحوظاً في الذكاء، من المفروض أنه حدث نتيجة للظروف البيئية المتغيرة والمختلفة بشكل ملحوظ.

وثمة مثال آخر لاستخدام التوائم من أجل تقدير المكوّن الوراثي للسمات السيكولوجية، يتمثل في البحث الذي قام به ارفنج جوتسمان Irving Jottesman (١٩٦٦). فإذا أمكن أن نبينّ أن التوائم المتماثلة ذات الوراثة المتماثلة، أكثر تشابها في سمة ما من التوائم الأخوية التي ليست متماثلة في الوراثة، فإنه يمكن اعتبار ذلك دليلاً قوياً على إسهامات الوراثة في هذه السمة. لقد استخدم جوتسمان اختبارات الشخصية كاختبار كاليفورنيا النفسي California Psychological Inventory وغيره لمقارنة التوائم الذكرية والأنثوية المتماثلة أو الأحادية اللاقحة (بويضة واحدة)، بالتوائم الأخوية أو الإزدواجية اللاقحة (بويضتان). وكانت العينة تتألف من ٧٩ زوجاً من التوائم المتماثلة و٦٨ زوجاً من التوائم الأخوية. ويوضح الجدول رقم ٣ تباينات كلا النوعين من التوائم الذكور على مقاييس ثلاثة من اختبار كاليفورنيا النفسي CPI (كلما قلت التباينات، زاد تشابه أزواج التوائم) مصحوبة بأدلة القابلية للتوريث التي حسبها جوتسمان. فكلما ارتفع دليل القابلية للتوريث، زادت نسبة التباين الكلي الذي يعزي للوراثة. وواضح أن التشابه بين التوائم المتماثلة أكبر منه بين التوائم الأخوية.

جدول٣ـ بعض ما قدمه جوتسمان من بيانات عن تباينات اختبار الشخصية بالنسبة للتوائم المتماثلة والأخوية

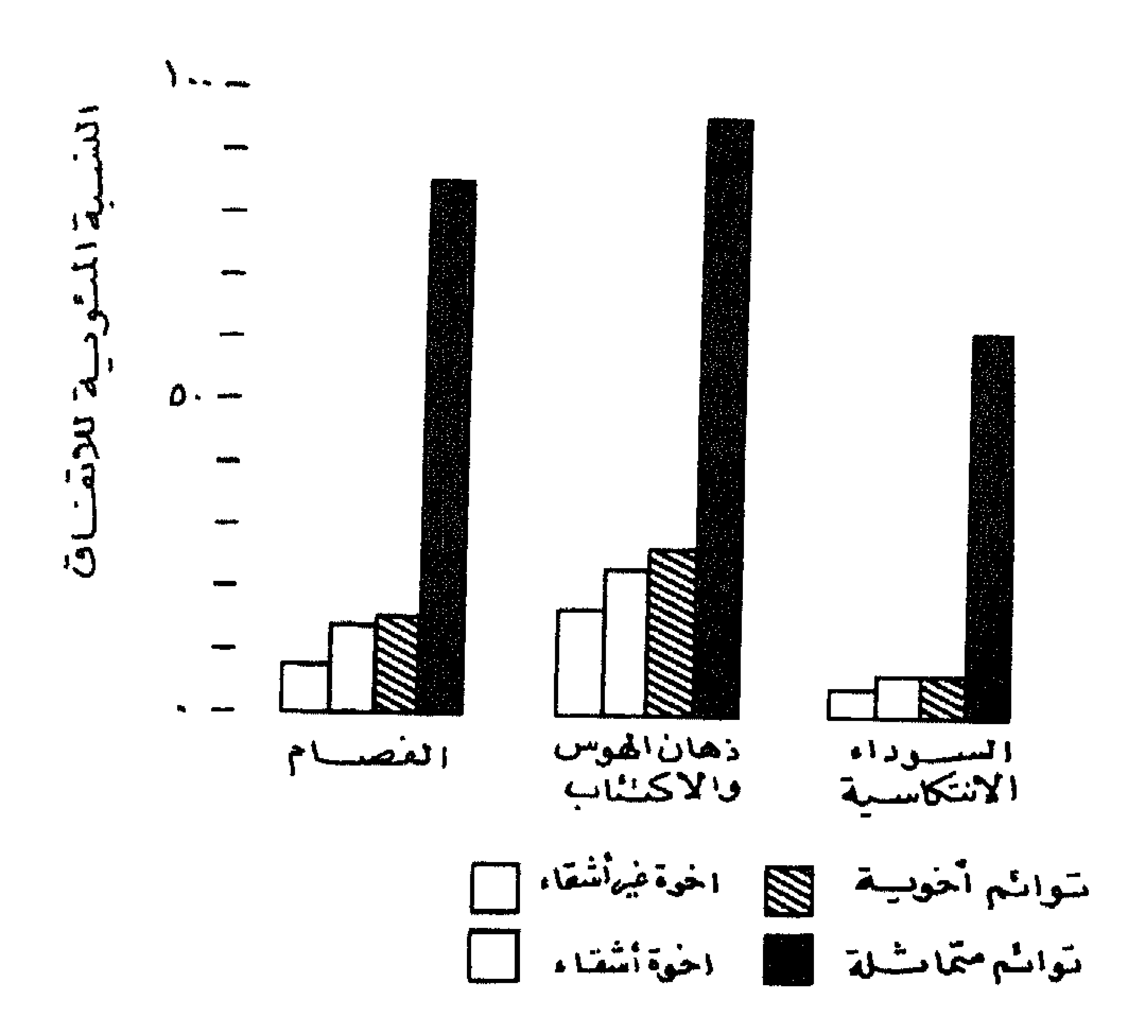
مقياس كاليفورنيا	المتماثلة	الأخوية	دليل القابلية للتوريث
السيطرة	٤١,٣٤٢	٨٠,٧٠٦	٠,٤٩
الاجتماعية	٤٦,٠٨٢	٩٠,٨٣٨	٠,٤٩
التحصيل عن طريق المطابقة	٧٦,٢٩٧	٦٦,٦٢٥	٠,٠٠
تقبل الذات	٥٣,٨٤٨	٩٩,٧٨٧	٠,٤٦

عن حونسمان (١٩٦٦ ص ٢٠٣)

وثمة تغيير واحد على أسلوب دراسة التوائم استخدمه فرانز كولمان Franz Kallman (١٩٥٣) بتوسع في بحثه عن مدى إسهام الوراثة في مرض الفصام وغيره من الأمراض الذهانية. ويسمى التغيير الذي استحدثه كولمان باسم «طريقة الاتفاق» method of concordance لأنه يقوم على أساس أن أحد الأخوة التوائم سوف تظهر لديه حالة معينة (وليكن فصاماً) إذ عرفنا أن التوأم الآخر مصاب بها. وبمقارنة أدلة «الاتفاق» بين التوائم المتماثلة، والتوائم الأخوية، والأخوة الأشقاء، والأخوة غير الأشقاء، يكون من الممكن أن نحدد، على وجه التقريب، مدى ما تسهم به الوراثة. وعلى الرغم من أن دليل الاتفاق ليس مقياساً دقيقاً، دقة أدلة القابلية للتوريث، إلا أن البراهين واحدة تماماً.

وقد سارت طريقة كولمان أساساً على النحو التالي: لقد بحث ملفات نزلاء المستشفيات المصابين بالفصام وذهان الهوس والاكتئاب، أو السوداء الانتكاسية لتحديد هؤلاء الذين لهم توأم متماثل، أو توأم أخوي، أو أخ شقيق، أو أخ غير شقيق، ثم شرع بعد ذلك في تحديد الحالة التوافقية لهذا التوأم أو الأخ. . . وكان دليل الاتفاق هو ببساطة النسبة المئوية لعدد مرات حدوث نفس هذا المرض المصاب به نزيل المستشفى لدى أخيه الثاني. وقد أوضح كولمان أن دليل الاتفاق بالنسبة للتوائم المتماثلة أعلى بشكل مثير منه لدى التوائم الأخوية، وهذا بدوره أعلى منه لدى الأخوة غير

الأشقاء والأفراد الذين لا تربط بينهم رابطة. والشكل رقم ١٢ يوضح أدلة الاتفاق التي حصل عليها كولمان لأنماط ثلاثة من الذهان، ولأنماط عدة من العلاقة الوراثية.



شكل ١٢ ـ أدلة الاتفاق لدى كولمان بالنسبة لمختلف الاضطرابات العقلية (عن كولمان ١٩٥٣ ص ١٢٤ شكل ٣٦).

ولم يذهب كولمان إلى أن الاضطرابات المختلفة التي درست موروثة بشكل مباشر، ولكنه ذهب إلى أن العوامل الوراثية تجعل لدى الفرد استعداداً للإصابة بها. وتوكيداً لموقفه، أشار كولمان إلى السبب في حالة مرض السل. فالشخص لا يمكن أن يصاب بالسل ما لم يصب بالبكتريا المحدثة للمرض. وعلى ذلك، فالمرض لا يورث بشكل مباشر، وإنما فقط الاستعداد أو ضعف المقاومة للمرض. ويمكن تقديم نفس الحجة بالنسبة للفصام وغيره من الأمراض الذهانية. فإذا كان لدى الشخص استعداد وراثي قوي للاستجابة لضغوط الحياة باستجابات الفصام، ثم تعرض للظروف البيئية المناسبة لذلك، فسوف يظهر لديه المرض. إن كولمان لم يوضح طبيعة هذا الاستعداد فسيولوجياً، وهو ما يجب أن يُعرف في نهاية الأمر من أجل وضع صورة منطقية كاملة عن الحالة، وإنما اعتقد أن بياناته تقدم دليلاً قوياً على أنه يجب أن نبحث عن المحددات الوراثية والفسيولوجية للذهان.

ويظل بحث كولمان مثار جدل إلى حد بعيد، كما أنه من الصعب في ضوء هذا البحث تقدير درجة المكوّن الوراثي للأمراض النفسية المختلفة، وذلك بسبب مشكلات منهجية. كما أنه كان موضع نقد شديد من جانب علماء النفس الذين يهتمون بمعرفة أسباب المرض العقلي. فقد اعترض البعض على أساس أن كولمان بالغ مبالغة شديدة في معدلات الاتفاق بالنسبة للتوائم المتماثلة ـ واحتمال حدوث ذلك احتمال كبير ـ على الرغم من أنه لا يمكن حالياً معرفة مدى تلك المبالغة. فكولمان هو الشخص الذي حصل على تقارير إصابة الشخص الأول بالمرض العقلي، وهو نفسه أيضاً الذي حدد ما إذا كان أخوه التوأم يظهر أعراض المرض. وهذا قد يثير مشكلة عويصة لأن الشخص الثاني لم يكن قد دخل المستشفى بالفعل، ومن الضروري إصدار حكم حول مدى أو طبيعة مرضه العقلي. ولما كان كولمان على معرفة بالتصنيف الوراثي الأصلي، وكان على درجة كبيرة من الاقتناع بدور الوراثة، فإنه يحتمل أن يكون قد بالغ عن غير قصد في حدوث الاتفاق. ثم أن لمنهج الاتفاق أيضاً بعض العيوب الأساسية. فمثلاً، يحتمل أن تكون البيئات التي يحيا فيها التوائم المتماثلة أكثر تشابهاً من تلك التي يحيا فيها التوائم الأخوية طالما أن الآباء شديدو الوعي بالتماثل، وطالما أن التوائم تميل أيضاً إلى إعتبار أنفسها متماثلة، ومن ثم يلبسون ملابس متشابهة ويستجيبون بنفس الطريقة. وعلى ذلك فالزيادة العالية في الاتفاق بالنسبة للتوائم المتماثلة يمكن أن تعزي، في جزء كبير منها، إلى هذه البيئة المتماثلة، مثلما تعزى إلى التماثل في الوراثة. أضف إلى ذلك، أن التوائم الذين درسهم كولمان قد عاشوا معاً معظم فترات حياتهم، ومن ثم فإن التأثيرات البيئية الحاسمة والتي يمكن أن تكون قد ساهمت في مرض أحدهما يحتمل أن تكون موجودة في حالة الآخر.

وقد قام نفر من الباحثين بإعادة بحث كولمان ووصلوا إلى نتائج متشابهة في أساسها (أنظر تومسون Thompson ، ١٩٦٥). ومع ذلك، فهذه الدراسات تعاني من صعوبات منهجية، وبالتالي فهي ليست أكثر تحديداً ودقة من دراسة كولمان. إن علماء النفس الذين يميلون إلى توكيد الاتجاه البيولوجي هم أقرب بكثير إلى تقبل هذه المعطيات الناقصة كتوكيد للمحدد الوراثي للأمراض العقلية الخطيرة، كالفصام، بينما يرفضها هؤلاء الذين يدينون بوجهة النظر السيكولوجية الاجتماعية. فموضوع دور الوراثة في المرض العقلي يبقى موضوع جدال.

وثمة منهج آخر لدراسة آثار الوراثة على السمات السلوكية وهو منهج تجريبي،

ويستخدم «التوليد الانتقائي» selective breeding بالنسبة للسمة موضوع البحث. ومن أمثلة ذلك، بحث عالم وراثة السلوك تيودوسيوس دوبزهانسكي Theodosius Dobzhansky (١٩٦٧) على ذبابة الندى، وهي نوع من ذباب الفاكهة. فلقد ربيت انتقائياً النزعات السلوكية لهذه الحشرات الخاصة بالارتفاع أو الهبوط عندما تطلق من أنبوبة، أو الانجذاب أو الابتعاد عند رؤ ية الضوء عبر أجيال كثيرة من أجل إنتاج أنواع مختلفة بشكل ظاهر من ذباب الندى. ويمكن أيضاً اعتبار البحث الذي قام به قبل ذلك روبرت تريون Robert Tryon (١٩٤٠) مثالاً آخر. فلقد ربىّ تريون أجيالاً من الفيران الذكية والغبية في اجتياز متاهة المختبر. ولقد بدأ بـ١٤٢ فأراً أبيض دون انتقاء لها، وقدّر استعداداتها لتعلم المتاهة، ثم ربىّ الفئران الذكية مع أخرى ذكية، وربى الفئران الغبية مع أخرى غبية. وقد تم ذلك حتى الجيل ٢١. وقد اتضح بعد الجيل الثامن فقط، أنه حتى أغبى الفئران الذكية اجتاز المتاهة بصورة أحسن من أذكى الفئران الغبية. ومثل هذه البيانات تشير بوضوح إلى مكون الوراثة في ذكاء الفئران. ومن المخاطرة بالطبع التعميم من الفأر أو ذبابة الندى على الإنسان، أو من عملية تعلم المتاهة إلى وظائف عقلية أخرى. ومع ذلك فمثل هذه النتائج تزودنا بأدلة إنطباعية عن المكوّن الوراثي في الذكاء التكيفي. ومن الضروري أن يتأثر الفرد بالاحتمالات المثيرة الكامنة في بحوث الوراثة حول السمات السلوكية المفيدة في عملية التكيف والتي تعد جزءًا من تباين الشخصية.

قضية السلالة:

لقد لوحظ خلال الحرب العالمية الأولى أن المجندين البيض حصلوا على درجات في اختبارات الوظائف العقلية أعلى مما حصل عليها السود. ومع ذلك، فقد كشفت الدراسات أيضاً أن السود الذين نشأوا في بعض الولايات الشمالية مثل بنسلفانيا وأوهايو ونيويورك وإيلينويز كانوا أعلى حتى من المجندين البيض الذين أتوا من الجنوب. وكانت الدراسة الأكثر حسمًا هي تلك التي قام بها عالم النفس الاجتماعي أوتو كلينبرج Otto Klineberg (١٩٣٥) الذي أوضح أن أطفال الجنوب من الزنوج قد تحسنت درجاتهم على اختبارات الذكاء بعد أن نزحوا الى مدينة نيويورك، وأن هذا التحسن مرتبط بطول المدة التي عاشوها هناك. وعلى ذلك، يمكن الا تعزى الفروق الى الهجرة الانتقائية، ولكنها تكشف بوضوح ما للبيئة من تأثير ملحوظ على درجات اختبار الذكاء. ولا يوجد اليوم إلا عدد قليل من الباحثين في هذا المجال الذين لا يدركون

صدق هذه النقطة.

ويشك غالبية علماء وراثة السلوك في وجود أية فروق هامة بين السلالات races في السمات التكيفية الواسعة كالذكاء. وأحد أسباب ذلك هو أن مفهوم السلالة نفسه مفهوم غامض وغير محدد. وكما أوضحت اليونسكو في عبارتها عن السلالة، لا يوجد دليل على وجود ما يسمى سلالات نقية. ويقول لرنر Lerner « إنه على أساس تكرارات الجينات المعروفة، وعلى افتراضات(١) أن اللياقة لا تتوقف على اللون(٢) وأن التزاوج العشوائي سوف يحدث بين الزنوج دون فيض جيني آخر من جماعة الأوروبيين، فإن من المتوقع ألّا نجد في جيل آخر أي زنجي لا يحمل بعض جينات البيض » (١٩٦٨ ص٢٣٤). ويضيف جوتسمان ـ وهو أحد علماء النفس الذين اتجهوا بشكل واضح نحو بحث العوامل الوراثية ـ تعليقاته على الفكرة الزائفة السالبة ذات الصدى الواسع التي قيلت عن صدق وفائدة مفهوم الأساس الوراثي للفروق السلالية بالنسبة للأداء الوظيفي التكيفي، كالكتابة مثلاً. يقول جوتسمان: « إن تقديري لما كتب عن الفروق السلالية قد انتهى بي إلى نتيجة هي أن الفروق التي نلاحظها بين متوسط نسب ذكاء الزنوج الأمريكيين وغيرهم من الأمريكيين يمكن أن تعزى كلها في الأغلب إلى الظروف البيئية السيئة التي تبدأ في فترة ما قبل الولادة وتستمر خلال حياة الفرد (١٩٦٨، ص٦٣). وليس معنى هذا كله أن ليس ثمة فروق في التكوين بين المجموعات البشرية تتحدد وراثياً؛ فمن الواضح أنه توجد فروق، وإلا أصبحت السلالة مفهوماً لا معنى له على الإطلاق، وهو ما ليس صحيحاً. وإنما يعني هذا أن مثل هذه الفروق نسبية (فليست هناك سلالات نقية) وأنها ليست ذات أهمية كبرى في الوظائف التكيفية لجماعات السلالة البشرية.

وفي معالجتة لهذا الموضوع، اقتبس ليرنر من الأنثروبولوجي المشهور س. ل. وشبورن S.L. Washburn في خطابه الافتتاحي أمام الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية والذي ذهب فيه بعيداً الى حد القول: « إنني أدهش أحياناً لسماع هذا القول وهو أنه إذا أعطى الزنوج فرصة متساوية، فإن مستوى ذكائهم سوف يتساوى مع ذكاء البيض. فإذا نظر الإنسان الى درجة التعصب الاجتماعي ضد الزنوج وافتقارهم الى التربية، وكذلك أدخل في أعتباره هذا القدر الهائل من التداخل بين نسب الذكاء الملاحظة لدى كل منهم، فإن من الممكن أن يصل الفرد الى نتيجة مقنعة وهي أنه اذا أعطى الزنوج فرصة مشابهة لتلك التي لدى البيض، فإن نسب ذكائهم سوف ترتفع قدماً الى الأمام.

وبالطبع اذا صدق ذلك فسوف لا يكون لهذا الأمر أية أهمية مطلقاً في مجتمع ديمقراطي، لأن الغالبية العظمى من الأفراد في كلتا المجموعتين سيكونون متشابهين في الذكاء، مهما كانت متوسطات اختبارات الذكاء» (١٩٦٨، ص٢٣٥ - ٢٣٦)

وهذه الفقرة الأخيرة من الاقتباس السابق توضح النقائص في صورة التفكير الذي استبعده علماء مرموقون في وراثة السلوك في السنوات الأخيرة، والذي أشير إليه بأنه «تفكير طوبولوجي». إن هناك اتجاهاً قوياً الى تصنيف أفراد الناس في قوائم وأنماط، وهي طريقة مفيدة لتبسيط الأشياء. ولكن التفكير الطوبولوجي في علم وراثة السلوك يمثل عادة مضللة جداً من عادات التفكير. إنها تقوى، مثلاً، صورة الجين المفرد، المسؤول مثلاً عن الذكاء أو أية سمة سيكولوجية أخرى معقدة تكون موضع الاهتمام. فإذا وجد الجين لدى الفرد، وجب إذن أن تكون لديه السمة. ومثل هذه الصورة تطابق قوانين مندل في الوراثة والتي تفيد جداً في تحليل سمات بسيطة معينة كتلك التي قام مندل بدراستها في نبات البازلا. كما أنها تنطبق أحياناً وبصورة جيدة على الاضطرابات النادرة مثل البول الفينيلكيتوني. أما بالنسبة للغالبية العظمى من السمات السيكولوجية لدى الإنسان، فإن مثل هذا التفكير لا يكون ملائماً، كما أنه لا يعطى صورة دقيقة عن العمليات الوراثية أو الطريقة التي يفكر بها علماء الوراثة في المشكلة. فمجموعات من الجينات تعتبر ضرورية لإنتاج آثار فسيولوجية وسلوكية خاصة، وكل سمة تكون عادة نتاج التفاعل بين عدد كبير من الجينات. وهذا ما يعرف بإسم المجموع العام أو التفكير الإحصائي في مقابل التفكير الطوبولوجي.

ويتحدث علماء الوراثة اليوم عن «مجموعة الجينات» gene pool للإشارة الى العدد الكلي الافتراضي للتأثيرات الوراثية التي قد توجد داخل النوع أو لدى مجموعة من الأفراد. وحتى عند حدوث توليد انتقائي، فإن من الواضح أن مجموعة الجين الأصلية لا تختفي. وعلى ذلك فمجموعة الجينات الخاصة «بالذكاء» و«الغباء» في الفيران التي قام تريـون باستنسالها عبر عدة أجيال، لم تختف خلال هذه الأجيال، بل ظلت كامنة في كلتا المجموعتين، حتى بعد أن تم استنسالها إلى نمطين سلوكيين متميزين. أما عندما يتوقف توليدهما انتقائياً فيما يتعلق بالذكاء أو الغباء، فإن التوزيع الأصلي للقدرة على تعلم المتاهة سرعان ما يرجع الى كل مجموعة. وكما أوضح دوبزهانسكي (١٩٦٧)، تعتبر هذه خاصية مفيدة جداً بالنسبة للكائنات العضوية،

طالما أنه حتى مع حدوث توليد انتقائي في الماضي، فإنه عند حدوث تغييرات جديدة في البيئة، فإن العملية يمكن أن تنعكس، أعني أن أساس الاختيار الطبيعي يمكن أن يتغير بسهولة دون أن يتعرض النوع للتأثر بشكل خطير، ويصبح غير قادر على أن يعتمد على كل ما في حوزته من الميكانزمات التكيفية. ومجموعة الجين تظل بطيئة في تغيرها في الاتجاه العكسي، كما أن المدة التي يستغرقها حدوث هذا التغير غير معروفة. . فالجسور لم تقطع بالتزاوج الإنتقائي، كما أن من الممكن الرجوع الى الأنماط المبكرة من السمات.

ويتضمن مثل هذا الموقف أنه ليس من المحتمل أن تنمو بسهولة السلالات أو الأنماط التي تختلف فيها مجموعات الجين بشكل واضح. كما يعني أيضاً أن الأنماط أو القوائم التي يصنف فيها الناس عن طريق السمات تكون أقل أهمية من الفروق الفردية التي لا يمكن تفسيرها بسهولة بالانتماء الى نمط ما. ويقرر دوبزهانسكي الموقف بصراحة ضد التفكير الطوبولوجي في قوله:

« إن الرجل العادي هو عالم طوبولوجي عفوي. فجميع الأشياء ذات الطبيعة الواحدة هي في نظره متشابهة، وجميع الناس لهم طبيعة بشرية، وهي حسب الحكمة المزعومة طبيعة لا تتغير. فجميع الزنوج متشابهون بسبب زنجيتهم، وكل اليهود متشابهون بسبب يهوديتهم. وأصحاب فكرة المجموع العام من الناس Populationists يؤكدون أنه ليست هناك طبيعة بشرية واحدة، بل طبائع متعددة بتعدد الأفراد. فالطبيعة البشرية تتغير بالفعل. والفروق بين السلالات مركبة من نفس مقومات الفروق التي بين الأفراد المكونين لسلالة ما. والواقع أن السلالات تختلف في التكرارات النسبية للجينات أكثر أحياناً مما تختلف فيما بينها نوعياً.

وقولنا إننا لا نعرف الى أي مدى تكون الفروق بين المجموعات في السمات السيكولوجية موروثة، ليس كقولنا إن المكوّن الوراثي غير موجود. فالكشف عنه أمر بالغ التحدي. فإذا كان الأفراد داخل المجموع العام من الناس يختلفون في بعض الخصائص، وليكن نوع الدم أو القامة أو الذكاء، فمن غير المحتمل أن تكون متوسطات المجموع العام واحدة تماماً. فالشيء المهم هو مقدار التباين داخل المجموعة الواحدة بالمقارنة مع مقدار التباين بين المجموعات المختلفة. فمن المحتمل أن تتغير صبغة الجلد من فرد الى فرد في جميع السلالات ولكن التباين بين السلالات أكبر بشكل واضح. ورغم عدم توافر البيانات الدقيقة، فمن المحتمل، على الأقل أن تكون العلاقة عكسية بالنسبة للسمات السيكولوجية. وبعبارات أبسط، إن أذكى الأفراد في كل طبقة أو طائفة أو سلالة هم بلا شك أذكى من المتوسط العادي في أية طبقة أو طائفة أو سلالة. والعكس بالعكس، إن أغبى الأفراد في أي من هذه المجموعات هم أغبى من متوسط أي مجموعة منها. وهناك أسباب بيولوجية صحيحة لتفسير ذلك. ويمكن القول باختصار شديد بأنه، في تطور السلالة البشرية، قام الإنتقاء الطبيعي دائماً وفي كل مكان تقريباً، بدوره في زيادة وتوكيد المرونة والتنوع في السلوك، وهما أمران أساسيان في جميع الثقافات البشرية، بدائية كانت أم متحضرة (١٩٦٧ ص ٤٧ - ٤٨).

التأثيرات البيئية:

لقد صممت كل بحوث محددات الذكاء التكيفي أو سمات الشخصية الأخرى بصورة عامة، لاستبعاد أثر العوامل الوراثية، واتجه معظمها نحو تأثير التغيرات البيئية. ويتطلب الأمر دراسة بعضها هنا من أجل إحداث التوازن بينها وبين مناقشة التأثيرات الوراثية. وطالما أنها توجه انتباهنا بعيداً عن التأثيرات البيولوجية، وناحية موضوع الفصل التالي، فإن من الأنسب أن نعالجها هنا بشيء كثير من الإيجاز. وسوف نقتصر على مناقشة مختصرة للدراسة الرائعة التي قام بها سكيلز Skeels (١٩٤٠ و١٩٤٢ و١٩٦٦) عن أثر البيئات الفقيرة في مقابل البيئات الغنية على النمو العقلي. وأحد الأسباب التي جعلت من دراسة سكيلز دراسة غير عادية هو أنها تتضمن تتبعاً لنفس الأطفال ولمدة ٢١ سنة، وذلك بعد الملاحظات الأولى التي أجريت عليهم.

لقد لاحظ سكيلز في البداية مجموعتين من الأطفال: ١٣ يمثلون المجموعة التجريبية و١٢ يمثلون المجموعة المقابلة أو الضابطة. وجميعهم كانوا متخلفين عقلياً ويعيشون في أحد الملاجىء. ولقد نقلت المجموعة التجريبية من الملجأ الى مؤسسة حيث تتوفر الحوافز والعلاقات الطيبة الحارة من الأمهات البديلات. أما المجموعة المقابلة فقد ظلت في تلك البيئة الفقيرة التي تفتقر الى الحوافز. ولقد لوحظ فيما بعد وجود فروق ملحوظة في المستوى العقلي والوظائف العقلية لدى المجموعتين، رغم أنهما بدآ تقريباً من نفس المستوى وإن كانت المجموعة التجريبية في الواقع أدنى بقليل. وبعد عامين كانت الزيادة في المجموعة التجريبية ٢٥,٨ نقطة في نسبة الذكاء، بينما فقدت المجموعة الضابطة ٢٦,٢ نقطة. وقد حدث بعد ذلك تبني لأحد عشر طفلاً من المجموعة الأولى، وقد واصل هؤلاء تحسنهم في المستوى العقلي. أما الطفلان الآخران غير المتبنيين فقد هبط مستواهما الى حد ما.

وبعد إحدى وعشرين سنة جمعت كل الحالات في مكان واحد وعقدت مقارنة بين المجموعتين. فلم تكن هناك حالة واحدة من بين الـ ١٣ طفلاً الذين وضعوا في بيئة أعلى، تحت رعاية أية مؤسسة عامة أو خاصة. وكان متوسط تعليمهم هو نهاية الصف الثاني عشر، كما واصل أربعة منهم تعليمهم الجامعي سنة أو أكثر، وحصل واحد من بين هؤلاء على درجة جامعية، وحصل واحد آخر على بعض الدراسات العليا. وكانوا جميعهم يعولون أنفسهم. أما المجموعة الأخرى المقابلة فقد مات أحدهم وهو في سن المراهقة في أحد المؤسسات الحكومية لضعاف العقول، وأربعة لا يزالون تحت رعاية

المؤسسات، وواحد دخل مستشفى الأمراض العقلية، والثلاثة الباقون كانوا في مؤسسات لضعاف العقول. أما متوسط تعليمهم فهو دون الصف الثالث. ومن هنا كشفت البيئات الغنية والمحرومة عن نفسها بشكل أساسي في المستوى العام للوظائف لدى المجموعتين.

نتيجة عامة تخص التأثيرات الوراثية:

ماذا يمكن استخلاصه من العرض السابق لبعض البحوث ومناهج البحث المتصلة بالعوامل الوراثية في نمو السمات السيكولوجية؟ إن النتيجة الأساسية هي، بمعنى، شيء تافه، وهي أن الخصائص السيكولوجية تتأثر « بكلا » العوامل الوراثية والبيئية. وهذه النتيجة تافهة لأنها الى حد بعيد، عامة جداً وبديهية.

وبالطبع، قد يكون هناك قليل من الشك حول وجود التأثيرات الوراثية. ولكن ما نفتقر إليه أساساً من المعرفة في الوقت الحاضر هو تفاصيل العلاقة، أعني هذه الحقائق اللازمة لتحديد، بطريقة فنية أكثر، قابلية سمة ما للتوريث تحت ظروف خاصة، وكذلك بعض المعلومات عن التراكيب الفسيولوجية التي تتوسط السمة المتأثرة وراثياً. فمثلاً، إذا افترضنا مع كولمان، أن الفصام له أساس وراثي، على الأقل في جزء منه، فلا زلنا نفتقر الى الفروق الفسيولوجية بين الفصامي وغير الفصامي من أجل تفسير القابلية للإصابة بالمرض. ونعترف، بعد هذا كله، أن ما يورث هو تركيب بِنْيَوي من نوع ما، هو بناء فسيولوجي يعمل بطرق معينة، وينتج عن التأثير الوراثي على تمايز الخلية. ويجب أن تكمن الاختلافات في هذا البناء، في جزء منها، وراء الكثير من الفروق السيكولوجية التي نلاحظها. أما كيف يمكن أن تؤدي الفروق التشريحية والفسيولوجية الى اختلافات في الشخصية فهذا ما يجب النظر فيه فيما يلي .

التأثيرات الفسيولوجية

إن الجدل العام الذي يذهب الى أن فسيولوجية الحيوان تسهم في سلوكه، إنما يجد تدعيمًا الى حد كبير اذا ما نظرنا الى الموضوع من منظور نشوء النوع، أي اذا ما قارنا التراكيب الفسيولوجية للحيوانات عند مستويات مختلفة من نشوء النوع، وملاحظة أن أنماط سلوكها المتميزة تتغير. فعندما تكون التراكيب العصبية مثلاً متشابهة نسبياً، على نحو ما هي عليه داخل المجموعة أو النوع، فإن سلوكها المتميز يكون متشابهاً أيضاً.

ومع ذلك، عندما يختلف التكوين العصبي بشكل ملحوظ، على نحو ما يحدث بخاصة عبر الأنواع، فإن فروقاً سلوكية ملحوظة تظهر كذلك. ولكن تقرير مثل هذه العلاقة ولا شيء عداها، يعد شيئاً عاماً وواضحاً للغاية. إن كل ما نتطلبه هو توضيح تفاصيل هذه التأثيرات وتدعيمها بالأسانيد. وإن مشكلة الربط بين التأثيرات الفسيولوجية والسيكولوجية تصبح أكثر صعوبة وتعقيداً ودقة داخل نوع ما، كالإنسان. ويرجع ذلك لسببين: الأول، أنه حين نعمل داخل جنس ما، فإن الاختلافات في التركيب الفسيولوجي لا تكون واضحة للغاية، رغم وجودها بالفعل. والثاني، أن الإنسان هو أعقد الحيوانات فسيولوجياً وسيكولوجياً، ويحكم سلوكه العديد من المتغيرات التي لا يمكن ملاحظتها أو فهمها بسهولة.

وموضوع الشخصية يميل الى الاهتمام بالإنسان أكثر من الحيوانات دون مستوى البشر، ولكن معظم الحقيقة عن العلاقة بين الفسيولوجيا وأنماط السلوك الثابتة (التي يستدل منها على الشخصية) تأتي من دراسات عن الحيوان. ويرجع هذا في ناحية منه الى التعقيد البالغ للإنسان، والصعوبة الكبرى في دراسته، كما يرجع في ناحية أخرى الى القيود التي تفرض على أنواع البحوث التي تجري على الإنسان. ومع ذلك، فهناك أيضاً فروق فردية ملحوظة بين الحيوانات دون مستوى البشر داخل نفس النوع، ومن المعقول جداً النظر الى مثل هذه الحيوانات بأعتبار أن لها شخصيات أيضاً، على الرغم من أن القفز الى الإنسان هو دائماً موضع شك. وهدفنا في هذا الفصل هو توضيح التأثيرات الفسيولوجية على السلوك التكيفي وتحليل الطرق التي يمكن أن تنطبق بها هذه العلاقات على الشخصية.

إن تأثير العوامل الفسيولوجية على السلوك يمكن دراسته بطريقتين، الأولى بالمناهج التجريبية التي تخلق حالات فسيولوجية مؤقتة ثم ملاحظة آثارها السلوكية. والأخرى بفحص الفروق التي تحدث بشكل ثابت وبطريقة طبيعية بين الحيوانات في التراكيب الغددية والعصبية أو غيرها من التراكيب العضوية على أساس احتمال ارتباطها بالتغيرات في السلوك. ويعد استخدام العقاقير التي تُحدث تأثيرات معينة على الجهاز العصبي، ومن ثم على السلوك، مثالاً للطريقة الأولى. فبينما يحاول عالم النفس من أصحاب الاتجاه الاجتماعي فهم الأداء وسوء الأداء السيكولوجي، في ضوء الاضطرابات في العلاقات الاجتماعية فإن عالم النفس الفسيولوجي يهتم بتفسير هذه الاضطرابات على مستوى البناء والوظيفة الفسيولوجيين.

والعوامل الفسيولوجية يمكنها أن تؤثر في السلوك إما بشكل مباشر أو غير مباشر. وفي « التأثير المباشر » يتغير السلوك العادي نتيجة حدوث تلف في الأنسجة أو بواسطة حالات بنائية أو وظيفية في الجهاز العصبي. فمثلاً إضطرابات الأيض (الهدم والبناء) التي تنتج عن الأداء غير المناسب لجهاز الغدد الصماء، قد تحدث آثاراً سلوكية مثل الإفراط في النشاط أو الكسل أو القلق. ثم إن التلف الذي يصيب المخ نتيجة إصابات عضوية أو أمراض كالزهري، يمكن أن تحدث قصوراً في السلوك التكيفي وتغيرات ملحوظة في علاقة الشخص بالآخرين. وليس ثمة شك أن هذه الاضطرابات هي بالتحديد نتيجة التلف الذي أصاب أنسجة المخ، على الرغم من أن الميكانزم الذي ينعكس به التلف في السلوك غير واضح تماماً ولا يمكن فهمه بصورة كاملة حتى تتضح العلاقة بين المخ والأداء الوظيفي السيكولوجي.

أما « التأثيرات غير المباشرة » فإنها تحدث عندما يكون للحالات الفسيولوجية نتائج اجتماعية تؤثر بدورها على سلوك الفرد. ويعتبر المعوقون جسمياً أمثلة واضحة للتأثير غير المباشر، لأن الإعاقة قد تحدث استجابات مضطربة أو سالبة في الآخرين، الأمر الذي يجعل المعوّق يحس بالنقص، ويحاول تعويض هذا النقص إما بالانسحاب من العلاقات الاجتماعية أو بالالتجاء الى إحدى الصور العديدة من التوافق. فالفتاة غير الجذابة من الناحية الجسمية قد تنمي شخصية تفتقر الى الثقة أو شخصية تعويضية تخضع بقوة لتأثير هذه الحقيقة الجسمية. وبالمثل فإن الطفل الذي وهب قوة جسمية ملحوظة وقامة فارغة، سوف يكتشف في لعبه مع الأطفال الآخرين أنه أقوى منهم، ومن ثم ينمي شخصية تختلف عن تلك التي لدى الصبي المريض الهزيل.

والنقطة السابقة توحي أن آثار العوامل الفسيولوجية على الشخصية تتوقف بالمثل أيضاً على العوامل الاجتماعية، وأن تفاعل كلا العاملين هو الذي يحدد النتاج النهائي الذي نسميه « شخصية ». ومع ذلك، فالبحث في المصادر الفسيولوجية والاجتماعية لنمو الشخصية قد وجه بالفعل اهتماماً قليلاً نسبياً الى هذه التفاعلات. فعالم النفس الفسيولوجي يميل ناحية الدراسة المنفصلة للمتغيرات الفسيولوجية، كما يميل عالم النفس ذو وجهة النظر الاجتماعية، على العكس من ذلك وبصورة أساسية، إلى تحليل التأثيرات الاجتماعية. ويحدث هذا الفصل، رغم أن أصحاب نظريات الشخصية من كلا الاتجاهين يفترض عادة أن مثل هذا التفاعل هو ما يحدث في حقيقة الأمر.

ومجال تقديم أمثلة عن التأثيرات الفسيولوجية على السلوك التكيفي مجال واسع، ويجب أن يكون الاختيار دقيقاً في مثل هذه المعالجة المختصرة. وسوف نقدم هنا مثالين. الأول يتصل بالعلاقة بين بنية الجسم والمزاج، والثاني يتصل بآثار الهرمونات على السلوك التكيفي. ورغم أن المثالين منتقيان، فإن نفس النقاط العامة يمكن أن تنطبق أساساً على العوامل الفسيولوجية الأخرى التي لم نذكرها لضيق المجال هنا.

بنية الجسم والمزاج:

إن النموذج القديم للفكرة الأساسية عن العلاقة بين الفسيولوجيا والشخصية يتمثل في النظرية الأغريقية القديمة لأبقراط Hippocrates والتي تذهب الى أن المزاج يتوقف على مقادير نسبية لأخلاط الجسم الأربعة الرئيسية وهي السوداء والصفراء والدم والبلغم. ويقابل كل منها على التوالي نمطاً من أنماط الشخصية الأربعة وهي السوداوي والصفراوي والدموي والبلغمي.

ويعتبر الممثل الحديث لهذه النظرية هو «علم النفس التكويني Constitutional Psychology» لوليم هـ. شلدون William H. Sheldon (١٩٤٠و١٩٤٢). وكان السلف المباشر لهذه النظرية هو العمل الذي قام به كرتشمر Kretschmer (١٩٢٥) الذي قسم الناس إلى أربعة أنماط جسمية:(١) النمط «الهزيل» asthenic الطويل الرفيع، (٢) النمط «الرياضي» asthletic العضلي القوي، (٣) النمط «البدين» pyknic الممتلىء، (٤) النمط «المختلط» dysplastic غير المتسق حيث نسب الجسم يمكن أن تكون هزيلة مع أجزاء بدينة أو رياضية معاً. ويؤكد كرتشمر أن المزاج، وحتى نمط الاضطراب العقلي الذي قد يصاب به الفرد، يتوقف على نمط الجسم الذي وهبه الفرد. وعلى ذلك، فالفصامي مثلاً هو أميل الى أن يكون هزيلاً في بنيته الجسمية، بينما حالات ذهان الهوس والاكتئاب فهي أميل الى البدانة.

أما شلدون، فهو بالإضافة الى تتبعه لهذا الاتجاه من البحث بصورة أبعد مما وجدنا عند كرتشمر، فقد أقام نظاماً من مقاييس التقدير لأنواع بنية الجسم وأبعاده، وكذلك لأنواع المزاج وأبعاده. وقد أقترح أيضاً نظرية عن العلاقة بين بنية الجسم (النمط الجسمي) والمزاج متأثرة بالمعلومات المعروفة عن نمو الجنين، والتي يفترض فيها

أن الأجزاء المختلفة لأنسجة الجسم ـ ولتكن مثلاً أعضاء الهضم (التركيب الداخلي) والعضلات والعظام (التركيب المتوسط) أو الجهاز العصبي (التركيب الخارجي) ـ قد تدعم كل منها بصورة مختلفة في نمو الفرد وبشكل يؤدي الى أنماط مختلفة من الاستجابة السيكولوجية.

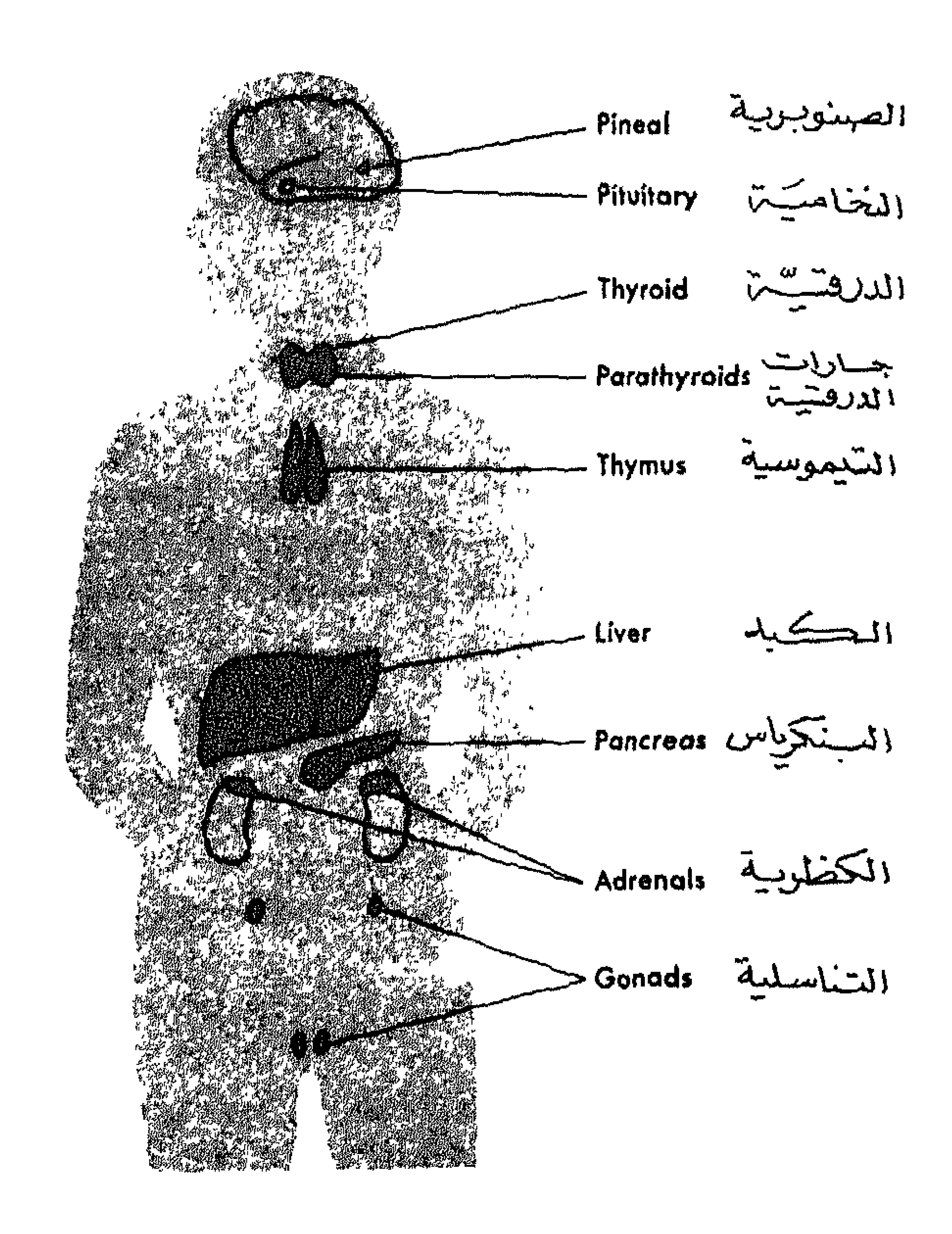
ولقد افترض شلدون وجود تأثير مباشر لأبعاد بنية الجسم على المزاج، رغم أنه اعترف أيضاً بأن الاتجاهات والنمطيات الثقافية تجاه أبنية الجسم، قد تؤثر أيضاً في الشخص النامي. فمثلاً هناك اعتقاد سائد يذهب الى أن الشخص البدين (صاحب البنية الجسمية البدنية) يكون مرحاً، بينما الشخص النحيل (صاحب البنية الجسمية الهزيلة) يكون قلقاً، جاداً وذكياً. وقد أعطى شكسبير أنطباعاً لهذه الفكرة في ملاحظة يوليوس قيصر «إن يوند كاسيون ينظر نظرة عقيمة جائعة، انه يفكر كثيراً جداً. إن أمثال هؤلاء الناس خطرون (يوليوس قيصر ١، ٢، ١٩٢)». وبمثل هذه النمطية الثقافية، فليس غريباً أن تنمو شخصية البدين مختلفة عن شخصية الهزيل، حيث أن لتوقعات الآخرين تأثيراً هاماً عن صورة المرء عن نفسه.

ولقد أورد شلدون دراسة مستفيضة تشير الى وجود علاقة متوسطة بين نمط الجسم والمزاج. ومع ذلك فثمة شك ملحوظ حول الميكانزمات التي تكمن وراء هذه العلاقة، طالما أن الحقيقة الترابطية لا يمكن أن تجيب عما اذا كان التأثير مباشراً أو غير مباشر، أو حتى هل هناك علاقة سبب ونتيجة متضمنة على وجه الإطلاق. وتعد الإضافات التي ظهرت لحل هذه المشكلة قليلة منذ الجهود الرائدة التي قام بها شلدون. كما أن الأفكار الأساسية التي تكمن وراءها لا تزال موضوع جدال كبير بين علما النفس المهتمين بالشخصية، ولا تزال المشكلة بعيدة عن الدخول في المجرى الرئيسي لسيكولوجية الشخصية.

الضبط البيوكيميائي للسلوك:

وليس ثمة صورة أوضح تعبيراً عن أثر الفسيولوجيا على السلوك التكيفي من تأثير الهرمونات. وكلنا نعرف بوجود « الغدد الصماء » endocrine glands وهي شبكة محطات الهرمون التي تفرز المواد البيوكيميائية ذات الفعالية الكبيرة في مجرى الدم مباشرة، ليحمل منه الى الأعضاء الداخلية في كل مكان من الجسم. ونحن نتحدث

عادة عن الغدد الصماء كجهاز، لأن الغدة الواحدة تؤثر في الأخرى بدلاً من أن تعمل منفردة. وداخل هذا الجهاز تبدو الغدة «النخامية» أكثرها أهمية؛ فهي تفرز الكثير من المواد الهرمونية التي تنظم الغدد الأخرى في الجهاز. وشكل ١٣ يوضح الغدد الصماء ومواضعها التقريبية في الجسم.



شكل ١٣ ـ الغدد الصماء ومواضعها التقريبية.

وتصبح فاعلية الهرمونات الصماء من أجل التأثير على السلوك والوظائف التكيفية أكثر وضوحاً عندما يكون هناك مرض أو نقص في إفرازات إحدى الغدد. وتتضمن الأمثلة البارزة تأثيرات هرمون « الدرقية » عندما يكون بالغ القلة أو بالغ الزيادة. فكثرة هذا الهرمون تؤدي - من الناحية السلوكية - الى أشياء كثيرة من بينها الإهتياج وقلة النوم، بينما يؤدي قلة إفرازها الى حدوث النوام والتعب. وهذه الآثار تكاد تكون معروفة للرجل العادي، لأن كثيراً من الناس يتعاطون حبوباً للتغلب على نقص الدرقية. وثمة مثال آخر بارز يشمل البنكرياس الذي تفرز أجزاء منه (مجموعة الخلايا الصغيرة) هرموناً قوياً يعرف « بالأنسولين ». والأنسولين ينظم مقدار السكر في مجرى الدم، ومفعوله هو سحب السكر من الدم واختزانه في الكبد. وهذا هام لأن عمل عضلات الجسم، وبالطبع خلايا المخ، يتوقف على أكسدة السكر. فإذا كان هناك مقدار قليل جداً من السكر، فإن التفكير والعمل التكيفيين لا يمكن أن يحدثا، وإذا كان هناك مقدار كبير جداً من السكر فإن الشخص يعاني من الإصابة بمرض السكر. وعلى ذلك، فكمية الأنسولين التي يفرزها البنكرياس يجب أن تكون كافية للاحتفاظ بمستوى السكر في الدم من أن يرتفع، وعلاوة على ذلك تزودنا بالقدر الكافي الذي يسمح للمخ والعضلات أن تؤدي وظائفها بنجاح.

وأحياناً يعاني فرد ما من اضطراب الأنسولين، وتكشف الأعراض عن الدور الحيوي الأساسي للهرمونات في الوظائف السيكولوجية. وأحد هذه الاضطرابات مثلاً هو وجود ورم في البنكرياس يفرز الأنسولين. وفي مثل هذه الظروف يستمر إفراز الأنسولين في مجرى الدم بصرف النظر عن مستوى السكر في الدم. وفي مثل هذه الحالة أيضاً يُحدث السحب الزائد للسكر من دم وخلايا المخ أعراضاً خطيرة كالضعف الجسمي، والخلط الذهني، والرؤية المزدوجة، وحتى حدوث النوبات أو التشنجات. والشخص الذي تنتابه هذه الاضطرابات بشكل مزمن قد لايدرك طبيعة المشكلة، ولكنه يشعر بعدم القدرة على التعامل بشكل مناسب مع المتطلبات العادية للحياة، وفي الحالات الشديدة، قد يكشف الفرد عن أعراض بارنوية، أو يعاني من حين لآخر نوبات تشبه النوبات الذهانية. وجميع هذه الآثار العقلية العميقة هي نتيجة الورم الذي يفرز الهرمون والذي قد لا يكون حجمه أكبر من حجم رأس عود ثقاب صغير.

وفي السنوات الأخيرة لقيت « الغدتان الكظريتان » أهتماماً كبيراً من علماء النفس وذلك لأهميتها العظمى في الضغوط والانفعالات. وهناك جزءان رئيسيان

للغدتين الكظريتين، وكلاهما يفرز هرمونات خاصة تختلف في وظائفها. ويفرز الجزء الخارجي من الغدة، وهو المعروف بالقشرة cortex مجموعة هورمونات يطلق عليها اسم « الكورتيكوستيرويد » corticosteroids. وهذه تنظم أنشطة الأيض مثل تحليل البروتين والدهنيات والكاربوهيدرات، وهي بهذه الطريقة تصبح في غاية الأهمية للإبقاء على الأنشطة التكيفية فترات طويلة من الزمن يتعرض خلالها الحيوان لظروف ضاغطة. ووظائف هرمونات القشرة الكظرية قد أكدها على وجه الخصوص العالم الفسيولوجي هانز سلييه Hans Selye (١٩٥٦) الذي كان لكتاباته وبحوثه عن الدفاعات الفسيولوجية للجسم والقائمة على الغدة الكظرية ضد الضغوط، تأثير بالغ الأهمية. ونتيجة لهذا العمل، درست استجابات الضغوط أحياناً عن طريق قياس إفراز هرمونات الغدة الكظرية في الدم أو البول.

أما الجزء الآخر الهام للغدة الكظرية فهو الجزء الداخلي المعروف بالنخاع medulla. وهنا تفرز على الأقل مادتان (وربما أكثر) من المواد الهرمونية « أدرينالين » adrenaline ونورأدرينالين » nor-adrenaline. وثمة حقيقة تشير الى أهمية « الأدرينالين » في الاستجابات الانفعالية كالخوف؛ أما « النورإدرينالين »، فإنه يمثل المكون الهرموني الرئيسي في استجابات مثل الغضب، رغم أن من المحتمل أن يكون هذا التعميم غاية في البساطة، وأن الدراسة الأمبريقية التي أجريت عليه ضعيفة نوعاً ما. وثمة حقيقتان متضمنتان هنا: الأولى هي ملاحظة أن نسبة إفراز الأدرينالين الى النورأدرينالين هي، فيما يبدو، لدى الحيوانات آكلة العشب أعلى منها لدى الحيوانات آكلة اللحوم. وقد يكون لهذا معنى اذا كان الغضب والهجوم مرتبطين أساساً بالنورأدرينالين، بينما يرتبط الخوف والانسحاب بالأدرينالين. وهذه الحقيقة توحي إذن أن التكوين الغدي يتسق مع التوافق المميز لحياة النوع.

أما الحقيقة الثانية فهي أن الأدرينالين والنورأدرينالين يحدثان تأثيرات مختلفة القدر - رغم تداخلهما - في الأعضاء الطرفية عندما يحقن بها الشخص. وهناك أيضاً ملاحظات عامة تبدو متسقة مع فكرة أن الارتباطات البيوكيميائية للغضب والخوف مختلفة. فمثلاً يقال إن الغضب يحدث إحمراراً في الوجه أو تورده على نحو ما نستخدم التعبير الشائع: غضب « يحمر الوجه ». ومن الناحية الأخرى يبدو أن الخوف يكون مصحوباً ببياض أو إصفرار الوجه وجفاف في الأغشية المخاطية. فمن منا لم يجد فمه جافاً للغاية بحيث يتعذر عليه الكلام عند مواجهة جمهور مستمع لأول مرة؟ وقد أيدت

بعض الدراسات الكلاسيكية التي قام بها ولف Wolff (١٩٥٠) هذه الانطباعات العامة السابقة. وقد لوحظ أحد المرضى الذين أصيبوا باضطراب كان يتطلب أن تظل معدته مفتوحة بعض الوقت. وتم تركيب نافذة في الفتحة بحيث يمكن ملاحظة النشاط الهضمي عنده. ففي حالة ظهور الغضب على المريض، كانت بطانة المعدة تحتقن بالدم وتبدو حمراء كما تصبح رطبة، على حين عندما كان يظهر عليه الخوف كانت البطانة تصفر وتجف. ومن المحتمل جداً أن تكون مثل هذه الآثار هي نتيجة نشاط كل من الجهاز العصبي المستقل والغدد الصماء وبخاصة نخاع الكظر.

ولندرس مثالاً توضيحاً آخر عن دور المواد البيوكيميائية في السلوك التكيفي قبل أن نحاول دراسة الطريقة التي تتشكل بها الشخصية بواسطة الفسيولوجيا. ويختص هذا المثال التوضيحي بالتأثيرات الهرمونية على الميول «العدوانية». إن أنواع الحيوان تختلف أختلافاً كبيراً فيما بينها في العدوان. فمثلاً الفأر النرويجي المتوحش يجب أن يعامل بحذر شديد حتى نتجنب هجماته العنيفة. ومع ذلك، فبعد سنوات من تربية هذا الحيوان لأهداف التجريب، أمكن للباحثين أن يجعلوا منه حيواناً أليفاً للغاية يمكن التعامل معه برقة أو بغلظة دون خشية هجماته. والغدتان الكظريتان لدى الفأر النرويجي المتوحش أكبر بكثير من الغدتين الكظريتين لدى أمثاله من الفيران المستأنسة.

وكان المفروض لوقت طويل أن العدوان يرتبط أيضاً بهرمونات الجنس، حيث أن الحيوانات الذكور أكثر عدوانية بشكل ظاهر جداً من الإناث. وقد صدر أحد الأدلة البارزة عن هذه الناحية، في تلك الدراسة التي قام بها كلارك وبيرش Clark and Birch (١٩٤٥، ١٩٤٦) اللذان قاما بتجاربهما على الشمبانزي. إن معظم أنواع الحيوان، بما فيها الشمبانزي، يؤكد وجود سلسلة من السيطرة الاجتماعية (والتي يشار إليها أحياناً بإسم «مراتب السيطرة الغذائية»). فبعض الحيوانات يسلك باستمرار بطريقة توحي بالسيطرة على جميع الباقين، وبعضها يسيطر على البعض ويخضع للبعض الآخر، على حين يظل البعض في أدنى مستويات مقياس السيطرة. وتعني السيطرة عادة التحكم الملحوظ في زاد الطعام، فالحيوان المسيطر يشبع عادة حاجته الى الطعام أولاً. وقد لاحظ كلارك وبرش أنه عندما يسمح لأثنين من الشمبانزي بالصراع حول حبة فول سوداني تقدم لهما عدة مرات في كوب يوضع بينهما، فإن أحدهما يحاول في النهاية أن يثبت أنه الحيوان المسيطر ـ إذ يحاول دائماً أخذ حبة الفول أولاً في كل مرة، إلى أن يشبع حاجته الى الطعام. ومع ذلك عندما حقن الباحثان الحيوان الخانع بجرعة من الهرمون الجنسي

الذكري، تغيرت صورة السيطرة التي ظهرت لديه مسبقاً وأصبح أميل الى أن يكون هو الحيوان المسيطر على زميله.

وهذا مثال واضح جداً وهام لتأثير الهرمون الجنسي الذكري على السلوك التكيفي. ومع ذلك، لما كان سلوك الإنسان يبدو أنه محكوم بواسطة هذه الهرمونات بدرجة أقل مما نجده عند الحيوانات دون البشرية، فليس من الواضح تماماً الى أي مدى يمكن تطبيق نتائج كلارك وبيرش على السياق الإنساني، على الرغم من أن من المحتمل أن تعمل مثل هذه الميكانزمات في إيجاد الفروق الفردية بين الناس في ناحية العدوان.

كيف تحدث الهرمونات وغيرها من العوامل الفسيولوجية أثرها في الشخصية:

قدمنا، فيما سبق، أمثلة إيضاحية عن التحكم البيوكيميائي في السلوك التكيفي، وقد أوضحت أن الهرمونات التي تنتشر مباشرة تؤثر سريعاً في أفعال واستجابات الحيوان وبخاصة أنواع الحيوان دون البشر. ومع ذلك، فلنتذكر أن موضوع الشخصية يتوقف على أمرين: الأول وجود أنماط من الأداء الوظيفي السيكولوجي تكون أكثر أو أقل ثباتاً ودواماً. والثاني وجود فروق فردية واضحة في هذه الأنماط. وعلى ذلك، فمن أجل الانتقال من الأمثلة السابقة عن كيف تؤثر الهرمونات على السلوك، إلى الطريقة التي قد تحدث بها أثرها في الشخصية، فإننا نحتاج إلى القيام بثلاث قفزات استدلالية منطقية.

الأولى هي افتراض أن الفروق الفردية الثابتة في بعض السمات السلوكية يمكن أن تكون نتيجة مقادير مختلفة من الهرمون الذي يجري خلال الجهاز. فمثلاً يمكن أن نتوقع أن تكون الدرجات المختلفة من العدوان لدى الناس مصحوبة بإفراز مقادير مختلفة من الهرمون الجنسي الذكري مثلاً. وهذا بالطبع لا يتضمن بالضرورة وجود علاقة واحد لواحد أو علاقة مانعة exclusive . فمن المحتمل أن تقوم خبرة الفرد الاجتماعية بدور هام أيضاً في زيادة أو تلطيف العدوان المشكّل بيولوجياً. فنمط السلوك الناتج هو بلا شك ثمرة التفاعل لكلا العوامل الهرمونية والاجتماعية، ومن غير المحتمل أن تكون أية شخصية أو صفة مزاجية معقدة هي نتيجة التأثير الفسيولوجي وحده فقط. وعلى ذلك فهرمون الجنس الذكري قد يزودنا ببعض القوة الدافعة للعدوان. ومع ذلك، فمن المحتمل وجود عديد من العناصر الأخرى البيوكيميائية والعصبية التي تعمل معاً بهندسة معقدة وغير معروفة من أجل تحديد النتاج السلوكي،

هذا إذا صرفنا النظر عن الحديث عن الدور، الذي لا ريب فيه، الذي تلعبه الخبرة الاجتماعية أو الموقف المباشر .

وتأثير الهرمونات على الشخصية ليس فكرة جديدة. فمنذ حوالي ٣٠ أو ٤٠ سنة، عندما بدأت البحوث والممارسة الطبية تدرك أولاً الأثر القوي للهرمونات على السلوك، بدأت الافتراضات البسيطة الواضحة عن الفروق الفردية في الشخصية والتكوين الغدِّي تنتشر وتصل إلى عامة الناس. فلقد افترض مثلاً أن ما نعرفه عن نقص الدرقية وعلاجه يمكن أن ينسحب أيضاً على الفرد الذي يعمل في الحدود الطبيعية، مثلاً من أجل زيادة نشاطه أو لمساعدته على الإسترخاء. وبمرور الوقت أُكتشف أن العلاج الناجح لحالات نقص الغدد الصماء قد لا يفيد مع الحالات العادية. يضاف إلى ذلك أن الغدد الصماء تؤدي وظائفها كجزء من جهاز منظم، ومن ثم فإن الحقن بهرمون ما، تكون له عادة مضاعفات، كثيراً ما تكون خطيرة على الجهاز بأكمله. ومع اكتشاف تعقد المشكلة، فتر الحماس المبدئي للهرمونات. واليوم، ورغم أن التضمنات الممكنة لتحكم الهرمونات في الشخصية لا تزال بنفس القوة، إلا أننا ندرك مدى بعدنا عن درجة فهم المشكلة التي تعتبر ضرورية من أجل التحكم العملي في السلوك التكيفي.

والقفزة الإستدلالية الثانية هي إلى حد ما أكثر تعقيداً، وحتى أكثر لفتاً للنظر، من الأولى. ذلك أن للهرمونات تأثيراً ملحوظاً على نمو الشخصي إبتداء من بداية الحمل وما بعده، ومن ثم يمكن أن تؤثر في الشخصية عن طريق التأثير في شكل البناء والوظيفة الفسيولوجية التي تتكوّن في وقت مبكر من الحياة. وعلاوة على ذلك فإن الهرمونات ذاتها التي تحدد كيف ينمو البناء الفسيولوجي تتأثر بدورها بالخبرات المبكرة للحياة (في الطفولة المبكرة وربما حتى داخل الرحم). وباختصار، فإن الفروق الفردية في النشاط الهرموني (والتي تحدث نتيجة التأثيرات الوراثية والخبرات المبكرة في الحياة) يمكن أن تخلق تراكيب فسيولوجية متغيرة تماماً من شخص لآخر أو من حيوان لآخر، ومن ثم تؤدي إلى ظهور أنماط مختلفة من السلوك طوال بقية الحياة.

ويصدر الدليل المرتبط بالمبدأ السابق عن أعمال سيمور ليفين Seymour Levine (١٩٦٦) وأيضاً ليفين ومولنز Mullins ، (١٩٦٦) والتي درست فيها آثار الهرمونات الجنسية الذكرية والأنثوية في فترات حرجة من نمو الفأر. وقد تبين أن ثمة فروقاً واضحة

بين مخ الذكر ومخ الأنثى وهي التي تحدد النشاط الجنسي. ويذهب ليفين إلى أن المخ في الثدييات يكون في أساسه أنثوياً عند الولادة، إلى أن يصل إلى مرحلة معينة من النمو عندها يخضع المخ الذكري للتغيرات المرتبطة بالجنس. وتحدث هذه المرحلة في الفيران بعد وقت قصير من الولادة. فإذا لم يوجد التستوسترون testosterone في هذه المرحلة المبكرة، فسوف يظل المخ أنثوياً، أما إذا وجد فسوف ينمي المخ الخصائص الذكرية. وتعجز الإناث اللائي يُحْقَن بالتستوسترون في مرحلة مبكرة من عمرها عن تنمية السلوك الجنسي الأنثوي العادي في الرشد. كما تعجز أيضاً عن إكتساب الأنماط الفسيولوجية الأنثوية العادية ـ حيث تضمر مبايضها وتختفي دورتها الشهرية. وبالمثل فإن الذكور الذين تجري لهم عملية إخصاء في الأيام القليلة الأولى بعد الولادة، ومن ثم يحرمون من التستوسترون في هذه الفترة الحساسة يكشفون عن علامات فسيولوجية أنثوية، وعن سلوك تقبلي أنثوي في الرشد. وقد وردت مثل هذه النتائج بالنسبة للخنزير الغيني. أضف إلى ذلك أنه إذا أعطي الفأر الوليد هرمون الغدة الورقية، فإن وظيفة غدته الدرقية، سوف تتعطل بصفة دائمة بقية حياته. وقد أوحى هذا لليفين أن هناك جزءًا من المخ يمكن تسميته بأسم ترموستات أو منظم الدرقية، وأنه قد نظم باستمرار في الواقع على مستوى منخفض جداً نتيجة إعطاء هرمون الدرقية. وعلى ذلك، فثمة بينة تدعم القفزة الاستدلالية الثانية، وهي أن مستوى الهرمونات في الحياة المبكرة يحدث تغيرات في الجهاز العصبي المركزي، بحيث أن النشاط التنظيمي لدورة الهرمونات في الحياة بعد ذلك، يتغير هو الآخر بصفة دائمة. ورغم أن طبيعة هذه التغيرات في المخ غير معروفة، فإن ليفين يذهب إلى أنها لا بد أن تحدث إذا أردنا أن نفهم استمرار تأثير الهرمونات على حياة الحيوان كنتيجة للمعالجات التجريبية في الطفولة.

وهناك طريقتان في الطبيعة يمكن بهما إحداث مثل هذه التأثيرات الهرمونية على البناء الفسيولوجي النامي. الأولى: هناك إحتمال أن التأثيرات الوراثية سوف تخلق مستويات متنوعة من الإنتاج الغدّي لهرمون معين. وفي هذه الحالة، فإن بعض الحيوانات سوف يُعطي منذ البداية قدراً من الهرمون أكبر من بعضها الآخر. أما الاحتمال الثاني فهو أن الخبرات التي تعرضت لها الحيوانات سوف تنتج مقادير مختلفة من هرمون معين في فترات مبكرة حاسمة في الحياة، ومن المعروف أن معالجة الناس للحيوانات، والتفاعلات مع الحيوانات الأخرى، والمواقف الضاغطة للمخ تؤثر جميعها في مستويات دورة الهرمونات كالهيدروكورتيزون والأدرينالين والتستوستيرون.

فمثلاً، عندما يصبح نظام بيئي لحيوان ما كثير الازدحام جداً بالنسبة لمصادر معينة من الطعام في البيئة، يظهر صراع البقاء الذي يولد ضغوطاً شديدة. وفي مثل هذه الظروف الضاغطة، تفرز الغدتان الكظريتان قدراً من الهيدروكورتيزون أكبر كثيراً مما تفرزه عادة. وكنتيجة لذلك تصبح الحيوانات أقل مقاومة للمرض، وأقل قدرة على الجماع والتوالد. وقد اقترح كرستيان وديفز Christian and Davis (١٩٦٤) هذا كأحد الميكانزمات البيولوجية التي بواسطتها تظل مستويات المجموع العام من الحيوان ثابتة نسبياً. فعندما يزداد المجموع العام زيادة كبيرة جداً فإن البقاء وعملية التوليد يصيبهما الضرر، ومن ثم يقل حجم هذا المجموع العام. وعندما يصل إلى مستوى أدنى من نقطة معينة يبدأ البقاء والتوليد في التحسن مما يؤدي بالتالي إلى زيادة في حجم المجموع العام. ومع المدى الطويل يتذبذب المستوى الكلي للمجموع العام، حول بعض المستويات الثابتة العادية (سوى في حالة الإنسان الحديث الذي يبدو أنه حالة خاصة). وعلى أية حال، فإن خبرات الحياة السابقة تؤثر في مستويات الهرمون الذي يؤثر بدوره بصفة دائمة على الجهاز العصبي الذي يتوقف عليه التنظيم الأخير للسلوك التكيفي بواسطة الهرمونات الدائرة والقوى البيئية.

ولقد احتفظنا بأكبر قدر من القفزة الاستدلالية لهذه الناحية الأخيرة، أعني للروابط الممكنة بين المبادىء المستمدة من أشكال الحيوانات دون البشرية، حتى ولو كانت كالفيران، وتلك التي تناسب الإنسان. فهل لبحث ليفين أية صلة بعلاقة الفسيولوجيا بالشخصية عند الإنسان؟ فإن قلنا أن ثمة علاقة فهذا يتطلب أننا نغفل مؤقتاً الفروق بين التراكيب الفسيولوجية (كالمخ مثلاً) للإنسان والحيوانات دون البشرية، على الرغم من أنه في إنتقالنا من التركيب الكبير لأنظمة الأنسجة إلى التركيب الدقيق للخلايا والتراكيب الخلوية الفرعية، فإن الفروق في التركيب والوظيفة تصبح أقل تأثيراً. وعلى ذلك فجين الإنسان سوف يعمل بيوكيميائياً وبصورة أساسية بنفس الطريقة التي يعمل بها جين الحيوان القارض. فنفس الهرمونات توجد في الفيران والإنسان. ومع ذلك فسلوك الإنسان أكثر تعقيداً بصورة لا نهائية من سلوك الأشكال الأدنى من الحيوان، تماماً مثلما تكون الفسيولوجيا الكلية للإنسان أكثر تعقيداً كذلك. كما أن سلوك الإنسان هو أيضاً أكثر مرونة وأكثر حساسية للقوة البيئية والتعلم من سلوك الحيوانات الدنيا.

وعلى ذلك، فمن غير المعقول، وليس له ما يبرره أيضاً، القول بأن نتائج ليفين

وغيرها من النتائج المماثلة، تقبل التطبيق على الإنسان بشكل محدد ومباشر، على الرغم من احتمال وجود علاقة عامة. ولعل أحد الأشيا ء التي تجعل لمثل هذا العمل على الحيوانات الدنيا جاذبية، هو احتمال أن يكون للمبادىء المستخلصة منه بعض الصلة بالانسان. فالقليلون منا من يوجد لديهم حقيقة اهتمام كبير بالفيران من حيث هي كذلك، ولكن يوجد لدينا قدر كبير من الاهتمام بهذه الأشياء التي تشاركنا فيها نحن كبشر. ومع ذلك فإن القفزة الاستدلالية يجب أن تكون منظمة إلى حد بعيد، كما يجب أن نكون دائمًا على حذر من التعميم الزائد في حالة غياب المعطيات التي يمكن مقارنتها في كل نوع.

وعلى الرغم من أنه ليس للباحث في الشخصية من أصحاب الاتجاه الاجتماعي إلا إهتمام مباشر بسيط نحو تدعيم القفزات الاستدلالية السابق الإشارة إليها بالأسانيد، إلا أنه يجب عليه أن ينظر نظرة جادة للبحث عن القواعد المتعلقة بكيفية تأثير البناء الفسيولوجي على السلوك التكيفي والشخصية. ورغم إحتمال أن يكون انتباهه متجهاً مباشرة إلى موضع آخر، فإنه يعرف جيداً أن الإنسان مخلوق حيّ كبقية الحيوانات الأخرى، ومن حيث هو كذلك، فإن فهم هذا الإنسان سوف يتطلب قوانين بيولوجية واجتماعية على حد سواء. وسوف ندرس في الفصل السادس التالي المحددات الاجتماعية للشخصية.

الفصل السادس

محددات الشخصية
العوامل الاجتماعية

هناك قضيتان يمكن اعتبارهما موضوعين أساسين لهذا الفصل:

(١) إن كل موقف سلوكي هو بالنسبة للإنسان موقف اجتماعي في حقيقته، سواء كان هذا الإنسان فرداً أو مع جماعة من الناس. فعندما يتواجد الإنسان مع شخص آخر، فإن وجود هذا الآخر يكون له تأثير قوي على كيفية سلوكه واستجابته؛ ولكن حتى عندما يتواجد الإنسان بمفرده، فإن استجابات الأخرين لما يقوم به من سلوك أو يفكر فيه، يمكن تصورها أو تذكرها، ويكون لهذا أيضاً تأثير ملحوظ عليه.

(٢) إن كل شخص يمر، خلال مراحل نموه ومنذ اللحظات الأولى للحياة بعد الولادة، بعدد من الخبرات مع الآخرين، وهذه الخبرات تؤثر في بناء الشخصية النامية التي تحكم بدورها سلوكه الاجتماعي.

وعلى ذلك، فهناك مستويان لدراسة التأثير الاجتماعي: الموقف الاجتماعي المتعاصر (والذي يشار إليه أحياناً بأنه متفاعل)، والتاريخ النمائي للتأثير الاجتماعي على الشخصية والذي تقوم عليه الشخصية إلى حد كبير. وباختصار، تشير المحددات

«المتعاصرة» أو المتفاعلة إلى آثار الموقف الإجتماعي المباشر على الاستجابات، على حين تشير المحددات «النمائية» إلى آثار الأحداث الماضية والتي ساهمت في الاستجابات الراهنة. وفي هذا الفصل سوف نناقش بالتفصيل هذين المستويين تحت عنوان «التأثير الاجتماعي المتعاصر» و«التأثير الاجتماعي النمائي».

التأثير الاجتماعي المتعاصر

في أي موقف من مواقف الاستجابة الاجتماعية، فإن أفعال الشخصي الأول أ، يدركها الشخص الآخر ب. وعلى ذلك، يعتبر الشخص أ بمثابة مثير للشخص ب، والعكس بالعكس، يصبح الشخص ب مثيراً للشخص أ. فالتغذية الرجعية لآثاره على ب، قد زودت أيضاً أ (ب إلى أ)، كما انتقلت التغذية الرجعية أيضاً من أ إلى ب محدثة تأثيراً في السلوك التالي لكل طرف مشترك في التفاعل. وبالاضافة إلى ذلك، فإن الفعل الأصلي لـ أ الذي بدأ العملية، قد أنجز بلا شك مع توقعات معينة تستند إلى خبرة سابقة بكيفية احتمال أن يستجيب ب (التأثير الاجتماعي النمائي). فحتى أبسط العلاقات الاجتماعية المتبادلة تعد أذن بالغة التعقيد على نحو ما أكد منذ فترة بعيدة عالم الاجتماع جورج هربرت ميد G. H. Mead (١٩٣٤).

إن خصائص الأشخاص الآخرين ككائنات سيكولوجية وأسباب سلوكهم ليست معروفة لنا بشكل مباشر، وإنما تُدرك فقط من خلال الاستدلال لما نلحظه من أمور. وعلى ذلك، هناك عنصر آخر على جانب كبير من الأهمية في التفاعل الاجتماعي ألا وهو أن أفعال الشخص يجب أن يدركها الشخص الآخر ويفسرها على أن لها معنى. والتفاعل الاجتماعي يتضمن كل العمليات السيكولوجية الأساسية التي يحاول مجال علم النفس دراستها وفهمها، بما في ذلك الإدراك والتعلم والذاكرة والتفكير والدافعية والانفعال. ولقد عبر عالم النفس الاجتماعي سولومون آش Solomon E.Asch عن هذه النقطة بوضوح في الفقرة التالية:

«إن إدراك أفعال الغير ليست مشكلة معقدة في نظر أصحاب التفكير السطحي، ولكن واجب علم النفس هو بالتحديد إزالة نقاب الوضوح الذاتي عن هذه العمليات الوقتية. فمثلاً، إن من المعتاد التخلص من المشكلة بإرجاعها إلى إعتمادنا على الآخرين وإلى حقيقة أن أفعال الغير لها نتائج بالنسبة لنا. ولكن الاعتماد يفترض مقدماً معرفة الحقائق الإنسانية. ونحن نصل إلى أرضية سيكولوجية ثابتة، فقط عندما نتحقق أن اعتمادنا تتوسطه عملية سيكولوجية خاصة باتباع أفعال الآخرين وإعطائها معنى. وهناك ما لا حصر له من النوعيات المختلفة التي نلاحظها ونفهمها في الأشخاص. فنحن نرى أفعالهم في علاقتها بالأشياء، على نحو ما نقول إنهم يجيئون ويذهبون، يجذبون ويدفعون. وبالمثل، نلاحظ بداخلهم أنشطة تكون «ذهنية» بدرجة أكبر، على نحو ما نقول أن

شخصاً ما يبحث ويجد، وأنه مندهش، وأنه يركز، ويخمن، ويذاكر. وبنفس الطريقة، نلاحظ أفعال الأشخاص الموجهة نحو الآخرين على نحو ما نقول إنهم يساعدون، ويحاربون، وينصحون، ويشترون، ويبيعون، وينقدون، ويرشون، ويسخرون، ويعلمون، ويتأثرون. وأخيراً، نحن ندرك صفات معينة مميزة للأشخاص ـ تلقائيتهم، أو ذكاءهم، أو تيّقظهم، أو كسلهم، أو كبرياءهم. وواجبنا هو توضيح كيف نصل إلى فهم مثل هذه الأفعال والخصائص لدى الأفراد». (١٩٥٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٠).

والمواقف الاجتماعية يمكن أن تؤثر بالفعل على كل وظيفة سيكولوجية بشرية نقوم بدراستها. فهي تؤثر في ما نتعلمه وكيف نتعلمه، كيف ندرك ونحكم على البيئة والأحداث التي فيها، وفي اللغة التي بها نصف ونصّور الأحداث، وفي دوافعنا، والطريقة التي بها نتوافق ومطالب الحياة، ومشاعرنا تجاه الآخرين، والطريقة التي بها نخبر الاستجابات الانفعالية ونعبر عنها. وفي هذه المناقشة المختصرة للتأثير الاجتماعي المتعاصر، يمكن استعراض عدد قليل جداً من التأثيرات الاجتماعية أو أنواع الوظائف السيكولوجية التي تحددها. وسوف نشير إلى أمثلة لأبحاث قليلة محسوسة للتأثيرات الاجتماعية المتعاصرة مبتدئين بتلك التي تتصل بالطريقة التي بها ندرك الأشياء. ولقد لعبت الدراسات الواردة بعد دوراً هاماً في نمو علم النفس الاجتماعي الحديث. وفي جزء ثانٍ سوف نستكشف بعض الميكانزمات التي بواسطتها يُفترض حدوث مثل هذه التأثيرات.

أمثلة للتأثير الاجتماعي المتعاصر:

لقد قام علماء النفس الاجتماعيون بالكشف والتحليل عن حالات ممثلة للتأثير الاجتماعي المتعاصر بأساليب كثيرة وفي مواضع كثيرة. وأحد الأساليب المفضلة هي وضع الأشخاص في مواقف اجتماعية متعارضة، ثم ملاحظة كيف يسلكون. والمصدر الحديث لهذا الاتجاه يرجع إلى العمل التجريبي الذي قام به شريف Sherif (١٩٣٥)، وشريف وكانتريل Cantril (١٩٤٧)، وآش Asch (١٩٥٢، ١٩٥٦)، وفيه كانت الأفعال الملاحظة «إدراكية» في طبيعتها.

وفي دراسة مشهورة جداً، طلب شريف (١٩٣٥) من المفحوصين تقدير الحركات الظاهرية لنقطة صغيرة ثابتة من الضوء. وعند عرض مثل هذه النقطة الصغيرة من الضوء في غرفة معتمة تماماً دون وجود أي نقط مرجعية، كانت هذه النقطة تبدو متحركة، وقد أطلق شريف على هذه الظاهرة اسم «أثر الحركة الذاتية». ويختلف مدى ونمط هذه الحركة من شخص لآخر، كما تتحدد بعوامل سيكولوجية داخلية خالصة. وعندما يقوم المفحوصون بالعمل فرادي عدداً من المحاولات، كان كل فرد منهم يكوّن لنفسه أثراً ثابتاً مميزاً «للحركة الذاتية». فقد يقرر شخص ما حدوث حركة

قليلة نسبياً (عدداً قليلاً من البوصات) في اتجاه معين، على حين قد يقرر شخص آخر حدوث حركة كبيرة في اتجاه مخالف. ويصبح هذا معياره الشخصي الذاتي الذي يتكرر باستمرار من محاولة لأخرى.

ومع ذلك، فعندما يعمل المفحوصون في جماعـات من شخصين أو ثلاثة، ويعلن كل واحد منهم حكمه بصوت مرتفع نجد حدوث تأثير ملحوظ لأحد الأفراد على الآخرين. وبالتدريج، تظهر معايير للجماعة بدلاً من المعايير الفردية. ويميل معيار الجماعة إلى تمثيل الحل الوسط بين المعايير الفردية، مع ميل الحالات المتطرفة من حيث درجة الحركة المقدرة ونمطها إلى الاتجاه نحو الوسط. إن مفحوصي شريف الذين كانت لهم خبرة سابقة بظاهرة الحركة الذاتية والذين تكونت لديهم معاييرهم الفردية قد أخذوا بالتدريج يتخلون عن معاييرهم الفردية إستجابة لسلوك الجماعة. أضف إلى ذلك، أن هذه المعايير الجماعية قد استمرت حتى بعد أن سمح للمفحوصين بعد ذلك أن يعملوا فرادي. أما المفحوصون الذين لم تكن لهم مثل هذه الخبرة، فقد وصلوا إلى معايير جماعية في أحكامهم بسرعة، كما استمرت هذه المعايير الجماعية خلال الفترة التي عمل فيها هؤلاء المفحوصون بعد ذلك فرادي. وبعبارة أخرى إن المعايير الفردية تتلاشى دائماً خلال التفاعل الاجتماعي مع تبني الأفراد في نهاية الأمر لمعيار الجماعة، واستمرار هذا المعيار في الموقف الفردي. ولقد أوضحت تجارب شريف بشكل قاطع الآثار القوية للوجود في موقف جماعي.

أما دراسات آش (١٩٥٢ و١٩٥٦) عن التأثيرات الاجتماعية على «الادراك»، فإنها تزودنا بصورة مختلفة إلى حد ما لنفس المبدأ. وتمثل تجارب آش نموذجاً تقليدياً للبحث التجريبي الذي يعالج فيه بناء الجماعات بواسطة المجرب بحيث يمكن دراسة التأثيرات على الفرد. وفي أشهر دراسة له، طلب إلى المفحوصين مقارنة مجموعة من الخيوط المعيارية، بخيوط عديدة بديلة، وأن يعلن للمجرب في كل تجربة عن الخيط البديل الذي يتساوى في الطول مع الخيط المعياري، وعندما كان المفحوص يقوم بمفرده بهذا العمل، لم تكن هناك أخطأ بالفعل مما يوحي أن هذا العمل الإدراكي ليس صعباً. ومع ذلك، فقد أعيد إجراء نفس العمل في جماعـة، مع وجود عدد من الأشخاص الذين أوصاهم المجرب ـ سراً ـ كيف يستجيبون بالضبط. وفي إحدى المواقف الجماعية التي تتألف من سبعة أشخاص متضامنين مع الباحث وشخص واحد فقط حقيقي جعل آش هؤلاء السبعة يقدمون نفس الاستجابة الخاطئة قبل أن يقوم الشخص «الحقيقي

باستجابته. وقد لاحظ أنه في حوالي $\frac{1}{3}$ الوقت، كان المفحوص الحقيقي يعطي استجابات خاطئة وكانت تسير في نفس اتجاه معيار الجماعة. ويبين الجدول رقم ٤ ماذا حدث عندما قورنت تكرارات أخطأ الشخص في الموقف الفردي بتكرارات أخطائه في الموقف الجماعي. وكما نرى، فإن عدد الأخطاء قد ازداد بشكل ملحوظ، وكانت جميعها نتيجة «الاستسلام» لضغط الجماعة.

جدول ٤ ـ توزيع الأخطاء في المجموعات التجريبية والضابطة في دراسة آش على ضغوط الجماعة.

عدد الأخطاء الحرجة	تكرار الأخطاء في المجموعة التجريبية* (ن = ٥٠)	تكرار الأخطاء في المجموعة الضابطة (ن = ٣٧)
صفر	١٣	٣٥
١	٤	١
٢	٥	١
٣	٦	
٤	٣	
٥	٤	
٦	١	
٧	٢	
٨	٥	
٩	٣	
١٠	٣	
١١	١	
١٢	٠	
المتوسط	٣,٨٤	٠,٠٨

* جميع الأخطاء في المجموعة التجريبية كانت في اتجاه تقديرات الغالبية. عن آش (١٩٥٤ ص٥)

ميكانزمات التأثير الاجتماعي المتعاصر:

إن ثمة دليلاً واضحاً في أبحاث كل من شريف وآش عن التأثير الاجتماعي المتعاصر. ومع ذلك تظل المشكلة المتعلقة بفهم الأسباب التي جعلت المفحوصين يخضعون لهذا التأثير قائمة. لقد اتجه قدر كبير من البحث عن التأثير الاجتماعي، ليس لمجرد بيان مثل هذه الآثار، بل وأيضاً لفهم ميكانزماتها ـ أعني الإجابة عن السؤال النظري «لماذا»؟

وفي المنافسة التالية، سوف نعرض بالدراسة لأنواع ثلاثة من الميكانزمات، رغم أن هذه لا تستنفذ كل الاحتمالات الممكنة.

(١) النوع الأول يتصل باحتمال عدم الموافقة أو الرفض من جانب الجماعة، الأمر الذي يشّكل قوة على الفرد بموجب حاجته إلى الإنتماء وبسبب تحكم الجماعة وسيطرتها على موارده ذات القيمة.

(٢) الثاني يتصل بحاجة الفرد إلى توكيد الآخرين لأحكامه.

(٣) أما الثالث فيركز على الاستعدادات الشخصية لإقامة الدفاعات واستخدامها في المواقف التي فيها تهديد وحيث يدب صراع بين الفرد والجماعة. وليس الأمر قاصراً بالطبع على هذه الميكانزمات وحدها. والأمثلة التالية مستمدة من مقابلات آش للمفحوصين في تجاربه عن المسايرة Conformity، ومن محاولة برجر Berger دراسة الدفاعات ضد التعبير عن العدوان، ومن وصف شاشتر Schachter للطريقة التي تستخدم بها مجموعة ما قوتها بالفعل ضد الأفراد الخارجين عليها. وأخيراً، سوف نرى مثالاً (دراسة قام بها ليبسيت Lipsitt وسترودبك Strodtbeck) لضغط المواقف الاجتماعية التي تتوقف فيها بوضوح طبيعة الأثر على خصائص الشخصية المناسبة، وهو في الحقيقة مثال لنتائج التفاعل المتبادل بين التأثيرات الاجتماعية المتعاصرة والتأثيرات الاجتماعية النمائية.

وهناك منهجان أساسيان لدراسة ميكانزمات التأثير الاجتماعي المتعاصر، أحدهما وضعه آش نفسه ويتلخص في محاولة الحصول من المفحوصين أثناء المقابلات، على صورة للعمليات السيكولوجية التي تجري خلال موقف الضغط الاجتماعي. أما المنهج الآخر فيتكون من محاولات تجريبية لتقييم الظروف الافتراضية التي يمكن فيها لمثل هذا الضغط أن يغير السلوك أو لا يغيره.

ولقد قام آش بمقابلة كل مفحوص بعد الانتهاء من التجربة الأساسية التي وصفناها سابقاً، ومواجهاً إياه بحالات استسلامه للجماعة، ومحاولاً الوصول إلى تفسير منه لذلك. وعند مواجهة المفحوصين بأحكامهم الخاطئة، صرح البعض أنهم أدركوا بالفعل أن المفحوصين السبعة الآخرين كانوا على خطأ، ومع ذلك، فإن إجماع المفحوصين الآخرين جعلهم يشعرون بضيق عميق من جراء اختلافهم عنهم مما أدى إلى استسلامهم للضغط الذي أحسوا به. وقد قرر البعض الآخر شعورهم بنفس الضيق، ولكنهم إزاء مثل هذا القدر الكبير من البيانات التي كانت ضدهم، انتهوا إلى

أنه ربما يكونون قد أساءوا فهم العمل المطلوب. وأخيراً فثمة مجموعة صغيرة من المفحوصين عبروا عن دهشتهم من اكتشاف أخطائهم وقرروا أنهم لا يتذكرون حدوث أي صراع أو حتى حدوث تأثر بالمفحوصين الآخرين. وقد أوحت استجابات المقابلة هذه بأن من المحتمل وجود ثلاث عمليات مختلفة للتأثير الاجتماعي تكون متضمنة في هذا الموقف.

(١) تهديد الاستنكار أو النبذ نتيجة الإنحراف عن الجماعة والذي يحاول المفحوص التغلب عليه إما بالتمسك برأيه بصلابة رغم ما يشعر به من ضيق أو أن يستسلم مختاراً للجماعة.

(٢) التهديد الذي تفرضه شكوك صحة تقدير الفرد لمتطلبات العمل، مما يدفعه إلى البحث عن إثبات أو نفي أحكامه والاستسلام أو عدم الاستسلام طبقاً لما تسفر عنه نتيجة البحث.

(٣) التخلص من التهديد عن طريق الإنكار أو الكبت، وبذلك يتكيف الفرد لهذا الموقف، ربما بدون وعي منه بما يفعل.

وقد أجريت العديد من التجارب التي حاول فيها الباحثون دراسة ميكانزم أو آخر من هذه الميكانزمات. فمثلاً أكدت إحدى التجارب التي قام بها برجر (١٩٦٣) «الخصائص الدفاعية للشخصية» لدى المستسلمين على نحو ما هو متضمن في البديل الثالث السابق الذكر. فقد ذهب إلى أن الأفراد المستسلمين أو المسايرين، إنما يجدون صعوبة أيضاً في التعبير عن عدوانهم، لأن الاستسلام للضغط الاجتماعي وعدم القدرة على التعبير عن العدوان، يمثل كل منهما طريقة للتعامل مع التهديد بالنبذ الاجتماعي. وكانت مجموعة برجر من الطالبات الجامعيات اللائي وضعن في موقف لا يختلف كثيراً عن موقف آش. ومع ذلك، وخلافاً لطريقة آش وحتى يمكن زيادة عدد المفحوصات اللائي يمكن اختيارهن، كان الأشخاص المتحالفون مع المجرب لا يشاهدون أبداً. فمن المفروض أنهم كانوا يجلسون خلف حواجز، ويهيأ للمفحوصة أنها تسمع مصادفة أحكامهم عن طريق الخطأ. وبالإضافة إلى درجات الاستسلام، أمكن تقدير التعبير عن العدوان لدى كل مفحوصة بطريقتين. وكان المقياس الأول للعدوان يقوم على التخيل، حيث تقص المفحوصة مجموعة من القصص استجابة لمجموعة من الصور (وذلك باستعمال اختبار تفهم الموضوع الذي سوف نصفه في الفصل السابع). وقد قدرت محتويات القصص بالنسبة للعدوان الظاهر والضمني. وكان يستدل على العدوان

الظاهر من القصص التي تحوي إشارات إلى الجدال والغضب والعراك والانتقام والجريمة الخ، بينما يستدل على العدوان الضمني من القصص التي تشير إلى المرض والوفاة والحوادث (وحيث لا يكون الضرر مقصوداً على النحو الذي نجده في العدوان الصريح).

أما المقياس الآخر للعدوان فيقوم على الاستجابات السلوكية لموقف من شخصين يتضمن تعليمات لإنجاز عمل مملّ تحت ظروف من النقد غير العادل. وقد يعبر المفحوص صراحة عن عدوانه إزاء سوء المعاملة دون أن يحفزه أحد إلى ذلك، وذلك عن طريق الشكوى أو توجيه عبارات الغضب إلى المجرب. وفي حالة عدم قيامه بذلك، فإن أحد المتعاونين مع المجرب يحفزه لذلك، كأن يقول له بصوت غاضب «هذا الرجل سوف يجنني، إنه يتطلب منا أشياء غبية ثم بعد ذلك يقول عنا إننا مخطئون. ألا يثيرك هذا التصرف؟». ويمكن تقدير استجابات المفحوصين أو تعليقاتهم كتعبير عن العدوان. ومن الممكن التعبير عن العدوان الظاهر بعبارات مثل «أنا أود أن ألكمه»، أو «أنا لا أريد هذا»، أو «يمكنني التخلص من هذا» الخ. أما العدوان الضمني، فمن الممكن التعبير عنه بعبارات مثل «أنا أشعر كما لو كنت ضعيف العقل، أو شيء من هذا القبيل» أو «أنا عصبي جداً ويداي ترتعشان» الخ.

وقد وجد برجر أن هؤلاء الذين يستسلمون للضغط الاجتماعي يعبرون عن العدوان الظاهر بدرجة أقل، وعن العدوان الضمني بدرجة أكبر مما نجده لدى الأشخاص الذين احتفظوا باستقلالهم أمام مثل هذه الضغوط. وهذا ما اتضح سواء في سرد قصة للاختبار الإسقاطي أو في الاستجابة السلوكية لسوء معاملة المجرب. والجدول رقم ٥ يوضح نتائج سرد القصة بالنسبة لهؤلاء الذين استسلموا والذين احتفظوا باستقلالهم والذين ترددوا بين ـ بين.

جدول ٥ ـ التعبير عن المسايرة والعدوان

مجموعات المسايرة	عدد الحالات	العدوان الظاهر	العدوان الخفي
المستقلون	٢٢	٥,١٨	٢,٦٨
الوسط	٣٥	٤,٤٦	٣,٣١
المسايرون	٢٢	٤,٠٠	٤,٥٥

مقتبس من برجر (١٩٦٣، ص ٢٥٣)

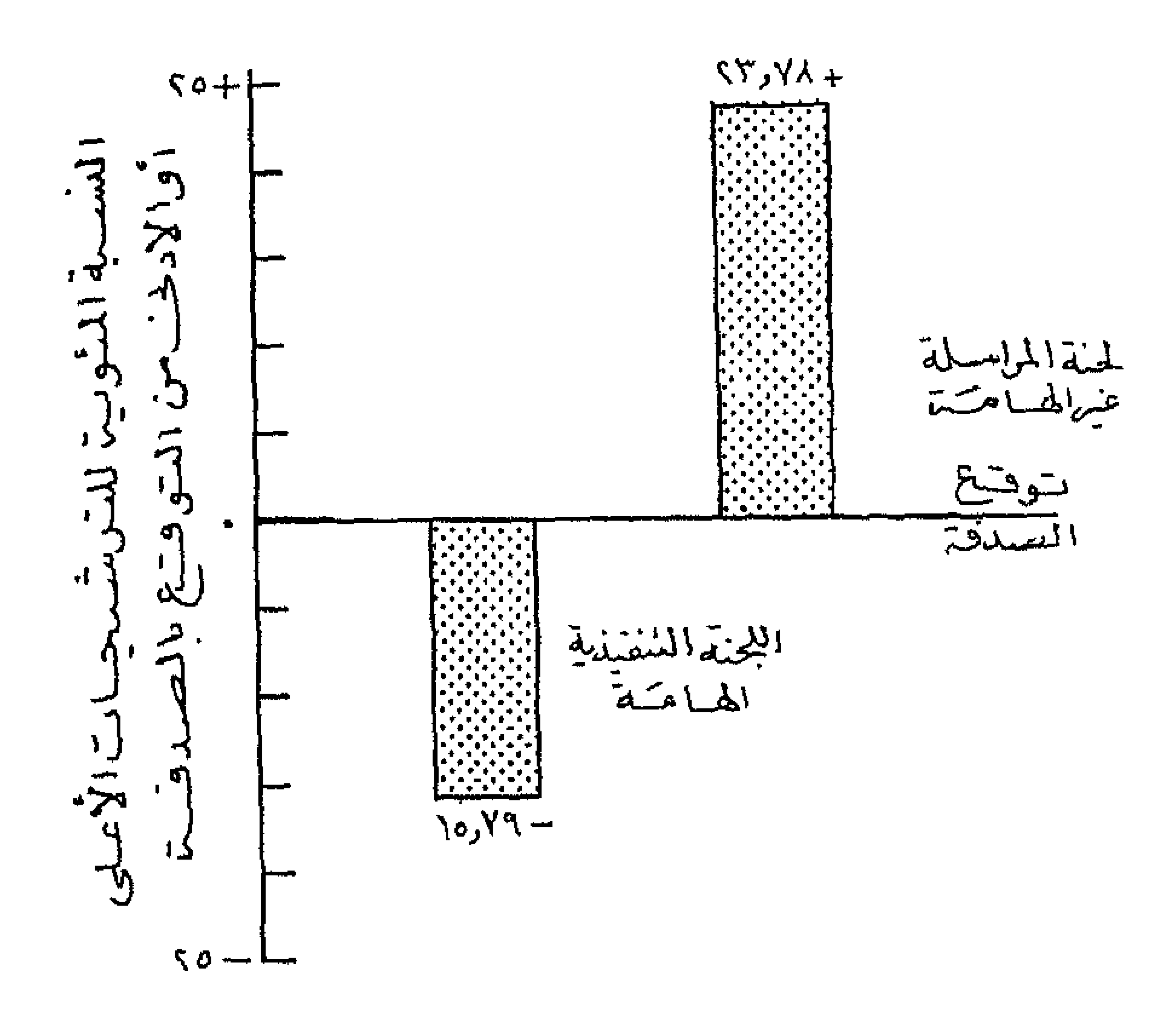
ويبدو أن لمفحوصي برجر المسايرين أو المستسلمين شخصيات تؤهلهم لأن يكونوا أكثر من غير المستسلمين تجنباً للعدوان وتفضيلاً لصور «الكبت ـ التجنب» في التوافق مع المواقف المتصارعة . ومع ذلك ، فليس من الواضح ما إذا كان التوافق بالاستسلام يمكن أن يتم دون معرفة من جانب الشخص . فمن الممكن اعتباره مثلاً محاولة متعمدة وشعورية لأن يدمج الفرد نفسه داخل الجماعة ، رغم أن مثل هذا التفسير لا يحبذه برجر . أضف إلى ذلك ، أنه رغم أن النشاط الدفاعي قد يمثل أحد الميكانزمات المتضمنة في الاستسلام للضغط الاجتماعي ، إلا أن البحث قد تضمن أيضاً وجود الميكانزمين الآخرين السابق الإشارة إليهما . واختيارنا لدراسة برجر كمثال يقوم على الاهتمام بالبحث الموجه لدراسة الشخصية كموضوع لهذا الكتاب . أما الكتب التي تؤكد العوامل الاجتماعية ، فربما كانت تفضل أن تختار دراسات تركز على ظروف أخرى كاستعمال التقرير السري أو العلني ، وعدد المفحوصين «الحقيقيين» والمفحوصين المتعاونين مع المجرب ، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية لموقف المسايرة التي خضعت للدراسة . فمحددات الاستسلام معقدة ويكمن بعضها في الشخص نفسه ، على حين يوجد بعضها الآخر في الإطار الاجتماعي .

وثمة أساس واقعي للاعتقاد بأن الإنحراف عن المعايير الاجتماعية يمكن أن يؤدي إلى العقاب ، على نحو ما وضح في التجربة الكلاسيكية التي قام بها ستانلي شاشتر (١٩٥١) والتي أوضحت كيف أن الجماعات تمارس «قوتها» على الأفراد . لقد ابتدع الباحث موقفاً تجريبياً بارعاً لاختبار ماذا يمكن أن يحدث للفرد المنحرف . وعن طريق الإعلان ، كوّن شاشتر عدداً من المجموعات «الطبيعية» التي تتكون من طلاب الجامعة الذي رغبوا في المساهمة في مناقشة الموضوعات الاجتماعية الجارية . وفي اجتماعهم الأول طلب من كل مجموعة أن تناقش وتصدر أحكاماً عن قضية لجانح كان على وشك أن يصدر عليه حكم بسبب جرم وضح أنه ارتكبه .وكان على المجموعة أن تقرر ، ما إذا كانت توصى من يقوم بدور القاضي باستعمال الرأفة أو توقيع أشد العقوبة . وقد عرضت القضية بحيث يكون الموقف الذي يميل إلى استعمال الرأفة هو الاستجابة الراجحة .

وفي هذا الموقف ، وتمشياً مع تقليد آش في استخدام المتعاونين معه لخلق أبنية اجتماعية مختلفة ، قدم شاشتر ثلاثة أنواع من المتعاونين ، دُرب كل نوع منهم على

السلوك بطريقة خاصة. النوع الأول تبنى دائمًا الموقف السائد للجماعة، ويتمسك به طوال المناقشة. النوع الثاني يبدأ دائمًا باتخاذ الموقف المختلف عن الجماعة، ولكنه بعد ذلك يتخلى عن موقفه إزاء حجج الجماعة. أما النوع الثالث فيتخذ موقفاً مختلفاً عن الجماعة، ويتمسك به بصرف النظر عن الضغوط الاجتماعية التي تبذل لتغيير موقفه. وقد تيسر تكوين كثير من هذه الجماعات في هذه الدراسة.

ولقد وجد شاشتر، في المراحل الأولى للمناقشات، أن المجموعة كانت توجه عادة حديثاً مكثفاً نحو الشخص المختلف، على افتراض أنها تبذل جهداً كبيراً لهدايته، ولكن عندما ينقضي الوقت دون حدوث تغيير في موقفه، كان أعضاء الجماعة يتوقفون عن الاتصال به، ومن ثم يميلون إلى عزله عن الروابط الاجتماعية. وعندما كان يُطلب تقييم الأعضاء لتحديد مَنْ منهم سيستمر في المشاركة في المناقشات التالية، كانت المجموعة تقدر الشخص المختلف بأنه مقبول بدرجة أقل من الأنواع الأخرى من الأشخاص المتعاونين. وربما كان أكثر الأشياء لفتاً للنظر، أن الشخص المختلف عن الجماعة باستمرار، كان في الأغلب قليلاً ما يختار للاجتماعات الهامة، وعندما كان



شكل ١٤ ـ النسب المئوية الأعلى والأدنى من التوقع بالصدفة لترشيحات الأعضاء المختلفين للجان الهامة وغير الهامة (عن شاشتر، ١٩٥١ ص ١٩٠ ـ ٢٠٧)

يُختار أو يذكر اسمه لوظيفة إشرافية، فغالباً ما يكون ذلك بالنسبة للاجتماعات غير الهامة التي لا يحتاج العمل فيها إلى قيادة قوية أو نفوذ. ويوضح الشكل رقم ١٤ هذه النتائج الأخيرة والتي تشير إلى التكرارات الأعلى أو الأدنى مما هو متوقع بالصدفة والتي بواسطتها يرشح الشخص المختلف عن الجماعة إما للجنة المراسلة غير الهامة، وإما للجنة التنفيذية الهامة. وقد ألقى بحث شاشتر الضوء على واحدة من أهم الطرق التي تؤثر بها الجماعة على الفرد، وأعني بها التحكم في الثواب والعقاب، والتقبل أو النبذ.

والمثال التجريبي الأخير للبحث في ميكانزمات التأثير الاجتماعي المتعاصر هو الدراسة التي قام بها ليبيست وسترودبك (١٩٦٧) والتي حركت المشكلة خطوة وراء المعالجة المستقلة لكل من العوامل الاجتماعية الموقفية أو سمات الشخصية، وذلك بجمعهما معاً في دراسة واحدة. وتتضمن هذه التجربة أساساً تقدير خصائص شخصية المفحوصين، وهي تعرض عليهم نسخة من أربع نسخ مختلفة لاجراءات المحاكمة التي تعد للعرض على هيئة الملحفين. وقد استخدم ٣٨٠ شخصاً من الرجال المجندين في البحرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ ـ ٢٩ سنة. وقدرت هوّيات هؤلاء الرجال بالنسبة لدور الجنس sex - role ، وأولاً بالنسبة للجنس «اللاشعوري» بواسطة اختبار إسقاطي. ويتطلب الاختبار من المفحوص تكملة سلاسل من الرسوم غير المكتملة تتكون من خطوط قليلة بسيطة يرسمها في أي نوع من الصور يختارها. وقد قام جماعة من الحكام المدربين بتقدير اختبار الرسم الإسقاطي على أساس عديد من المعايير للتعبيرات الرمزية الذكرية والأنثوية. فالرسوم الممتدة، مثلاً تقدر بأنها ذكرية، بينما الرسوم التي تترك مفتوحة فتقدر بأنها أنثوية. كما أن الأشياء الفعّالة أو الإيجابية كالسفن ذات المحرك أو السفن البخارية تقدر بأنها ذكرية، بينما الأشياء السالبة كالمراكب الشراعية والأوعية فتقدر بأنها أنثوية. وكانت المعايير بالغة الوضوح بحيث تسمح للحكام بالوصول إلى درجة عالية من الاتفاق في الحكم. وقد نظر الباحثون للدرجة الكلية على هذا الاختبار كمقياس للذكورة أو الأنوثة الخفية أو اللاشعورية، وذلك على افتراض أن المفحوصين لا يعرفون الاتجاهات الموجودة في أنفسهم والتي يعبرون عنها في رسومهم.

وكانت الطريقة الثانية التي استخدمت أيضاً في التقدير عبارة عن استخبار يجيب عليه المفحوصون بإجابات «صحيح أو خاطىء»، يفترض أنها تكشف عن هوية دور الجنس «الشعوري» للمفحوص، طالما أن من الممكن استنتاج تضمنات جانب كبير من

الأسئلة. ومن أمثلة ذلك «أريد أن أكون شخصية هامة في المجتمع»، «أفضل استخدام الدش على الاستحمام في البانيو»، «أحب أن أعمل مصمم أزياء». وعلى أساس نتيجة كلا الاختبارين يصنف المفحوصون وفق واحد من أربعة أنماط: «أنثوي لا شعوري ـ ذكري شعوري»، «ذكري لا شعوري ـ أنثوي شعوري»، «ذكري شعوري ـ أنثوي شعوري»، «ذكري لا شعوري ـ أنثوي لا شعوري».

وتشتمل التجربة على الاستماع إلى نسخة المحاكمة لتقرير ما إذا كان المتهم بريئاً أو مذنباً. كان المتهم جندياً أمريكياً سابقاً حوكم بتهمة الخيانة نتيجة أنشطة مزعومة عندما كان في سجن حربي بعد سقوط مدينة كوريجيدور سنة ١٩٤٢. وخلال المحاكمة الفعلية، سمح القاضي بتقديم شهادة عن جنسية مثلية مزعومة بالنسبة للمدعي عليه، وذلك على أساس أن لها علاقة بأخلاق المدعي عليه (وفي الإستئناف اعتبرت هذه الشهادة غير مناسبة وضارة به). كما قام القاضي أيضاً بتوجيه توصية كانت مثار جدل بين المحلفين، تضمنت التأكيد على أنه من المناسب للمحلفين النظر إلى أخلاق المدعي عليه من أجل التوصل إلى حكم بأنه مذنب أو غير مذنب. وقد طبع الباحثان هذه النسخة الأصلية من أجل خلق ظروف تجريبية أربعة. وهذه الظروف تضمن اختلافات حول موضوعين أساسيين يقومان على أساس الإثارة الانفعالية للشهادة حول الجنسية المثلية، وكذلك التوصية المثيرة للجدل التي وجهها القاضي للمحلفين.

والظروف التجريبية الأربعة هي على النحو التالي: النسخة (ah) تمثل القضية الأساسية التي لا تتضمن أياً من الموضوعين الحساسين. والنسخة (AH) وهي تتضمن كلا من شهادة الجنسية المثلية (H) وتوصية القاضي إلى المحلفين (A). والنسخة (aH) وهي تتضمن القضية الأساسية مضافاً إليها فقط شهادة الجنسية المثلية، وأخيراً النسخة (Ah) التي تتضمن القضية الأساسية مضافاً إليها فقط توصية القاضي إلى المحلفين. ولقد أصبح المسرح معداً لتحديد مدى تأثر القرار بكون الشخص بريئاً أو مذنباً بنمطي المادتين المشحونتين انفعالياً اللذين يؤثران على الأنماط المختلفة للشخصية. وقد تم هذا بتعريض المفحوصين من كل مجموعة فرعية للشخصية لكل من المعالجات التجريبية المختلفة.

ولقد أورد ليبست وسترودبك نتائج ثلاثاً لها أهمية خاصة.

أولاً: النسخة (Ah) التي تحتوي فقط على توصية القاضي إلى المحلفين بربط أثر خلق المدعي عليه بالحكم بأنه مذنب أو بريء، قد تسببت في إحداث زيادة في ميل كل

أنماط الشخصية إلى أن يروا المدعي عليه مذنباً. ومن الواضح أن إشارة القاضي إلى خُلق المتهم وثيقة الصلة بحكم المحلفين الذي قضي بموقف عقابي أشد بوجه عام.

ثانياً: بالنسبة للنسخة (aH) حيث أدخلت الجنسية المثلية وحدها، فإن مجموعة الشخصية التي قدرت بأنها أنثوية لا شعورياً، وذكرياً شعورياً أعطت عدداً من الأحكام بالذنب أكبر مما هو متوقع بالصدفة. فقد صوّت ٨٧٪ من أفراد هذه المجموعة بأنه مذنب، وذلك إذا قورنوا بنسب المجموعات الأخرى التي لم تزد كثيراً عن ٥٠٪. والحقيقة، أن إدخال الجنسية المثلية في المحاكمة أحدث ـ بالنسبة لهذا المجموعة ـ تحريفاً في الموضوع القضائي الأصلي. وقد اقترح الباحثان أن هذا النمط من الناس ذي الدوافع الأنثوية المقمعة، يتعلم أن يكبت نزعاته الأنثوية ويشعر تجاهها بالذنب، ومن ثم، فإنه لا يتردد أن يوقع العقاب بالمدعي عليه لجنسيته المثلية التي يعبر عنها صراحة.

ثالثاً: في حالة النسخة (AH)، والتي تتضمن كلا من أمر القاضي وشهادة الجنسية المثلية، فإن مجموعة الشخصية التي وصفت بأنها أنثوية شعورياً ولا شعورياً، كشفت عن نزعة ملحوظة نحو تقديم أحكام بأنه غير مذنب (١٥ من ٢٣ حالة)، إذا قورنت بالمجموعات الأخرى التي تميل إلى التصويت بأنه مذنب (حيث كانت الأصوات القائلة بأنه مذنب هي ١١ من ١٩ في المجموعة الأولى، و١٠ من ١٢ في الثانية، ، و١٠ من ١٣' في الثالثة). وقد اقترح الباحثان أن الميول الجنسية الشعورية واللاشعورية لهؤلاء المفحوصين هي التي أدت بهم إلى أن يكونوا حساسين جداً لتهمة الجنسية المثلية الموجهة ضد شخص آخر، والتي استخدمت كدليل على سوء خلقه. لقد بالغوا في رد الفعل للإحساس بالظلم الذي شعروا أنه ينعكس في الطعن في خلق المدعي عليه بدعوى لا علاقة لها بالقضية.

ويجب أن نكون على حذر في تقبل افتراض الباحثين أن تقديرات الاختبار الإسقاطي تقيس التقمص الجنسي اللاشعوري، على حين يقيس الاستبيان المقابل الشعوري. إن حجة هذا الافتراض حجة ضعيفة رغم كونها أحد التفسيرات المحتملة لنتائج الأفراد الذين يكشفون عن تباين بين نوعين مختلفين من المقاييس لسمة واحدة هي، في هذه الحالة، سمة تقمص دور الجنس. ولكن حتى مع رفض هذا الافتراض فإن دراسة ليبست وسترودبك تزودنا بدليل قوي عن التأثير الفعال الذي تحدثه الطريقة التي تتفاعل بها محتويات الموقف الاجتماعي المباشر مع الاستعدادات الشخصية المناسبة

على عملية أخذ القرار (الحكم بأنه مذنب أو بريء). وبعبارة أخرى، فإن أثر المثير (أعني دليل الجنسية المثلية) يتوقف بوضوح على نوع الشخص الذي يستجيب له، أعني على دلالة هذه المعلومات ومعناها بالنسبة له. ورغم أن مثل هذه النتيجة يجب أن تكون واضحة نوعاً ما، فإن المبدأ الذي تستند إليه قد أغفل بشكل عام جداً في الأبحاث الخاصة بالتأثير الاجتماعي المعاصر.

ومن الواجب أن يتذكر القارىء أيضاً أننا قد تحدثنا فيما سبق عن نوعين من المحددات الاجتماعية، التأثير الاجتماعي المتعاصر والتأثير الاجتماعي النمائي. ودراسة ليبست وسترودبك توضح كلا النوعين في نفس الوقت، وتبين بشكل فعال أن تأثير النوع الأول يتوقف بوضوح على النوع الثاني، والعكس صحيح. وقد فصلنا بينهما هنا فقط من أجل الاستفادة والوضوح، على حين أنهما في الحياة يعملان دائمًا معاً، ويؤثر أحدهما في الآخر. فلنعد اذن إلى دراسة التأثير الاجتماعي النمائي الذي يعد جزء المشكلة الأكثر اتصالاً بشكل مباشر بموضوع الشخصية.

التأثير الاجتماعي النمائي

كيف تشكل الشخصية ذاتها على مر السنين بالنظام الاجتماعي الذي يولد فيه الطفل؟. للإجابة عن هذا السؤال، يجب تحديد بعض متغيرات البناء الاجتماعي، إذ أن هذه المتغيرات التي تؤثر فينا بصور مختلفة أثناء نمونا، بالاضافة إلى المعطيات البيولوجية التي نولد مزودين بها، تساعد في تشكيل شخصياتنا الفردية. ومهمة تحليل البناء الاجتماعي لأي مجتمع ـ أعني الطرق التي ينتظم فيها الناس وأدوارهم اليومية وأدوار حياتهم ـ تنتمي أساساً لعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية. وهناك ـ كما هو متوقع ـ العديد من المقترحات عن كيف يتم ذلك البناء على أحسن وجه. ولا يمكننا الدخول هنا في مناقشات حول أحسن الطرق لتحليل البناء الاجتماعي. وسوف نستخدم في المناقشة التالية، نوعين كبيرين من المتغيرات الاجتماعية لتوضيح كيف يؤثر المجتمع في الشخصية، ونعني بهما متغير الثقافة، ومتغير الطبقة الاجتماعية. وكما كان الحال في مناقشة التأثير الاجتماعي المتعاصر، فإن مهمتنا الأولى سوف تقتصر على تقديم بعض الأمثلة عن تأثير التغيرات في الثقافة والطبقة الاجتماعية على الشخصية، ثم نعود بعد ذلك إلى التحليلات النظرية لكيف تتم مثل هذه التأثيرات، أعني دراسة الميكانزمات التي تشكل الشخصية عن طريق متغيرات البناء الاجتماعي.

أثر الثقافة على الشخصية :

إن التفاعل المتبادل بين الشخصية والثقافة هو في الحقيقة موضوع متسع، كما تزايد الاهتمام به كثيراً بين علماء الاجتماع في السنوات الأخيرة. ويشهد على ذلك العدد المتزايد من الكتب والمجلات التي تنشر لعرض النتائج والمشكلات المنهجية للبحوث عبر الثقافية عن الشخصية.

ومن بين الحالات الخاصة الأكثر إمتاعاً لهذه العلاقة، تلك الدراسات التي بحثت أنماط المرض النفسي في الثقافات والثقافات الفرعية المختلفة. فالثقافات تختلف آختلافاً كبيراً مثلاً في اتجاهاتها المعبّر عنها نحو الخمر والعقاقير، وفي الطريقة التي تنظر بها إلى المرض والموت وفقدان الوالدين، وفي أسلوب التعبير الانفعالي، وفي أنماط الدور الذي يقوم به مختلف الأسرة وهكذا. ومثل هذه الاختلافات تؤثر بدورها تأثيراً كبيراً في إحداث إضطرابات مثل الإسراف في الشراب وإدمان العقاقير، والأمراض الجسمية والعقلية.

ولنبدأ بالكحول «والإدمان على الكحول». هناك فورق ملحوظة بين الجماعات الوطنية والعنصرية المختلفة في سرعة الإدمان على المشروبات الكحولية. فقد لاحظ أوبلر Opler (١٩٥٩) أن جماعات معينة كالصينيين في نيويورك أو جماعات الإيطاليين واليهود توجد لديهم نسبة منخفضة بشكل غير عادي تتصل بمشكلات شرب الخمر، بينما ترتفع نسبة هذه المشكلات التي تتصل بشرب الخمر بين الأيرلنديين. وفي هذه المجموعة تكون اضطرابات الشخصية مرتبطة إلى درجة كبيرة بالإسراف في تعاطي المشروبات الكحولية.

والإسراف في شرب الخمر يعد أمراً عادياً جداً عند اليابانيين، ولكن الاتجاهات القومية نحو الخمر يبدو أنها تسمح بأنواع من الشراب نادراً ما ينجم عنها مشكلات مهنية واجتماعية خطيرة، أو إلى تدهور الشخصية المصحوب في مجتمعنا بإدمان الخمر، من النوع الذي يوجد في «شارع السقوط»[1] Skid row . ولقد كتب وليم كوديل وهو انثروبولوجي ذو خبرة واسعة بالثقافة اليابانية العبارات المثيرة التالية حول هذا الموضوع:

---

١ ـ منطقة حافلة بالحانات والفنادق الرخيصة ووكالات الإستخدام يألفها العمال المهاجرون السكيرون والمتشردون (المترجم).

«من الأمور البارزة في اليابان أن هناك نسبة كبيرة من الرجال يشربون الخمر، كما يوجد قدر كبير من الإتكالية والسلبية عند الذكور. ولكن ليست هناك مشكلة إدمان خمر بالمعنى المعروف في الولايات المتحدة. ويمكن أن تتضح بعض جوانب هذه المشكلة بشيء بسيط كعرض إعلانات الويسكي في بنجيشانجو (وهي جريدة مشهورة ومعروفة) التي تعبّر كثيراً عن الاتجاهات في الثقافة اليابانية عندما تعرض صورة لطيفة لرجل يبتسم، وهو يتوقع السعادة من شرب ستة زجاجات من الويسكي قام بادخارها، على حين تركع زوجته المسنة الرمادية الشعر على الأرض تعد نقودها. ويقول التعليق «لكلٍ سعادته الخاصة». ويأتي المزيد من الفهم من حقيقة أن الزوجة في الأسرة اليابانية هي التي تتصرف في النقود وتعطي زوجها - إذا سمحت الظروف بذلك - تصريحاً يخرج بمقتضاه ليشرب الخمر. وليس من المحتمل أن يظهر مثل هذا الإعلان، ولا الظروف الثقافية المتمثلة فيه، في الولايات المتحدة. ومن هذه المثال يمكن أن نحظى بشيء من التقدير عن تأثير المحتوى الثقافي على أنماط الإشباع الغريزي.

وقد يقال بشيء من الصواب إن المثال السابق هو مجرد إعلان في مجلة معروفة، على الرغم من أن الإعلان يحظى بقدر من الصدق ينتج من حقيقة أن من غير المحتمل أن ينشر الإعلان ما لم يكن متقبلاً في تلك الثقافة وأن تكون له فائدة في بيع الويسكي. ومع ذلك، فأن يكون لمثل هذا الإعلان صورته المقابلة في السلوك، فهذا ما حصلت عليه من خبرتي مع عديد من الأصدقاء في اليابان. لقد كان لي صديق أمضيت معه عدة أمسيات في تناول الخمر وفي الحديث. وكانت لديه عادة هي أن يأخذ تصريحاً من زوجته لقضاء ليلة واحدة كل أسبوع مع أصدقائه ليشرب الخمر، وكان يحصل على النقود من ميزانية الأسرة. وعندما يعود إلى المنزل في وقت متأخر من الليل، تستقبله زوجته عند الباب وتساعده في خلع حذائه وإعداد وجبة خفيفة له في المطبخ ثم تساعده في الذهاب إلى الفراش. وبالمثل، كان لي صديق آخر يشغل وظيفة ذات مسؤولية وسلطة كبيرة. وكان يحب شرب الويسكي الأمريكاني، وكنت أقدم له من حين لآخر زجاجة كهدية. وكان يحتفظ بهذه الزجاجات وغيرها حتى أصبح في مخزنه عدة دست من الزجاجات. وكانت فكرته هي أن ينتظر حتى تجيء إجازة طويلة مناسبة تسمح له بشربها جميعاً. وكانت تأتي هذه الإجازة في الواقع في الفترة الفاصلة بين عمل هام وآخر. وقد أمكن تخطيط أعماله على هذا الأساس.

وهذه الأمثلة توضح أن الرجل الياباني لا يتوقع النبذ من الآخرين بسبب تعاطيه الخمور، وأن من المحتمل أن يكون أقل شعوراً بالذنب، على الأقل عن طريق الإستثارة من مصدر خارجي، نتيجة تعاطيه هذه المشروبات. (١٩٥٩ ص ٢١٥-١٦).

ومن الملاحظ أن نمط إدمان الخمر في اليابان نمط منظم إلى درجة كبيرة حيث يكون تعاطي المشروبات أثناء أوقات الفراغ، وليس مصاحبا لمسؤوليات الحياة العادية. إن الرجل الياباني يتطلب من نفسه درجة عالية من النظام والمسؤولية اللذين يسببان التوتر. وهو يتخفف من هذه التوترات من حين لآخر بالإكثار من تناول الخمر في أوقات وظروف لا تضر بعمله. فلكي نفهم الأنماط المتغيرة لتناول الخمر والإدمان على الكحول بين الشعوب المختلفة، فإنه من الواضح أن من الضرورة أيضاً أن نفهم القيم الثقافية المختلفة المرتبطة بها.

والاستجابة «للألم» «والمرض» تختلف أيضاً اختلافاً كبيراً بين الجماعات الثقافية المختلفة. فقد أوضحت المقابلات التي قام بها زبوروفسكي Zborowsky (١٩٥٨) مع الأمهات الأمريكيات اليهوديات والأمهات الأمريكيات الإيطاليات أن الأمهات من كلتا المجموعتين العنصريتين اللائي هاجرن حديثاً، كن أكثر قلقاً وأكثر اهتماماً بصحة أطفالهن، إذا قورنّ بالامهات من الأسر التي استوطنت الولايات المتحدة من أجيال عديدة والتي أصبحت أكثر تمثلاً للبيئة. كما كانت الأمهات الحديثات الهجرة أكثر ميلاً إلى المبالغة في الألم والاستجابة له انفعالياً، بينما كانت الأمريكيات القدامى أكثر رزانة من ناحية الألم، ويتخذن موقفاً «موضوعياً»، في الاستجابة له. وهذه النتائج السابقة تتنسق أيضاً مع تلك التي وصل إليها ميكانيك Mechanic (١٩٦٣) الذي لاحظ أن اليهود الأمريكيين يزورون الأطباء ويتعاطون العقاقير بدرجة أكبر أحياناً من البروتستانت أو الكاثوليك الأمريكان، حتى مع تثبيت مستوياتهم التربوية والاقتصادية. وفي دراسة قام بها زولا Zola (١٩٦٦) لمقارنة الأمريكان الإيرلنديين والإيطاليين، لاحظ فروقاً واضحة بين المجموعتين في تقديمهم شكواهم عن المرض حتى ولو كانت الأمراض التي شخصت بالفعل واحدة. فالشكوى الرئيسية لمجموعة الأمريكان الإيرلنديين كانت تتركز بشكل أكثر حول العين والأذن والأنف والزور، وذلك بمقارنتها بالأجزاء الأخرى من الجسم في حالة الأمريكان الإيطاليين. وقد اقترح زولا أن أعراض المرض تعكس الاهتمامات الخاصة لهذه الثقافة وقيمها. وتدعيمًا لهذه النقطة، لاحظ أنه عندما كان يطلب من الإيرلنديين والإيطاليين في عينة بحثه أن يحددوا أهم جزء في أجسامهم، فإن الايرلنديين كانوا يؤ كدون العين والأذن والأنف والزور أكثر من الإيطاليين، وبذلك يتضح ميلهم إلى تركيز الشكوى الطبية حول هذه الأجزاء من الجسم. ومن الممكن بالطبع أن تأخذ العلاقة ـ نظرياً ـ الطريق الآخر وهو أن قيم أجزاء الجسم تتحدد بطبيعة الشكاوى الطبية، ولكن هذا الطريق ليس هو الذي اتخذه زولا في تفسير اتجاه العلّيـة هنا. وعلى أية حال، يبدو أن هناك علاقة قوية بين القيم الثقافية وطرقها المميزة للتعامل مع مسائل الصحة والمرض.

وأحد الأمثلة الهامة عن العلاقة بين الثقافة والأنماط المرضية، ما نجده في الدراسات التي قام بها سنجر وأوبلر Singer and Opler (١٩٥٦، والتي وضعها أوبلر أيضاً ١٩٥٩) عن مميزات الشخصية والأعراض المرضية التي لوحظت على المرضى بالفصام من الأمريكان الإيرلنديين والأمريكان الإيطاليين. والفصام هو أخطر وأكثر

الأمراض العقلية انتشاراً. وقد قام سنجر وأوبلر بالفحص الدقيق، عن طريق الملاحظة ودراسة تاريخ الحياة واختبارات الشخصية، لـ ٦٠ من الذكور مرضى بالفصام بأحد المستشفيات العقلية بمدينة نيويورك ممن تقع أعمارهم بين ١٨ ـ ٤٥ سنة. وكان نصف المرضى من الأمريكان الإيرلنديين، ونصفهم الآخر من الأمريكان الإيطاليين، وكانوا جميعاً أمريكان تتراوح إقامتهم بين الجيل الأول والجيل الثالث. وكانت المجموعتان من الكاثوليك المتشابهين في التربية والمستوى الاجتماعي الاقتصادي، ودخلوا المستشفى تقريباً في نفس الوقت. وعلى ذلك فالشيء الهام الوحيد الذي يختلفون فيه هو أن وطنهم الأصلي هو إيرلندا أو إيطاليا.

وكان اختيار المجموعات العنصرية الإيرلندية والإيطالية من أجل المقارنة يستند إلى معرفة واضحة بوجود فروق معينة بينها في بناء الأسرة والقيم الشخصية، وهي فروق قد تنعكس في الأسلوب المحدد الذي قد تعبر به أعراض المرض العقلي الخطير عن نفسها. فمثلاً تقوم الأم في الأسرة الإيرلندية بدور مسيطر ومتحكم، على حين يسيطر الأب في الأسرة الإيطالية وتذعن له الأم. أضف إلى ذلك أنه في المحيط الإيرلندي، يخضع النشاط الجنسي لهدف الانجاب، وتكون المغازلة الجنسية لطيفة وتمتد في الزمن، كما يتأخر الزواج كثيراً وتشجع العزوبة، وتعتبر المشاعر الجنسية أساساً كخطيئة وهي مصدر شعور بالذنب. وعلى العكس من ذلك، فإن الجنس في المجتمع الإيطالي جزء متقبل في الحياة، وهم يميلون إلى غرسه كجزء من توكيد الذكورة الصحية عند الفرد. وباختصار فإن الثقافة الإيرلندية تؤكد بوضوح كبت وإرجاء الإشباع الجنسي وسيطرة الأم على الأسرة، بينما في الثقافة الإيطالية نجد التعبير الصريح عن المشاعر مع سيطرة الذكر على الأسرة. وعلى أساس هذه الفروق الثقافية، توقع سنجر وأوبلر وجود فروق ملحوظة في نمط الانفعال الظاهر الذي يعبر عنه المرضى بالفصام من الإيرلنديين والإيطاليين.

وقد وجدت بالفعل فروق ملحوظة في الأعراض المرضية تتسق والفروق في الثقافة. فالمريض الإيرلندي كان أكثر كبتاً وتأثراً بالقلق والشعور بالذنب، بينما كان المريض الإيطالي أكثر تعبيراً من الناحية الانفعالية. أضف إلى ذلك أن الفصامي الإيرلندي كان أكثر شعوراً بالعدوان تجاه الصور الأسرية الأنثوية، ولكنه يتحكم فيه إلى حد بعيد، بينما يميل المريض الإيطالي إلى أن يكون أكثر صراحة في التعبير عن عدوانه، ويوجه هذا العدوان نحو الصور الوالدية الذكرية. وقد كان الإدمان على

الخمر من الأعراض الملاحظة بكثرة لدى الإيرلنديين، على حين كان نادراً للغاية لدى الإيطاليين.

ومن هنا هذه الأمثلة السابقة، وغيرها كثير مما يضيق به المجال هنا، يتضح أن الشخصية (على نحو ما كشفت عنها أنماط المرض النفسي) وثيقة الارتباط بالمحتوى الثقافي الذي ينشأ فيه الفرد.

الطبقة الاجتماعية وأثرها على الشخصية:

إن مجتمعات الإنسان ـ كمجتمعات كثير من الحيوانات دون البشرية ـ تميل إلى الانتظام في فئات أو طبقات. والطبقات الاجتماعية تشكل واحداً من مبادىء التقسيم الطبقي الأكثر شيوعاً. ومنذ أن قام عالم الاجتماع لويد وارنر Loyd warner (أنظر وارنر ولنت Lunt، ١٩٤١) ببحثه، أصبح واضحاً لعلماء الاجتماع أن الأمريكان ينتظمون في مثل هذه الطبقات الاجتماعية، وأنهم يعرفون عادة مركزهم في هذا التسلسل الطبقي إذا طلب إليهم ذلك.

ورغم أن تفاصيل هذا البحث القديم لا تعنينا هنا الآن، إلا أن أهم محتوياته ذات شقين: (١) أن أسلوب الحياة والقيم التي تستند إليها الحياة تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية. (٢) أن اختلافات الطبقة الاجتماعية تخلق حواجز قوية نوعاً ما في التفاعل الاجتماعي بين أعضاء كل طبقة. ومثل هذه الحواجز ذات أهمية اجتماعية ونفسية كبيرة، وتوحي بوجود تباين هائل بين المثال الأمريكي للمساواة الاجتماعية والواقع الأمريكي للتقسيم الطبقي الاجتماعي. فالطبقة الاجتماعية لا تؤثر فقط في التفاعل الاجتماعي بين الأشخاص بعضهم بعضاً، بل وتؤثر أيضاً تأثيراً قوياً في مثل هذه الخصائص المتصلة بالشخصية كالدوافع والقيم وأساليب الحياة والطرق التي يرى بها الناس أنفسهم، عن طريق خبرة الحياة التي تحدثها وأسلوب تربية الأباء لأبنائهم. وقد أوضح عالم النفس الاجتماعي روجر براون Roger Brown هذا الأمر في الفقرة التالية:

«إن الاختلافات في أسلوب الحياة تتسع لتشمل حتى أبسط الأمور. فالطبقة العليا من الأمريكان تفضل «المارتيني» قبل العشاء، والنبيذ مع العشاء، والبراندي بعد العشاء، بينما تعتبر البيرة مشروب الطبقة العاملة. وإذا كانت الطبقة العليا من الأمريكان تفضل السلطة الخضراء الممزوجة بالزيت والخل، فإن الطبقة الدنيا تفضل سلطة مخرطة أو سلطة خس يضعون عليها توابل جاهزة معدة لهذا الغرض في زجاجات. وإذا كنت من أبناء

الطبقة الوسطى فإنك تقول توكسيدو Tuxedo [1] على حين يقول أبناء الطبقة العليا سترة العشاء Dinner Jacket . وفي انجلترا تقول مرآة Mirror بينما تقول الأرستقراط منهم Looking Glass . وإذا كنت ترفع - مثلي - بنطلونك إلى أعلى قليلاً عندما تجلس حتى لا يتكسر عند الركبة، فإنك ولا شك تنتمي إلى الطبقة الوسطى (١٩٦٥ ص ١٣٢-١٣٣)

وطبيعي أن أهمية الفروق في الطبقة الاجتماعية تكمن ليست في توافه ما نفصله من أمور ومن أساليب التعبير أو في الطريقة التي يعالج بها الفرد بنطلونه حين يجلس، وإنما في قيم الحياة العليا وأنماط السلوك التي يتبناها الفرد. فكل طبقة اجتماعية تميل إلى المعيشة في منطقة سكنية معينة يقطنها أناس يشتركون معهم في الصفات الاجتماعية الاقتصادية والتربوية والمهنية، والاتجاهات الشائعة، وأنماط القيم، وحتى في سلوكهم الانتخابي. مثال ذلك، لقد استطاع روبرت تريون (١٩٥٥ أ و١٩٥٥ ب و١٩٥٩ نقلاً عن كرتش وكرتشفيلد وبلاشي ١٩٦٢) أن يتنبأ بدرجة كبيرة من الصدق (معامل الارتباط + ٠,٩٠) بالسلوك الانتخابي للناس الذين ينتمون إلى عضوية طبقات اجتماعية مختلفة في سان فرنسيسكو في انتخابات ١٩٥٤، والتي عنيت بعدد من القضايا السياسية المحلية والحكومية. وفي خلال دراساته المسحية، وجد أن مناطق جماهيرية معينة تكون مستقرة كأماكن يصلح أن تعيش فيها طبقة اجتماعية معينة. فبعض المناطق السكنية تكون من «مستوى عال» أو خاصة، على حين يصلح بعضها الآخر أساساً لسكنى مَنْ هم أقل مستوى في التعليم والعمال المهرة ونصف المهرة، على حين توجد مناطق أخرى تصلح لإقامة الأقليات العنصرية والسلالية التي تعيش في أحياء مزدحمة ومنعزلة. وفي الواقع إن فصل الجماعات العنصرية والسلالية في مناطق ومدارس منعزلة أمر معروف اليوم للجميع ولا يحتاج إلى جدال.

والناس الذين ينشأون في أحياء مختلفة من المحتمل أن يكشفوا عن شخصيات ذات قيم واتجاهات مختلفة نحو التعليم، والطب النفسي، والجنس قبل الزواج وخارج رباط الزواج، والعادة السرية، والدين، والفكر السياسي الحر في مقابل الفكر المحافظ، كما تختلف درجة اقترابهم من الرعاية الطبية والسيكياترية، ومن ثم توقعات الحياة المختلفة، هذا مع الإكتفاء بالإشارة إلى الفروق ذات الصلة بالشخصية والتي توجد بين الطبقات الاجتماعية.

---

١ - التكسيدو: سترة للرجال سوداء عادة أو ملابس سهرة (نصف رسمية) للرجال (المترجم).

والآن ماذا عن حواجز التفاعل الاجتماعي التي يحدثها التقسيم الطبقي الاجتماعي؟ لقد أوضحت الدراسات أن العلاقات الاجتماعية الاختيارية كالصداقة والزواج تميل إلى إتباع مسارات الطبقة الاجتماعية. فمثلاً، قام كاهل وديفز Kahl and Davis (١٩٥٥) بدراسة ١٩٩ رجلاً من كمبردج بولاية ماساشوستس. وقد طلبا إلى كل واحد منهم أن يذكر أسماء أحسن ثلاثة أصدقاء، ثم فحصت الطبقة الاجتماعية (حسب المستويات المهنية) لهؤلاء الذين ذكرت أسماؤهم، وقورنت بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المفحوص. وقد وجد أن هؤلاء الذين ذكروا كأصدقاء كانوا ينتمون بوجه عام إلى نفس الطبقة التي ينتمي إليها المفحوص. وفي بحث آخر مشابه، درس هولنجز هد Hollings Head (١٩٤٩) طلاب مدرسة ثانوية تربطهم معاً شلل اجتماعية، ووجد أنهم ينتمون عادة إلى نفس الطبقة الاجتماعية. فمثلاً كان من بين التلاميذ الذين كانوا يتصاحبون، ٦١٪ ينتمون إلى نفس الطبقة الاجتماعية، ٣٥٪ ينتمون إلى طبقات اجتماعية مجاوره مباشرة. وكان ٤٪ منهم فقط ينتمون إلى طبقتين متباعدتين. وقد أوضح هولنجز هد أيضاً أنه في نيوهامن بولاية كونيتيكت حيث أجرى مسحه العلمي، أن الزواج يحدث عادة داخل نفس الطبقات أو من طبقات مجاورة. ورغم أن هذه الدراسات تعد قديمة، إلا أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الافتراض بأن العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي قد تغيرت اليوم.

وربما كان أهم وأمتع الاختلافات في أسلوب الحياة التي ترتبط بعضوية الطبقة الاجتماعية، تلك التي تهتم بأساليب تنشئة الأطفال، حيث أن هذه الاختلافات الطبقية يجب، حتى تظل باقية أن تنتقل إلى الأجيال التالية عن طريق أنماط تنشئة الأطفال. ولقد وجدت فروق ملحوظة بين الطبقات في تنشئة الطفل. وقد برزت هذه في مقدمة الطبقة الثانية لدراسة قام بها ديفز وهافجهرست Davis and Havighurst (١٩٤٦) والتي تستند إلى المادة التي جمعت ١٩٤٠. فلقد وجدا أن آباء الطبقة الوسطى أكثر صرامة مع أبنائهم من آباء الطبقة الدنيا. وقد عكست التدريبات الخاصة لتنشئة الطفل والتي قام هذان الباحثان بمسحها اهتماماً كبيراً بعادات الإخراج والفطام كنتيجة لتأثير نظرية فرويد في النمو النفسي الجنسي. كما لاحظ ديفز وهافجهرست ـ من بين الأشياء الأخرى التي قاما بملاحظتها ـ أن آباء الطبقة الوسطى يفطمون أبناءهم ويبدأون معهم التدريب على ضبط الإخراج في سن مبكرة عن تلك التي نجدها عند آباء الطبقة الدنيا.

وكان من المعتقد لفترة ما أن نتائج أبحاث ديفز وهافجهرست وغيرهما، تعكس اختلافات ثابتة بين الطبقات الاجتماعية في تربية الأطفال. ولكن وعلى مدى ١٥ سنة بعـد ذلك، أورد سيرز Sears وماكوبي Maccoby وليفين Levin (١٩٥٧) عكس ما تقدم، وأن أمهات الطبقة الوسطى في بوسطن كن في الواقع أكثر تسامحاً نحو أبنائهن من أمهات الطبقة الدنيا. وقد أمكن لبرونفنبرنر Bronfenbrenner (١٩٥٨) فيما بعد أن يوفق بين هذه النتائج التي بدت متعارضة حيث ذهب إلى أن تدريبات تنشئة الطفل التي أوردها أولاً ديفز وهافجهرست قد تغيرت بالفعل على مر السنين. فقد أشار مثلاً إلى تحليل المحتوى الذي قام به ولفنشتين Wolfenstein (١٩٥٣) لآحدى الصحف التي تعني بتدريبات تربية الطفل عنوانها «رعاية الطفل» والتي كان يتولى نشرها مكتب الأطفال بالولايات المتحدة خلال السنوات من ١٩٢٩ حتى ١٩٣٨. ففي الثلاثينات، كان هناك تركيز كبير على النظام والميل إلى تغذية الطفل وتنظيم مواعيد نومه بالساعة. وكان الاتجاه السائد هو أنه يجب ألا نستسلم لمقاومة الطفل أو مطالبه، وأن الآباء يجب أن يفوزوا على الطفل في الصراع من أجل السيطرة. ولكن في الحقبة التي تلت ذلك، تغيرت هذه الاتجاهات نحو الطفل كلية. فالطفل ينظر إليه الآن على أنه يشارك بجهد قيم وغير ضار في اكتشاف عالمه، وأنه في حاجة إلى اهتمام ورعاية طيبة. وقد نُصح الآباء أن يستسلموا لمطالب الطفل حتى يجعلوه أقل إلحاحاً في الطلب فيما بعد. فالاتجاه قد تغير من اتجاه قاسٍ وجامد إلى اتجاه متسامح ومرن.

والسؤال الآن لماذا تغيرت أيضاً الفروق بين الطبقات الاجتماعية التي لاحظها في البداية كل من ديفز وهافجهرست؟ إن الإجابة على هذا السؤال غير واضحة. إن الاستنتاج الذي قدمه برونفنبرنر عن آباء وأمهات الطبقة الوسطى المثقفة والمتعلمة في الثلاثينات وأوائل الأربعينات، كان متأثراً لدرجة كبيرة بوسائل الإعلام وبالكتب التي كتبها متخصصون في الصحة العقلية ومجالات رعاية الطفل. وإلى حد بعيد، فإن آباء الطبقة الوسطى المتعلمة هم الذين قرأوا هذه المطبوعات والتي من أمثلتها ذلك الكتاب الواسع الانتشار والذي ألفه «بنيامين سبوك» Benjamin Spock بعنوان «الطفل ورعايته» والذي لخص الاتجاه الهادىء في تنشئة الأطفال. ومع ذلك، فهذا لا يفسر لماذا غيرّ المتخصصون وجهة نظرهم في تربية الطفل، أو هل كانوا هم مسؤ ولين عن التغير الذي حدث لدى عامة الناس. وربما ساير أعضاء الطبقة الوسطى من المهنيين في المجتمع وجهة النظر الاجتماعية السائدة المتغيرة. وعلى أي حال، فقد حدث تغير في

نظام القيم للطبقة الوسطى، تغير ينعكس اليوم في حقيقة أن جماعات الشباب المنحرفة كالهيبيز والجماعات السياسية المتطرفة، يبدو أنهم ينتمون أساساً إلى الطبقة الوسطى الغنية نسبياً أكثر من إنتمائهم إلى الطبقة الأدنى. ولقد ضعف كثيراً تأثير «الأخلاق البروتستنتية» التي تؤكد النظام وضبط النفس وتأجيل إشباع الرغبات بين أطفال الطبقة الوسطى بعد فترة الكساد الاقتصادي فيما بعد الحرب العالمية الثانية. أما بالنسبة للطبقات الدنيا، فمن المحتمل أنها لم تلحق بعد بالطبقة الوسطى. أي أن الطبقات الدنيا قد امتصت المعايير الأصلية للطبقة الوسطى في السنوات القريبة الماضية (في العشرينيات) ولم تتخلص منها بعد على نحو مع فعلت الطبقة الوسطى. وهي لا تزال تحاول كسب مزايا اقتصادية واجتماعية اعتبرتها الأجيال المتعاقبة من الطبقة الوسطى قضايا مسلمًا بها.

وفي الحقبة الحديثة، عندما حدث تغير في نقل المعايير من المجلات والكتب التي تتطلب قدراً عالياً من الثقافة والتعليم إلى التلفزيون الذي ينقل أساساً رسائل متشابهة عن تربية الطفل إلى كل من أمهات الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا على السواء، فإن فروق الطبقة الاجتماعية التي كانت ملحوظة يوماً ما أخذت، تميل الآن إلى الإختفاء كلية. ومن المحتمل أيضاً أن نفس عملية التقريب يمكن أن تحدث عبر الثقافات التي أصبحت أقل إنعزالاً بعضها عن بعض، ومن ثم توثق الصلة أيضاً بين الثقافة والشخصية.

ومن الأمور الهامة هنا أن نتسا ءل عن السيطرة النسبية لأساليب التسامح أو التسلط في تربية الطفل. ولكن مثل هذا التساؤ ل يتطلب تحليلاً لصفات الشخصية التي يعتبرها الفرد ذات قيمة، وكذلك المزيد من المعلومات عن آثار هذه الأساليب على الشخصية. وليس مرجع المشكلة هو نقص في الأفكار. ففي موضع سابق لاحظنا الزعم بأن الأنماط البسيطة من المرض النفسي التي نراها في العيادات، قد تحولت من العصاب بصفة أساسية في أيام فرويد إلى الاضطرابات في السلوك اليوم، محملة المسؤولية إلى التحول من السيطرة القوية إلى التسامح في تنشئة الطفل. ولكن مثل هذه العبارات تميل إلى أن تقوم على انطباعات عابرة نوعاً ما أكثر من أن تقوم على معلومات أكيدة.

ومع ذلك، فإن لهذا السؤ ال أهمية بالغة في نظر عامة الناس وفي نظر الباحثين في مجال نمو الطفل. فلقد أوردت حديثاً ديانا بومرند Diana Baumrind و أ. بلاك A.E.

Black (١٩٦٧) من معهد نمو الإنسان بجامعة كاليفورنيا بعض نتائج دراسة استغرقت ثمان سنوات لمجموعات ثلاث من أطفال مدرسة الحضانة. وقد وجدت أن الآباء الذين كانوا يتسمون بالحنان والتسامح كان أبناؤ هم يتصفون بكونهم الأقل اعتماداً على النفس وحب الاستطلاع وضبط النفس. وعلى العكس، كان أبناء الآباء المسيطرين قانطين منزوين ولا يثقون بالغير. أما المجموعة الوسط التي كان الأب فيها من النوع الضابط والمتطلب (وقد أسمتهم بومرند بالتسلطيين حسب فروم Fromm) ولكنه الحنون العاقل المتقبل للطفل، فقد أثبت الأبناء أنهم الأكثر اعتماداً على النفس وحب الاستطلاع وضبط الذات والرضا عن أنفسهم وعن علاقاتهم بغيرهم. وعلى ذلك، يبدو أنه: لا التطرف في التسلط أو في التسامح، يؤدي إلى وجود الكثير من سمات الشخصية التي تقيّم تقييمًا إيجابياً. وتقدم الدراسات التي تسير في هذا الاتجاه بعض البشائر للتوصل من خلال مادة تجريبية، إلى أساليب تنشئة الطفل التي تعزز سمات الشخصية التي نقدرها تقديراً عالياً، بصرف النظر عن ارتباطها بطبقة اجتماعية معينة. وعلى أي حال، فقد أصبح واضحاً أن أنماط تنشئة الطفل داخل جماعات الطبقة الاجتماعية، ليست ثابتة بشكل جامد إطلاقاً. والنظر إلى أساليب تنشئة الطفل باعتبارها دالة لمتغيرات الطبقة الاجتماعية تكشف عن نقطة أخرى على جانب كبير من الأهمية للعالِم الاجتماعي تتصل بمستويات التحليل التي تعالجها مختلف الأنظمة في نظرياتها وأبحاثها. إن الطبقة الاجتماعية هي في أساسها متغير اجتماعي، أي متغير يعالج الطريقة التي تنتظم بها مجتمعات الناس أكثر من معالجته للأفراد من حيث هم كذلك. وتصبح هذه النقطة أكثر وضوحاً إذا نظرنا للحظة ما في كيف تؤثر عضوية الطبقة الاجتماعية في نمو الشخصية. إن الطبقة الاجتماعية هي مظهر من مظاهر النظام الاجتماعي، ويمكننا فقط أن نفهم تأثيرها من الناحية السيكولوجية عندما تواجه عضوية الجماعة شخص الفرد وتؤثر فيه. فإذا كان سلوك الأمهات لا يختلف كدالة للطبقة الاجتماعية، أو إذا كانت خبرة الفرد لا تتغير إذا انتمى إلى هذه الطبقة الاجتماعية أو الأخرى، فإن متغيرات النظام الاجتماعي، مثل الطبقة الاجتماعية، لا يكون لها أية تضمنات سيكولوجية. إن أساليب تنشئة الطفل بُعد هام من أبعاد التأثيرات الاجتماعية النمائية لأن الخبرات الاجتماعية للأطفال هي الأساس الاجتماعي في تكوين الشخصية. وتعتبر الطبقات الاجتماعية ذات أهمية بالنسبة لعلماء النفس، لأن الأشخاص الذي يشبون داخلها يحتمل أن يتأثروا بها بطرق يمكن ا لتنبؤ بها، رغم عدم تأثر كل الأمهات بهذه المتغيرات على نحوٍ واحد. وليس ثمة شك أن سلوك الأم تجاه

الطفل هو الذي يعد في التحليل النهائي أحد المتغيرات الاجتماعية الحاسمة للتأثير الاجتماعي النمائي. وقد شرح سملزر وسملزر Smelser and Smelser (١٩٦٣) بوضوح مشكلة مستويات التحليل هذه. فجوهر مشكلة التأثيرات الاجتماعية النمائية هو القدرة على تحديد الخبرات السابقة للشخص الفرد، مهما كانت وكيفما ارتبطت بالبناء الاجتماعي، الأمر الذي يساعد على خلق شخصية معينة يمكنها بدورها أن تستجيب في الوقت الحاضر لحادثة اجتماعية ما.

ميكانزمات التأثير الاجتماعي على الشخصية

إن الفكرة الأساسية هي بالطبع غاية في البساطة، ألا وهي أن الإنسان يكتسب من خلال خبرته الاجتماعية معايير أو مستويات المجتمع الذي يعيش فيه. وعلى ذلك، فالطفل الذي نشأ في أسرة من الطبقة الوسطى في العشرينيات والثلاثينيات يحتمل أن تكون خبراته بالنظام مختلفة تمام الاختلاف، عن طفل آخر نشأ في نفس الحقبة في أسرة من الطبقة الدنيا. وبالمثل، فإن الطفل الزنجي سوف يكوّن مجموعة من الخبرات عن نمو مفهوم ذاته، تكون مختلفة تماماً عن تلك التي يكونها طفل أبيض. فكل فرد منا ليس فقط ينمو في ثقافة معينة أو ثقافة فرعية خاصة (بما في ذلك الطبقات الاجتماعية والجماعات العنصرية والأقاليم والجماعات الحضرية والريفية الخ. .)، بل ويكون له جماعة خاصة من الآباء. وعلى ذلك، يكون لأسرة كل طفل خصائصها المميزة لها كوحدة اجتماعية. ولكن من أجل أن نزيد الأمور تعقيداً، نقول أنه حتى وحدة الأسرة الوالدية هي تركيب من شخصين متميزين، هما الأب والأم، ولكل منهما شخصيته الفريدة ونظام قيمه. وليس ثمة غرابة في أن يصبح كل شخص فرداً متميزاً يختلف عن كل فرد آخر في نواحٍ معينة حتى لو أغفلنا موضوع الفروق الفردية في التكوين البيولوجي. ويهمنا أن نعرف القواعد التي بمقتضاها تحدث مثل هذه الاختلافات أنواعاً متميزة من الأفراد. والفكرة الرئيسية التي تذهب إلى أننا نكتسب معايير الجماعة التي نعيش فيها، فكرة عامة للغاية بحيث لا تسمح لنا أن نفهم عملية التأثير الاجتماعي على نمو الشخصية.

لقد اقترح أصحاب النظريات الخاصة بالتنشئة الاجتماعية للطفل ميكانزمين سيكولوجيين أساسيين. وفي كلا الأمرين يعتبر والدا الطفل عاملين أوليين، طالما أنهما في العادة الشخصان الكبيران الرئيسيان اللذان يتصلان بالطفل في المراحل الأولى

الحاسمة من نمو شخصيته. ومع ذلك، ينطبق الميكانزمان بالمثل على أي شخصيات اجتماعية يكون للطفل بها علاقة وظيفية وثيقة. وأحد هذين الميكانزمين يؤكد مبدأ التعلم بالتدعيم. والثاني يفترض شيئاً من التوحّد، يأخذ فيه الشخص اتجاهات وانماط سلوك شخص آخر. وسوف نناقش كل منهما على حدة.

التنشئة الاجتماعية من خلال عملية التعلم بالتدعيم:

يقرر هذا المبدأ أننا نتعلم أي شيء يؤدي بشكل مباشر إلى خفض التوتر أو الألم أو إلى حدوث الإشباع. ويقال أن الطفل يكتسب أنماط قيم وسلوك الآباء والراشدين الآخرين ممن لهم أهمية لأن هؤلاء الكبار يلجأون باستمرار إلى استخدام الثواب والعقاب في تشكيل سلوك واتجاهات أبنائهم. وقد سبق أن رأينا مماثلة اجتماعية لهذا النوع من قوة العلاقة المدعمة في تجربة شاشتر (١٩٥١) عن الطريقة التي بها تعاقب جماعة اجتماعية ما أحد أفرادها بسبب إنحرافه.

ولقد لقي الأساس النظري للتدعيم إهتماماً وربما تأييداً أكبر، بين علماء النفس خلال النصف الماضي من هذا القرن أو نحو ذلك، أكثر مما لقى أي منهج آخر بديل في تفسير التعلم والنمو. فعندما يثاب حيوان على القيام باستجابات معينة، يزداد ميله لمواصلة القيام بهذه الاستجابات مرة أخرى وفي نفس السياق. وبالمثل عندما يثاب شخص على قيامه بسلوك ما بإعطائه أشياء يحبها مثل النقود أو الثناء أو درجات أعلى، فإن نزعته تزداد نحو القيام بأي شيء أدى إلى تحقيق هذا الجزاء في المرة الأولى. وعلى العكس، فإن العقاب على السلوك غير المرغوب فيه، كزيادة السرعة عند القيادة أو إحداث صوت مرتفع في المكتبة أو السرقة أو العراك وغيرها، يميل إلى إحداث كف لمثل هذا السلوك في المستقبل. وكقاعدة عامة جداً، فإن سلوكنا يخضع بالطبع لما إذا كنا نتوقع أو لا نتوقع أنه سوف يتبع بحالة إيجابية تخفض التوتر أو بحالة سلبية من الألم أو الضرر. وقد قدم ميللر Miller ودولارد Dollard منذ سنوات مضت (١٩٤١) واحدة من أوضح الصياغات لهذا المبدأ في كتابهما «التعلم الاجتماعي والتقليد». ويمكن أن نجد صورة حديثة عند أرونفريد Aronfreed (١٩٦٨). ويلقى التدعيم في تشكيل السلوك تأييداً قوياً اليوم لدى علماء النفس المهتمين بتعديل السلوك، على نحو ما يتضح في وجهة النظر التي تتمثل في الكتاب الحديث الذي كتبه أولمان Ullman وكراسنر Krasner (١٩٦٩) عن السلوك الشاذ.

ومع ذلك، فآثار التدعيم السلبي أو العقاب في إطفاء الاستجابات وقمعها ليست بسيطة أو واضحة حتى في الكائنات العضوية الأبسط كالفيران والحمام. وأنصار التدعيم الذين عالجوا مواقف معقدة لا يتبنون بأية وسيلة مفهوماً ذي اتجاه عقلي مفرد عن دوره في نمو الشخصية. فآثار التدعيم تتوقف بوضوح على الظروف التي يتم فيها وعلى الخليط المعقد من المتغيرات التي يتعرض لها الفرد في أي موقف جديد. ومع الأهمية الكبرى للتدعيم في توجيه سلوك الإنسان وفي نمو الشخصية، فقد أصبح من الواضح أنه، بسبب بقائه المبدأ الأساسي الوحيد لفترة طويلة، قد بولغ في أهميته بشكل ملحوظ كأساس التعلم.

وأحد الأمثلة الجيدة عن قصور مبدأ التدعيم البسيط، ما نلحظه في الجهود التي تبذل لتدريب الناس على ضبط العدوان. وتكون نتائج هذه الجهود أحياناً متعارضة مع ما هو متوقع. فمثلاً تتضمن مبادىء التعلم بالتدعيم أن الآباء الذين يعاقبون الطفل بقسوة وباستمرار على أفعاله العدوانية، سوف ينتهي بهم الأمر إلى قمع السلوك غير المرغوب فيه ـ فالطفل يدعَّم باستمرار سلبياً على عدوانه، وإيجابياً عند كبته. ومع ذلك، فقد لوحظ أن الجانحين والمجرمين، يحتمل أن يكون أباؤ هم من النوع النابذ القاسي بدنياً، وأنهم قد خضعوا لكثير من ألوان العقاب في طفولتهم. فالعقاب وحده لم يطفىء عدوانهم، وإنحرافهم، بل العكس هو الصحيح تماماً. ولقد اقترح شلدون Sheldon واليانور جليوك Eleanor Glueck (١٩٥٠) منذ فترة أن الجانحين لم يتأثروا بالعقاب لأنهم قد مروا بخبرات عقابية كثيرة جداً من آبائهم النابذين لهم. وقد أمدتنا الدراسات التفصيلية الحديثة عن خلفيات أسر الجانحين، والتي قام بها وليم William وجون ماكورد Joan Macord (١٩٥٦ و١٩٥٨)، بأدلة أخرى تشيرإلى أن الجانح الشديد العدوان كان من النوع المنبوذ بقسوة من والديه، كما كان يُضرب بوحشية أحياناً كثيرة. وهذا الاحتفاظ بنمط العصيان المتسم بالعدوان لدى أمثال هؤلاء الأولاد، رغم العقاب المتكرر والقاسي، يحول دون التطبيق الصارم والوحيد لوجهة نظر التعلم بالتدعيم، وتفتح المجال أمام صور أخرى من التعلم (بالتقليد مثلاً). وقد صاغ براون Brown هذه النقطة في العبارة التالية:

إن الآباء الذين يعاقبون أبناءهم نتيجة لعدوانهم، إنما يهدفون إلى «قمع» هذا العدوان. أما أن هذا العلاج لا يؤدي إلى الهدف المقصود، فأنه يوحي بأن نظرية التعلم المتضمنة نظرية خاطئة. فالضرب قد يثاب

كحالة من السلوك التي كان من المفروض أن تقمع. ولما كان الأطفال أكثر استعداداً للتعلم بالتقليد أو المثال، منهم بالتعلم بالقمع، فإنهم سوف يتعلمون الضرب من الضرب. وهذا هو ما يحدث تقريباً. (١٩٦٥ ص ٣٩٤-٣٩٥).

ومن المحتمل كذلك أن تتوقف آثار العقاب إلى حد بعيد على مجموعة من العوامل الأخرى، كاستمرار العقاب، والاستعمال المباشر للجزاء عند حدوث سلوك ملائم، والاتجاه الذي يُقّدم به (أعني الحب أو الكراهية)، ومفهوم الطفل عن إمكانية أو عدم إمكانية التحكم في حدوث الثواب أو العقاب عن طريق أفعاله (أقصد أنه لا شيء يستطيع أن يقوم به يمكن أن يؤدي إلى نتيجة مختلفة)، وقيم أقرانه تجاه الأفعال الدنيا، وما إذا كان الذي يعاقب ولداً أم بنتاً، وهكذا. . . إن تعقد مشكلة نظام الطفولة وآثارها قد لا يدركها الشخص العادي، ولكن الكثيرين من الكتاب في مجال نمو الطفل والذين استعرضوا نتائج البحوث قد أكدوه بقوة (بيكر Becker ١٩٦٤).

التنشئة الاجتماعية عن طريق التوحّد:

تستند الفكرة الأساسية لهذا النوع من الميكانزمات إلى أننا نقوم بأنماط من السلوك والقيم على أساس رؤ يتنا لها في الآخرين وتقليدنا لهم أو العمل على شاكلتهم. وقد استعملت مصطلحات عدة للإشارة إلى هذا النمط من العمليات كالتوحّد Identification والإستدخال Internalization والاستدماج Introjection والاقتداء - modeling والتنشئة الاجتماعية Socialization[٣]

ومن المهم أن نعرف أنه عندما نقلد سلوك شخص آخر أو قيمه، فمن الممكن أن يتم ذلك بدرجات متفاوتة من احتواء الاتجاه Attitudinal Involvement . وقد اقترح عالم النفس الاجتماعي هربرت كلمان Herbart Kelman (١٩٦١) درجات متعددة من هذا الاحتواء حيث يمثل الإذعان Compliance أضعف درجات الاحتواء، والإستدخال أقواها. فنحن يمكننا مثلاً أن نعمل مذعنين لقيم الشخص الآخر، دون أن نكون قد أخذنا بالفعل هذه القيم باعتبارها قيمنا نحن. وقد يحدث هذا، فقط من أجل الحصول على استجابة مقبولة من الشخص الآخر، على نحو ما نفعل عندما لا نوافق شخصياً على الاتجاه المعبر عنه، أو عندما نضحك على نكتة دون أن نشعر أنها مضحكة. أما في «الإستدخال»، فأننا نتقبل تأثير الآخر ونتخذه بمثابة رأينا، لأن من المجزي حقاً أن نفعل ذلك.

وعندما تحدث فرويد عن التوحد، كان يقصد التقبل اللاشعوري لقيم الوالدين وأن تصبح هذه جزءًا راسخاً وعميقاً في نظام القيم للشخص ذاته. ومصطلح التوحد أو الإستدخال يتضمن عادة شيئاً أكثر من الإكتساب الطفيف أو الأخذ بمظهر السلوك. أنه ـ أكثر من ذلك ـ تقبل للسلوك، كما لو كان خاصاً بالفرد، ويتم أحياناً دون معرفة الفرد بذلك.

وهناك أربعة أنواع من مبدأ التوحد تشير إلى الأسس النظرية المختلفة التي تقوم عليها هذه العملية:

١ ـ يقال إن التوحد يتم على أساس «تشابه» الشخص وموضوع التوحد. وعلى ذلك فحسب نظرية فرويد، يمتص الطفل عادة قيم الأب (وبالعكس تمتص البنت قيم الأم) وذلك بسبب التشابه الذي يدركه الطفل بأبيه ـ فكل إنسان ينظر إليه باعتباره ولداً سوف يضطلع في نهاية الأمر بدور الأب ـ كما أنه يدرك تشابهه الجنسي بأبيه كذكر (أعني أن له قضيباً) وليس كأنثى. وقد حاول فرويد بهذه الوسيلة أن يفسر، ليس فقط الميكانزم الكامن وراء تبني القيم الأخلاقية للآباء، ولكنه حاول أيضاً أن يفسر في نفس الوقت تحديد نمط الجنس Sex - Typing ، أعني نزعة الولد لتبني دوراً ذكرياً، ونزعة البنت لتبني دوراً أنثوياً.

٢ ـ ينظر إلى التوحد باعتباره يقوم على «الحسد» أو الرغبة في تملك أشياء حسنة في الحياة. والحقيقة أن الطفل يكون أكثر قدرة على التوحد مع هؤلاء الراشدين الذين يرى أنهم يمتلكون أشياء حسنة في الحياة.

٣ ـ ينظر إلى التوحد باعتباره يستند إلى «قوة التحكم» في الميل إلى الأشياء الحسنة في الحياة.

٤ ـ يقوم التوحد على الحاجة الى « تحييد التهديد » من جانب شخص قوي. وهذه هي صورة التوحد التي أكدتها نظرية فرويد بدرجة أكبر، وأشار إليها الكتاب من أصحاب الاتجاه التحليلي النفسي من أمثال برونو بتلهايم Bruno Bettelheim (١٩٦٠) « بالتوحد مع المعتدي ». ونحن نذكر أن الولد في نظرية فرويد النفسية الجنسية، يكبت حوافزه الجنسية (الأوديبية) نحو الأم، وعدوانه الموجه نحو الأب المنافس من أجل تجنب خطر الإخصاء. وهو عندما يفعل ذلك، يستدخل قيم أبيه، ويصبح مثله. وعملية التوحد مع المعتدي في نظرية فرويد هي الأساس الهام لتكوين الأنا الأعلى أو الضمير.

ويقدم بتلهايم أمثلة جذابة للتوحد مع المعتدي في سلوك نزلاء معسكر الاعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية، كما يقترح إلكنس Elkins (١٩٦١) نفس الميكانزم بالنسبة للعبد الزنجي الأمريكي. ومثل هذا التوحد يُشكل أحد المعاني التي تكمن وراء التعبير «العم توم». إنه يتضمن تبني (وربما لا شعورياً) الرجل الأسود لتقيم الرجل الأبيض بقصد التملق أو الشعور بالطمأنينة في عالم الرجل الأبيض. ويصدر هذا التوحد عن ضعف الشخص (الطفل، نزلاء معسكر الاعتقال والسجن المعرضين لعملية غسيل المخ، والعبد الزنجي)، وهو ما يجعله يشعر بالتهديد اذا عبر عن أي شخصية فردية. ومن الأمور الهامة في هذا الميكانيزم التحكم المطلق لشخصية الأب القوي في الثواب والعقاب.

وفي السنوات الأخيرة صممت عدة دراسات لمقارنة بعض الميكانزمات البديلة للتنشئة الاجتماعية التي سبق عرضها. ومن أحسن هذه التجارب الحديثة، تلك التي قام بها باندورا وروس وروس Bandura, Ross and Ross (١٩٦٣)، الذين ابتكروا أربعة أنواع من النماذج لحدوث التوحد، ويمثل كل منها أساساً مختلفاً من التوحد بدرجة طفيفة. فهناك نموذج راشد يتحكم في عدد هائل من اللعب، وراشد آخر محظوظ يتسلم هذه اللعب، بينما كان النموذج الثالث لطفل يلاحظ دون أن يحصل على شيء، أما النموذج الرابع فهو لطفل يتسلم اللعب على نحو ما هو الحال بالنسبة للراشد الثاني. وكل واحد من هذه النماذج صنع ليشارك في بعض الوان النشاط التي يمكن تقليدها بسهولة، ويلاحظ المجرب أيّ هذه النماذج يقلدها الطفل. ولقد وجد أن المفحوصين (وكلهم من الأطفال) كانوا يقلدون أساساً الراشد الذي سيطر على اللعب أكثر مما قلدوا النماذج الأخرى. وعلى ذلك، يبدو أن السيطرة على الأشياء بدلاً من امتلاكها أو استهلاكها هي التي تستخدم كأساس للتقليد أو التشكيل في التجربة. ورغم كون التقليد والتوحد ليسا مفهومين متكافئين، إلا أن بعض الظروف المتماثلة تكمن وراءهما.

ولقد حاول بحث آخر مقارنة الأهمية النسبية للثواب والعقاب إذا قورنا بالتوحد فيما يتعلق بالتحكم في السلوك. ومع ذلك، كانت البيانات محدودة للغاية بشكل لا يسمح باستخلاص نتائج محددة أو حتى محتملة، فمن المحتمل جداً أن يكون كل من ميكانزمي التوحد والتدعيم متضمنين في معظم مواقف الحياة. ولقد لخص عالم النفس الاجتماعي روجر براون الخاصية المعقدة للميكانزمات التي تكمن وراء التنشئة

الاجتماعية تلخيصاً جيداً في قوله الحديث التالي:

يمكن للآباء التأثير على سلوك وتصرفات الأبناء على الأقل بطريقتين: بالثواب والعقاب المباشرين وبتقديم نماذج للتقليد. ويبدو الآن كما لو كانت القوة هي العامل الأول في جعل النموذج شيئاً جذاباً يبعث على التقليد، رغم وجود حقائق أخرى لها أهمية كذلك كالتربية والجزاءات البديلة. ومع وجود أبوين يمثلان القوة ويمنحان الثواب والعقاب، فمن الممكن أن تجد أنواعاً عديدة من أنماط الأسرة وأنواعاً عديدة كذلك من مشكلات التعلم التي تعرض للأطفال. فبالنسبة لبعض أنواع السلوك، وليكن التحدث باللهجة المحلية مثلاً، تعمل جميع القوى على السير في نفس الاتجاه. فكلا الوالدين يشكلان الطفل على التحدث بالإنجليزية، وكلاهما يثيبانه عليها. وقد يكون النمط بالنسبة لبعض أنواع السلوك الأخرى معقداً على نحو ما نجد مثلاً في الميل الى توكيد الذات. فربما يكون الأب من النوع الذي يعبر بقدر ملحوظ عن الميل الى توكيد ذاته، كما أنه يمثل مركز قوة في الأسرة أكبر مما لزوجته الخانعة. وربما يقوم كلا الوالدين بإثابة توكيد الذات في ابنهما، ولا يثيبانه في بنتهما. وقد يتوقع من كلا الطفلين أن يجرب توكيد ذاته على غرار الأب صاحب التأثير فيهما. ويمكن أن يُدعَّم سلوك الأبن بالموافقة، بينما لا يدعم سلوك الأبنة. فهل من المحتمل أن تحتفظ البنت بالرغبة في السلوك بصورة توكيدية ـ أعني التوحد الكامن مع الوالد الذكر ـ مما يدفعها الى محاولة إثبات وجودها في جماعات جديدة قد يختلف فيها برنامج التدعيم؟ إن التعلم عن طريق التوحد مسألة معقدة بالتأكيد، ومن المحتمل أن يكون ما نعرفه الآن ليس أكثر من مجرد بدايات (١٩٦٥ ص٤٠١).

التنشئة الاجتماعية كارتشاح سلبي في مقابل الهضم الإيجابي:

من أجل معرفة مدى ما نكتسبه من البيئة الاجتماعية التي ننشأ فيها، يجب ألا ننسى أيضاً أن ثمة أشياء معينة فقط هي التي نأخذها من أية شخصية راشدة لتصبح جزءاً من شخصيتنا، بينما ننبذ أشياء أخرى أو نهملها. ولنتذكر أننا لا نظهر كصورة طبق الأصل أو حتى كصورة مشابهة للوالدين. فنحن حين ننضج، نلتقط بعض القيم من كلا الوالدين وننبذ بعضها الآخر. وعندما نقول إن ولداً ما يشبه أباه، فإننا نكون على صواب، ولكننا نميل الى إغفال جوانب أخرى عديدة يختلفان فيها. وعندما نقول إن ولداً ما يختلف عن أبيه فإننا نكون أيضاً على صواب، ولكننا نميل أيضاً الى إغفال جوانب أخرى كثيرة يشبهه فيها.

وثمة أمر هام جداً متضمن في هذا الوصف السابق، وأعني به أن الإنسان كائن عضوي مُقيِّم، يتخير وينتقي النماذج التي يتوحد معها، والصفات التي يتبناها كصفاته. وكما لاحظ بروان (١٩٦٥) فإن أحسن مفهوم لذلك هو مفهوم الهضم الإيجابي وليس الارتشاح السلبي. ففي الارتشاح، يمتص أحد الأنسجة سلبياً المادة التي على الطرف الآخر لغشاء شبه نفاذ وذلك كامتصاص الأسفنج للسائل. وهذه العملية

لا تتضمن حكمًا، أو قليلاً من الإنتقاء، إنها فحسب عملية امتصاص آلي لما يمكن أن يمر خلال ورقة الترشيح حين يكون الضغط على أحد الجانبين أكثر ارتفاعاً منه على الجانب الآخر. أما في عملية الهضم، فإن بعض الأشياء تكون متقبلة، وتتحول أو تتغير بواسطة الجهاز الهضمي عن طريق عمليات الأيض الهدمي، بينما ترفض أشياء أخرى استناداً الى ما اذا كانت تناسب إحتياجات الكيمياء الحيوية للمادة، وما اذا كانت قادرة على القيام بالتحولات النباتية الناتجة عن فعل الأنزيم. وفي عملية التطبيع الاجتماعي للشخص، فإن كل القيم الوالدية أو الاجتماعية لا تمتص آلياً، بل تعالج بصورة إنتقائية، وإن كانت معرفتنا قليلة جداً عن كيف تتم هذه العملية في الواقع.

ويظهر النموذج الآخر للتنشئة الاجتماعية ـ والذي يتضمن التقييم والاختيار ـ بوضوح في أعمال بياجيه (١٩٤٨) وتلاميذه (كولبرج Kohlberg، ١٩٦٣) في موضوع اكتساب الأخلاق. إن مفاهيم الأخلاق عند الطفل الصغير تكون في البداية جامدة وسلبية، وتستمد من الآباء وغيرهم من الراشدين الذين يمثلون السلطة. ويتفق هذا الجمود مع المرحلة البدائية نسبياً وهي المرحلة الحسية الحركية في نمو الذكاء التكيفي. ولقد أوضح بياجيه كيف أن أطفال ما قبل المراهقة يلتزمون بدقة « بقواعد اللعبة » على نحو ما يمليها الكبار عليهم، حتى ولو بدأ القيام بعمل آخر معقول بدرجة أكبر. فالفعل الخاطىء هو الذي ينظر إليه ـ حرفياً ـ على أنه خارج على القواعد أكثر من أن ينظر إليه في ضوء القصد أو العدل المجرد أو الأهداف البعيدة للعبة.

ومع ذلك، وفي حوالي سن الثامنة، يصبح مفهوم الأخلاق عند الطفل سيكولوجياً أكثر منه موضوعياً، نسبياً أكثر منه مطلقاً، كما يقبل التعديل على أساس قرار الجماعة. ومثل هذا التغير في عملية التطبيع الاجتماعي يتفق مع التوكيد المتزايد على التفكير التصوري أكثر منه على التفكير العياني، وعلى صور التفكير المتمركزة حول المثير. ويصبح الإنسان أكثر فأكثر إنساناً مفكراً مصدراً للأحكام، إيجابياً في بحثه عن المبادىء النافعة بدلاً من أن يكون سلبياً مستقبلاً لما تفرضه عليه الثقافة. فهو يصبح إذن قادراً أكثر وأكثر على انتقاء واختيار هذه الأشياء التي يتقمصها والأشياء التي يرفضها.

ومما يثير الدهشة لدى المرء هو معرفة الى أي مدى تظل القيم التي اكتسبها الإنسان بصورة أكثر أو أقل سلبية في المراحل الأولى للنمو، باقية معه « كاستجابات

داخلية » لا شعورية ثابتة، إن شئنا القول، وتعلوها فحسب صفات أكثر معقولية ومرونة أطلق عليها فرويد إسم العمليات الثانوية، وأشار إليها بياجيه بأساليب التفكير التصورية. ويميز علماء النفس عادة بين المراحل البدائية أو المبكرة نمائياً للنشاط العقلي، وتلك الأكثر تطوراً وتقدماً والتي تظهر بعد ذلك. أما أن التوحدات الأساسية التي تكونت في وقت مبكر من الحياة قد تفقد نهائياً أو أنها قد تستمر في التأثير دوماً على حياتنا التكيفية، فهذا أمر ليس واضحاً. أما فكـرة أنها لا تفتقد، فإنها تعد أحد الأفكار الأساسية في نظرة التحليل النفسي للمرض النفسي. والنظرة الشائعة لإيجاد صلة بجوانب خبرات الفرد الأكثر بدائية والتي يتعذر الوصول إليها من خلال العقاقير أو صور العلاج بالإشعاع أو النشاط الجماعي على نحو ما نجد عند إيسالون Esalon وسينانون Synanon، إنما تصدر عن هذا الافتراض بوجود مستويين أثنين من الوظائف السيكولوجية ـ المستوى الاندفاعي البدائي اللاشعوري، والمستوى المقيد العقلي السطحي للحياة العقلية. وقد يثار الجدل حول ما إذا كان البحث عن فهم المرء لنفسه يتطلب الاتصال بتلك الأجزاء البدائية من حياة الفرد العقلية. وعلى أي حال، فإن عملية التوحد قد تتضمن كلا المستويين من مستويات النشاط العقلي، وكل منهما يعمل حسب قواعد مختلفة الى حد ما.

ولقد رأينا في هذا الفصل كيف يعمل التأثير الاجتماعي في مجالين من الوظائف السيكولوجية، المجال المتعاصر ومجال تاريخ حياة الفرد نمائياً. وليست هاتان مشكلتين منفصلتين ومستقلتين، طالما أن ميكانزمات التأثير الاجتماعي المباشر تؤثر ليس فقط في كل لحظة، بل وتساعدنا أيضاً على تفسير العمليات التكوينية التي تشكل الشخصية على المدى الطويل. وعلى ذلك، فعمليات التوحد والتدعيم تحدث، بلا أدنى شك، للفرد في كل موقف اجتماعي. وتؤلف نفس هذه العمليات، التي تحدث على مدى حياة الفرد، قصة تراكمية للخبرة الاجتماعية التي أنتجت شخصيته المميزة. وعندما تبدأ الشخصية في التكون، فإنها، بالإضافة إلى التأثيرات الاجتماعية المتعاصرة، تؤثر أيضاً في سلوك الفرد الاجتماعي واستجابته. وعلى ذلك، فإن المجموعتين الأخيرتين من التأثير، وأعني بهما الموقف الاجتماعي وبناء الشخصية هما محددان حاسمان لسلوك الفرد منذ اللحظة الأولى التي يبدأ فيها تكوّن الشخصية. ولا تكون دراسة أحداهما كاملة دون أن ندخل الأخرى في الاعتبار.

المحددات البيولوجية في مقابل الاجتماعية: مبدأ التفاعل

تتفق جميع نظريات الشخصية على أن الإنسان كائن حي بيولوجي، وأن له طبيعة موروثة، على الرغم من أن حقيقة هذه الطبيعة الموروثة وطبيعة عملها هما في الواقع موضوع جدال. ويمكن الاختلاف الرئيسي بين نظريات الشخصية في التوكيد النسبي الذي يعطي لهذه الطبيعة. فبعض وجهات النظر تعطى وزناً كبيراً للمعطيات البيولوجية ودورها في تشكيل الشخصية والتوافق، على حين يغفل بعضها الآخر عن عمد القوى البيولوجية ويؤكد دور الخبرة والبناء الاجتماعي. وسوف نقدم فيما يلي عدداً من الأمثلة لهذه المجموعة من الاهتمامات، إبتداء من الاهتمام البيولوجي الى الاجتماعي، في تخصيص محددات الشخصية.

ففرويد مثلاً كان طبيب أمراض عصبية ممن ساهم مساهمة فعالة في هذا المجال. وكان موضعه قريباً جداً من القطب البيولوجي على متصل البيولوجيا ـ الثقافة. لقد نظر الى الثقافة أساساً باعتبارها الشيء الذي يكشف عن الطبيعة البيولوجية للإنسان؛ فالاختلافات في الثقافة هي، في نظره، أقل أهمية من المظاهر العامة لجميع الثقافات، والتي تظهر كنتيجة لهذه المعطيات البيولوجية. وهو ينظر الى المراحل النفسية الجنسية باعتبارها أنماطاً عامة قد حدّدت بيولوجياً بحيث توجد بصرف النظر عن النظام الاجتماعي الذي تنمو فيه. والأنظمة الاجتماعية ذاتها هي نتاج هذه العوامل البيولوجية. فليست خبرة الطفل هي التي تحرك الانتقال النفسي الجنسي خلال تتابع الأشكال قبل التناسلية للتعبير اللبيدى ـ فمثل هذه التغيرات هي نتاج النضج البيولوجي، ومن المفترض أن التتابعات النمائية هي نتاج الجينات الوراثية للنوع.

وقد رفض الفرويديون المحدثون التوكيد البيولوجي القوي أو عدلوا فيه. ولنتذكر، على سبيل المثال، أنه على الرغم من تقبل الفرويديين المحدثين لفكرة المعطيات البيولوجية، إلا أنهم عبروا عنها بمصطلحات اجتماعية. فلقد تحدثوا عن الاستقلال الذاتي، والانتماء، والهوية، والقرابة، وغيرها. وتميل قائمة الحاجات الإنسانية الأساسية في أعمال معظم الفرويديين المحدثين الى أن يعبر عنها في إطار العلاقات الشخصية المتبادلة، أكثر منها في صورة التركيز على الأنسجة. وعلى ذلك، فرغم عدم رفضهم للمعطيات البيولوجية، فإن هذه المعطيات قد وُجهت بوضوح تجاه الوجود الاجتماعي للإنسان.

وثمة طريق آخر، فيه حوّلت نظريات الشخصية اهتمامها من المجالات البيولوجية إلى المجالات الاجتماعية. ويمكن توضيحه جيداً بمفاهيم عُقدة أوديب. لقد نظر فرويد (١٩٥٧) الى عقدة أوديب كنتاج للقوى البيولوجية التي تعبر عن نفسها في حوافز لبيدية معينة ـ في اختيار موضوع الحب. ومع ذلك، فإن واحدة من الفرويديين المحدثين وهي كارن هورني Karen Horney (١٩٣٧) قد اتخذت موقفاً مضاداً. لقد ذهبت إلى أن عقـدة أوديب ليست عامة، وأنها إذا ظهرت، فإن جذورها تكمن في البناء الاجتماعي للأسرة. وعلى ذلك فأسبابها اجتماعية وليست بيولوجية.

وتبعاً لهورني، فإن الأسرة التي تنتمي الى الطبقة الوسطى في فيينا، هي الى حد بعيد أبوية، يمتلك فيها الأب سلطة منح الجزاء وتوقيع العقاب. وترى هورني أن الصراع بين الأب والأبن ليس نتاج الحوافز اللبيدية نحو الأم، ولكنه يصدر عن حسد الابن للسلطة الاجتماعية للأب. ورغم اعتبار موقف فرويد سلبيًا في إدراكه أن الطفل يرغب أحياناً أن يحل محل الأب، سوى في حالات نادرة لا يتصل فيها مثل هذا الحسد بالجنس ـ فإن هذا يتصل أساساً بالأدوار الاجتماعية وأنماط السلطة في الأسرة. وبعبارة أخرى، فإن نظرة « هورني » لعقدة أوديب تردها الى أنماط معينة من الخبرة الاجتماعية أكثر مما تردها الى قوى لبيدية معطاة بيولوجياً.

ويمكن تقديم نفس الحجة فيما يتصل بكل مرحلة من المراحل المسماة النفسية الجنسية. فهي جميعاً نتاج التنشئة الاجتماعية. فمثلاً، إن التركيز على النشاط الشرجي يكون نتاج تدريب الأبناء الذي يجري حوالي السنة الثانية من العمر. وعلى ذلك، فالحجة الفرويدية ذات الاتجاه البيولوجي تنقلب تماماً لدى هورني التي تفترض أن الخبرة الاجتماعية، أكثر من التفتح البيولوجي، هي التي تحدد أنماط النمو التي نلاحظها.

ولقد تأثر علماء الأنثروبولوجيا الثقافية كثيراً بالنظرية النمائية لفرويد. ومع ذلك، فنظرة فرويد البيولوجية التركيز تثير أيضاً بعض المشكلات المحيرة. ورغم أن اهتمام الأنثروبولوجي يكمن في الأنماط المختلفة للثقافة التي قد توجد في مجتمعات مختلفة، فإن التركيز البيولوجي لفرويد يبدو أنه يتضمن أن التشابه بين الثقافات، على الأقل في مظاهرها الأساسية، أكثر من الأختلاف فيما بينها. وهذا يجعل الفروق بين الثقافات تبدو تافهة، طالما أنها لا تسمح بظهور أي شيء أكثر من الفروق السطحية الظاهرية في البناء الاجتماعي. ومع ذلك، يتبنى بعض الأنثروبولوجيين موقف فرويد، على حين يتقبله آخرون مع إدخال بعض التعديلات عليه. ومن هذه المجموعة الأخيرة

أبرام كاردنر Abram Kardiner (١٩٣٩ و١٩٤٩) الذي اقترح أن هناك عدداً من الاختلافات الأساسية بين النظم الاجتماعية المختلفة. وقد افترض أن هذه الاختلافات تنشأ عن الاختلافات في العوامل المادية في البيئة كالعزلة الجغرافية واحوال التربة والمياه وكفاية موارد الطعام والطقس وغيرها. ومع ذلك، فقد أيد كاردنر وجهة النظر الفرويدية بافتراض تحديدات شديدة في عدد الاختلافات الممكنة، والتي تقيدها من حيث هي كذلك القوى النفسية الجنسية المحددة بيولوجيا.

وتبعاً لكاردنر، فإنه لكي نفهم التفاعل بين الثقافة والشخصية النامية لفرد ما، يجب أن نعرف التدريبات الثقافية في تنشئة الطفل بالنسبة لكل مرحلة من المراحل النفسية الجنسية. فإذا كانت الثقافة تتطلب النظام والامتثال والنظافة وتفرض هذه المبادىء بجمود، فسوف تؤثر في نتاج المرحلة الشرجية لنمو الطفل بحيث تظهر لدى أبنائها نزعات الشخصية الوسواسية القهرية. بينما يظهر نوع آخر من الشخصية مختلف تماماً وذلك في إطار الثقافة التي يتسم سلوكها نحو التدريب على الإخراج بالهدوء والتمهل وعدم الإلحاح. ومن الممكن القيام بمثل هذه التحليلات لأساليب الثقافة فيما يتصل بالتغذية والفطام وأثر محصلتها على المرحلة الفميه من مراحل النمو. وباختصار، فإن كاردنر يرى في الاختلافات الثقافية محددات هامة للشخصية بسبب الطريقة التي بها تسهل أو تعوق التقدم النفسي الجنسي العادي.

وثمة اتجاه آخر موجه اجتماعياً بدرجة أكبر هو اتجاه إريك فروم Erich Fromm (١٩٤٩) الذي رفض النظرية النفسية الجنسية ونظر الى الشخصية ـ حتى بصورة أكثر مما عند فرويد وكاردنر ـ بأعتبارها نتاج القوى الثقافية. لقد ذهب فروم الى أن الاختلافات الثقافية ليست هامة بسبب تأثيرها على المراحل النفسية الجنسية، ولكن بسبب تأثيرها على « الجو » العام السائد في العلاقة بين الوالدين والطفل. فمثلاً، سواء كان الذي يُقدّم الى الطفل هو المحبة والعاطفة أو البرود والنبذ، فسوف يكون لذلك تأثير هام على كيفية معالجة الطفل لأمنه واستقلال حاجاته وهي تنمو. ولنمط السلطة الوالدية أهمية أيضاً، ذلك أن استجابة الطفل للأب الأوتوقراطي إما أن تكون الخضوع الزائد عن الحد أو النبذ التام للسلطة.

ولقد وضعت تحليلات الثقافة والشخصية التي قدمها كاردنر وفروم في السنوات الأخيرة موضع البحث بسبب الشكوك التي تلقى على مفهوم « الشخصية القومية » أو الثقافية. ففكرة أن معظم الناس الذين يعيشون في ثقافة ما يكون بناء شخصياتهم

متشابهاً، استناداً الى النمط الثقافي، هي فكرة الى حد بعيد بالغة البساطة. فمن الواضح أن هناك اختلافات كبيرة بين أفراد ثقافة معينة. ومع ذلك، فالأفكار الأساسية لكاردنر وفروم، وبخاصة عندما تطبق على الأفراد بدلاً من المجتمع المعقد ككل، لا تزال مناسبة جداً للمشكلة العامة ونعني بها كيف يؤثر البناء الاجتماعي في الشخصية. ولقد قام سنجر (١٩٦١) بدراسة متعمقة لموضوعات نظريات الشخصية وطرق بحثها عبر الثقافات، كما قدم عرضاً للكثير من البحوث الحديثة عن الشخصية والثقافة.

ومن الممكن أن نجد اهتماماً كبيراً بالمصادر الاجتماعية للشخصية لدى علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيين الذين أكدوا مفهوم « الدور الاجتماعي »، مع الاهتمام القليل بالظروف البيولوجية الفطرية التي أكدها بكثرة فرويد والفرويديون المحدثون. ففي حالة المجموعة الأولى، تكون الوحدات الأساسية للتحليل هي التفاعلات بين الناس وآثار هذه التفاعلات على نمو الشخص. ومثل هذه التفاعلات تحكمها الى درجة كبيرة الأدوار الاجتماعية المنظّمة للثقافة. فالمؤسسات الاجتماعية تصف كيف يجب أن يسلك الشخص (أنماط الدور) وكيف يجب أن ينظر الى نفسه.

والكتاب الذين ينظرون الى الشخصية في ضوء نظرية الدور والتفاعل بين الذات والدور، يبدو أنهم يوجهون بالطبع اهتماماً قليلاً نحو الطبيعة البيولوجية للإنسان. فهم يشغلون موضعاً أقرب الى قطب الثقافة في متصل البيولوجيا ـ الثقافة. مع ذلك، عندما تتم تحليلاتهم على مستوى التفاعل الاجتماعي أكثر منه على مستوى الاستعداد البيولوجي، فمن الواجب أن يتركوا مجالاً « للتفاعل » المعترف به عالمياً بين البيولوجيا والثقافة في نمو الشخصية (رغم أنهم لا يشغلون أنفسهم به)، مثلما يجب أن يترك الكتاب أصحاب الاتجاه الأكثر بيولوجية مكاناً (ولو صغيراً وقليل القيمة) لآثار الخبرة الاجتماعية المكتسبة.

وثمة نقطة أخيرة تتصل بالموضوع العام لدور العوامل البيولوجية والاجتماعية في تشكيل الشخصية. ففي ضوء المعرفة الحديثة، يكون من المتعذر طرح الموضوع في صورة إما ـ أو. فحتى بالنسبة للحيوانات الدنيا والسلوك الغريزي، والتي كان يعتقد يوماً ما أنها ثابتة وتتحدد تماماً بالميكانزمات العصبية والهرمونية، اتضح أنها تعتمد تماماً على كل من الضوابط البيئية والعمليات البيولوجية. ويمكن أن نجد مثالاً ممتازاً لهذا في البحث الذي قام به عالم الطيور دانيل س. ليرمان Daniel S. Lehrman (١٩٦٤) على دورة سلوك إنتاج الحمامة المطوقة ring dove . فعندما يوضع ذكر الحمام المطوق وأنثاه

في قفص به أناء زجاجي وبعض المواد لبناء العش، تبدأ في الظهور دورة الإنتاج المتوقعة. فيحدث أولاً التودد والمغازلة، فيسير الذكر مختالاً ثم ينحني تحية للأنثى ويغرد لها. وبعد عدة ساعات يختار الإناء كموقع لبناء العش. فيجمع الذكر المواد التي يبني منها العش ويحضرها للأنثى التي تقف في الإناء وتبني العش. وبعد أسبوع أو نحوه، والذي يكون الجماع قد تم خلاله، تبدو الأنثى كأنها أصبحت وثيقة الارتباط بالعش، ومن الصعب جداً طردها منه. وبعد حوالي أسبوع الى إحدى عشر يوماً من بداية المغازلة، تضع الأنثى البيضة الأولى، ويكون ذلك عادة في فترة متأخرة من بعد الظهر، ثم تضع بيضة أخرى في الصباح. ويأخذ الذكر دوره في الرقاد على البيضة ويتناوب الإثنان القيام بذلك. وبعد حوالي ١٤ يوماً يفقس البيض ويطعم الآباء الصغار من كيس في المرىء يفرز طعاماً سائلاً. وعندما يبلغ الصغير يومه العاشر أو الثاني عشر يترك العش ويستمر في طلب طعامه حتى يصبح عمره حوالي أسبوعين، عندها يرفض الآباء اطعامه، وتبدأ صغار الحمام تتعلم التقاط الحب بنفسها. ويبدو هذا الرفض بمثابة انتهاء الدورة، ولكنها تبدأ مرة أخرى وعلى النحو السابق تماماً عندما يصبح عمر الصغير يتراوح بين ١٥ ـ ٢٥ يوماً.

وقد أوضح ليرمان بدقة في تجاربه أن كل مرحلة من دورة الإنتاج تتوقف على الإستشارة المناسبة من الأجزاء الأخرى للدورة، مثلما تتوقف على الإستثارة البيئية. فمثلاً الأنثى الوحيدة لا تضع بيضاً، والذكر الوحيد لا يهتم بجمع المواد لبناء العش، أو البيضة أو الصغار. وإذا فصل بين الذكر والأنثى ثم جمع بينهما بعد ذلك في قفص دون وجود مواد بناء العش، ومع وجود بيض وضع من قبل، فسوف لا يرقدان عليه، بل ينصرفان كما لو كان البيض لا وجود له. ومع ذلك، فهما يشرعان بالفعل في القيام بدورة سلوك إنتاجهما، إبتداء من التودد والمغازلة ثم بناء عشهما ووضع البيض إلخ. وهنا فقط يبدأ الرقاد على البيض. ولجميع الخطوات في هذا التتابع أهميتها، فكل خطوة منها يجب أن تمهد للأخرى والتي تليها في الترتيب. ورغم أن السلوك الغريزي مقيد بالطبع في جزء منه بالعمليات العصبية والهرمونية داخل الحيوانات، فإن هذه العمليات تنطلق بدورها بواسطة مثيرات بيئية خاصة مثل أثر وجود أحد الزوجين وسلوكه على النظام الغددي للآخر. وهذه المثيرات يجب أن توجد في اللحظة المناسبة من أجل أن تتفتح دورة السلوك الغريزي.

وبعبارة أعم، وحتى بالنسبة للسلوك الآلي أو المسمى بالسلوك الغريزي

للحيوانات الدنيا، هناك « تفاعل » مستمر بين القوى البيولوجية والبيئية. فإحدى هذه القوى لا تعمل مستقلة عن الأخرى، بل تتفاعلان معاً أو تؤثر إحداهما على الأخرى بالتبادل. وعلى المستوى البشري، يأتي الطفل الوليد في هذا العالم الاجتماعي مزوداً بقدر ملحوظ من الخصائص المزاجية أو الاستعدادات التي تؤثر في كيفية استجابة البيئة الاجتماعية له، كما أن البيئة الاجتماعية تؤثر بدورها في الطريقة التي سيتم بها النضج البيولوجي. فالطفل سريع الإهتياج، سريع الغضب قد يمثل خبرة سارة للأب النشط، على حين يكون مصدر إزعاج وضغط شديدين للأب الخامل. وعلى العكس، فإن الطفل المتبلد قد يكون عبئاً على الأب الأول، ولكن ليس كذلك بالنسبة للثاني. أو أن مثل هذا الطفل قد يحتاج الى قدر من الإستثارة يمكن للأب النشط تقديمها. وقد يفيد الطفل سريع الغضب بشكل أفضل من المعاملة الأبوية التي تحجبه أو تحميه من الإستثارة الزائدة. وعلى كل الاحتمالات، فإن مثل هذه الاستجابات الوالدية التي تظهر نتيجة الخصائص الكامنة للطفل، سوف تؤثر كذلك بدورها على الطفل في تشكيل نموه.

وتوحي مثل هذه « التفاعلات » بين القوى البيولوجية والاجتماعية بمجال محدود لتحليل الشخصية وهو الذي يستند الى وجهة النظر إما ـ أو فيما يتعلق بالمحددات البيولوجية والثقافية. فعند مناقشة العوامل البيولوجية يجب أن نتذكر أننا نغفل نصف قصة محددات الشخصية. وبالمثل عند مناقشة العوامل الاجتماعية يجب أن نتذكر أيضاً أن مثل هذه المحددات تعمل دائماً في إطار نظام بيولوجي خاص. إن التفسير الوحيد الصادق لفصلهما إنما هو لمجرد السهولة والتبسيط في العرض.

الفصل السابع

تقييم الشخصية

يتوقف البحث في الشخصية على نوعين من الأنشطة: (١) تطور المفاهيم النظرية المثمرة عن الشخصية. (٢) قياس صفات الشخصية التي يسلم بها في مثل هذه النظرية بحيث يمكن تتبع الملاحظات التجربية (الأمبيريقية) Emperical والتجريب على المفاهيم Constructs ، كما يمكن تقييم النظريات. وبدون قيام علم للتقييم، لن يكون هناك علم للشخصية، كالجيولوجيا مثلاً لا يمكن أن توجد دون قيام نظام تجرُبي للتمييز ين الصخور، أو لا يمكن أن تقوم الكيمياء الحيوية دون وجود مناهج للتمييز بين المواد الكيميائية الحيوية.

وعملية التقييم يمكن أن ينظر إليها من ناحيتين: الأولى قياس صفات أو سمات الفرد التي تشكل بناء الشخصية. والثانية تقييم الشخص «ككل»، مع التوكيد على تكامل أجزاء الفرد. وفي الحقيقة، إنه لا يمكن الوصول إلى وصف سيكولوجي مناسب للفرد بذكر خاصية واحدة أو خاصتين فحسب، بل برسم صورة عريضة معقدة لهذا الشخص، أي تغطي مجالاً واسعاً وممثلاً لوظائفه، وتسبر أغوار إمكاناته لتدبير مطالب

الحياة غير العادية والعادية. ويتوقف هذا العمل الأخير على قدرتنا على إنجاز العمل الأول.

وتقييم الشخص ككُل يمكن أن يوصف من وجهة نظر شكّية، بأنه هدف غامض نوعاً ما. فقد نتساءل مثلاً متى أمكننا أو هل أمكننا وصف إنسان ما وصفاً دقيقاً من الناحية الفسيولوجية، وإلى أي حد نجحت البطاقة الطبية في الوقوف على جوهر صحة الفرد؟ ذلك أن وصف الأبعاد المتعددة للشخصية، إن هو إلا إضافة كمية على وصف بعد واحد. أما هؤلاء الذين يدافعون عن تقييم الإنسان ككل، فيبدو أنهم يذهبون إلى القول بأن هذا ليس مجرد إضافة أبعاد، بل هو خطوة مختلفة بشكل نوعّي، تحاول الوصول إلى نظام أفضل إلى حد ما. وعلى أي حال، وعلى افتراض إمكان القيام بذلك بطريقة تتميز عن مجرد إضافة أبعاد وصفية، فإن محاولة دراسة الشخص ككل تعتبر حقاً أكثر طموحاً بدرجة كبيرة من قياس صفة واحدة. أضف إلى ذلك، أنها يمكن أن تكون اتجاهاً يتسق على وجه الخصوص مع منحى علماء النفس الذين يهتمون بدراسة الحالات المتفردة، على حين أن تقييم سمات الفرد يؤيده علماء النفس من أصحاب المنحى الناموسي. وعلاوة على ذلك، فإنه على الرغم من هذا النوع من التمييز فإن معظم أوصاف الشخصية تعتبر نسبية، أعني أنه لكي يكون لها معنى، يجب أن تصاغ بطريقة تسمح بالمقارنة مع الأفراد الآخرين. ثم إن كلا الاتجاهين يخضع أيضاً لمبادىء مشتركة وأساسية يشكل تخطيطها الموضوع الرئيسي لهذا الفصل. وسوف نستخدم مصطلح تقييم Assessment هنا للإشارة إلى كلٍ من قياس السمات المفردة ووصف الشخص «ككل»، ولكن يجب أن يحتفظ القارىء في ذهنه بالتمييز الذي نفترضه بينهما.

ويتوقف تقييم أو قياس الشخصية على الحصول على عينة من سلوك الفرد سواء في مواقف الحياة الطبيعية أو في موقف معملي نقوم بإعداده. وقد سبق أن عرضنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب العديد من الأمثلة في بحوث الشخصية. ومن الواضح أن اهتمامنا لا ينصب على الموقف الخاص الذي تحدث فيه الملاحظات، وإنما ينصب على التعميم من هذا الموقف إلى غيره من المواقف التي من المحتمل أن يتعرض لها لها الفرد والتي قد لا نقدر على ملاحظتها مباشرة. ومن الواجب ليس فقط أن تكون ملاحظات السلوك، على نحو ما تحدث في موقف التقييم، صحيحة ومضبوطة، بل ومن الأهمية بمكان أن تكون التعميمات إلى محتويات أخرى ممكنة كذلك. ويستخدم مجال التقييم بعض المبادىء الخاصة التي تتعلق بالأهداف السابقة للدقة والتعميم.

مبادىء التقييم

هناك مفاهيم ثلاثة أساسية تقوم عليها تكنولوجية التقييم هي: التقنين، والثبات، والصدق. ويجب دراسة هذه المفاهيم قبل النظر في أية طريقة خاصة من طرق التقييم.

التقنين: Standardization

عندما نجري ملاحظات عن كيف يسلك شخص ما، على نحو ما يحدث مثلاً في اختبار لمعرفة مدى المعلومات التي لديه أو مقدار ارتفاع ضغط الدم عنده إذا أهين، فإن من الواجب أن نقيّم هذه الملاحظات. فإذا أردنا مقارنة فرد بآخرين، فإننا نحتاج إلى معطيات نعرف منها كيف يسلك الآخرون في مواقف مماثلة. وهذا من شأنه أن يمكننا من القول ما إذا كان هذا الشخص بالذات أكثر معرفة، أو أنه أسهل في الإستشارة من الآخرين، أو أقل، أو في موضع بين بين. وتسمى المعطيات التي من هذا النوع بإسم «المعايير» Norms . فهي معايير تسمح بتفسير الصفة السلوكية المقاسة في أي فرد معين.

والمادة المعيارية قد نحصل عليها من المجموع العام أو من قطاع خاص من المجموع العام نريد أن نقارن به الفرد موضوع الدراسة، وليكن هذا القطاع رجالاً، أو نساءً، أو أناساً في سن معينة، أو الذين حصلوا على قدر معين من التعليم، أو الذين يعيشون في المدن أو الضواحي، أو ما شابه ذلك، وذلك وفقاً للمقارنة المناسبة التي نريد القيام بها. فإذا أردنا مثلاً معرفة ما إذا كان ضغط الدم عند رجل ما عادياً، فإننا نحتاج إلى معطيات عن ضغط دم الرجال الآخرين. ومع ذلك، فإذا كان عمر هذا الرجل خمسين عاماً، وكان متوسط عمر المجموعة التي أخذت منها المعايير هو ٢٠ سنة، فإننا نكون على ثقة تقريباً من الحكم على ضغط دم هذا الرجل بأنه منحرف، لأننا نعرف أن ضغط الدم يزداد مع تقدم السن حتى عند الأشخاص الأصحاء تماماً. ولذا، فإن العينة المعيارية الأكثر ملاءمة لمثل هذا التقييم هي أن نأخذ رجالاً آخرين من نفس السن. فقدر كبير من المعرفة يتوقف على نوع السؤال الذي نبحث عنه والذي على أساسه يتم التقييم. وقد يكون هناك عينات معيارية كثيرة، بدلاً من عينة واحدة فقط، وكل عينة منها تستخدم لأغراض مختلفة تماماً. فمن الممكن فهم وتفسير سلوك فرد ما، عندما يكون هناك فقط معايير أو مستويات مناسبة عن الأشخاص الآخرين الذي نعقد معهم

المقارنة (مستويات بين الأفراد)، أو معايير لهذا الفرد في مناسبات أخرى (معايير داخل الفرد). وتتوقف القضايا التفسيرية عن مدى كون الفرد خائفاً، أو معتمداً، أو منتجاً، أو سعيداً، أو أية صورة أخرى على معطيات التقنين هذه.

الثبات : Reliability

هناك نوعان أساسيان من الثبات يتصلان (١) بتمثيل وثبات وعمومية السلوك الذي نأخذ منه العينة، و(٢) درجة الإتفاق بين الملاحظين.

تمثيل وثبات وعمومية السلوك الذي نأخذ منه العينة:

إن الملاحظة الكاملة للشخص في كل موقف يتعرض له، قد تزود السيكولوجي الذي يقوم بعملية التقييم، بالمعطيات الخام الأكثر كمالاً والتي يستمد منها فكرته عن شخصية هذا الفرد. ومع ذلك، فمن الواضح أن ثمة إستحالة في القيام بذلك، حتى ولو من شخص قريب. لقد تطلب الأمر من اثنين من السيكولوجيين كتابة **٤٣٥** صفحة كتاب يسجلان فيها بعض تفاصيل أنشطة طفل في السابعة من عمره خلال يوم واحد من حياته، ومع ذلك لم ينتهيا تماماً بعد (أنظر باركر Barker ورايت Wright ، **١٩٥١**). وإذا أدخلنا في الاعتبار الأحداث العديدة التي يمر بها الفرد، فلنتصور مدى الجهد الذي يبذل في القيام بتسجيل الوقائع عن طريق الملاحظة طوال مدى حياة فرد ما، أو حتى الخبرات الهامة التي يمر بها في فترة زمنية محددة، ولتكن عاماً واحداً. ومكتبة الكونجرس لا يمكنها الاحتفاظ بمثل هذه المعطيات، كما لا يوجد فرد ما يمكنه أن يستوعب حتى ولو جزءًا بسيطاً منها. ولهذا السبب، يجب أن يقوم التقييم على عينة محدودة جداً من سلوك فرد ما، كأن تحدد مثلاً بموقف اختباري خاص، أو ربما بعدد قليل من مثل هذه المواقف تستغرق ساعات قليلة فقط.

وطالما أننا نستمد استدلالاتنا عن الشخصية من عينة محدودة من الملاحظات، فثمة مظاهر ثلاثة للثبات تصبح ذات أهمية خاصة عند التقييم. الأول يختص بتمثيل العينة. فقد نتساءل مثلاً هل الملاحظات التي أجريت على الشخص في يوم ما ممثلة له أو أنها سريعة التأثر بالتعب أو تغيرات المزاج، الخ. فإن كانت حساسة لمثل هذه العوامل، فسوف يكون من الخطر أن نقوم باستدلالات تستند على واحدة أو اثنتين من العينات التي لاحظناها. الثاني: أن السلوك المعنيّ قد لا يكون ثابتاً على الإطلاق، حتى

في نفس الموقف الواحد، وفي مثل هذه الحالة، سوف تتغير الأقيسة من وقت لآخر في الاختبار. وقد يكون السلوك ثابتاً أساساً، ومع ذلك يكشف عن تغير ملحوظ كدالة للمزاج أو التعب، وفي هذه الحالة يكون الثبات منخفضاً إلا إذا أمكن ضبط متغيرات المزاج أو التعب. وأخيراً قد يتضمن الثبات أيضاً قابلية السلوك للتعميم من نوع معين من المواقف إلى آخر، فسلوك ما نلاحظه يمكن أن يكون ممثلاً وثابتاً في نمط خاص من المواقف، ولكنه يختفي أو يتغيرّ في إطار موقفي آخر. فإذا أجري الاختبار على عديد من مثل هذه الأطر، فسوف يبدو غير ثابت بدرجة أكبر.

وتمدنا محاولة تقييم ذكاء الفرد عن طريق الاختبار بتوضيح ممتاز لمثل هذه المكونات الثلاثة للثبات. فإذا طبق الاختبار عدة مرات، فسوف تتغير بلا شك درجة الفرد على الاختبار في كل مرة، ربما بدرجة كبيرة (ثبات منخفض) وربما بدرجة قليلة (ثبات مرتفع). وهذا الاختلاف يمكن أن يكون نتيجة مكون واحد أو كل هذه المكونات المتعددة، ونعني بها نقص تمثيل التقدير، نقص ثبات الأداء العقلي، ضعف القابلية للتعميم عبر المواقف المختلفة. وكمثال للأول نقدم التغيرات في الانتباه أثناء الاختبار. وكمثال للثاني، تغير الذكاء مع السن، فإذا كان هناك نقص جوهري في ثبات الأداء العقلي، فإن تثبيت التعب أو الانتباه سوف لا يؤدي إلى إعطاء الطفل درجة ثابتة في أزمنة مختلفة من الحياة. وأخيراً فإن الذكاء على نحو ما يقاس بالاختبارات اللفظية قد يختلف كثيراً عنه عندما يقاس بالاختبارات العملية، كما أن الشخص الذي يجيب إجابة جيدة للغاية عندما يُختبر بصورة فردية (ويعطي الدعم والتشجيع) قد يجيب إجابة ضعيفة في مواقف الاختبارات الجمعية. وبالطبع يمكن أن يحدث الثبات المنخفض أيضاً من عدم مناسبة أداة القياس، ومن الأخطاء في القياس الخ، وهي أمور لا تزال تمثل مستوى مختلفاً لتفسير انخفاض الثبات.

وعندما يكون الثبات منخفضاً، فإن كل اجراء سوف يعطي درجته الخاصة. وهنا يجب أن نحدد أي هذه الدرجات هي الدرجة «الحقيقية»، أعني الدرجة الأقرب تمثيلاً للقدرة الافتراضية للفرد. وكلما كانت هذه الدرجات أكثر تنوعاً (أعني كلما كان الأداء غير ثابت في المناسبات المختلفة)، قلت الثقة التي يمكن أن توضع في دقة تقييمنا لذكاء الفرد. ونحن نفترض أحياناً أن الذكاء هو الذكاء بصرف النظر عن الظروف المحيطة بالفرد. وقد يصدق هذا فقط بمعنى نسبي جداً، وقد يكون فيه مبالغة ملحوظة بالنسبة للكثير من سمات الشخصية. والواقع، أن من المناسب القول أن أية سمة من

سمات الشخصية تظهر فقط في مجال محدد من مواقف المثير، أو في سياقات خاصة. وقد يحدث بعضها على نطاق أوسع من بعضها الآخر، ولكن لا يتوقع أن تعمل سمة ما طول الوقت.

الاتفاق بين الملاحظين:

أما فيما يتصل بالملاحظين فإن الثبات يختص بدقة ملاحظاتهم وأوصافهم وتفسيراتهم لعينة السلوك أكثر من أن يكون ممثلاً لها. ويقدر هذا الثبات بدرجة الاتفاق بين الملاحظين. فإذا كان سلوك الشخص موضوع الدراسة يوصف أو يفسر بشكل متنوع، فليس أمامنا من سبيل لمعرفة أي الأوصاف أو التفسيرات هو الصحيح. ويمكن رد هذا النقص إلى أسباب عدة. فقد يلاحظ الملاحظون أشياء منتقاة أو يؤكدون مظاهر مختلفة من الظاهرة السلوكية المعقدة، أو يتذكرونها بصور مختلفة، أو يرونها في أضواء مختلفة. وعلى ذلك فعند الحكم على العدوان من استجابة شخص ما لبعض الملاحظات، فقد يرى بعض الملاحظين في العبارة الغاضبة، حالة من الدفاعية لدى فرد حساس يشعر بالتهديد بسهولة، بينما قد يرى آخر في نفس العبارة دليلاً على عدوان لا مبرر له.

واستعمال التقارير الثابتة والموضوعية عن الحادثة التي نلاحظها، مثل شريط التسجيل أو التصوير السينمائي أو الفيديوتيب، يميل إلى أن يقلل من أخطاء الذاكرة كما يستبعد بعض التحريفات التي تصدر عن عدم القدرة على مراجعة نفس الحادثة مرة أخرى لمطابقة الانطباع الأصلي أو لمراجعته داخل إطار أحداث تـالية. ومع ذلك فحتى التسجيل الذي يستغرق نصف ساعة لحادثة اجتماعية معقدة، يكون ممتلئاً بالكثير جداً من المادة التي يتعذر الاحتفاظ بها في الذهن بوضوح وموضوعية. ومن المحتم، أن يُضغط التقرير كله في عدد محدود من التجريدات والأحكام التفسيرية التي تضيف إلى احتمال الاختلافات في تصوير الأحداث ووصفها بواسطة الملاحظين المختلفين.

وهناك حلّان محتملان: الأول تعمد تحديد أنماط السلوك التي يركز عليها الانتباه، مما يترتب عليه الحاجة القليلة لحكم الملاحظ أو عدم الحاجة إليه. والمثال الرئيسي لذلك هو الاختبار «الموضوعي» للشخصية حيث يطلب من المفحوص أن يجيب فقط على كل عبارة باستجابة بسيطة هي «نعم» أو «لا». وطالما أن بديلات

الاستجابة تكون قليلة جداً، فسوف توجد مشكلة بسيطة أو لا توجد مشكلة على الإطلاق بالنسبة لثبات الملاحظ. والثاني هو أنه يمكن القيام ببعض الجهد لتدريب الملاحظين مما يجعل المعايير المستخدمة في ملاحظاتهم وتفسيراتهم واضحة ومتفق عليها، ومن ثم نبين درجة الاتفاق بين أحكامهم. وفي هذه الحالة يكون الحكام هم أدوات القياس، فإذا لم يتفقوا حول سلوك سلسلة معينة من الأحداث، فإن القيمة العلمية لملاحظاتهم تكون قليلة. ومثل هذا الاختلاف يكون شبيهاً بميزان حمام معيب حيث يشير في إحدى المرات إلى وزن رجل ما بأنه ١٥٠ رطلاً، على حين يشير مرة أخرى إلى وزن نفس الرجل، بأنه ٢٠٠ رطل. ومن الواضح أن هذه الاختلافات تتجاوز حدود الفائدة. وطالما أن الاستدلالات عن الشخصية كثيراً ما تتوقف على نمط السلوك الاجتماعي المحدّد في مواقف معقدة، فإن إلثبات المناسب للملاحظ يعتبر أحد المتطلبات الأساسية لتقييم الشخصية.

الصدق : Validity

وسواء كان الأسلوب المستخدم في التقييم هو أسلوب الملاحظة أو القياس، فمن الضروري معرفة صدفة لتبرير استخدامه، أعني أنه يجب أن يثبت أنه يقيس ما وضع لقياسه. وهذا بالتأكيد أمر واضح. وعلى ذلك، فمن أجل الانتقال من العادي إلى ما هو دال، يجب أن نعرف أولاً أن هناك أنواعاً مختلفة من الصدق، إستناداً إلى أهداف التقدير وأنواع البينة التي على أساسها نحكم على الصدق. وهناك نوعان أساسيان يمكن التمييز بينهما: «الصدق المرتبط بمحك» Criterion - Related Validity ، وصدق المفهوم Construct Validity . ويتصل الصدق المرتبط بمحك بما إذا كانت عينة السلوك ـ ولتكن تلك التي حصلنا عليها من اختبار ما ـ ترتبط كما يُزعم بعينة أخرى من السلوك حصلنا عليها في نفس الوقت (الصدق التلازمي)، أو حصلنا عليها فيما بعد (الصدق التنبئي). أما صدق المفهوم فيتصل بسمة ما لا يمكن ملاحظتها مباشرة، ولكنها مفهوم نظري يمكن أن ندركه فقط أو نحدده من خلال الاستدلال عليه من بعض مظاهر السلوك. وغالباً ما يكون مجرد فرض مبدع عن عملية ممكنة تربط سلسلة من الأحداث الأخرى غير المترابطة. وعلى ذلك، ففي صدق المفهوم يتركز الاهتمام على صفة نظرية (إفتراضية) للشخص (المفهوم)، ويشير الصدق إلى حقيقة أن هذه الصفة يمكن الاستدلال عليها من بعض عينات السلوك أو من الاختبار. ومن الممكن التمييز بين

هذين النوعين من الصدق بطريقة محسوسة وذلك بدراسة مختصرة لنموذج بحث في كل منهما.

الصدق المرتبط بمحك:

ومن أحسن الأمثلة للجهود التجرُبية (الأمبيريقية) الناجحة التي قام بها علماء النفس من أجل التنبؤ بسلوك ما من سلوك آخر (أي «الصدق المرتبط بمحك» من النوع التنبيىء) ما قام به الفرد بينيه Alfred Binet وتيودور سيمون Th. Simon في فرنسا عند نهاية القرن الماضي. ولما كانت هناك حاجة عملية للتعرف على التلاميذ الذين لا يمكنهم الإفادة من المدرسة، قبل بينيه القيام بمحاولة إيجاد طرق للتنبؤ بالأداء المدرسي للأطفال الباريسيين. ولقد تعاون مع سيمون الذي كان يعمل من قبل في هذه المشكلة، واختارا معاً مجموعة من الاختبارات التي تتطلب التخيل والتذكر والفهم والحكم والتفسير، وأعطوها لأطفال المدارس. وقد أوضحت تجارب بينيه وسيمون التي قدمت ١٩٠٥ أولاً: أن الأداء على هذه الاختبارات يتحسن مع تقدم السن. ثانياً: أنه يرتبط ارتباطاً جوهرياً بالتقديرات المستقلة للمدرسين عن ذكاء الطفل ودرجاته المدرسية. وأخيراً قام لويس م ترمان Lewis M. Terman بإدخال تعديل وإيجاد صورة مقننة لمقياس بينيه ـ سيمون (١٩١٦) بجامعة ستانفورد، وعرف المقياس بإسم «مقياس ستنفورد ـ بينيه»، وربما أعتبر هذا المقياس أحسن اختبار لقياس الذكاء.

ولنتذكر أننا نتحدث عن الصدق المرتبط بمحك والذي يشير بالتحديد إلى المشكلة التجرُبيـة المتعلقة بما إذا كان يمكن التنبؤ بإحدى صور السلوك من صورة أخرى أو من صورة متلازمة معها. ومع ذلك، توضح خلفية عمل بينيه وسيمون هذه الحقيقة وهي أنه نادراً ما يكون اهتمامنا بمثل هذا الصدق تجرُبياً أو عملياً بالمعنى الدقيق. وبصورة أخرى أعم، إنه يبدأ من مشكلة نظرية، أو أن المشكلة النظرية تظهر بعد أن يتبين أن متغيرين سلوكيين هامين يرتبطان بالفعل فيما بينهما، وأننا نبحث عن ميكانزم هذه العلاقة. وفي حالة الدراسة السابقة، فإن الضرورة العملية هي التي خلقت الجهد الذي يمكن فصله بالتالي عن الموضوعات النظرية الأكثر عمقاً والتي تكمن وراء العلاقة التجربية ذاتها. ومع ذلك، فما أن نبدأ في استخدام كلمة «ذكاء» من أجل تحديد العملية أو السمة الكامنة وراء النتائج الظاهرية، حتى ندخل في مجال التفسير أو النظرية. فإذا قلنا في الواقع إن السلوك موضوع الدراسة (وهو في هذه الحالة، الأداء

على اختبارات معينة) يدل على وجود بعض العمليات السيكولوجية الداخلية التي نسميها ذكاء، فإننا نكون بذلك قد أدخلنا مفهوماً نظرياً (أنظر الفصل الأول).

وكما تبين أخيراً، كان هناك اهتمام بمفهوم الذكاء حتى قبل قيام بينيه وسيمون ببحثهما التجرُبي العملي. مثال ذلك، أدرك أحد علماء النفس المشهورين في الولايات المتحدة، وهو «جيمس ماكين كاتل، J. McKeen Cattell ، الذكاء (القدرة العقلية) باعتباره مكوناً من خصائص نيرولوجية أساسية (مثل سرعة توصيل العصب) تحدد مدى سرعة شخص ما على الاستجابة لمثير ما (زمن الرجع). وكان كاتل أحد الأوائل الذين عالجوا مشكلة الفروق الفردية بطريقة منظمة. فقد بدا مقبولاً لدى كاتل أنه كلما كان الحيوان أكثر تكيفاً، كان أسرع قابلية للاستجابة للبيئة. ولذا ابتكر عدداً من الواجبات الحسية الحركية التي تستند إلى هذا المبدأ لاختبار «كفاية» Adequacy الأجهزة العصبية للأفراد المختلفين. ومع ذلك، كان خطأ هذا المبدأ واضحاً. فلقد بحث أحد تلاميذ كاتل وهو كلارك وسلر Clark Wissler (١٩٠١) معامل الارتباط بين الدرجات المدرسية (كمحك للذكاء) والأداء على الواجبات الحسية الحركية لكاتل، ولم يجد بينها ارتباطاً. وقد أصبح المجال مفتوحاً تماماً أمام بينيه وسيمون اللذين اختارا اختياراً سليماً الواجبات العقلية المعقدة كمقاييس للوظائف العقلية. ومع ذلك، وحتى اليوم لم يستقر بعد تعريف الذكاء ونظريته، ولا يزال هناك قدر ملحوظ من الجدال حول طبيعته.

وعلى الرغم من أن التمييز بين الصدق المرتبط بمحك وصدق المفهوم غير واضح في حالة اختبار بينيه وسيمون على نحو ما نجده في معظم أبحاث الصدق الواقعية، فهناك أوقات يكون فيها الشيء الأهم هو تحديد السؤال التجرُبي المتعلق بما إذا كان سلوك ما يمكن التنبؤ به من سلوك آخر، بصرف النظر عما إذا كانت العملية التي تكمن وراء العلاقة مفهومة، أو حتى إذا كانت لها أهمية كبيرة. فعندما تتركز بؤرة البحث حول التنبؤ ببعض السلوك القابل للملاحظة، كالدرجات المدرسية، أو أن يتعلم الفرد أن يكون طياراً، أو أن يصبح إنفعالياً، أو مبتسماً، أو مديراً تنفيذياً ناجحاً، أو أن يصوت لمرشح سياسي معين، أو أن يشتري بضاعة معلناً عنها، أو أي شيء آخر، فإننا نتحدث إذن عن الصدق المرتبط بمحك. أما إذا كان مركز الاهتمام هو قياس صفة ما من صفات الشخصية التي نفترضها نظرياً كالذكاء، أو ضبط الدافع، أو قوة الضمير، الخ، فنحن نتحدث إذن عن «صدق المفهوم الافتراضي».

صدق المفهوم:

وكمثال أساسي لصدق المفهوم نعود إلى بحث كان هدفه تقييم مقياس درجة «التنشئة الاجتماعية» للشخص. لقد وضع جوف Jough (١٩٥٧) استبياناً سمي باسم «اختبار كاليفورنيا النفسي»، يشتمل على جزء أو على مقياس فرعي «للتنشئة الاجتماعية». وكانت الأسئلة تغطي عدداً من الاتجاهات الاجتماعية الشائعة وطرق الاستجابة لها. فقد اشتملت على أسئلة مثل «قبل أن أقدم على عمل ما، أحاول معرفة رأي أصدقائي نحوه»، «أفكر كثيراً في مظهري وفي تأثيري على الآخرين»، «من السهل عليّ أن أهمل صديقاً أو أن أقاطعه»، «أعمل غالباً ضد رغبات والدي»، «إذا كانت تكاليف السفر مناسبة، فإنني أود السفر مع سيرك أو كرنفال». وقد فسر جوف هذه الفقرات باعتبارها تحدد في جزء منها قدرة الفرد على الإحساس بالدقائق الاجتماعية والإشارات الدقيقة للعلاقات بين الأشخاص وتفسيرها. وعلى ذلك فالمقياس الذي يتكون من هذه الوحدات يمكن أن يقيس مدى إمكانية الفرد على السلوك وفقاً للتوقعات الاجتماعية، أو في الحقيقة، مدى إستدماج الفرد لقيم مجتمعه وتطبعه الاجتماعي. ويتطلب صدق المفهوم الدليل على أن المقياس يقيس بالفعل العملية المستدل عليها نظرياً والتي يتضمنها هذا المفهوم. فالتركيز هنا ليس على التنبؤ والارتباط التجرُبي العملي، ولكن على التحليل النظري للشخصية، على الرغم بالطبع، من ضرورة استخدام الارتباطات التجرُبية كدليل على صدق المفهوم.

وسوف نوضح فيما يلي استراتيجيات معينة للبحث يمكن بواسطتها تقييم صدق المفهوم للاختبار. فمثلاً ومن الناحية النظرية، فإن الفروق بين الأفراد في درجة التطبيع الاجتماعي يجب أن ترتبط بمدى مخالفة مثل هؤلاء الأفراد للمعايير الاجتماعية وسلوكهم بطريقة مضادة للمجتمع. ويكون الاستدلال على النحو التالي: إذا كانت درجة التطبيع الاجتماعي تشير إلى مدى استدماج القيم الاجتماعية، إذن فالشخص الأكثر تطبيعاً من الناحية الاجتماعية سوف تكون درجته في الكشف عن أدلة السلوك المضاد للمجتمع أقل. ومثل هذه النتيجة سوف تدعم تفسير المقياس كمقياس للتطبيع الاجتماعي. بينما يؤدي عدم الحصول على مثل هذه البيانات إلى إلقاء ظلال الشك على صدق المفهوم للمقياس. وقد عقد جوف (١٩٦٠) مقارنة بين تقديرات درجات مقياس التطبيع الاجتماعي لمجموعات سُمّي بعضها من ناحية «مواطنين صالحين»، بينما مثّل بعضها الطرف الآخر من الخارجين على النظام ونزلاء السجون والجانحين

المحكوم عليهم بالسجن والمجرمين. وقد وجدت علاقة كبيرة جداً بين درجة الاختبار وفرض إنتماء الفرد لإحدى المجموعتين تلك التي تسلك سلوكاً منحرفاً أو التي تكشف عن تقبل ملحوظ جداً للمعايير الاجتماعية.

وثمة أسلوب آخر للبحث من أجل تقييم صدق المفهوم هو محاولة ربط درجات الاختبار بسمات الشخصية التي يجب أن تكون موجودة من الناحية المنطقية، إستناداً إلى التفسير النظري. وفي مثل هذه الدراسة أوضح «ريد وكودرا» Reed and Caudra (١٩٥٧)، وحسب ما هو متوقع، أن الأشخاص الذين تكون درجاتهم في التطبيع الاجتماعي منخفضة، يكونون أقل مهارة في الإحساس بإشارات الموافقة أو الرفض الاجتماعي وتفسيرها. فلقد طلب الباحثان من تلميذات التمريض أن يصفن أنفسهن بمجموعة من الصفات وأن يخمّن أيضاً بما يمكن أن يوصفن به من زميلاتهن الأخريات اللائي يتعاملن معهن بكثرة. وقد تبين أن المفحوصات اللائي حصلن على تقديرات عالية في التطبيع الاجتماعي، كن أكثر نجاحاً في تقدير استجابات الأخريات من اللائي حصلن على تقديرات منخفضة في التطبيع الاجتماعي. وهذا النوع من بحوث صدق المفهوم يجعل من الممكن أن نفسر بشيء من الثقة، السمة التي نقيسها باختبار ما للشخصية في ضوء بعض التوجيهات النظرية. وتعتبر مثل هذه الجهود ضرورية لتنمية الأدوات اللازمة لقياس سمات فردية للشخصية، وتعزيز التكنولوجيا التي تكمن وراء تقييم الشخصية ككل.

ورغم أنني أتحدث عن صدق المفهوم لاختبار ما، كمقياس التطبيع الاجتماعي «لجوف» فإن مثل هذا التقييم، إذا تحرينا الدقة في القول، يرتبط ارتباطاً وثيقاً أيضاً بالنظرية التي يقوم عليها المفهوم. وصدق المفهوم يتوقف كلية على النظرية، ، أعني أن تفسير درجة الاختبار يتوقف على ما إذا كان المعنى النظري للمفهوم مدركاً إدراكاً جيداً. وعلى ذلك، إذا وضع اختبار لقياس التطبيع الاجتماعي مثلاً، فإن علاقات معينة يمكن التنبؤ بها، تظهر بالضرورة من كيفية تفسير هذا التطبيع الاجتماعي. ومعنى ذلك، أن المقدمات أو المصادر المتوقعة للتطبيع الاجتماعي، وكذلك بالمثل النتائج المتوقعة للتطبيع الاجتماعي تتوقف على كيف يُدرك المفهوم ذاته. ومثل هذه النظرية تمدنا بالاساس المنطقي للاستدلالات التجرُبية التي يمكن أن توضع موضع الاختبار في الدراسات التجرُبية.

وتعني النقطة السابقة أنه إذا كان مفهوم جوف للتطبيع الاجتماعي يختلف عما هو

عليه، فإن جوف ربما قد توقع أن السمة يمكن أن يكون لها مصادر وآثار مختلفة عما هو مفترض بالفعل في بحثه الخاص (جوف ١٩٦٠)، وفي بحث ريد وكودرا (١٩٥٧) السابق الإشارة إليه. فإذا نظر أحدنا إلى التطبيع الاجتماعي كعملية يبحث بواسطتها الشخص غير الآمن والاتكالي على الموافقة الاجتماعية عن طريق المسايرة للمعايير الاجتماعية، فربما يتنبأ أن الجانحين المسجونين قد تصرفوا على النحو الذي تصرفوا به، عندما كانت المعايير هي معايير هؤلاء الناس الذين لم يكونوا هم يأبهون بهم، ولكن تحت ظروف التهديد بعدم الموافقة من جهة أقرانهم أو الأشخاص الآخرين الذين تقمصوا شخصياتهم، فإن من المتوقع منهم أن يظهروا درجة عالية من المسايرة لمعايير هؤلاء الآخرين الاجتماعية. وباختصار فإن إفتقارهم الذي نلحظه إلى التطبيع الاجتماعي قد يرجع إلى مجموعة من المعايير الاجتماعية التي أوجدها مجتمع غريب أكثر مما ترجع إلى جماعات اجتماعية تضع موافقتهم موضع التقدير. وعلى ذلك، فالتطبيع الاجتماعي يمكن أن يكون شيئاً نسبياً أكثر منه شيئاً مطلقاً.

فالنقطة الأساسية اذن، هي أن صدق المفهوم لاختبار ما، إنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً (أو على الأقل ارتباطاً نافعاً) بصدق النظرية التي يستند إليها. والحقيقة أنه عندما تتأيد وتتدعم نتائج البحث في صدق المفهوم، فإن النظرية التي يستند إليها البحث تتأيد هي الأخرى. أما عندما تكون النتائج سالبة، فإنها توحي بواحد أو بكلا الأمرين الآتيين:

(١) إن الاختبار لا يقيس الصفة المفروض قياسها، أو

(٢) أن النظرية خاطئة، طالما أنها تؤدي إلى تنبؤات تجريبية غير صحيحة. وغالباً ما يوحي عدم الحصول على نتائج إيجابية، بالتخلي عن النظرية ذاتها أو تعديلها. وعلى ذلك، فليس صحيحاً تماماً الإشارة إلى البحث في صدق المفهوم، كما لو كان يتصل فقط بصدق الاختبار؛ إنه يتضمن أيضاً البناء الكلي للنظرية. ومن الصعب بالنسبة للطالب المبتدىء أن يدرك هذه الفكرة بصورة كاملة. ونحن نوجه القارىء المهتم بالإطلاع على إحدى المناقشات الجيدة والكاملة للموضوع عند كورنباخ وميهل Cronbach and Meehl (١٩٥٥).

العوامل الموقفية والتقييم:

إن النزعة الطبيعية لعلماء نفس الشخصية كانت تتجه ناحية البحث عن أبنية أو استعدادات دائمة للشخصية تدفع الفرد إلى السلوك بطرق معينة بصرف النظر عن

الموقف. فبؤرة التركيز إذن كانت على النزعات التي توجد داخل الفرد والتي تدفعه إلى أن يسلك على النحو الذي يسير عليه، أكثر من التركيز على الظروف الخارجية التي تجذبه في طريق أو آخر. ومع ذلك، فمن الواضح أن كلتا القوتين متضمنتان في أية واقعة سلوكية، وأن في التركيز كلية على البناء الداخلي إغفال لأهمية النصف الآخر في القصة المستمد من تأثير المواقف. وقد يكون سبب ذلك أن تقييم الشخصية يسير إلى حد ما بعيداً عن الاتجاه المتطرف للسمة أنظر(Mischel, 1968). وأيا كان الأمر، فهنا تكمن النقطة الجوهرية:

إذا كان للمواقف تأثير جوهري على السلوك، فإن محاولة التنبؤ بالسلوك على أساس أساليب التقييم وحدها يمكن أن تواجه دائمًا بصعوبات كثيرة، طالما أن المواقف التي سوف يتعرض لها الفرد في المستقبل لا يمكن أبداً أن تكون معروفة مقدماً وبدقة، وطالما أن هذه المواقف هي التي سوف تحدد إلى درجةكبيرة كيف يسلك الفرد.

إذن على أي أساس يمكن التنبؤ بالسلوك المقبل من السلوك الملاحظ في موقف تقديري؟ هناك احتمال واحد يستند إليه علماء نفس التقييم هو أنه إذا كنا نعرف الشخص بما فيه الكفاية وفي مواقف متعددة، فإن من الممكن القيام على الأقل باستدلالات عن كيف يستجيب «عادة»، وذلك على افتراض أنه يكشف عن نماذج أكثر أو أقل نمطية. أضف إلى ذلك، أن من الممكن تكوين مفهوم عن أنواع المواقف التي سوف يستجيب فيها الفرد بهذه الطريقة أو تلك. فقد يلاحظ مثلاً أن شخصاً ما يميل إلى الاستجابة بأسلوب دفاعي وبإعتناء في المواقف التي يوجه إليه فيها النقد، على حين يستجيب آخر لنفس هذا الموقف الناقد بالغضب والهجوم اللفظي .فالتنبؤ يقوم إذن على أساس أنه في مواقف النقد الأخرى، يتوقع حدوث صور مماثلة من الاستجابات من هذين الشخصين. وتتوقف دقة مثل هذه التنبؤات على درجة عمومية الاستعداد للاستجابة، أعني على مدى المواقف التي ينتظر فيها حدوث مثل هذا السلوك، وهذا هو ما يمكن تحديده فقط تجرُبياً (أمبيريقياً). وعلى ذلك، فإن التنبؤ بالسلوك القائم على التقييم، يجب ألا يكون بمثابة قضية واسعة التعميم تذهب إلى أن الشخص سوف يسلك بطريقة ما في أي موقف، وفي كل المواقف، وإنما يكون تنبؤاً محدوداً بنوع معين من المواقف. ومثل هذا النوع من المواقف يجب أن يتضمن مواقف «متكافئة وظيفياً» بالنسبة لهذا الشخص في إحداث سلوك الغضب أو سلوك الاعتذار حسبما يكون الموقف. وكلما كثرت البينات التي يقوم عليها مثل هذا المفهوم الاستدلالي، وكانت

أسسها النظرية أكثر وضوحاً وأكثر قوة، فإن حدود التعميم التنبئي من تقييم الشخصية يمكن أن تدعم بصورة أدق.

إن أسس التنبؤ إذن مزدوجة: فأولاً: إن الاستدلالات المستمدة من التقييم يجب أن تقوم على بينة تجرُبية (إمبريقية) مدعمة عن كيفية سلوك الشخص في العديد من المواقف في الماضي أو الحاضر؛ وثانياً: أن مثل هذه الاستدلالات يجب أن تقوم أيضاً على مبادىء نظرية قوية عن المواقف «المتكافئة وظيفياً» لتلك التي تشتمل على عينة المواقف المستخدمة في جلسات التقييم. والحقيقة أننا نريد أن نعرف، بالنسبة لأي نوع معين من الناس، ماذا يعني النقد المهدّد، والفقدان، وعلامة التفاعل الاجتماعي الآمن، وخبرة الخبراء، ومصدر الفرح الخ. وهنا فقط نصبح في موقف يسمح لنا أن نتوقع أن موقفاً خاصاً في المستقبل سوف يستدعي استجابة محددة. وهذه ليست مشكلة بسيطة، بل تتطلب قدراً كبيراً من البحث يزودنا بالمعرفة التي منها تتكون هذه الأدلة. وهذه النقطة العامة السابقة الإشارة إليها يجب أن تكون واضحة عند البحث والتأمل، غير أنه غالباً ما يغفلها، ليس فقط الشخص العادي الذي يميل إلى التفكير في التقييم في مصطلحات سحرية أو في كرة سرية زائفة تنبىء عن المستقبل، بل وأيضاً علماء النفس الذين يجب أن تكون معرفتهم بها أفضل.

ولقد أجريت حديثاً بحوث رائعة قام بها إندلر Endler وهنت Hunt (١٩٦٨) بهدف توكيد العوامل الموقفية في التقييم وتحديد نسب التنوع في السلوك التي هي نتيجة التنظيمات الموقفية وذلك في مقابل استعدادات الشخصية. ومن الممكن عزل مصادر التنوع التي تعزي إلى عدد من العوامل على أي اختبار ودارستها. ولقد تركزت جهود إندلر وهنت حول استبيانين وضعا لقياس القلق والعدوان. وقد صمم الاختباران بحيث يمكن للمفحوصين الإشارة إلى إحدى الصور العديدة للاستجابة التي تحدد القلق والعدوان. ففي حالة القلق، مثلاً، قد تتضمن صورة الاستجابة هذه استجابات فسيولوجية كتصبب العرق أو الرعشة، أو استجابات شخصية كالشعور بعدم الإرتياح أو عدم القدرة على التركيز، أو استجابات سلوكية كالأرق وسرعة التهيج. وبالاضافة إلى ذلك، يمكن أن ترتبط هذه الاستجابات بعدد من المواقف المثيرة كمواقف النقد، ومقابلة الغرباء، والتحدث، في مجتمع عام الخ. ومثل هذه القوائم من الاستجابات والمواقف المثيرة يمكن أن توضع أيضاً بالنسبة لمقياس العدوان. وعلى ذلك، فثمة مصادر ثلاثة أساسية للتنوع في استجابات المفحوصين للاستبيانين، نمط الاستجابة، والموقف

المثير، ثم المصدر الثالث الذي يوجد دائمًا في التقييم ويكون عادة بؤرة الاهتمام الرئيسية هم الأشخاص، أعني الأفراد المختلفين الذين يمثلون العينة المختبرة.

وهذه أمثلة واقعية من مواقف متنوعة نقتطفها من إستبيان العدوان لأندلر وهنت: «أنت تتحدث إلى شخص ما وهو (أو هي) لا يرد عليك»، «أنت تضرب بشدة وعن غير قصد رجلك في أحد مقاعد الحديقة»، «اتهمك مدرسك بغير حق بأنك تغش في الامتحان»، «كنت متعباً جداً وما كدت تنام في سريرك حتى أيقظوك لمجيء بعض الأصدقاء». ومن الممكن أن نرى أن المواقف المثيرة للعدوان تختلف تماماً بعضها عن بعض. وقد توضح لنا الأمثلة التالية التنوع في طريقة الاستجابات العدوانية: «قلبي يدق بصورة أسرع»، «أود أن أضرب شيئاً أو شخصاً ما»، «أفقد الصبر»، «أشعر بالتهيج»، «أسب»، «أصبح متواتراً».

وتعطي مواد الاستبيان للمفحوصين للإجابة عليها، ويتضمن تحليلها الفصل إحصائياً بين مقدار التنوع في الإستجابات الذي يحدث عن الأشخاص، والمواقف، ونوعيات الاستجابة. ففي استبيان العدوان، فإن الفروق الفردية (الشخصية) التي تقدر من ١٥ـ٢٠٪ من التباين الكلي من الاستجابات ترجع إلى الأسئلة المتعلقة بالعدوان، على حين ترجع إلى أسلوب الاستجابة نسبة تتراوح بين ١٤ ـ ١٥ ٪، أما النسبة من ٤ ـ ٨٪ فإنها تفسر بالمواقف (وهناك فروق في الجنس لا تعنينا هنا). وعلى العكس، ففي تحليل استبيان القلق، كانت نسب التباين في الاستجابة وهي ٤ ـ ٥٪ ترجع إلى الأشخاص، و٢٥٪ لأسلوب الاستجابات، ومن ٤ ـ ٨٪ للمواقف. وعلى ذلك، فنسبة التباين التي ترجع إلى أسلوب الاستجابة وشخصية المستجيب ليست واحدة بالنسبة لسمة العدوان وسمة القلق. فالشخصية أقل أهمية بكثير في تحديد القلق منهافي تحديد العدوان.

ولقد بدأ بحث إندلر وهنت أساساً من أجل معرفة أن تقييم أي استجابة سلوكية يتوقف ليس فقط على استعدادات الشخص للاستجابة بطريقة ما، بل وأيضاً على نوعية الاستجابة (أعني الهجوم اللفظي في مقابل الهجوم البدني)، وعلى الموقف الذي يحدث فيه السلوك. وإلى حين أن نفهم جيداً القوانين التي تتصل بهذه المحددات السلوكية وغيرها، فإن تقييم سماتٍ كالعـدوان والقلق سوف يظل بالضرورة أقل دقة مما هو متطلب للتنبؤ الحقيقي بالسلوك. وكما سنرى بعد في مناقشة الاختبارات المتشكلة، Structured ، فإن وجهة النظـر هذه قد أدت إلى اقتراحات جديدة عن

تصميم مثل هذه الاختبارات من أجل تحديد أفضل لمصادر الاستجابة للمثيرات المختلفة.

أساليب التقييم

لقد اتجه الإنتباه في الأجزاء الأولى من هذا الفصل إلى المبادىء الأساسية للتقييم. ولنعد الآن إلى المصادر الخاصة للمعلومات التي يستخدمها علماء النفس المتخصصون في القياس، أعني الطرق التي بواسطتها نحصل على عينة السلوك من أجل الملاحظة والتفسير. سوف نشير إلى أربع طرق أساسية تتضمن تاريخ الحياة، والمقابلة، والاختبار السيكولوجي، وعديد من الطرق للحصول على الملاحظات المباشرة للسلوك وتدوينها.

تاريخ الحياة:

تاريخ الحياة هو قصة زمنية للوقائع الأساسية في حياة الفرد ونموه. ويقوم استخدامها على افتراض أن الشخصية الراهنة هي نتاج عملية نمو متصلة، ترتبط بها أحداث الماضي ارتباطاً وظيفياً. وتمدنا أحداث الماضي بالمعلومات عن التأثيرات والمطالب التي تعرض لها الشخص والطريقة التي عولجت بها باستمرار. والتركيز ينصب إذن على الاتصال بين الماضي والحاضر.

إن عملية الحصول على تاريخ الحياة سواء كانت من راوٍ، أي من شخص آخر من الأسرة، أو من تقارير موضوعية، أو مباشرة من الشخص نفسه تثير الموضوع الأساسي الخاص بدقة المعلومات التي نحصل عليها. وحتى لو حصلنا على مثل هذه المعلومات أثناء حياة الشخص، فإن ثمة مشكلات تثار حول موضوعية الملاحظات وتمثيلها، وهي مشكلات سبق مناقشتها في الجزء السابق. ومع ذلك، لما كانت معظم تواريخ الحياة نحصل عليها إستبطانياً، أعني أعنها تعتمد على تذكر الشخص أو الرواة الآخرين للأحداث في الماضي البعيد، فإنه يجب أن نتوقع وجود الشيء الكثير من عدم الدقة. فالناس ينسون التفاصيل (حتى تواريخ الميلاد أو الزواج أحياناً) ويبالغون فيها (دون أن يدركوا في الحقيقة أنهم يفعلون ذلك) كي يقدموا أنفسهم أو مَنْ يحبونهم في صورة براقة. وأحياناً تمدنا التقارير الأكثر موضوعية ـ كشهادة الميلاد، أو بطاقة الطفل،

أو التاريخ المدرسي، أو تقارير البوليس أو الجيش بمراجعات مفيدة للبيانات الواقعية التي نحصل عليها من الرواة.

وهناك طريقتان لبحث ما يقدمه الشخص من تقارير عن نفسه أو عن الآخرين الذين يرتبط بهم برباط وثيق. الأولى: التركيز على الحقائق على أساس أننا نفهم جيداً النمو السيكولوجي إذا عرفنا الأحداث الواقعية التي شكلته. ومن وجهة النظر هذه، يجب اعتبار الأخطاء في تقديم التقرير كشيء حاسم وهام من أجل الفهم الصحيح للفرد. وعلى العكس، قد يذهب البعض إلى أنه ليس من المهم أن نعرف ما حدث بالفعل، وإنما كيف كان إدراك الفرد له. وقد يتذكر القارىء ما جاء بالفصل الثاني بشأن التمييز بين نظريات الشخصية كنظرية دولارد وميللر (التعلم بالارتباط من خلال التدعيم) والتي ركزت على المثير الموضوعي كعلة للسلوك والنمو، ونظريات روجرز وماسلود ليفين (الظاهرتية) والتي ركزت على دور المثير على نحو ما يدركه الفرد ذاتياً. وكلا وجهتي النظر لهما أهميتها طالما أن الاختلافات بين الحقائق الموضوعية والذاتية تقدم لنا الشيء الكثير الذي له أهمية عن الشخص، كملاءمة واقعة للاختبار، والاعتماد على دفاعات تحريف الواقع التي توجه قراراته، الخ.

ولما كان تاريخ الحياة في الأغلب ليس أكثر من تلخيص محدود لحياة الفرد، فإنه يصبح من المتطلب إصدار حكم واعٍ عما هو هام فيه. فبعض الأنظمة النظرية المختلفة تميل إلى توكيد أشياء نوعاً ما، وترى أحداث الحياة بصور مختلفة كذلك. فليس غريباً مثلاً أن نرى أحد الفرويديين يوجه اهتماماً خاصاً بالأحداث المتصلة بالمراحل النفسية الجنسية قبل التناسلية، أو أن نجد أحد أتباع إيركسون يبحث عن معلومات عن كيف خبر الفرد وعالج «أزمة الهوية» في المراهقة المتأخرة. فنظرية الشخصية تمدنا بخريطة ضمنية، عن طريقها يمكن اكتشاف مجال تاريخ الحياة.

تاريخ الحياة كوثيقة شخصية:

إن تاريخ حياة الفرد ليس دائماً أبداً قصة حياة هذ الفرد، لكنه في الغالب أيضاً، وثيقة شخصية لها دلالة خاصة عند التقييم. والوثيقة الشخصية، على نحو ما عرفها جوردون البورت، «هي أي تقرير يكشف عن الذات بحيث يعطي عن قصد أو غير قصد معلومات تتصل ببناء وديناميات ووظيفة الحياة العقلية للشخص» (١٩٦٥ ص XII). وإذا حصلنا على تاريخ الحياة، على نحو ما يحدث أحياناً، عن طريق المقابلة

الشخصية للفرد نفسه، أو بفحص كتاباته أو خطاباته الشخصية، فإن ذلك يعتبر أيضاً وثيقة شخصية تخضع للمبادىء التي تنطبق على مثل هذه الوثائق.

ولقد أيد البورت بحماس استعمال الوثائق الشخصية في العلم السيكولوجي، على الرغم من مخاطر عدم الموضوعية وعدم التمثيل الكامن فيها. فهو يقول «طالما أنه لا توجد حقائق في علم النفس تخلو من الحياة الشخصية، فإن الوثيقة الإنسانية هي المكان الأكثر وضوحاً لوجود هذه الحقائق في صورتها الخام» (١٩٤٢ ص ١٤٣ ـــ٤٤). وباستعمال مثل هذه الوثائق، يمكن أن نلاحظ التغيرات الطولية في الشخص والتي لا يمكن ملاحظتها أبداً بشكل مباشر. أضف إلى ذلك، أن الوثيقة الشخصية، وبخاصة عندما نحصل عليها بدون توسل أو إغراء، على نحو ما نجده في الخطابات الشخصية أو ربما في تواريخ الحياة، تسمح برؤية الفرد داخل إطار حياته الطبيعية الشاملة بدلاً من رؤ يته في موقف معملي مصطنع. ورغم إدراك البورت للمشكلات الخاصة الكامنة في استعمال مثل هذه الوثائق في تقييم الشخصية، فإنه اعتبر الوثيقة الشخصية مصدر معلومات طبيعية ليس من السهل الحصول عليها بأية طريقة أخرى. وباختصار، لقد نشر البورت ـ وقبل وفاته ـ كتاباً ممتعاً يقوم على مجموعة من الخطابات المكتوبة، طوال سنوات عدة، كتبتها سيدة باسم جيني Jenny (١٩٦٥)، وحاول في هذا الكتاب إعادة تركيب شخصية جيني بدراسة هذه الخطابات من وجهة نظر العديد من المنظورات النظرية المختلفة في نظرية الشخصية.

وتاريخ الحياة، كأي منهج آخر للتقييم، يمدنا بأساس يقوم على الملاحظة من أجل تكوين صورة عن شخصية الفرد، والقيام باستدلالات عن دوافعه والأشياء التي تهدده أو تعززه، والطرق التي يشرع في التغلب عليها بطريقة مميزة، وكيف يرتبط بغيره من الناس، أو كيف يدرك نفسه في هذا العالم، وذلك استناداً إلى الصفات التي نعتبرها مفيدة في تصور الشخصية. ومن خلال وصف أحداث الحياة الماضية، أعني الطرق التي عاش بها الشخص حياته، نحصل على بعض المعنى للسمات التي تتضمنها شخصيته والارتباطات بين مثل هذه السمات في الماضي والحاضر والمستقبل المرتقب.

المقابلة:

ويمكن استخدام المقابلة في عدد من الطرق المختلفة والمتداخلة مع ذلك. فهي، مثلاً، يمكن أن تستخدم لغرض التقييم بأكمله، أو يمكن أن تفيد في وظيفة العلاج

النفسي، أو أن تستخدم لإقامة علاقة عمل مع شخص ما نريد أن نعلمه شيئاً، أو لتهيئة الجو لتزويده ببعض المعلومات. ويمكن أن تجتمع كل هذه الوظائف أحياناً في المقابلة ذاتها. ومن الملاحظ أيضاً أن بيانات تاريخ الحياة يمكن الحصول عليها في الأغلب عن طريق أسلوب المقابلة، وبذلك نجعل من تاريخ الحياة شيئاً يعتمد على المقابلة.

وليست هناك طريقة من طرق تقييم الشخصية أوسع استعمالاً من المقابلة، وذلك لأنها بوجه عام أكثر المواجهات الإنسانية كشفاً ومرونة عندما تجري بمهارة وتحت ظروف مناسبة. ومع ذلك، فإن هذه المرونة ذاتها تخلق العديد من المشكلات، التي تدور جميعها وبشكل أساسي حول الموضوعات الرئيسية لثبات وصدق الاستدلالات المستخلصة من المقابلة.

وهناك مشكلات منهجية ثلاث أساسية هي:

١ ـ أنه على الرغم من أن القائم بالمقابلة عليه أن يجعل المفحوص «يكشف عن نفسه بصراحة»، فإن المفحوص نادراً ما يكون مستعداً وبصورة كاملة للقيام بذلك، فهو في العادة أقل رغبة في الإفشاء عن نفسه لشخص آخر. وتختلف الدوافع لقبول إجراء المقابلة اختلافاً ملحوظاً باختلاف الفرد وباختلاف الظروف. وعلى ذلك، فالدافع لأن يكشف الفرد عن نفسه ربما يكون أكبر في حالة الشخص الذي يبحث عن علاج. ولكن حتى في هذه الحالة، وكما أشار فرويد ـ فإن المريض يأتي وقد أعد قصة صُممت بصورة ساخرة ليعرض نفسه في ضوء زائف ـ فيبدو كأنه يقاوم كشف قابليته للمرض ودفاعاته، حتى على الرغم من أنه جاء، يطلب المساعدة. وقد تكون الحقيقة غير معروفة حتى بالنسبة للفرد نفسه، وإنما تُكتشف أثناء العلاج. وإذا كان الإفشاء عن طبيعة الفرد الذاتية الداخلية أمراً بالغ الصعوبة حتى في موقف العلاج الذي تحرك الفرد فيه دوافع إرادية قوية، فماذا يكون عليه الحال في السياق الأكثر برودة لتقييم الشخصية! إنه ولا شك أشد حدّة داخل السياقات التقويمية أو الشديدة العداء ـ على نحو ما يحدث عندما يستجوب الفرد بواسطة «عدو»، أو حينما يقابل من أجل شغل وظيفة ما.

وهناك حلان أساسيان لهذه المشكلة الحساسة المتصلة بدَفْع الفرد للكشف عن الذات. فمن ناحية، وحيث يكون ذلك ممكناً، يمكن بذل الجهود لخلق «جو من

التقبل» في مقابل جو التقييم، وبذلك لا يشعر الفرد بالتهديد نتيجة الكشف عن ذاته. وفي مثل هذه الظروف، تكون الرغبة أقل في إخفاء المعلومات عن الذات، رغم أن مشكلة نقص الاستبصار بالذات لم تحل بعد عن هذا الطريق. هذا هو الاتجاه التقليدي للعلاج، بالاستبصار والذي وجد التشجيع منذ ظهور التحليل النفسي، والذي صيغت مسلماته صياغة جيدة عند كارل روجرز (١٩٤٢). أما الحل الآخر فهو «مقابلة الضغط» Stress Interview التي تستخدم مثلاً عندما لا يمكن إستبعاد التقييم كمسلمة أساسية للمقابلة، على نحو ما نجد في مقابلة التوظيف، أو في استجواب المجرمين أو مسجوني الحرب. فالشخص يواجه مباشرة بمادة مدمرة سواء تلك التي يشنها هو على نفسه، أو تقوم على أدلة خارجية مناسبة. وقد يُضلل الشخص عن عمد، أو يوقع في التناقضات، أو يسب ويهان، ثم تلاحظ استجاباته لهذه النواحي جيداً من أجل اختبار «جَلَده واحتماله»، أعني من أجل الكشف عن قوته وضعفه. ومقابلة الضغط إذا استخدمت بمهارة (مع طرح مشكلة الأخلاق جانباً) يمكن أن تكون مصدراً قوياً لبيانات التقييم تحت ظروف مناسبة. إنها سبيل آخر لدفع الشخص لكي يكشف عما يمكن أن يظل خفياً إذا استخدمت سبل أخرى.

٢ ـ وإحدى المشكلات البالغة الأهمية في المقابلة هي تلك التي تتصل بتمثيل العينة المختارة لسلوك الفرد أو تفكيره. فقد يكون الفرد عند إجراء المقابلة متعباً، أو قلقاً بشأن أمر مؤقت من أمور حياته، وسعيداً، أو غير سعيد، الخ، وهي حالات يحتمل أن تتغير كثيراً من لحظة إلى أخرى. ومثل هذه الأمزجة والاهتمامات المباشرة سوف تؤثر في الأشياء التي يتحدث عنها الشخص، وفي الطريقة التي يتحدث بها عنها. وما لم يقم الباحث بعدة مقابلات مع الشخص، فليس ثمة سبيل أمامه لمعرفة ما إذا كانت محتويات المقابلة ممثلة أو نموذجية بالنسبة له. وتمدنا مقابلات العلاج النفسي التي تتم خلال فترة طويلة من الزمن بإجابة عن هذه المشكلة، ولكن حتى هنا، فإن العلاقة الخاصة في العلاج، يحتمل أن تؤدي إلى تشكيل التفاعل بطرق ليس بالضرورة أن تكون نموذجية بالنسبة للعلاقات الاجتماعية الأخرى.

٣ ـ وأخيراً، تعتبر المقابلة تفاعلاً من جهتين. من جهة القائم بالمقابلة الذي له تأثير على المفحوص، والعكس بالعكس. ومن المحتمل أن تختلف هذه التأثيرات من حالة لأخرى، ربما بسبب المهارات والأساليب المختلفة للقائم بالمقابلة، وكذلك بسبب أن القائم بالمقابلة إنسان يحتمل أن يستجيب استجابات مختلفة للأشخاص المختلفين.

فأحد القائمين بالمقابلة قد يستثير الكلام لدى المفحوص بينما الآخر يكبته، وبالمثل في حالة استثارة الدفاعات أو الإنفتاح، الحب أو الكراهية، الشعور بالتهديد أو الإحساس بالارتياح، الخ. وسوف يحدث المستجيبون اختلافات مماثلة في استجابات القائمين بالمقابلة، استجابات تحدث تغذية رجعية للمستجيب وتؤثر في محتويات التفاعل. وعلى ذلك، إذا قام نفس الشخص القائم بالمقابلة بتقدير عدد من الأشخاص ثم عقد بينهم مقارنات، فإن من الصعب أن يستبعد من مجموع انطباعاته تأثير الصفات الشخصية الخاصة التي ظهرت في الموقف نتيجة وجود الشخصين المعينين المشاركين في التفاعل. إن الحل في بحث التقييم الذي يستخدم المقابلة مكلف جداً، طالما أنه يتطلب استخدام أكثر من مقابل Interviewer للمفحوص الواحد بطريقة تهدف إلى تحديد تأثير المثير من جانب المقابل.

وأحد المظاهر الفريدة للمقابلة هي أنها تسمح بوجود أسلوبين مختلفين جداً للكشف عن بناء الشخصية وديناميتها، وكل منهما يستخدم مع الآخر ويدعمه.

١ ـ فمن ناحية، يطلب من الفرد أن «يتأمل» خبرات حياته، وأن يقدم إدراكاته عنها، وأن يكشف عن أفكاره الداخلية. ولقد جعلت إحدى مدارس علم النفس القديمة المسماة «بالبنائية» (أو التركيبية Structuralism) الإستبطان Introspection المنظم منهجها الأساسي للحصول على المادة عن طبيعة الإحساس والإدراك.

ومن ناحية أخرى تعتبر كلمات الفرد وأفعاله كسلوك «يُلاحظ» ويُقيّم من جانب القائم بالمقابلة. أما بالنسبة للمظهر الأول فإن المفحوص يعتبر شريكاً نشطاً في اكتشاف أفكاره، إذ يقوم هو نفسه بدور الملاحظ من حيث هو كذلك، مثله مثل الشخص الذي يشارك في مسيرة الحياة ثم يعود إلى الوراء ليتأمل نفسه. ولقد ذهب عالم النفس الوجودي روللو ماي Rollo May (١٩٦٧)، إلى أن هذه المقدرة المزدوجة، والتي تبدو مُتناقضة، هي أهم «المشكلات» الأساسية للإنسان، فهي تجعله نوعاً فريداً بين أنواع الحيوان الأخرى.

غير أن الإعتماد الكلي على الإستبطان يثير بعض المشكلات المنهجية الخطيرة في البحث عن المعرفة المتصلة بالحياة العقلية، وهي مشكلات سبق أن تعرضنا لها في الفصل الأول. وكما سبق القول، فإن من أهمها إحتمال أن يكون الشخص غير قادر أو عاجز عن الكشف عن طبيعة العمليات السيكولوجية الهامة التي تجري بداخله. كما أن

الاتجاه السيكولوجي الذي يعتمد كلية على ما يقوله الشخص عن نفسه قد يعجز عن التمييز بين التراكيب الصادقة والمختلطة. وقد أدت هذه الصعوبة إلى توكيد علم النفس الحديث على ملاحظة السلوك (فما يقوله الشخص هو صورة من سلوكه) الذي يمكن أن تستخلص منه العمليات السيكولوجية الوسيطة. فعالم النفس السلوكي لا يأخذ محتويات الإستبطان حرفياً على أنها صادقة، وإنما يعالجها كما لو كانت سلوكاً يجب تفسيره. إنه هو الذي يقوم بالملاحظة أكثر من الشخص موضوع الدراسة.

وباستخدام كلا المنظورين، الإستبطاني والسلوكي، يقترب القائم بالملاحظة مما يقوله الشخص عن خبرته وما يقوم به سلوكياً. ومن الممكن استخدام الواحد كمحقق للآخر. وعلى ذلك، فهفوات اللسان، وأدلة الانفعال، والإيماءات، وتعبيرات الوجه، والتأكيد، والأساليب المميزة للتفكير، تفيد جميعها كمعلومات إضافية يمكن أن تقيّم عندما يقوم القائم بالمقابلة باستدلالاته، وهو على حق أن يكتشف على مسرح الحياة هذه الأحداث السلوكية، مثلما يسجل تأملات الشخص عن الحالات والعمليات الذاتية.

وباختصار، فإن المقابلة عندما تستخدم في أكمل صورها، يكون لها صفات تميزها عن غيرها من مصادر المعرفة. فمن الممكن أن تقدم نتائج علاجية عميقة مثلما تقدم معلومات عن أهداف التقييم. إنها تزودنا بتفاعل ديناميّ بين شخصين يكون فيه القائم بالمقابلة مشاركاً وملاحظاً، كما أن لها فائدة عظمى في تمكين المفحوص أن ينطلق متعمقاً في الإستبطان، على حين تسمح في نفس الوقت وبسبب طبيعتها الخاصة «الوجه ـ للوجه»، أن يلاحظ القائم بالملاحظة، سلوك المفحوص وهو يتأمل نفسه. وهذه الصفات الهامة هي التي ربما جعلت من المقابلة الأسلوب الأوسع استخداماً في تقييم الشخصية. وللحصول على مناقشات عامة أكثر تفصيلاً عن المقابلة، يمكن أن نوجه القارىء إلى كاهن وكانيل Kahn and Cannell (١٩٥٧)، وريتشاردسون، ودوهرنوند، وكلاين Richardson , Dohrenwend and Klein (١٩٦٥).

الإختبار السيكولوجي:

والاختبارات هي طرق لاستنباط ألوان السلوك والاستبطانات تحت ظروف مقننة. وكما هو الحال في تجربة معملية، نحاول في الاختبار ضبط أو استبعاد معظم المتغيرات غير المناسبة، بحيث نركز على عدد محدود من الظروف المؤثرة في السلوك

موضوع البحث. ويخضع المفحوصون قدر الإمكان لنفس المثير ونفس الظروف المحيطة بالاختبار.

وهناك أنواع كثيرة من الاختبارات. ولكن سوف نقتصر هنا على نوعين أثنين فقط هما الاختبارات المتشكلة والاختبارات غير المتشكلة أو الإسقاطية. ولدراسة موضوع الاختبارات دراسة كاملة يمكن الرجوع إلى كرونباخ Cronbach (١٩٦٠)، وتيلر Tyler (١٩٦٣).

الاختبارات المتشكلة Structured Tests :

وتأخذ هذه عادة صورة الاستبيانات. وقد أطلق عليها بعض علماء نفس القياس اسم «متشكلة» لأنها قد حددت وقررت بوضوح الاستجابات البديلة. مثال ذلك، يجب أن يختار الشخص بين سلاسل من الاختيارات المتعددة، أو يجيب على كل فقرة «بنعم» أو «لا» أو «لا أعرف». فمهمة المفحوص إذن محددة نسبياً وغير مبهمة، كما أن ثبات الملاحظ لا يثير مشكلة ما.

وقد ظهرت استبيانات الشخصية لأول مرة خلال الحرب العالمية الأولى. فلقد دفعت الحاجة إلى انتقاء الرجال الثابتين وجدانياً للخدمات العسكرية إلى قيام ر. س. وودورث R.S. Woodworth (١٩١٨) بوضع اختبار عرف باسم «استمارة البيانات الشخصية». وكانت عباراته الـ ٢٠٠ مرتبطة بأعراض العصاب. وقد أصبح هذا الاختبار بمثابة الأب أو الجد للكثير من الاختبارات المماثلة التي ظهرت بعد ذلك. ويشير الجدول رقم ٦ إلى بعض الأمثلة التي وردت باختبار وودورث.

جدول ٦ ـ بعض فقرات استمارة البيانات الشخصية لوودورث

هل عجزت عن الحصول على العدل في الحياة؟
هل يخلو حديثك من التهتهة أو اللجلجة؟
هل تسبب لك رؤية الدم مرضاً أو دوخة؟
هل يبدو لك أن الناس يهملونك، أعني لا يلاحظون أنك موجود معهم؟
هل وددت أحياناً أنك لم تولد؟
هل تشعر بالسعادة معظم الوقت؟

هل تجد أن الناس يفهمونك ويتعاطفون معك؟
هل تحب أن توجد دائمًا مع مَنْ هم في مثل سنك أكثر مما توجد مع مَنْ هم أكبر منك سناً؟
هل تحس دائمًا بالقوة وبأن لديك طاقة كافية على العمل؟
هل تشعر أنك تختلف إلى حد ما عن غيرك من الناس؟
هل يجد الناس أخطأ كثيرة لديك؟
هل تخلو أفكارك وأحلامك من القصص الجنسية السيئة التي سبق أن سمعتها؟
هل تشعر بالتعب وعدم الإرتياح بعد يوم أو أمسية من الزيارات والمرح؟
هل تعاني من الصداع والدوخة؟
هل كنت تصور لنفسك قصصاً بحيث تنسى معها أين توجد؟

وفي أواخر الأربعينيات ظهرت موجة للتحرر من الخداعات حول فائدة استبيانات الشخصية، تدعمها مراجعات نقدية أثارت الشكوك حول صدق هذه الاختبارات والمبادىء التي تكمن وراءها. وثمة عامل آخر ساهم في هذه الحركة السلبية يتمثل في الضغط المتزايد على علم النفس (وبخاصة علم النفس الإكلينيكي) الذي أحدثته المفاهيم الدينامية لفرويد وللفرويديين المحدثين. وفي خلال هذه الفترة أصبحت الاختبارات الإسقاطية ـ والتي تبدو أكثر اتساقاً مع سيكولوجيات الأعماق ـ هي البدعة السائدة. ومن الناحية الأخرى، بدت الاستبيانات سطحية يسهل إدراك حقيقتها، كما أنها تعجز عن الكشف عن الطبقات العميقة في الشخصية.

وبعد فترة وجيزة، انتشرت موجة مماثلة للتحرر من خداعات الأساليب الإسقاطية أيضاً، عندما ثبت أن ما تدعيه من قدرة على القيام به في عملية التقييم أمر مبالغ فيه، وكذلك عندما انتقل الاهتمام الإكلينيكي من التشخيص إلى العلاج.

وبالإضافة إلى الواقعية المتزايدة بين العاملين المهنيين عن استعمالات وقصور الاختبارات المتشكلة، وبالطبع عن التقييم عامة، فإن النماءات الأكثر أهمية خلال السنوات الأخيرة قد زادت نتيجة الدراية والمعرفة بالمبادىء التي تقوم عليها هذه الاختبارات، وبالتعقيدات المتزايدة في تصميمها. فبينما كان مقياس وودورث (ومعظم الاستبيانات الأخرى) بسيطاً، ووضع لقياس سمة واحدة كالعصابية، فإن المقاييس الجديدة التي ظهرت بعد ذلك صممت لقياس عدد من السمات في وقت واحد، وتقديم صفحة نفسية معقدة عن الشخص. مثال ذلك، في ١٩٣١ نشر برنرويتر Bernreuter اختباراً مركباً من عدد من المقاييس الفرعية، كما ظهر في ١٩٤٣ أحد هذه الاستبيانات الواسعة الانتشار والتي عرفت بأسم اختبار (استبيان) مينسوتا المتعدد

الأوجه Minnesota Multiphasic Personality Inventory (MMPI) (لـ هاثاواي Hathaway وماك كينلي MCkinley، (١٩٤٣).

وبالإضافة إلى احتواء اختبار مينسوتا على عدد من المقاييس الفرعية، فقد استخدم أيضاً أسلوباً هاماً، استعمله لأول مرة من هارتشورن Hartshorne وماي May (١٩٢٨) وهو إيجاد مجموعة من المقاييس الفرعية التي وضعت خصيصاً للكشف عن الاتجاهات التي تميل إلى التقليل من صدق إجابات المفحوص. فلقد بذلت جهود، مثلاً لقياس ميل المفحوصين إلى الكذب بالنسبة للدوافع والأفعال غير المقبولة اجتماعياً التي يمارسها معظمنا من حين لآخر، أو التي يكون فيها الفرد حساساً إلى حد بعيد لمثل هذه المآخذ. ولقد صمم اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه أيضاً للتمييز بين أنماط عدة من سوء التوافق، حيث يتضمن مقاييس فرعية تميز بين الذين يميلون إلى الإصابة بتوهم المرض والهستيريا والوسـاوس والبارانويا والفصام والسيكوباتية والاكتئاب وغيرها. وهذه أمثلة قليلة نوردها في الجدول رقم ٧ لبعض هذه المقاييس الفرعية.

جدول ٧ ـ نماذج من فقرات اختبار مينسوتا المتعدد الأوجه

بعض الفقرات التي تسهم في الكشف عن توهم المرض

نعم. أشعر في معظم الأوقات بآلام في راسي أو أنفي.

نعم. كثيراً ما أشعر في بعض أجزاء جسمي بما يشبه الاحتراق والقشعريرة أو التنميل أو التخدير.

لا. لم يحدث أن وجدت أية صعوبة في ضبط عملية التبرز.

بعض الفقرات التي تسهم في الكشف عن السيكاثينيا (الإضطرابات الوسواسية ـ القهرية)

نعم. غالباً ما أتوقف وأفكر قبل أن أعمل حتى في الأمور التافهة.

نعم. عندي عادة عدّ الأشياء غير الهامة كلمبات الكهرباء في الطريق وما شابه ذلك.

لا. لا أشعر بخوف من الدخول بمفردي في حجرة بها أناس يتحدثون.

بعض الفقرات التي تسهم في الكشف عن البارانويا

نعم. أعتقد أن هناك من يتعقبني.

لا. معظم الناس يكره في قرارة نفسه أن يساعد الآخرين.

لا. ليس لي أعداء يريدون ضرري.

وأحد الملامح البارزة لاختبار مينسوتا المتعدد الأوجه هو الطريقة التي تكون بها الاختبار. لقد فحصت أعداد كبيرة من فقرات الاستبيان وأعيد بناؤ ها دون نظرة صريحة للنظرية التي تتصل بأنماط المرض النفسي. ثم طبقت هذه الفقرات على أنماط

كثيرة من الأشخاص المعروفين من التشخيص العيادي لهم بأنهم مصابون بتوهم المرض أو بالعصاب الوسواسي القهري أو البارانويا، الخ. والفقرات التي أختيرت للمقياس هي وحدها التى ميزت تجرُبياً (إمبريقياً) بين نمط وآخر من المرضى. ولهذا السبب، فإن كثيراً من الفقرات لا تعطي إحساساً واضحاً كأساس للتمييز بين صورة مرضية نفسية وأخرى، على الرغم من أن الفقرات التي قدمت بالجدول ٧، قد أختيرت كأمثلة إيضاحية حيث تقدم إحساساً معقولاً بعلاقاتها بالأمراض الثلاثة التي قدمت كنماذج لها. وعلى العكس، فقد صممت اختبارات أخرى كثيرة على طريقة صدق المفهوم بأن تبدأ بمفهوم عن كل نوع من المرض أو أية خاصية من خصائص الشخصية تريد قياسها، وابتداء من هذ ا المفهوم أو هذه النظرية توضح الفقرات التي تعيّن السمات المميزة. وعلى هذا الأساس فاختبار مينسوتا هو اختبار مستمد تجرُبياً أكثر من أن يكون مستمداً نظرياً، ومن حيث هو كذلك، فهو يمثل خروجاً ملحوظاً على الأسلوب العادي.

ولقد ظهرت اختبارات أخرى متشكلة مركبة منذ ظهور اختبار مينسوتا، على الرغم من أن هذا الأخير ظل أوسعها انتشاراً واستخداماً في بحوث التقييم والعمل الإكلينيكي. وبعض هذه المقاييس الجديدة مثل اختبار كاليفورنيا النفسي (جف ١٩٥٧) أو اختبار التفضيل الشخصي لإدواردز (١٩٥٤) قد وضعت للكشف عن سمات للشخصية ليست مرتبطة بالضرورة بالمرض النفسي على النحو الذي وجدناه في اختبار مينسوتا. ولكل اختبار من هذه الاختبارات أساسه النظري وتقنينه ودراسته لصدق الاختبار.

وهناك بعض النماءات الحديثة في نظرية تصميم الاختبار غير المتشكل. فعلى حين تمثل الاختبارات القائمة كأختبار مينسوتا واختبار كاليفورنيا محاولة لقياس سمات الشخصية العريضة مثل الأشكال البارانوية للتفكير أو درجة التطبيع الاجتماعي، فإن بعض علماء نفس التقييم قد ذهبوا إلى أن هذه الاختبارات وفقراتها، يجب أن تتركز على سمات أضيق ومحددة موقفياً. وكان أحد المفكرين الذين أثروا في هذا المجال، وهو دونالد فسك Donald Fiske (١٩٦٣)، حساساً جداً لكفاية اختبارات الشخصية الموجودة اليوم، ولاحظ من بين أشياء أخرى أن قيمتها التنبئية أو ثباتها عبر الزمن محدودة جداً. وقد أرجع هذا العيب، جزئياً، إلى مشكلات عديدة (أنظر: نيرنر Turner وفسك Fiske ١٩٦٨).

فمن جهة، أن الأشخاص الذين تطبق عليهم الاختبارات يفسرون معاني الفقرات تفسيراً مختلفاً تمام الاختلاف، ويستخدمون أساليب مختلفة لتحديد ما إذا كانت فقرة ما تنطبق عليهم أم لا. فالشخص عادة عليه أن يوضح ما إذا كان «غالباً» ما يفعل هذا الشيء أو ذاك. ويتساءل فسك: وكم من إجابة «غالباً» ما يحدث «غالباً» حقاً؟ إن العملية التي بواسطتها يصل الفرد إلى الإجابة عن هذا السؤال ليست واضحة بشكل ظاهر. لقد كتب مثلاً: «قد يكون السؤال» هل تجد صعوبة في التحدث أمام جمع كبير من الناس؟ قد يدور المفحوص حول عملية الإجابة بطرق متعددة. فقد يقارن هذه العبارة بصورته العامة عن نفسه. وقد يتذكر خبرة أو عدة خبرات متصلة بالسؤال، ويقيّم إجابته على تذكره لمشاعره. وقد يقرر أيضاً أن الإجابة الموجبة قد تصدق على معظم الناس ومن ثم فهي تصدق عليه (تلك هي بعض العمليات التي وردت بتقارير الأشخاص الذين أجابوا على مثل هذه الفقرة). فطالما أن أشخاصاً عديدين يدورون حول الإجابة عن مثل هذا السؤال بطرق مختلفة، فإن العمل يكون اذن غير متشكل (١٩٦٦ ص ٧٨). ويقول فسك إن مثل هذه الاختلافات تقلل من كفاية الاختبار كمقياس لبعض الصفات الثابتة للشخصية.

ويوصي فسك بأن تكون عملية إجابة الاستبيان متشكلة بصورة أكثر دقة وتحديداً، مع التخصيص في العبارة على الموقف المحدد الذي يفترض أن تحدث فيه الاستجابة السلوكية المعينة. والواقع، أن فسك يقول إن الاختبارات المسماة «متشكلة» هي في الحقيقة «غير متشكلة» لدرجة كافية. وقد يذكر القارىء أن إندلر وهنت Endler and Hunt (١٩٦٨) السابق ذكرهما، قد حاولا القيام بذلك فيما بذلاه من جهد لتحديد مساهمة الموقف ونوعية الاستجابة والشخص في الفروق بين استجابات المفحوصين على الاستبيان.

إن الاختبارات الحالية قد صممت على أساس أن تغفل قدر الإمكان سياق الموقف الذي يحدث فيه السلوك من أجل أن تستكشف استعدادات الشخصية العريضة للاستجابة بصرف النظر عن هذا السياق. فإذا وضعت اختبارات المستقبل وفق الخط الفكري الذي رسمه فسك، فإنها سوف تؤكد السياق الموقفي، كما تميل فقراتها إلى أن ترتبط بمجموعات محددة من المواقف، ومن ثم تضيّق من مجال نظرتها. أما أن اختبارات الشخصية تسير أو لا تسير ناحية التخصيص أو التضييق أو أنها تظل متجهة نحو سمات أو استعدادات عريضة، فهذا أمر لا يزال غير واضح. فهناك نقاش

مستمر، ولكن لم يصل بعد إلى حل حول أحسن النماذج التي يمكن استعمالها في وضع اختيارات متشكلة للشخصية.

الاختبارات الإسقاطية أو غير المتشكلة Projective or Unstructured Tests :

وثمة اختبارات صممت على أساس تقديم مواقف لمثير غامض يقوم المفحوص بتفسيره. واستعمال المصطلح «إسقاط» يرتبط، وإن اختلف اختلافاً بسيطاً ـ بمعنى الإسقاط كميكانزم دفاعي حيث يعزي الدافع غير المقبول إلى شخص آخر. وطالما أن مهمة الإسقاط غامضة ومبهمة وتسمح بمدى واسع في الاستجابة، فمن الممكن أيضاً أن نسمي هذه الاختبارات «غير متشكلة». وغموض المثير والعمل الذي يضعه الاختبار الإسقاطي من شأنه أن يقلل من مدى تحديد المثير لطبيعة الاستجابة أو تقييده لها. وعلى ذلك، إذا عرضنا على سبيل المثال شيئاً عادياً مألوفاً لشخص ما في إضاءة كاملة، وطلب منه أن يقرر ما هذا الشيء، فإن إجابته سوف لا تكشف كثيراً عن شخصيته. فمن الواضح أنه قلم أو كتاب أو تليفون أو بيضة أو أي شي ء آخر؛ وعلى العموم سوف يحدث اتفاق بين الجميع حول هذا الشيء. أما عندما تصبح الإضاءة قليلة بشكل ظاهر، أو عندما تضطرب معالم الشيء، فإن الفروق الفردية في التفسير سوف تبدأ في الظهور. فالمثير، مع اختفاء الأدلة العادية، سوف يبدو مختلفاً تمام الاختلاف للأفراد المختلفين؛ ولإضفاء معنى على هذا الشيء، سوف يعتمد كل فرد على خبرته الشخصية وعلى اهتماماته السابقة وميوله. إنه «يسقط» هذه الأشياء على المثير الغامض. وهذا هو سبب استخدام الاختبارات الإسقاطية لمواد مثل بقع الحبر وصور الأشخاص في مواقف مثيرة ولكنها ليست واضحة تماماً.

والاختبار الاسقاطي له جاذبية على وجه الخصوص بالنسبة لهؤلاء الذين يرون المرض النفسي بمثابة إقحام للقوى الأولية اللاشعورية في الحياة العقلية. وهذا شبيه بالطريقة التي نظر إليها فرويد (١٩٣٨ و١٩٥٣) الى الحلم وفلتة اللسان. فقد افترض أن المادة اللاشعورية تفلت من رقابة الأنا لخلق الحلم عندما يكون الشخص نائماً أو أقل حذراً من المعتاد، أو تبدو كفلتة لفظية غير مقصودة تكشف عن دفعة أو فكرة خفية. وقد استخدم الأسلوب الإسقاطي على نحو ما ظهر في الأصل، نفس هذا المبدأ. وقد بدأ الاهتمام بهذه الاختبارات يظهر على وجه الخصوص عندما أنتقل من أوروبا في أواخر الثلاثينيات اختبار بقع الحبر لرورشاخ (مثلاً بيك Beck ١٩٣٠؛ كلوبفر وكيللي Klopfer and Kelley ١٩٤٢) ثم ظهور اختبار تفهم الموضوع لهنري موري Henry

Murray في الولايات المتحدة (١٩٤٣). وسوف نقدم هنا باختصار أمثلة ثلاثة للأساليب الإسقاطية هي اختبار رورشاخ، واختبار تفهم الموضوع، واختبار تكملة الجمل. وهذه تعد من بين الأساليب الإسقاطية الأوسع انتشاراً.

يتكون اختبار رورشاخ من عشر بطاقات تعتبر بمثابة المثير، اختيرت أساساً نتيجة تجارب طويلة قام بها مؤلف الاختبار الطبيب النفسي السويسري هرمان رورشاخ Herman Rorschach (١٩٤٢). وينظر المفحوص الى كل بطاقة من هذه البطاقات الواحدة تلو الأخرى ثم يقول ماذا تبدو له أو ماذا تشبه، أو ماذا يمكن أن تكون. ويسجل الفاحص كل استجابة ثم يقوم بُعد بالتحقق عن مكانها ومحدداتها الشكلية، مثلاً هل رأى المفحوص الشيء المدرك في حركة أو رآه ساكناً، ومدى تأثير الشكل واللون والظلال في الاستجابة. وتتم تفسيرات الشخصية أساساً من الفروق الفردية في طريقة أو «أسلوب» أداء الشخص للاختبار، على الرغم من أن محتوى الشيء المرئي يلعب أيضاً دوراً أقل. ومثل هذه التفسيرات تأملية، ومن المفترض أنها تقوم على مادة معيارية (بعضها غير شكلي ويمثل جزءاً من تعاليم الاختبار، وبعضها شكلي) تكشف عن كيف تستجيب الأنواع المختلفة من الناس. وشكل ١٥ يمثل إحدى صور اختبار بقع الحبر لرورشاخ.

والاختلافات في الأسلوب لها وزن كبير في إقامة استدلالات عن الشخصية مستمدة من أداء الفرد في اختبار رورشاخ. فمثلاً، توحي التعبيرات الانفعالية في الاستجابة للأشياء المرئية مثل « أنا أحتقرهم » أو « ما أجمله » عن أساليب دفاعية مكبوتة، بينما الأوصاف مثل « إنها ليست نسخة جيدة للخفاش » أو «أنا يمكنني أن أراها فقط إذا تركت لخيالي العنان » فإنها توحي ببناء وساوسي قهري للشخصية، أي ذلك الشخص الذي يستعمل الميكانزم الدفاعي للعزل Isolation أو التعقل[1] Intellectualization. ومثل هذه التفسيرات تتطلب بيان صدقها، ولهذا فقد كرس الباحثون جزءاً كبيراً من البحث بالنسبة لكل نمط من أنماط التفسيرات الكبرى التي اقترحها المشتغلون باختبار رورشاخ (مع ما تلى ذلك من إنتاج وفير جداً).

---

١ ـ التعقل هو تحليل المشكلة على أساس عقلي بحت مع إعقال المشاعر والانفعالات، وذلك كميكانزم دفاعي لتجنب وطأة هذه المشاعر والانفعالات (المترجم)

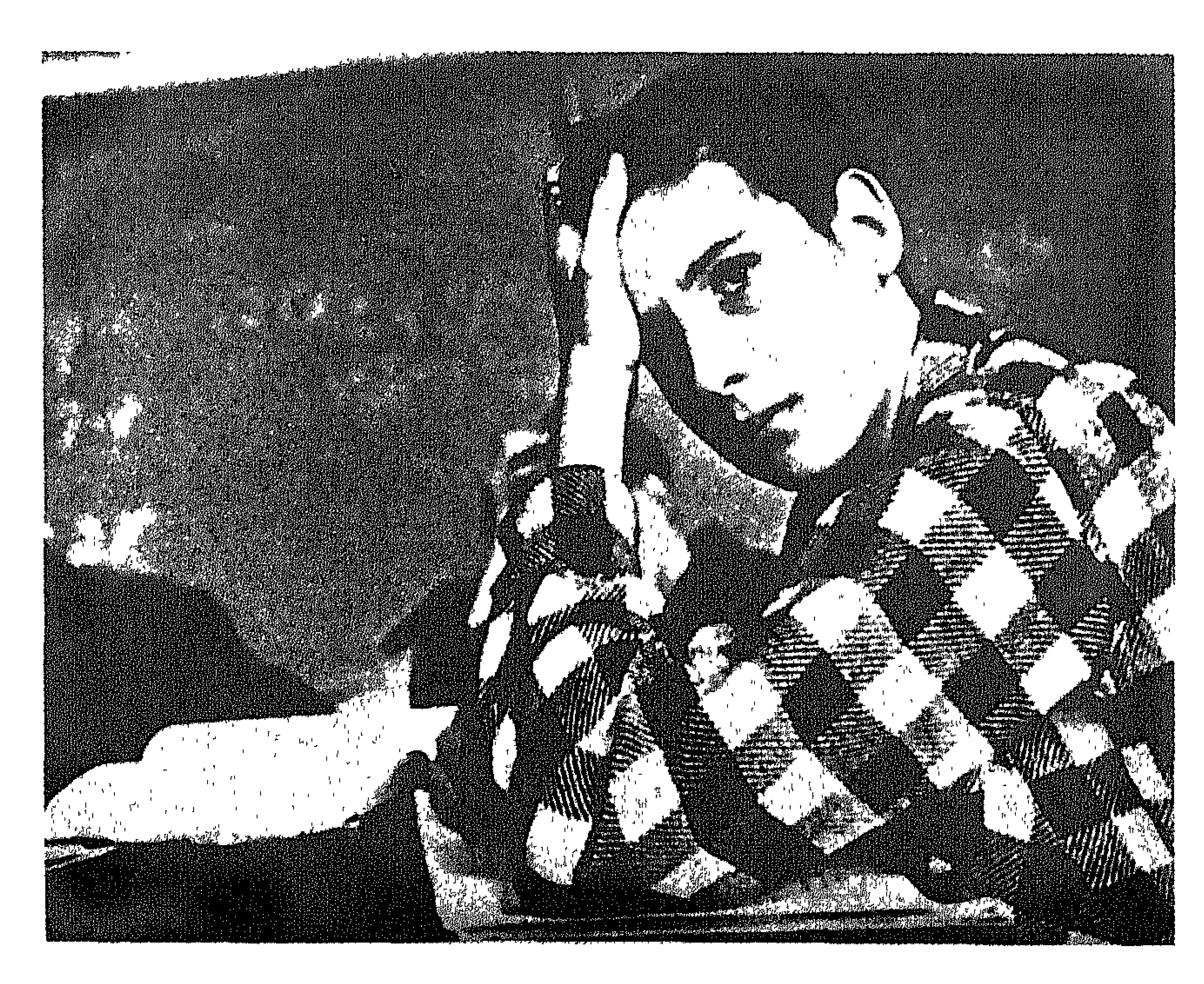


شكل ١٥ ـ مثال من اختبار بقع الحبر لرورشاخ. والصورة التي نسقطها في بقع حبر كهذه تعطي مفاتيح قيمة لأفكارنا وانفعالاتنا. وقد اكتشف الطبيب النفسي السويسري هرمان رورشاخ أنه عن طريق التصنيف الدقيق للاستجابات لهذه البقع، يكون لدينا أداة يمكن أن تستخدم للدراسة والتقدير المنظمين لشخصية الإنسان (رورشاخ، ١٩٤٢).

أما اختبار الموضوع (TAT) فيحتوي على مجموعة من ٢٠ رسم أو صورة غامضة، أخذ معظمها من المجلات العادية، ويصور معظمها رجالاً ونساء (وأحياناً لا يكون الجنس واضحاً) في مواضع وعلاقات متعددة. ويطلب من المفحوص أن يقص قصة أو يحكي حكاية خيالية عن بعض أو كل الصور. فيطلب من المفحوص أن يوضح ماذا يفكر فيه الناس وماذا يشعرون به، وما هي الأحداث التي أدت الى هذا الموقف الموضح في الصورة، وما هي النتيجة. وعلى الرغم من أن الكثير من الصور تميل إلى إثارة أنماط خاصة من محتوى القصة (فمثلاً بعض الصور ترى عادة كأنها تمثل أباً وإبنة، أماً وإبنها، زوجين، إلخ) فإن هناك أيضاً تنوعاً كبيراً في موضوعات القصة ومحتوياتها. ومن المفروض أن القصص تعكس عملية تقمص المفحوص للشخصيات المصورة، ومن ثم تكشف أيضاً عن أشياء تتصل بدوافع المفحوص وصراعاته ومصادر التهديد إلخ..

وعلى الرغم من أن اختبار تفهم الموضوع يستخدم عادة في المواقف الإكلينيكية من أجل رسم خطة أفضل للعلاج، فإن صوراً تجريبية قد وضعت من أجل قياس

خصائص دافعية معينة لدى الناس. وأحسن مثال معروف هو بحث دافيد ماك كليلاند David C. McClelland وزملائه (١٩٥٣) لقياس الدافع للإنجاز. ففي دراساتهم الأولى وضعت مجموعة من الصور من المحتمل أن تثير موضوعات لقصص ترتبط بالإنجاز. ويُختبر المفحوصون بعد تعريضهم لموقف تجريبي صمم لإحداث دوافع للإنجاز، وذلك بعد موقف آخر صمم باعتباره محايداً. وفي الموقف المثير للإنجاز، تقدم بعض الاختبارات في جو يتسم بالشكلية والجدية مع اعطاء التعليمات بأن أداء المفحوصين سوف يكشف عن ذكائهم وقدرتهم على الزعامة، وقدرتهم على الإدارة. ثم بعد ذلك يكتب المفحوصون قصصاً عن الصور التي وضعت خصيصاً لتناسب موضوعات الإنجاز. ويتبع نفس الأسلوب بالنسبة للموقف المحايد والذي يكون الجو فيه استرخاء وغير تقييمي. ويُحدث السياق التقييمي تخيلاً في القصص أكثر ارتباطاً بالإنجاز مما يحدثه السياق الاسترخائي غير التقييمي. ويفسر الفرق على أساس



شكل ١٦ ـ احدى الصور التي استخدمت لاستثارة قصص تستخدم لتقدير الإنجاز. من الشكل ١٠٣.أ في الدافع للانجاز لماكيلاند واتكنسون وكلارك Clark ولوول Lowell (١٩٥٣).

الاستثارة الأكبر لدافع الإنجاز في السياق الأول. وقد وضع نظام للتقدير ليعكس هذا الدافع المستثار للإنجاز، ثم استخدم فيما بعد لغرض التمييز بين الأشخاص ذوي الاستعدادات الأعلى والأدنى في دافع الإنجاز، أعني دافع الإنجاز كسمة من سمات الشخصية.

وهذا ما يتضح في القصتين اللتين أوردهما أتكنسون Atkinson والتي تصور الأولى شخصاً مرتفعاً في تخيل الإنجاز، ومن ثم فمن المفروض أن يكون دافعه للإنجاز عالياً، وتصور الثانية شخصاً منخفضاً في تخيل الإنجاز. وقد وردت هاتان القصتان استجابة للصورة المعروضة في الشكل رقم ١٦.

تخيل عال للإنجاز:

هذا الفتى يقوم ببعض التأملات العميقة. إنه طالب مستجد وقد وصل الى مشكلة عقلية. إنه لا يستطيع أن يصل الى قرار. إنه مضطرب ومنزعج.

إنه يحاول التوفيق بين فلسفتي ديكارت وتوماس الأكويني، وفي هذا العمر اليافع في الثامنة عشرة. لقد قرأ العديد من الكتب عن الفلسفة ويشعر بثقل العالم على كاهله.

إنه يريد أن يقدم تأليفاً واضحاً لهاتين الفلسفتين المتصارعتين، لإشباع ذاته ولكسب تقدير أساتذته الأكاديمي.

إنه يقطب جبينه على نحو رائع. لقد عالج العديد جداً من المشكلات مع نقص الخبرة ونقص المعرفة. إنه سوف يستسلم في يأس، سوف يهبط الى الأ (G)[١] ويغرق أحزانه في إناء من البيرة (١٩٥٨ ص٦٩٧).

تخيل منخفض للإنجاز:

الولد في القميص المخطط والذي اسمه (إدوارد Ed) موجود في الفصل. ومن المفروض أنه يستمع الى المدرس.

ادوارد مضطرب بسبب إدمان أبيه على الشراب وسوء معاملته لوالدة إدوارد. وهو كثيراً ما يفكر في هذا ويسبب له انزعاجاً.

ادوارد يفكر في ترك المنزل لفترة على أمل أن يحدث هذا صدمة لوالديه فيفوقا.

إنه سوف يترك المنزل، ولكن سوف يواجه فحسب أوهاماً أكثر بعيداً عن المنزل (١٩٥٨ ص٦٩٧).

وتحتوي كل قصة منهما على صراع ملحوظ. ومع ذلك فإن القصة الأولى تمتلىء بأدلة عن دافع عميق تجاه مستوى الامتياز والتفوق (تعريف ماكيلاند لدافع الإنجاز)،

---

١ ـ G الحرف الأول من كلمة: ground الأرض (المترجم).

يعبر عنه بما يبذله من جهد لمعالجة مشكلة صعبة، وكسب التقدير، وإشباع الذات. أما القصة الثانية لنفس الصورة فإنها لاتحتوي على موضوع للإنجاز. إنها تدور حول صراع الأسرة وجهود الطفل لحله. إن الفروق في المحتوى المرتبط بالإنجاز بين هاتين القصتين توضح جيداً استعمال أسلوب « اختبار تفهم الموضوع » في تقييم متغيرات الشخصية.

ويجب أن نعرف أن الدوافع لا يعبر عنها دائمًا بشكل مباشر في سرد القصة على نحو ما سبق أن وجدنا. فأحياناً تكون مثل هذه الدوافع، وبخاصة اذا كانت مستهجنة ثقافياً أو غير مستحبة لدى الفرد، غير موجودة في محتوى القصة رغم وجودها أحياناً بصورة رمزية أو بشكل غير مباشر (كلارك ١٩٥٢، ١٩٥٥). والقواعد التي يعبر بها عن سمات الشخصية أو التي بها تكبت أثناء سرد القصة، هي نفسها موضع بحوث ونظريات كثيرة لعلماء النفس. ويكون لهذه المشكلة أهميتها على وجه الخصوص بالنسبة لعالم النفس الذي يتبنى الاتجاه الفرويدي بالنسبة للديناميات النفسية، لأن معظم دوافع الحياة التي يحاول الكشف عنها من المفروض أنها لا شعورية أو حتى مكبوتة، كما لا يمكنه أن يتوقع أي تعبير مباشر بسيط لمثل هذا المحتوى العقلي الذي يخجل منه الشخص بشدة أو الذي يتهدد الشخص، على نحو ما قد يكون عليه الحال بالنسبة للدوافع المقبولة اجتماعياً كالدافع للإنجاز.

وفي الطريقة الإسقاطية المعروفة « بتكملة الجمل »، يجب أن يقوم المفحوص بتكملة جملة ناقصة. فجزء الجملة « أنا أشعر »، أو « أغضب عندما »، أو « البنات » يوحي بالموضوع الأساسي للجملة. وقد يكون الجزء في غاية الغموض على نحو ما نجد في المثال الأول، أو قد يحدد الى درجة كبيرة أنواع الاستجابات الممكنة على نحو ما نجد في المثالين الثاني والثالث السابقين واللذين يوحيان بأفكار عدوانية وجنسية على التوالي. وهذا التنوع في درجة البناء، أو هذا الغموض له أهمية، طالما أن المفحوص يتطوع في الفقرات الأكثر غموضاً، بتقديم موضوعات تكون ملحة جداً بالنسبة إليه، بينما في الوحدات الأقل غموضاً وإبهاماً، فإن المفحوص يواجه بموضوعات معينة قد تحدث له إضطراباً، وهي تضطره لأن يتعامل معها.

واختبارات تكملة الجمل قد تأخذ صوراً مختلفة تتوقف على اهتمامات عالم النفس القائم بالتقييم. وهذا ما يتضح من مثال استخدمه ميشيل جولدشتين (١٩٥٩) للتمييز بين أنواع من التعامل مع الدوافع المخيفة أو المهددة. وقد عنى جولدتشين



بأسلوبين من التعامل أشار إليهما «التجنب وزيادة الحساسية» (أو الاقتراب). وينعكس التجنب في تكملات الجمل التي تبتعد عن المحتوى والمتضمن في جزء الجملة، على حين ينعكس الاقتراب في تقبل محتوى الجزء وتكملته بعد ذلك. والجدول رقم ٨ يوضح مثالاً لأربع فقرات من اختبار تكملة الجملة لجولدتشين وتقدير الفقرات بالنسبة للتجنب والاقتراب.

جدول ٨ ـ نموذج لبعض الفقرات الناقصة واستجاباتها (مع تقديراتها) من اختبار تكملة الجمل لجولدتشين.

١ ـ إذا ضُربت:
(٢) أرد الضربة
أجن
(١) أتركه
أطلب المساعدة
(صفر) ربما أموت من المفاجأة
لا أعرف

٢ ـ أسوأ شيء تفعله بنت:
(٢) أن تبيع نفسها أو تذهب راضية
تفكر في جنس الذكور
أن يكون لها طفل قبل الزواج
(١) تكذب
تصفع طفلاً
تكون مغرورة
(صفر) تذهب الى مؤسسة تجارية
تأكل كثيراً جداً
ألا تشبه النساء

٣ ـ أنا أكره:
(٢) والديّ
مستر جونز
أختي
(١) بعض الناس
الديمقراطيين
أن أشتم
(صفر) الحيات والديدان
المخلل
لا شيء

٤ ـ شكل البنت:
(٢) في غاية الأهمية بالنسبة لي
لنلهو به
من الصعب أن نبعد أعيننا عنه
(١) أن يكون مقبولاً لدى الأصدقاء
يجب أن يكون أنثوياً
أن يكون حسناً جداً
(صفر) نحيل
لا ينم عن شخصيتها
لا أعرف

عن جولدتشين (١٩٥٩)

وفي الجدول ٨ تعطى الدرجات المنخفضة لكل تكملة جملة تشير الى التجنب، بينما تعطى الدرجات المرتفعة للتكملة التي تشير الى زيادة الحساسية. ولنأخذ على سبيل المثال الفقرة رقم ٤ « شكل البنت ». إن الدلالة الواضحة هي الجنس (الجنسية الغيرية إذا كان المفحوص ذكراً). فالاستجابة « من الصعب أن نبعد أعيننا عنه » تقبل الموضوع الجنسي وتنميه. فالشخص يقرر في الواقع أن جسم الفتاة يجذبه في الواقع كثيراً لدرجة أنه يحتاج الى جهد ليبعد نظره عنه. فالإجابة تعطى درجة عالية في الحساسية أو الاقتراب. ولننظر الآن في الإجابة « لا تنم عن شخصيتها » أو « لا أعرف » فهنا يتجنب المفحوص الدلالة الجنسية تماماً، وتعطى التكملة درجة منخفضة باعتبارها استجابة تجنب. وقد أشار البحث الذي قام به جولدشتين وتلامذته حول النمطين من الشخصيات، المتجنبين والحساسين، إلى أنهما يسلكان في النواحي الأخرى أساليب سلوكية تتسق مع تفسيراتهما لعمليات التعامل هذه (صدق المفهوم). فمثلاً، نجد المتجنبين يتعاملون مع الدعاية التي تثير التخويف من تسوس الأسنان بنسيان المعلومات التي تقدم لهم بعد ذلك، وعدم تغيير عاداتهم تجاه الأسنان، بينما يسلك الحساسون بطريقة مخالفة.

وقبل أن نترك الأساليب الإسقاطية، يجب أن نشير إلى الموقف الراهن لعلماء نفس التقييم تجاهها. ففي الأيام الأولى من أيام التحمس لهذه الأساليب، أعتبرت الاختبارات الإسقاطية، مثل الحلم، إذا ما استخدمنا مصطلحات فرويد « الطريق الملكي الى اللاشعور ». ومع ذلك، فقد أصبح من الواضح بشكل متزايد أن محتوى الاختبار الإسقاطي ـ كالقصص التي تحكي لبطاقات اختبار تفهم الموضوع ـ مع أنه متأثر الى حد بعيد باللاشعور والعملية الأولية للنشاط العقلي، إلا أنه يتحدد أساساً « بالعملية الثانوية » للتفكير التي تميز نشاط الأنا الناضج والمتكيف. مثال ذلك إن المفحوص في اختبار تفهم الموضوع يُعطى الصور « المثير »، ويطلب إليه أن يحكي قصصاً عن هذه الصور. إن استجابة الشخص العادي، يحتمل أن تكون متوافقة مع المثيرات ومع السياق الاجتماعي، وبوجه عام، تتلاءم القصص مع موضوعات المثير الى درجة كبيرة، فالمفحوص يتبع التعليمات ويكون حساساً للقيود الاجتماعية المتعلقة بالاختبار. وعلى ذلك، فالتشابه بين العملية الأولية (التخييل الأولى) وقص القصص في اختبار تفهم الموضوع متكلف إلى حد ما.

ومن الممكن بالطبع تقدير محتوى الاختبار الإسقاطي بالنسبة لنشاط العملية

الأولية والثانوية على نحو ما فعل هولت Holt وهافل Havel (١٩٦٠). ومع ذلك، فلم يعد مناسباً النظر الى ما ينتجه المفحوصون من استجابات لمثيرات الاختبار الإسقاطي كمرادفٍ للفكر الأولي أو العملية الأولية للتفكير على نحو ما كان معتقداً. لقد حدث تغير في وجهة النظر التي تتفق أيضاً مع التغير في التركيز في فكر التحليل النفسي، من الإهتمام أساساً بالقوى الدافعة للهو إلى الاهتمام بالعملية التكيفية للأنـا. وكما إبتعدت الأفكار الخاصة بالاختبارات المتشكلة بقوة عن المفاهيم المبسطة للغاية والتي تميزت بها بداياتها الأولى، فكذلك تطورت بالتدريج الأفكار المتصلة بالأساليب الإسقاطية من الصياغات الأولى البسيطة والمفرطة في التفـاؤل الى أفكار أكثر واقعية وأكثر تواضعاً من حيث قيمتها في التقييم. وكما سنرى بعد، فإن النقد الرئيسي الذي يمكن أن يوجه الى مثل هذه الاختبارات، وفي الحقيقة لجميع أساليب التقييم ـ هو الدليل المحدود جداً لصدقها.

أساليب الحصول على الملاحظات المباشرة للسلوك وتبويبها:

في مناقشتنا لتاريخ الحياة والمقابلة الشخصية، أشرنا الى أن عالم النفس الذي يقوم بالتقييم لا يستخدم فحسب المحتويات الذاتية التي يقررها المفحوص أو الأشخاص الآخرون، بل يلاحظ في نفس الوقت سلوك الشخص من أجل القيام باستدلالات أدق عن الأبنية والعمليات السيكولوجية التي يهتم بدراستها. ويجب أن يحدث نفس الشيء أيضاً بالنسبة للاختبار السيكولوجي وبخاصة الاختبار الإسقاطي. أضف الى ذلك، أن الملاحظات تتم أحياناً في وضعها الطبيعي على نحو ما يحدث عندما نريد أن نعرف كيف يسلك الأطفال في المدرسة أو مع أسرهم، أو كيف يستجيب الرجال الى الأسْر، أو يواجهوا الكوارث الطبيعية كالفيضانات والعواصف والقصف بالقنابل إلخ. وكما قد تستمِّد الملاحظات أيضاً من خلق مواقف حياة مصطنعة، أعني مواقف اختبار معملية، كاستعمال طائرة مصنعة أو فرامل سيارة يمكن للمفحوص تشغيلها لتمدنا بمادة عن تعلم المهارات الأساسية المتضمنة في الطيران أو القيادة.

وفي الموقف الاختباري المعملي العادي، أو في موقف الحياة المصطنع والطبيعي، والذي منه يستنبط السلوك ويفسر من أجل التقييم، فإن الأمر يحتاج إلى أساليب تزيد من ثبات الملاحظات التي تجري، والتي تسمح بتبويب السلوك المعقد في قوائم تحليلية يمكن معالجتها وتكون مفيدة نظرياً. وليس كل السلوك الذي يحدث يكون مناسباً لذلك

أو يكون قابلاً للتفسير، ولذا فإن مثل هذه الأساليب تعد ضرورية لمساعدة عالم نفس التقييم على القيام بعمله في الملاحظة والتفسير.

وهناك طريقتان أصبح لهما أهميتهما في هذا الصدد وهما مقياس التقدير rating scale واختبار الشخصية التصنيفي Q — sort. أما مقياس التقدير فإنه يشكل الأحكام التفسيرية للملاحظين سواء حصلوا على السلوك في مقابلة أو اختبار سيكولوجي أو في موقف طبيعي أو مصطنع. فهو يسمح لكل واحد من الملاحظين أن يترجم انطباعاته عن شخصية المفحوص أو عن سلوكه إلى وحدات كمية متشابهة نوعاً ما. وبهذه الطريقة، يمكن أن يقارن شخص ما مع شخص آخر على مقياس مشترك، كما أن حكم الملاحظين المختلفين عن نفس المفحوص يمكن أن يقارن أيضاً بالنسبة لنفس المقياس.

ومقاييس التقدير تتألف بوجه عام من قوائم من السمات أو الخصائص التي يجب أن يقوم الملاحظون بتقديرها في ضوء السلوك الذي يلاحظونه. ومثل هذه المقاييس متنوعة تنوع السلوك والسمات التي يهتم بها علماء نفس التقييم. وأحياناً يقوم المفحوص نفسه بالتقدير على نحو ما يحدث عندما يسأل المفحوص أن يصف مشاعره المختلفة التي يحس بها عندما يشاهد فيلمًا. والجدول رقم ٩ يوضح مثلاً لمقياس تقدير الفرد لذاته. لاحظ أنه على الرغم من أن هذه المقاييس قد صممت ليقدر المفحوص مشاعره الذاتية، فإن من الممكن كذلك أن تستخدم لتمكن ملاحظين عديدين من تقدير حب الاختلاط بالآخرين، أو الهدوء، أو الإندفاعية، أو الحيوية لدى الآخرين.

جدول ٩ ـ أربعة مقاييس للشعور الشخصي استخدمها وسمان وركس

٣ ـ حب الاختلاط بالآخرين في مقابل الميل للعزلة.

(إلى أي مدى تشعر اليوم بالاتجاه نحو المجتمع أو بالانسحاب)

١٠ ـ اجتماعي ومنبسط بدرجة هائلة

٩ ـ منبسط ومتلائم وودود إلى حد كبير

٨ ـ اجتماعي جداً ومهتم بالأشياء.

٧ ـ أنيس، وعلى استعداد للاختلاط بالغير.

٦ ـ اجتماعي على نحو ملائم، متقبل الى حد ما.

٥ ـ لست منبسطاً على وجه التحديد. أشعر بأني غير اجتماعي الى حد قليل.

٤ ـ منسحب، أود تجنب الناس.

٣ ـ أشعر بالانفصال والانسحاب، هناك مسافة كبيرة بيني وبين الآخرين.

٢ ـ متقوقع ووحيد.

١ ـ منسحب تماماً. لا أحب إيجاد أية روابط إنسانية.

٤ ـ الهدوء مقابل القلق

(إلى أي مدى تشعر بالهدوء أو الاضطراب)

١٠ ـ هادىء تماماً وبشكل تام. مطمئن غير مهتز.

٩ ـ هادىء بشكل غير عادي، مطمئن بشكل عجيب ومبتهج.

٨ ـ إحساس كبير بالسعادة، مطمئن بشكل ظاهر وشاعر جداً بالراحة.

٧ ـ مطمئن بوجه عام ولا أحتاج الى رعاية.

٦ ـ ليس هناك شيء محدد يزعجني. مرتاح تقريباً.

٥ ـ أحياناً منشغل بمشكلات أو أمور بسيطة مزعجة. أشعر قليلاً بعدم الأرتياح. مضطرب الى حد ما.

٤ ـ أشعر ببعض القلق والخوف والفزع أو الشك. عصبي، شديد النرفزة على الآخرين.

٣ ـ غير مطمئن الى حد كبير. مضطرب جداً من المخاوف والشكوك والوان الفزع الهامة.

٢ ـ قلق وإنشغال هائلان. تضايقني المخاوف والوان الفزع الكبيرة باستمرار.

١ ـ دائمًا نفسي مروعة، فزع، خائف؛ مذهول بشكل ساحق وكما لو كنت أرتقب شراً. موسوس أو دائم الفزع من مشكلات ومخاوف ليس لها حلول.

٥ ـ التعبير المندفع في مقابل ضبط النفس

(إلى أي مدى تشعر بالإندفاع والقدرة على التعبير أو الضبط الداخلي والتحكم)

١٠ ـ حماس شديد وكامل ولا إنكار لدافع ما.

٩ ـ إحساس مبهج بالتحرر أقول كل ما أشعر به، وأفعل مثلما أريد.

٨ ـ أنطلق بسرعة لفعل كل رغبة مباشرة.

٧ ـ أطلق لدوافعي ورغباتي العنان بقدر ما.

٦ ـ تقبل وتعبير معتدلان عن حاجاتي ورغباتي.

٥ ـ أراجع معظم نزواتي وإندفاعاتي.

٤ ـ على الطريق المستقيم والضيق. أحفظ نفسي داخل حدود قوية.

٣ ـ أخضع لمعايير جامدة. متزمت مع نفسي.

٢ ـ أرفض السماح لنفسي بأبسط إنغماس في اللذة أو القيام بأفعال إندفاعية.

١ ـ إنكار كامل لكل الرغبات: السيطرة الكاملة على الحاجات والدوافع.

٦ ـ الحيوية مقابل التعب

(مدى ما تشعر به من حيوية أو تعب وجهد)

١٠ ـ حماس لا حدّ له. أتدفق طاقة، وحيوية زائدة.

٩ ـ ملىء بالحيوية، طاقة هائلة، قدرة كبيرة على النشاط.

٨ ـ طاقة وواقعية كبيرتان.

٧ ـ نشط جداً وطاقة ملحوظة.

٦ ـ نشط بقدر معتدل، وطاقة مناسبة.
٥ ـ تعب خفيف وتراخ. نقص في الطاقة إلى حد ما.
٤ ـ متعب نوعاً ما، كسول، ليس لدى نشاط كبير.
٣ ـ تعب شديد، تبلد يصعب علي مواصلة العمل. موارد ضعيفة.
٢ ـ مرهق بدرجة هائلة تقريباً، ومنهك، ومتوقف من الناحية العملية. ليست لدي موارد تقريباً.
١ ـ منهك تماماً. غير قادر كلية على بذل أبسط الجهد.

نقلاً عن وسمان Wessman وركس Ricks (١٩٦٦).

أما اختبار الشخصية التصنيفي فقد صمم للقيام بمعالجات إحصائية معينة يتعذر القيام بها جيداً بمعظم مقاييس التقدير بسبب كون المسافة السيكولوجية بين كل من التقديرات الرقمية غير معروفة. فمثلاً في المقياس الموضح بالجدول رقم ٩، إن من المستحيل القول ما إذا كان الشخص الذي يحصل على الدرجة ٥ في المقياس الفرعي « الطاقة مقابل التعب » يعادل في طاقته نصف طاقة الشخص الذي يحصل على الدرجة ١٠ . فالدرجات هنا ليست مشابهة لتلك التي نستخدمها في الأوزان أو الأطوال. فهذه يمكن جمعها وطرحها وضربها وقسمتها دون تحريف في معناها.

أما في اختبار الشخصية التصنيفي فإن الشخص يُعطي مجموعة من العبارات التي تصفه أو تصف شخصاً آخر، وعليه أن يصنف هذه العبارات في أكوام متتابعة، تختلف كل كمة منها (على نحو ما هو الأمر في جميع مقاييس التقدير) في الدرجة التي تصف بها العبارة الشخص. ومع ذلك، وعلى خلاف مقاييس التقدير العادية البسيطة، فإن الشخص لا يكون حراً ليضع العبارات حيثما يريد. إن عليه أن يصنفها في عدد محدود من الأكوام وليكن ٩، وبشكل يترتب عليه أن تكرار العبارات في كل كوم يكوّن توزيعاً « اعتدالياً »، أعني منحنى جرسي الشكل حيث توجد وحدات قليلة جداً في قوائم الأطراف، وتقع غالبية الوحدات في المنتصف. وبهذه الطريقة ولأسباب لا داعي للتعرض لها هنا، فإن من الممكن أجراء عمليات إحصائية على بيانات التقدير التي لا يمكن في العادة تبريرها، مثلاً إيجاد الارتباط بين مجموعة من تقديرات اختبار الشخصية التصنيفي بمجموعة أخرى. وعلى ذلك، فمنهج اختبار الشخصية التصنيفي هو في الحقيقة منهج خيالي الهدف منه ترتيب بيانات مقياس التقدير حتى تصبح أكثر قابلية للقياس الكمي والمعالجة الإحصائية بصورة أكثر دقة مما هو ممكن بالأسلوب العَرَضي لمقياس التقدير. ولعل إحدى الطرق التي يستخدم فيها على نطاق واسع هو تقييم

التغيرات التي تطرأ على الفرد الذي يخضع للعلاج النفسي، حيث تقارن مثلاً نتائج اختبار الشخصية التصنيفي للأفراد الذين يصفون أنفسهم قبل وبعد عملية العلاج.

تقييم الشخصية ـ نظرة عامة

بدأنا هذا الفصل بملاحظة أن التقييم قد يتجه الى قياس سمة واحدة مفردة ولتكن الذكاء أو ضبط الدافع، أو إلى وصف وتقييم الشخص « ككل ». ومصطلح « التقييم » يعد من الناحية الفنية أكثر ملاءمة للنوع الأخير، وإن كان معظم نشاط التقييم في بحوث الشخصية ينطبق مع ذلك على النوع الأول. فعملية تخصيص سمة مفردة أسهل بكثير من عملية تقييم الفرد « ككل »، والذي تتكامل فيه العديد من سمات الفرد في كل منظم نسميه الشخصية.

وهناك سياقات تطبيقية ونظرية يستخدم فيها عالم نفس التقييم، لا أسلوباً واحداً، بل بطارية من الأساليب ومعينات الملاحظة، ويحاول أن يستخلص منها صورة سيكولوجية متكاملة عن الفرد « ككل ». وأحد هذه المجالات هي العيادة السيكولوجية أو السيكياترية حيث يختص الباحث المهني فيها برسم خطة لعلاج الشخص الذي يعاني من سوء توافق ما. وتقييم الشخصية في الموقف الإكلينيكي يشار إليه عادة بأنه « تشخيص نفسي » ويكون التركيز على الصراعات التي تقلق الفرد، وأسلوب تعامله معها، والعلاقات بين هذه الديناميات وأعراض سوء توافقه. ومثل هذا التشخيص النفسي لا ينتج من تجميع قائمة من السمات الفردية، وإنما هو إعطاء صورة نفسية عن الشخص « ككل ».

وثمة أسلوب من أساليب تكوين مثل هذه الصورة النفسية التي تحظى بتقدير متزايد يتلخص في دراسة أنماط أو بروفيلات السمات لدى الأفراد. فمثلاً، في ضوء اختبار الشخصية المتعدد الأوجه السابق الإشارة إليه، يمكن أن نختار كل الأشخاص الذين يشاركون في بروفيل مشترك وليكن مثلاً أصحاب الدرجات المرتفعة في توهم المرض والهستيريا والاكتئاب، وأصحاب الدرجات المنخفضة في البارانويا والفصام والانحراف السيكوباتي. فهؤلاء يمكن مقارنتهم كمجموعة بأنماط أخرى تكشف عن بروفيلات مختلفة. ومثل هذا النوع من التفكير يمكن أن يصبح أكثر تعقيداً بشكل

ملحوظ من المثال السابق، وبذلك نقترب كثيراً من صورة نظام الشخصية المعقد المنظم.

ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا الصدد أنه عندما يتحدث علماء النفس عن الشخص « ككل »، باعتباره متميزاً بالنسبة لمجموعة من السمات الفردية، فإنهم يعنون عادة شيئاً مختلفاً إلى حدٍ ما عن مجرد النمط أو البروفيل. فالشخص « ككل » يمكن أن يدرك في ضوء مجموعة من المبادىء المنظّمة بدلاً من وصف الكثير من العناصر المتنوعة التي تتسق معاً. ومثل هذا المبدأ أو مجموعة المبادىء، هو تجريد يحاول التعبير عن القاعدة أو القواعد التي تنتظم بها أجزاء أو تراكيب النظام، على نحو ما يشير مصطلح « الاستهلاك الداخلي للآلة » إلى مجموعة من القواعد العامة لتحويل الطاقة بطريقة خاصة؛ وهناك أيضاً طرق أخرى عديدة. ومن المفروض أن المبادىء المنظّمة المميِّزة لشخص ما سوف تختلف عن تلك التي تميز شخصاً آخر، وأن محك وصف الشخصية هو أن نحدد هذه المبادىء في كل حالة. وليس معنى ذلك، على نحو ما حاولت جاهداً بيانه في فصول سابقة، أن البحث عن المبادىء العامة المنظّمة التي تنطبق على جميع الأشخاص ليست أيضاً جزءاً مكملاً من علم الشخصية.

وتمثل برامج التقييم المركبة التي تتم لأهداف البحث سياقاً آخر نباشر فيه تقييم شخصية الفرد « ككل ». ومثل هذه البرامج نادرة لأنها مكلفة جداً للموارد الإنسانية والاقتصادية. ومن أمثلة ذلك، تلك المحاولة التي قام بها مكتب الخدمات الإستراتيجية لتقييم ملاءمة الرجال للقيام بدور الجواسيس (OSS Assessment staff, 1948)، ودراسات علماء النفس الإكلينيكي بميشيجان (كيللي وفسك، ١٩٥١؛ وكيللي وجولدبرج Goldberg، ١٩٥٩)، ودراسة علماء الطب النفسي في مؤسسة مننجر Menninger في توبيكا، كانساس (هولت Holt ولبورسكي Luborsky، ١٩٥٨)، وبرنامج « التقييم المتصل » لمعهد تقييم وبحث الشخصية (IPAR) بجامعة كاليفورنيا، بركلي (ماكينون Mackinnon، ١٩٦٦). وقد تضمن هذا الجهد الأخير تقييمات شخصية الفريق الأمريكي الذي صعد لقمة جبل أفرست، والمهندسين المعماريين المبدعين وغير المبدعين، ومجموعة من مشاهير الكتّاب في العالم، وعديد من المجموعات الأخرى من الناس.

وفي برنامج معهد تقييم وبحث الشخصية IPAR، قام نفر من علماء النفس

يتراوح عددهم بين ١٥ ـ ٢٠ بدراسة ١٠ أشخاص في نفس الوقت. وكان هؤلاء الأشخاص يعيشون معاً عادة، ويدرسون دراسة مستفيضة متعمقة على مدى ثلاثة أيام. وقد أمكن الحصول على العديد من الملاحظات والتقديرات والأوصاف عن كل فرد منهم. وقد استخدم بعض أفراد هيئة البحث المقابلة، واستخدم البعض الآخر اختبارات معينة. وفي النهاية كان على كل عضو من أعضاء هيئة البحث أن يعطي صورة متكاملة عن انطباعاته بتقديم صورة عن كل مفحوص مستخدماً الصفات المناسبة للشخصية، واختبار الشخصية التصنيفي، وتخطيطات الشخصية. وقد قورنت نتائج جهود كل عضو من أعضاء هيئة البحث في تقييم كل فرد من أجل معرفة الاتفاق فيما بينهم، وأخذ المتوسط لتقديم تقرير مركب عن كل فرد. ومن الممكن استخدام هذا التقرير في التنبؤ بأشياء أخرى عن الشخص، ويعتبر هذا التنبؤ مقياساً لصدق التقييم وفائدته.

وكما هو متوقع، فإن المشكلة الأساسية في كل من التقييم المحدود للسمات المفردة والتقييم المركب للشخص «ككل»، هي صدق التقييمات. ولا تزال المعرفة والأساليب الفنية التي تسمح بتقييمات مرتفعة الصدق محدودة للغاية. فتقييم الشخصية لا يزال قاصراً نتيجة صعوبات في نظرية الشخصية ونتيجة مشكلات ترتبط بالتأثير القوي للعوامل الموقفية على سلوك الشخص. ومثل هذه التأثيرات الموقفية ـ على نحو ما رأينا ـ تجعل عملية التنبؤ بالسلوك من عبارات التقييم صعبة للغاية. فالتقييم، كمجال، شأنه شأن مجالات أخرى في العلم السيكولوجي، لا يزال في طفولته، وتلك حقيقة غير مشجعة جداً لهؤلاء الذين نفد صبرهم من أجل حل المشكلات العملية التي يتوقف حلها على التقييم الدقيق.

إن لعملية تقييم الشخصية أهمية بالغة للإدارة العملية لكثير من المشكلات الإنسانية. فهناك مجالان تطبيقيان للتقييم فيهما أهمية خاصة وهما: اختيار الأفراد والعلاج الإكلينيكي لسوء التوافق. أما بالنسبة لاختيار الأفراد، فمن المهم عادة أن نكشف عن الأفراد الذين يمكنهم أن يؤدوا وظائفهم بفاعلية في مواقف معينة، كالخدمة العسكرية، والصناعة، والمدرسة، وبرامج التربية الخاصة، والحرف المختلفة إلخ. وبالتأكيد، فإن من الأفضل لمعظم الناس أن يؤدوا في حياتهم الأعمال التي تتفق وقدراتهم وميولهم الخاصة؛ والتقييم هو الوسيلة الممكنة للقيام بذلك. إن الرضى الإنساني والكفاية والعدل تتوقف على مثل هذا الاختيار السليم، وذلك على عكس

الاختيار الذي يقوم، مثلاً على أساس الخلفية الأسرية، والسلالة، والمعايير الاجتماعية الاقتصادية، والأصل العنصري إلخ.

أما بالنسبة للعلاج الإكلينيكي، فإن برامج العلاج يجب أن تستند الى معرفة بطبيعة الاضطراب وأسبابه والطرق الناجحة في التعامل مع كل منها. وتتوقف الإجابات في جزء منها على تقييم الشخصية (أو في هذه الحالة على التشخيص الإكلينيكي). أضف إلى ذلك، أنه إذا أردنا تقييم برامج العلاج، يجب أن نقدر على تحديد الطرق التي يتغير (أو لا يتغير) فيها الشخص كنتيجة لبعض أساليب العلاج المعينة. وباختصار، فإن التقييم الناضج يعد أمراً ضرورياً لتقييم العلاج النفسي.

وتعتبر الحاجة للتقييم الصادق للشخصية أمراً هاماً بالمثل، إذا أريد لنظرية الشخصية أن تتقدم. فإذا لم نستطع تقييم المفاهيم التي تفترضها نظرية الشخصية، فإنه يستحيل القيام بشكل منظم بالتحقيق التجرُبي للمبادىء النظرية عن الشخصية، أو رفضها، أو تعديلها. وعلى ذلك، فالتقييم مظهر أساسي حقاً لمجال الشخصية كله. وعندما يتطور علم الشخصية في النهاية ليصبح جزءاً متكاملاً وقوياً من المعرفة، فإن ذلك سوف يتم، إلى حد بعيد، عن طريق خلق أساليب فنية للتقييم، أفضل مما هي عليه اليوم، والذي يتوقف عليها البحث الضروري في وصف الشخصية ونموها وديناميتها ومحدداتها.

قــراءات مُقْــترحَة

Chapter 1
ALLPORT, G. W. *Personality*. New York: Henry Holt and Co., Inc., 1937.
Pattern and Growth in Personality. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1961.
CATTELL, R. B. *The scientific analysis of personality*. Baltimore, Md.: Penguin Books, Inc., 1965.
LAZARUS, R. S. and OPTON, E. M. JR., eds., *Personality*. Middlesex, England: Penguin Books, Ltd. 1967.
MURPHY, G. *Personality*. New York: Harper and Row, Publishers, 1947.

Chapter 2
CATTELL, R. B. *The scientific analysis of personality*. Baltimore, Md.: Penguin Books, Inc., 1965.
EYSENCK, H. J. *The scientific study of personality*. London. Routledge and Kegan Paul, Ltd., 1952.
HALL. C. S. and LINDZEY, G. *Theories of personality*. New York: John Wiley and Sons, Inc., 1957.
LAZARUS, R. S. and OPTON, E. M., JR. *Personality*. Middlesex, England: Penguin Books, Ltd. 1967. Part I.

SAHAKIAN, W. S., ed. *Psychology of personality: Readings in theory.* Chicago: Rand McNally and Co. 1965.

Chapter 3

ERIKSON, E. H. ''Growth and crisis of the healthy personality''. Psychological Issues, I (1959): 50 - 100. ''Eight ages of man,'' In *Childhood and society. 2d ed.* New York: W. W. Norton, 1963, Ch. 7, pp. 247 - 74.

FLAVELL, J. H. *The development psychology of Jean Piaget.* New York: D. Van Nostrand Co., Inc., 1963.

FREUD, S. *A general introduction to psychoanalysis.* Garden City, N. Y.: Garden City Books, 1943. (First German edition 1917).

HEALY, W., BRONNER, AUGUSTA F. and BOWERS, ANNA MAE. *The stucture and meaning of psychoanalysis.* New York: Alfred A. Knopf, Inc., 1930, Section II.

LANGER, J. *Theories of development.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1969.

Chapter 4

ANSBACHER, H. L., and ANSBACHER, ROWENA R., eds. *The individual - psychology of Alfred Adler.* New York: Basic Books Inc., Publishers 1956.

FREUD, S. ''The development of the libido and the sexual organizations.''In Introductory lectures on psychoanalysis, *The complete works of Sigmund Freud.* London: Hogarth Press, 1962, Vol. 16, Lecture 21, pp. 320 - 38.

——— *A general introduction to psychoanalysis.* Garden City, N. Y.: Garden City Books, 1943. (First German edition 1917).

FROMM, E. *The sane society.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1955.

DOLLARD, J. and MILLER, N. E. *Personality. and psychotherapy.* New York: McGraw - Hill Book Company, 1950.

MASLOW, A. H. *Motivation and personality.* New York: Harper and Row Publishers, 1954.

RANK. O. *The trauma of birth.* New York: Robert Brunner, Publishers. 1952.

ROGERS. C. R. *Client - centered therapy.* Boston: Houghton Mifflin Company, 1951.

WHITE, R. '' Competence and the psychosexuall stages of development''. In *Nebraska Symposium on Motivation,* ed. M. R. Jones. Lincoln: Univ. of Nebraska Press, 1960, pp. 97 - 141.

Chapter 5

HIRSCH, J. *Behavior genetic analysis.* New York: McGraw - Hill Book Company, 1967.

LERNER. I. M. *Heredity, evolution, and society*. San Francisco, Calif.: W. H. Freeman and Co., Publishers, 1968.
MCGAUGH, J. L., WINBERGER, N. M. and WHALEN, R. E., eds. *Psychobiology*. San Francisco, Calif.: W. H. Freeman and Co., Publishers, 1967.
MURRAY, E. J. *Motivation and emotion*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, Inc., 1964.
TEITELBAUM, P. *Physiological psychology*. Englewood Cliffs, N. J. Prentice-Hall, Inc., 1967.
WHALEN, R. E. *Hormones and behavior*. Princeton, N. J.: D. Van Nostrand Co., Inc., 1967.

Chapter6.

BROWN, R. *Social psychology*. New York: Free Press of Glencoe, Inc., 1965.
HSU, FRANCIS L. K. *Psychological anthropology: Approaches to culture and personality*. Homewood, Ill.: Dorsey Press, 1961.
KRECH, D., CRUTCHFIELD, R. S. and BALLACHEY, E. L. *Individual in society*. New York: McGraw-Hill Book Company, 1964.
LAMBERT, W. W., and LAMBERT, W. E. *Social psychology*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, Inc., 1963.
SINGER, M. "A survey of culture and personality theory and research". In *Studying personality cross-culturally,* ed. B. Kaplan. New York: Harper and Row, Publishers, 1961, pp. 9-90.

Chapter 7

BASS, B. M. and BERG, I. A. *Objective approaches to personality assessment*. Princeton, New Jersey: D. Van Nostrand Co., Inc., 1959.
CRONBACH, L. J. *Essentials of psychological testing*. 2d ed. New York: Harper and Row, Publishers, 1960.
MISCHEL, W. *Personality and assessment*. New York: John Wiley and Sons, Inc., 1968.
TYLER, LEONA E. *Tests and measurements*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, Inc., 1963.
VERNON, P. E. *Personality assessment: A critical survey*. London: Methuen and Co., Ltd., 1964.

المَـــرَاجِـــع

ADELSON, J,. and O'NEIL, R. P. 1966. Growth of political ideas in adolescence: The sense of community. *Journal of Personality and Social Psychology,* 4:295 - 306.

ALLPORT, G. W. 1937 a. *Personality.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.

———1937b. The functional autonomy of motives. *American Journal of Psychology,* 50: 141 - 56.

——— 1942. The use of personal documents in psychological science. *Social Science Research Council Bulletin* 49.

——— 1955. *Becoming: Basic considerations for a psychology of personality:* New Haven: Yale University Press.

——— 1961. *Pattern and growth in personality.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.

——— 1962. The general and the unique in psychological science. *Journal of Personality* 30:405 - 22.

——— 1965. *Letters from Jenny.* New York: Harcourt, Brace and World, Inc.

——— and ODBERT, H. S. 1936. Trait-names: A psycho-lexical study.

Psychological monographs 47: 1 - 171.
ALLPORT, G. W. and VERNON, P. E. 1933. Studies in expressive movement. New York: The Macmillan Company.
ANSBACHER, H. L., and ANSBACHER, ROWENA R. eds. 1956, *The individual psychology of Alfred Adler.:* New York: Basic Books, Inc., Publishers.
ARONFREED, J. 1968, *Conduct and conscience.* New York: Academic Press Inc.
ASCH, S. E. 1952. Effects of group pressure upon the modification and distortion of judgments . In *Readings in social psychology,* ed. G.E. Swanson, J. M. New - Comb, and E. L. Hartley. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., pp. 2 - 11.
——— 1952. *Social psychology.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice - Hall, Inc.
——— 1956. Studies of independence and conformity: A minority of one against a unanimous majority. *Psychological Monographs: General and Applied* 70 (9): No. 416.
ATKINSON, J. W. ed. 1958. *Motives in fantasy, action and society.* Princeton, N.J.: D. Van Nostrand Co., Inc.
BANDURA, A., ROSS. DOROTHEA, and ROSS, SHEILA A. 1963. A comparative test of the status envy, social power, and the secondary reinforcement theories of idendification learning. *Journal of Abnormal and Social Psychology.* 67: 527 - 34.
BARKER, R. G., and WRIGHT, H. F. 1951. *One boy's day.* New York: Harper and Row, Publishers.
BASS, B. M., and BREG, I. A. 1959. *Objective approaches to personality assessment.* Princeton, N. J.: D. Van Nostrand Co., Inc.
BAUMRIND, DIANA, and BLACK. A. E. 1967. Socialization practices associated with dimensions of competence in preschool boys and girls. *Child Development* 38 (No. 2): 291 - 327.
BEACH, F. A. 1955. The descent of instinct. *Psychological Review* 62, 401 - 10.
BECK. S. J. 1930. Personality diagnosis by means of the Rorschah Test. *American Journal of Orthopsychiatry* 1: 81 - 88.
BECKER, W. C. 1964. Consequences of different kinds of parental discipline. In *Review of Child Development Research,* ed. M. L. Hoffman and Lois W. Hoffman. New York: Russell Sage Foundation, pp. 169 - 208.
BETTELHEIM, B. 1960. *The informed heart.* New York: Free Press of Glencoe, Inc.
BINET, A. and SIMON, T. L. 1905. Application des methods nouvelles au diagnostic du niveau intellectual chez des enfants normaux et anormaux d'hos-

pice et d'école primarie. *Année Psychologique* 11: 245 - 366.
BLUM. G. S. 1950. *The Blacky Pictures: A technique for the exploration of personality dynamics.* Ann Arbor, Mich.: Psychodynamic Instruments.
BORING, E. G. 1950. *A history of experimental psychology,* New York: Appleton-Century - Crofts.
BREGER. L. 1963. Conformity as a function of the ability to express hostility. *Journal of Personality* 31: 247 - 57.
BRONFENBRENNER, U. 1958. Socialization and social class through time and space. In *Readings in social psychology,* ed. Eleanor, E. Maccoby, T. M. Newcomb, and E. L. Hartley. 3rd ed. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
BROWN, R. 1965. *Social psychology.* New York: Free Press of Glencoe, Inc.
CATTELL, R. B. 1950. *Personality: A systematic, theoretical and factual study.* New York: McGraw - Hill Book Company.
——— 1957. Handbook for the Sixteen Personality Factor Questionaire
——— 1965. *The scientific analysis of personality:* Baltimore: Penguin Books, Inc.
CAUDILL. W. 1959. Observations on the cultural context of Japanese psychiatry. In *Culture and Mental Health,* ed. M. K. Opler. New York: The Macmillan Company, pp. 213 - 42.
CHRISTIAN. J. J., and DAVIS, D. E. 1964. Endocrines, behavior, and population. *Science* 146: 1550 - 60.
CLARCK, G., and BIRCH, H. B. 1945. Hormonal modifications of social behavior. I. *Psychosomatic Medicine* 7: 321 - 29.
——— 1946. Hormonal modifications of social behavior. II. *Psychosomatic. Medicine* 8: 320 - 31.
CLARK, R. A. 1952. The projective measurement of experimentally induced levels of sexual motivation. *Journal of Experimental Psychology* 44: 391 - 99.
——— 1955. The effects of sexual motivation on phantasy. In *Studies in motivation,* ed. D. C. McClelland. New York: Appleton - Century - Crofts, pp. 132 - 38.
CRONBACH, L. J. 1960. *Essentials of psychological testing* 2d ed. New York: Harper and Row, Publishers.
——— and MEEHL, P. E. 1955. Construct validity in psychological tests. *Psychological Bulletin* 52: 381 - 302.
DARWIN, C. 1859. *The origin of species.* London: John Murray Ltd.
——— 1873. *Expression of the emotions in man and animals.* New York: D. Appleton Company. (Reprinted by courtesy of Appleton - Century - Crofts, Inc).
DAVIS, A., and HAVIGHURST, R. J. 1946. Social class and colour differences in childrearing. *American Sociological Review* 11: 698-710.

DEMBER, W. N. 1960. *Psychology of Perception*. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.

DEUTSCH, HELENE. 1944-1945. *The psychology of women*. 2 vols. New York: Grune and Stratton, Inc.

DOBZHANSKY, T. 1967. Changing man. *Science* 155: 409-15.

——— 1967. Of flies and men. *American Psychologist* 22 (No. 1): 41-48.

DOLLARD, J., and MILLER, N. E. 1950. *Personality and psychotherapy: An analysis in terms of learning, thinking and culture*. New York: McGraw-Hill Book Company.

DUGDALE, R. W. 1877. *The Jukes*. New York: G. P. Putnam's Sons.

DUKES, W. F., N-1. 1965. *Psychological Bulletin* 64: 74-79.

DUNDES, A. 1966. Here I sit—a study of American latrinalia. *Croeber Anthropological Society Papers* No. 34, pp. 91-105.

EDWARDS, A. L. 1954. *Edwards Personal Preference Schedule*. Manual. New York: Psychological Corporation.

EKMAN, P., and FRIESEN, W. V. 1967. Nonverbal behavior in psychotherapy research. In *Research on psychotherapy*, ed. J. Shlien. Vol. 3. Washington, D. C.: American Psychological Association.

ELKINS, S. 1961. Slavery and personality. In *Studying personality cross-culturally*, ed. B. Kaplan. New York: Harper and Row, Publishers, pp. 243-70.

ENDLER, N. S. and HUNT, J. McV. 1968. S-R inventories of hostility and comparisons of the proportions of variance from persons, responses, and situations for hostility and anxiousness. *Journal of Personality and Social Psychology* 9: 309-15.

ERIKSON, E. H. 1959. Growth and crises of the healthy personality. *Psychological Issues* 1:5-100. Also reprinted in *Personality*, ed. R. S. Lazarus and E. M. Opton, Jr. Middlesex, England: Penguin Books, Ltd., 1967, pp. 167-213.

——— 1963. *Childhood and society*. rev. ed. New York: W. W. Norton and Company, Inc.

EYSENCK, H. J. 1952. *The scientific study of personality*. London: Routledge and Kegan Paul Ltd.

FISKE, D. 1963. Hommogeneity and variation in measuring personality. *American Psychologist* 18: 643-52.

——— 1966. Some hypotheses concerning test adequacy. *Educational and Psychological Measurement* 26: 69-88.

FLAVELL, J. H. 1963. *The developmental psychology of Jean Piaget*. New York: D. Van Nostrand Co., Inc.

FREUD, S. 1925. Instincts and their vicissitudes. In *Collected papers*, vol. 4. London: Hogarth Press. pp. 60-83. (First German edition, 1918).

——— 1933. Analysis of a phobia in a five-year old boy. In *Collected papers*,

Vol. 3. London: Hogarth, pp. 149 - 296. (First published in German, 1909).
——— 1933. *New introductory lectures on psychoanalysis*. New York: W. W. Norton and Company, Inc. (First German edition, 1933).
——— 1933. Psychoanalytic notes upon an autobiographical account of a case of paranoia (dementia paranoides). In *Collected papers,* vol. 3. London: Hogarth, pp. 390 - 472 (First published in German, 1911).
——— 1938. The psychopathology of everyday life. In *The basic writings of Sigmund Freud,* ed. A. A. Brill. New York: Modern Library, Inc.
——— 1949. *An outline of psychoanalysis.* New York: W. W. Norton and Company, Inc. (First German edition, 1940).
——— 1953. *The interpretation of dreams.* In Standard Editions, vols. 4 and 5. London: Hogarth (First German edition, 1900).
——— 1957. *Civilization and its discontents.* trans. Joan Riviere. London: Hogarth. (First German edition, 1930).
——— 1961. The ego and the id. In *The complete psychological works of Sigmund Freud,* vol. 21. Trans James Strachey in collaboration with Anna Freud, vol. 21, London: Hogarth.
FROMM, E. 1941. *Escape from freedom.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
——— 1947. *Man for himself.* New. York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
——— 1949. Psychoanalytic characterology and its application to understanding of culture. In *Culture and personality,* ed. S. S. Sargent and Marian W. Smith. New York: Basic Books, Inc., Publishers, PP. 1 - 12.
———1955. *The sane society.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc
GALTON, F. 1869. *Hereditary Genius.* London: Macmillan and Co. Ltd.
GIBSON, J. J. 1966. The *senses considered as perceptual systems.* Boston: Houghton Mifflin Company.
GLUECK. S. and GLUECK, ELEANOR. 1950. *Unraveling juvenile delinquency.* New York: Commonwealth Fund.
GODDARD, H. H. 1912. *The Kallikak family.* New York: The Macmillan Company.
GOLDSTEIN K. 1940. *Human nature in the light of psychopathology.* Cambridge: Harvard University Press.
GOLDSTEIN, M. J. 1959. The relationship between coping and avoiding behavior and response to fear - arousing propaganda. *Journal of Abnormal and Social Psychology* 58: 247 - 52.
GOTTESMAN, I. 1966. Genetic variance in adaptive personality traits. *Journal of Child Psychology and Psychiatry* 7: 199 - 208.
——— 1968. Genetics. In *Biology and behavior,* ed. D. C. Glass. New York: Rockefeller University Press and Russell Sage Foundation, pp. 59 - 68.

GOUGH, H. G. 1957. *Manual for the California Psychological Inventory*. Palo Alto, Calif: Consulting Psychologists Press.

——— 1960. Theory and measurement of socialization. *Journal of Consulting Psychology* 24:23 - 30.

HALL, C. S. and LINDZEY, G. 1957. *Theories of personality*. New York: John Wiley and Sons, Inc.

HALL, K. R. L. 1964. Aggression in monkey and ape societies. In *The natural history of aggression,* ed. J. D. Carthy, and F. J. Ebling. New York: Academic Press, Inc., pp. 51 - 64.

HARDIN, GARETT. 1949. *Biology: Its human implications*. San Francisco: W. H. Freeman and Co, Publishers.

HARLOW, H. F. 1953. Mice, monkeys, men and motives. *Psychological Review* 60: 23 - 32.

HARTMANN, H. 1964. *Essays on ego psychology*. New York: International University Press.

HARTSHORNE, H., and MAY, M. A. 1928. *Studies in deceit*. In *Studies in the nature of character,* vol. I New York: The Macmillan Company.

HATHAWAY, S. R., and MCKINLEY, J. C. 1943. *The Minnesota Multiphasic Personality Inventory*. rev. ed. Minneapolis: University of Minnesota Press.

HEALY, W., BRONNER, AUGUSTA, F., and BOWERS, ANNA MAE. 1930. *The structure and meaning of psychoanalysis*. New York: Alfred A. Knopf, Inc.

HEMMENDINGER, L. 1960. Developmental theory and the Rorschach method. In *Rorschach Psychology,* ed. Maria A. Rickers - Ovsiankia. New York: John, Wiley and Sons, Inc., pp. 58 - 79.

HETHERINGTON, E. M., and WRAY, NANCY P. 1964. Aggression, need for social approval, and humor preferences. *Journal of Abnormal and Social Psychology* 68: 685 - 89.

HIRSCH, J. 1967. *Behavior genetic analysis*. New York: McGraw-Hill Book Company.

HOLLINGSHEAD, A. B. 1949. *Elmtown's youth*. New York: John Wiley and Sons, Inc.

HOLT, R. R. 1962. Individuality and generality in the psychology of personality. *Journal of Personality* 30: 377 - 404.

HOLT, R. R. and LUBORSKY, L. 1958. Personality patterns of psychiatrists. New York: Basic Books, Inc., Publishers.

HOLT, R. R. and HAVEL, JOAN. 1960. A method for assessing primary and secondary process in the Rorschach. In *Rorschach Psychology,* ed, Maria A. Rickers - OvsianKina. New York: John Wiley and Sons, Inc., pp., 263 - 315.

HOOKER, D. 1943. The reflex activities in the human fetus. In *Child behavior*

and development, ed. R. S. Kounin, and H. F. Wright. New York: McGraw - Hill Book Company.
HORNEY, KAREN. 1937. *Neurotic personality of our times.* New York: W. W. Norton and Company, Inc.
HSU, FRANCIS L. K. 1961. *Psychological anthropology: Approaches to culture and personality.* Homewood, Ill. : Dorsey Press.
HULL, C. L. 1943. *Principles of behavior.* New York: Appleton - Century - Crofts.
HUXLEY, A. 1965. Human potentialities. In *Science and human affairs,* ed. R. E. Farson. California: Science and behavior Books.
INHELDER, B., and PIAGET. J. 1958. *The growth of logical thinking from childhood to adolescence.* New York: Basic Books, Inc. Publishers.
———1947. Studies of phenylypyruvic oligophrenia. The position of the metabolic error. *Journal of Biological Chemistry* 169:651 - 56.
——— 1953. Phenylpyruvic oligophrenia: Deficiency of phenylalanine oxidizing system. *Proceedings of the Society for Experimental Biology* 82:514 - 15.
JENSEN, A. R. 1969. How much can we boost IQ and scholastic achievement? *Harvard Educational Review* 39 (No. 1).
JERVIS. G. A. 1937. Introductory study of fifty cases of mental deficiency associated with excretion of phenylpyruvic acid. *Archives of Neurology and Psychiatry* 38: 944 - 63.
JUNG, C. G. 1916. *Analytical psychology.* New York: Moffat, Yard.
——— 1933. *Psychological types.* New York: Harcourt, Brace and World. Inc.
——— 1953. Two essays on analytical psychology. In *Collected works,* vol. 7. New York: Pantheon Books, Inc.
KAHL, J. A. and DAVIS, J. A. 1955. A comparison of indexes of socio - economic status. *American Sociological Review* 20: 314 - 25.
KAHN, R. L., and CANNELL, C. F. 1957. *The dynamics of interviewing.* New York: John Wiley and Sons, Inc.
KALLMAN, F. J. 1953. *Heredity in health and mental disorder.* New York: W. W. Norton and Company, Inc.
KARDINER, A. 1939. *The individual and his society.* New York: Columbia University Press.
——— 1949. Psychodynamics and the social sciences. In *Culture and personality,* eds. S. S. Sargent and Marian W. Smith, New York: Basic Books, Inc. Publishers, pp. 59 - 74.
KELLY, E. L. and FISKE, D. W. 1951. *The prediction of performance in clinial psychology.* Ann Arbor: University of Michigan Press.
KELLY, E. L. and GOLDBERG, L. R. 1959. Correlates of later performance and specialization in psychology. *Psychological Monographs* 73: Whole No. 482.

KELLY, G. A. 1955. *The psychology of personal constructs,* vols. 1 and 2. New York: W. W. Norton and Company, Inc.
KELMAN, H. C. 1961. Processes of opinion change. *Public Opinion Quarterly* 25: 57-58.
KENNISTON, K. 1965. *The uncommitted: Alienated youth in American society.* New York: Delta, Dell Publishing Co., Inc.
——— 1968. *The young radicals: Notes on committed youth.* New York: Harcourt, Brace and World, Inc.
KEYS, A. B; BROZEK, J.; HEUSCHEL, A.; MICKELSON, O. and TAYLOR. H. L. 1950. *The biology of human starvation* Minneapolis: University of Minnesota Press.
KLINEBERG. O. 1935. *Negro intelligence and selective migration.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
KLOPFER, B., and KELLEY, D. M. 1942. *The Rorschach Technique.* New York: World Publishing Co.
KOHLBERG, L. 1963. The development of children's orientations toward a moral order: 1. Sequence in the development of moral thought. *Vita Humana* 6:11-33.
KRECH, D.; CRUTCHFIELD, R. S. and BALLACHEY, E. L. 1962, *Individual in society.* New York: McGraw-Hill Book Company.
KRETSCHMER, E. 1925. *Physique and character.* New York: Harcourt,.Brace and World, Inc.
LAMBERT, W. W. and LAMBERT, W. E. 1963. *Social psychology.* Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, Inc.
LANGER, J. 1969. *Theories of development.* New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
LAZARUS, R. S. 1969. *Patterns of adjustment and human effectiveness.* New York: McGraw-Hill Book Company.
———OPTON, E. M. JR.; NOMIKOS, M. S. and RANKIN, N. O. 1965. The principle of short-circuiting of threat. Further evidence. *Journal of Personality* 33:622-35.
LAZARUS, R. S. and OPTON. E. M., JR., eds. 1967. *Personality,* part. I. Middlesex, England: Penguin Books, Ltd.
LEAKEY, L. S. B. 1967. Development of aggression as a factor in early human and prehuman evolution. In *Aggression and defense,* ed. C. D. Clemente, and D. B. Lindsey. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
LEHRMAN, D. S. 1964. The reproductive behavior of ring doves. *Scientific American* 211: 48-54.
LERNER, I. M. 1968. *Heredity, evolution, and society.* San Francisco: W. H. Freeman and Co., Publishers.

LEVINE, S. 1966. Sex differences in the brain. *Scientific American* 214: 84 - 90.
——— and MULLINS. R. F. JR. 1966. Hormonal influences on brain organization in infant rats. *Science* 152: 1585 - 92.
LEVY. D. M. 1955. Oppositional syndromes and oppositional behavior. In *Psychopathology of childhood,* ed. P. H. Hoch and J. Zubin. New York: Grune and Stratton, Inc., pp. 204 - 26.
LEWIN, K. 1935. *A dynamic theory of personality,* trans. K. E. Zener and D. K. Adams. New York: McGraw - Hill Book Company.
LIPSITT, P. D., and STRODTBECK, F. L. 1967. Defensiveness in decision making as a function of sex-role identification. *Journal of Personality and Social Psychology* 6:10 - 15.
MACKINNON, D. W. 1966. Some reflections on the current status of personality assessment. Paper presented at faculty symposium, Department of Psychology, University of California, Berkeley, 15 Nov. 1966.
MADDI, S. R. 1968. *Personality theories: a comparative analysis*. Homewood, Ill.: Dorsey Press.
MASLOW, A. H. 1954. *Motivation and personality.* New York: Harper and Row, Publishers.
——— 1964. Synergy in the society and in the individual. *Journal of Individual Psychology* 20: 153 - 64.
MATTHEWS, L. H. 1964. Overt fighting in mammals. In *The natural history of aggression,* ed. J. D. Carthy and F. J. Ebling. New York: Academic Press, Inc., pp. 7 - 14.
MAY, R. 1967. *Psychology and the human dilemma.* Princeton, N. J.: D. Van Nostrand Co., Inc.
MCCLELLAND, D. C. 1951. *Personality.* New York: The Dryden Press.
——— ATKINSON, J. W., CLARK, R. A. and LOWELL, E. L. 1953. *The achievement motive*. New York: Appleton - Century - Crofts.
MCCORD, W., and MCCORD, JOAN. 1958. The effects of parental role model on criminality. *Journal of Social Issues*. 14: 66 - 75.
——— 1956. *Psychopathy and delinquency.* New York: Grune and Stratton, Inc.
MCGAUGH, J. L., WEINBERGER, N. M. and WHALEN, R. E. eds. 1967. *Psychobiology.* San Francisco: W. H. Freeman and Co., Publishers.
MEAD, G. H. 1934. *Mind, self, and society,* ed. C. W. Morris Chicago: University of Chicago Press.
MECHANIC, D. 1968. Medical sociology. New York: Free Press of Glencoe, Inc.
——— 1963. Religion, religiosity, and illness behavior. The special case of the Jews. *Human Organization* 22: 202 - 8.

MILLER, N. E. and DOLLARD, J. 1941. *Social learning and imitation*. New Haven: Yale University Press.
MISCHEL, W. 1968. *Personality and assessment*. New York: John Wiley and Sons, Inc.
Moyer, K. E. 1967. *Kinds of aggression and their physiological basis*. Carnegie-Mellon University Report No. 67 - 12.
MURPHY, G. 1947. *Personality*. New York: Harper and Row, Publishers-
.MURRAY, E. J. 1964. *Motivation and emotion*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice - Hall, Inc.
MURRAY, H. A. 1938. *Explorations in personality*. New York: Oxford University Press, Inc.
——— 1943. *Manual for the Thematic Apperception Test*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
OPLER, M. K. ed. 1959. *Culture and mental health*. New York: The Macmillan Company.
OSS ASSESSMENT STAFF. 1948. *Assessment of men*. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
PETERSEN, W. and MATZA, D. 1963. *Social controversy*. Belmont, Calif.: Wadsworth.
PIAGET, J. 1948. *The moral judgment of the child*. New York: Free Press of Glencoe, Inc. (1st ed., 1932).
——— 1952. *The origins of intelligence in children*. New York: International University Press.
PRINCE, M. 1920. Miss Beauchamp - The theory of the psychogenesis of multiple personality. *Journal of Abnormal and Social Psychology* 15: 82 - 85, 87-91, 96 - 98, 102 - 4, 135.
RANK, O. 1952. *The trauma of birth*. New York: Robert Brunner, Publishers.
RAPAPORT, D. 1967. *Collected papers,* ed. M. M. Gill. New York: Basic Books, Inc., Publishers.
REED, C. F., and CUADRA, C. A. 1957. The role - taking hypothesis in delinquency. *Journal of Consulting Psychology* 21: 386 - 90.
RICHARDSON, S. A. DOHRENWEND, BARBARA S., and KLEIN, D. 1965. *Interviewing: Its forms and functions*. New York: Basic Books, Inc., Publishers.
ROGERS, C. R. 1942. *Counseling and psychotherapy*. Boston: Houghton Mifflin Company.
——— 1947. Some observations on the organization of personality. *American Psychologist* 2: 358 - 68.
——— 1951. *Client - centered therapy*. Boston: Houghton Mifflin Company.
——— and ROETHLISBERGER, F. J. 1952. Barriers and gateways to communication. *Harvard Business Review* 30 (July - August:) 46 - 52.

RORSCHACH, H. 1942. *Psychodiagnostics,* trans. P. Lemkau and B. Kronenberg. New York: Grune and Stratton, Inc. (First German edition 1932).

ROSENFELD, H. M. 1966. Instrumental affiliation funcions of facial and gestural expressions. *Journal of Personality and Social Psychology* 4: 65 - 72.

ROTHBALLER, A. G. 1967. Aggression, defense, and neurohumors. In *Aggression and defense: Neural mechanisms and social patterns*, ed. C. D. lemente, and D. B. Lindsley, Los Angeles: University of California Press, pp. 135 - 70.

SAHAKIAN, W. S., ed. 1965. *Psychology of personality: Readings in theory.* Chicago: Rand McNally and Co.

SARBIN, T. R. 1954. Role theory. In *Handbook of social psychology,* ed. G. Lindzey. Reading, Mass.: Addison - Wesley, p. 223 - 58.

SCHACHTER, S. 1951. Deviation, rejection, and communication. *Journal of Abnormal and Social Psychology* 46: 190 - 207.

SEARS, R. R., MACCOBY, ELEANOR E. and LEVIN, H. 1957. *Patterns of child rearing.* New York: Harper and Row, Publishers.

SELYÉ H. 1956. *The stress of life*. New York: McGraw - Hill Book Company.

SHELDON, W. H. (with S. S. Stevens and W. B. Tucker). 1940. *The varities of human physique: An introduction to constitutional psychology.* New York: Harper and Row, Publishers.

SHELDON, W. H. (with S. S. Stevens). 1942. *The varieties of temperament: A psychology of constitutional differences.* New York: Harper and Row, Publishers.

SHERIFF, M. 1935. A study of some social factors in perception. *Archives of Psychology,* no. 187.

——— and CANTRIL, H. 1947. *The psychology of ego - involvements.* New York: John Wiley and Sons, Inc.

SINGER, J. L. and OPLER, M. K. 1956. Contrasting patterns of fantasy and motility in Irish and Italian schizophrenics. *Journal of Abnormal and Social Psychology* 53: 42 - 47.

SINGER, M. 1961. A survey of culture and personality theory and research. In *Studying personality cross - culturally,* ed. B. Kaplan. New York: Harper and Row, Publishers, pp. 9 - 90.

SKEELS, H. M. 1940. Some lowa studies of the mental growth of children in relation to differentials in the environment: A summary. In *Intelligence: Its nature and nurture.* Thirty - ninth Yearbook, Part II. National Society for the Study of Education, pp. 281 - 308.

——— 1942. A study of the effects of differential stimulation on mentally retarded children: A follow up report. *American Journal of Mental Deficiency* 46: 340 - 50.

1966. Adult status of children with contrasting early life experiences. *Monographs of the Society for Research in Child Development* 31 (Serial No. 105).
SMELSER, N. J. and SMELSER, W. T. 1963. Introduction: Analyzing personality and social systems. In *Personality and social systems,* ed. N. J. and W. T. Smelser. New York: John Wiley and Sons, Inc. pp. 1 - 18.
SPOCK, B. 1957. *Baby and child care.* New York: Pocket Books.
STONE, A. A. and STONE, SUE SMART. 1966. *The abnormal personality through literature,* Englewood Cliffs, N. J.: Prentice - Hall, Inc.
TEITELBAUM, P. 1967. *Psychological psychology.* Englewood Cliffs, N. J. Prentice - Hall, Inc.
TERMAN, L. M. 1916. *The measurement of intelligence.* Boston: Houghton Mifflin Company.
THIGPEN, C. H., and KLECKLEY, H. M. 1957. *The three faces of Eve.* New York: McGraw - Hill Book Company.
THOMPSON, W. R. 1965. Behavior genetics. In *McGraw - Hill Yearbook of Science and Technology.* New York: McGraw - Hill Book Company, pp. 27 - 35.
TIMMONS, E. O. and NOBLIN. C. D. 1963. The differential performance of orals and anals in a verbal conditioning paradigm. *Journal of Consulting Psychology* 27: 383 - 86.
TINBERGEN, N. 1951. *The study of instincts.* London: Oxford University Press.
TRYON, R. C. 1940. Genetic differences in maze-learning ability in rats. *Yearbook of the National Society for the Study of Education* 39 (Part 1): 111 - 19.
——— 1955. Identification of social areas by cluster analysis: A general method with an application to the San Francisco Bay Area. *Univ. of California Publications in Psychology* 8: (No. 1).
——— 1955. Biosocial constancy of urban social areas. Paper read before American Psychological Association.
——— 1959. The social dimensions of metropolitan man (revised title). Paper read before American Psychological Association.
TURNER, C. B. and FISKE. D. W. 1968. Item quality and appropriateness of response processes. *Educational and Psychological Measurement* 28: 297 - 315.
TYLER, LEONA E. 1963. *Tests and measurements.* Englewood Cliffs, N. J.: Prentice - Hall, Inc.
ULLMANN, L. P., and KRASNER, L. 1969. *A psychological approach to abnormal behavior.* Englewood Cliffs, N. J.: Prentice - Hall, Inc.
VERNON, P. E. 1964. *Personality assessment: A critical survey.* London: Methuen and Co. Ltd.
WALLACH, M. A. GREEN, L. R.: LIPSETT, L. and MINEHART, JEAN B. 1962. Contradiction between overt and projective personality indicators as a

function of defensiveness. *Psychological Monographs* 67: 23.
WARNER, W. L. and LUNT, P. S. 1941. *The social life of a modern community*. New Haven, Conn.: Yale University Press.
WEINSTEIN, J., AVERILL, J. R., OPTON, E. M. Jr. and LAZARUS, R. S. 1968. Defensive style and discrepancy between self-report and physiological indexes of stress. *Journal of Personality and Social Psychology* 10: 406-13.
WERNER, H. 1954. Developmental approaches to general and clinical psychology. Paper read as part of a symposium, "Development Approach to Problems of General and Clinical Psychology", at a meeting of the Massachusetts Psychological Association, March 1954.
WESSMAN, A. E., and RICKS, D. F. 1966. *Mood and personality*. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.
WHALEN, R. E. 1967. *Hormones and behavior*. Princeton, N. J.: D. Van Nostrand Co., Inc.
WHITE, R. W. 1956. *The abnormal personality*. 2d. ed. New York: The Ronald's Press Company.
——— 1960. Competence and the psychosexual stages of development. In *Nebraska Symposium on Motivation*, ed. M. R. Jones. Lincoln-University of Nebraska Press, pp. 97-141.
WISSLER, C. 1901. The correlation of mental and physical tests. *Psychological Review* 3 (No. 6). Monograph Supplement.
WITKIN, H. A., DYK, R. B., FATERSON, H. F., GOODENOUGH, D. R. and KARP, S. A. 1962. *Psychological differentiation*. New York: John Wiley and Sons, Inc.
WOLFENSTEIN, MARTHA, 1953. Trends in infant care. *American Journal of Orthopsychiatry* 23: 120-30.
WOLFF, H., ed 1950. Life stress and bodily disease. *Proceedings of the Association for Research in Nervous and Mental Diseases*. Baltimore: The Williams and Wilkins Co.
WOLFF, P. H. 1960. The developmental psychologies of Jean Piaget and psychoanalysis. *Psychological Issues* 2 (1): No. 5.
WOODWORTH, R. S. 1918. *Personal Data Sheet*. Chicago: Stoelting.
ZBOROWSKY, M. 1958. Cultural components in response to pain. In *Patients, physicians, and illness*, ed. E. G. Jaco. New York: Free Press of Glencoe, Inc., pp. 256-68.
ZIGLER, E. 1967. Familial mental retardation: A continuing dilemma. *Science* 155: 292-98.
ZOLA, I. K. 1966. Culture and symptoms - An analysis of patients' presenting complaints. *American Sociological Review* 31: 615-30.

مكتبة أصول علم النفس الحديث

يشرف على ترجمتها

الدكتور محمد عثمان نجاتي

صدر منها:

علم النفس الاكلينيكي: تأليف جوليان ب. روتر
ترجمة الدكتور عطية محمود هنا،
استاذ علم النفس بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت
دار القلم بالكويت، ١٩٧٧.

علم نفس الشواذ: تأليف شيلدون كاشدان
ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة، أستاذ
علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الرياض.
دار القلم بالكويت، ١٩٧٧.

الشخصية: تأليف ريتشارد س. لازاروس
ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم
استاذ علم النفس بجامعة عين شمس
وجامعة الامارات العربية.
دار الشروق بيروت، ١٩٨١

التعلم: تأليف سارنوف د. ميرنيك، وهوارد د.
پوليو، واليزابت ف. لوفتاس
ترجمة الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل،
استاذ علم النفس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت.
دار الشروق بيروت، ١٩٨١.

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

